

محمد الراوي

مكتبة العبيكان

٢٢٩ الراوي، محمد بن عبد الرحمن.
٨١٤ ر

حديث القرآن عن القرآن/ محمد بن عبد الرحمن الراوي. ـ ط١.
الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ/ ١٤٩٤م.

... ؛ ٢٤ سم.

ردمك ٥ ـ ٠٦٥ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١. القرآن ـ مباحث عامة.

أ ـ العنوان

ردمك ٥ ـ ٠٦٥ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

رقم الإيداع ١٧٠٨ / ١٤

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م

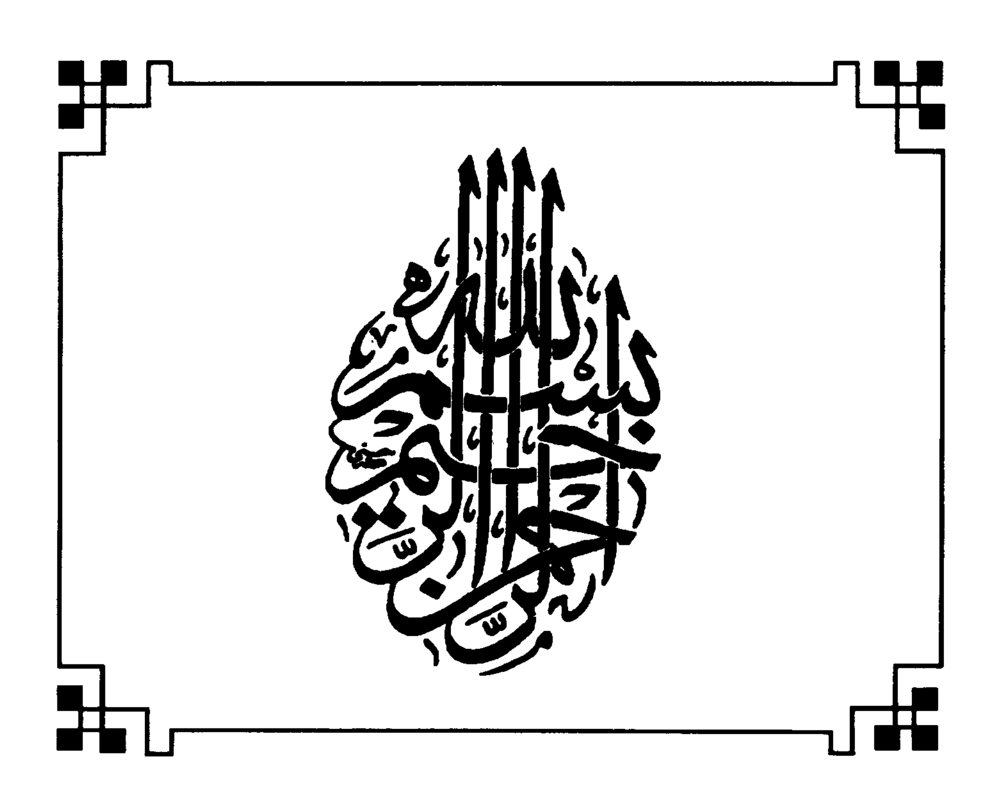
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩





المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

وبعـد

لقد أُنزل القرآنُ وحُفِظ بحفظ الله ليُتَدَبَّر وليُعمل به .

وحديث القرآن عن القـرآن فيه بيان لهدايته ومقاصده، ودعـوة إلى حسن تدبره والعمل به، فهـو حق يهـدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ولم يكن حـديث القرآن عن القـرآن وقفاً على سورة بعينها . وإن سُمِّيت سورةٌ منه بـاسم من أسمائه، هي سورة «الفرقان» التي بُدئت بقوله سبحانه ﴿تبارك الذي نزل الفـرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ لقد جاء الحديث عن القرآن متضمَّنًا في كثيرٍ من آياته .

وبدئت سُوَرٌ كثيرةٌ بالحديث عنه تنويهًا به وتعظيمًا لشأنه . من ذلك :

- الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ . . (البقرة : ١ ، ٢)
- الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (آل عمران : ١ ـ ٣)
- ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ . . . .(الأعراف : ١ ، ٢)
- ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ . . . .(يونس : ١)
- ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ . . . . . .(هود : ١)
- ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ . . . .(يوسف : ١ ، ٢)
- ﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ . . . .(الرعد : ١)

● ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ .... (إبراهيم: ١)

● ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ .... (الحجر: ١)

● ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ ..... (الكهف: ١)

● ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.. (طه: ١، ٢)

● ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ..... (النور: ١)

● ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ...... (الفرقان: ١)

● ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾............. (الشعراء: ١، ٢)

● ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾. (النمل: ١، ٢)

● ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .... (القصص: ١، ٢)

● ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾. (لقمان: ١–٣)

● ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .... (السجدة: ١، ٢)

● ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ .... (يس: ١ ـ ٥)

● ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ .... (ص: ١)

● ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ .... (الزمر: ١، ٢)

● ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ .... (غافر: ١، ٢)

● ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾
(فصلت: ١ ـ ٣)

● ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾
(الشـورى: ١ ـ ٣)

● ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ .... (الزخرف: ١ ـ ٤)

● ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان: ١ ـ ٣)

● ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ .... (الجاثية: ١، ٢)

● ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ .... (الأحقاف: ١، ٢)

● ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ .... (ق: ١)

● ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ .... (الرحمن: ١، ٢)

● ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ .... (الجن: ١، ٢)

● ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ .... (العلق: ١ ـ ٥)

● ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ .... (سورة القدر: ١)

● ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾ .... (البينة: ١ ـ ٣)

●●●●●●

وقد يأتي الحديث عن القرآن في أواخر السور كما جاء في أولها. من ذلك:

● ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ ﴾ ... (الأعراف: ٢٠٤)

● ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩ ﴾ .. (يونس: ١٠٩)

● ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١ ﴾ ... (يوسف: ١١١)

● ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢ ﴾
.... (إبراهيم: ٥٢)

● ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠ ﴾ .... (الكهف: ١١٠)

● ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ . . . . (النمل : ٩١ ـ ٩٣)

● ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ . . . . (الروم : ٥٨ ـ ٦٠)

● ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾
. . . . (ص : ٨٦ ـ ٨٨)

● ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾
. . . . (فصلت : ٥٢ ـ ٥٤)

● ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ (الشورى : ٥٢ ، ٥٣)

● ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾. (الدخان : ٥٨ ، ٥٩)

● ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾
. . . . (ق : ٤٥)

● ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢) ﴾
. . . . (النجم : ٥٩ ـ ٦٢)

● ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ . . . . . (الواقعة : ٩٥ ، ٩٦)

● ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾
. . . . (القلم : ٥١ ، ٥٢)

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ .... (الحاقة: ٤٨ ـ ٥٢)

● ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ .... (المدثر: ٥٤ ـ ٥٦)

● ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .... (الإنسان: ٢٩ ـ ٣١)

● ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .... (المرسلات: ٥٠)

● ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .... (التكوير: ٢٧ ـ ٢٩)

● ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ .... (البروج: ٢١، ٢٢)

● ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ .... (الأعلى: ١٨، ١٩)

● ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ .... (البلد: ١٩، ٢٠)

●●●●●●

وقد يأتي الحديث عن القرآن مُقْسَمًا به أو مقسمًا عليه:

● جاء مقسمًا به في قوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ .... (يس: ١، ٢)

● وقوله: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ .... (ص: ١)

● وقوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ .... (ق: ١)

● وجاء مقسما عليه في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ .... (الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠)

● وفي قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ .... (التكوير: ١٥ ـ ١٩)

● وفي قولـه : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝﴾ .... (الطـارق : ١١ ـ ١٤)

●●●●●●

وقد يأتي الحديث عنه مُقْسَمًا به ومُقْسَمًا عليه .

كما جاء في سورتي الزخرف والدخان :

﴿حمٓ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف : ١ ـ ٣)

﴿حمٓ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان : ١ ـ ٣)

ففي سـورة الزخرف أقسـم بالقرآن المـوضِّح لما اشتمـل عليه من العقـائد والأحكام؛ إعلامـا برفعة قـدره وعلو شأنه أنـه سبحانه أنزل الكتـاب قرآنا عـربيا لكي يستطيعوا تـدبر معانيـه والعمل بما جـاء فيه . وفي سورة الـدخان أقسم كـذلك بالكتـاب المبين على أنه سبحانه أنـزل القرآن في ليلة وفيرة الخير كثيـرة البركة لأن من شأنه سبحانـه أن ينذر الناس قبل أن يأتيهم العذاب .

●●●●●●

هذا التنـوع وهذا التفصيل في حديث القـرآن عن القرآن لـه دلالته في تدبـر كل آية من آياته .

فإن الصفات التى وُصف بها القرآن ـ وإن بـدا أنها تكررت ـ لا يمكن النظر في دلالتها بعيدًا عن مـوضعها في الآيـات التى وردت فيها . فإن لكل صفة معـانيها في ذاتهـا ، ولها نُورها عندما تأتي في آية من آيات القرآن .

فإنها تريك ما لم تكن تراه . وتعلم بها ما لم تكن تعلم .

فمثلا كلمة «مبارك» جاءت صفة لهذا الكتاب في أربع آيات من القرآن الكريم :

في آيتين في سورة الأنعام .

وآية في سورة الأنبياء .

وآية في سورة ص .

ففي سورة الأنعام جـاء قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾

(الأنعام: ٩٢). وقوله ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥﴾ (الأنعام: ١٥٥).

وفي سورة الأنبياء جاء قوله تعالى ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ (الأنبياء: ٥٠).

وفي سورة ص: جاء قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ (ص: ٢٩).

الكتاب مبارك بجميع معاني البركة، مباركٌ في ذاته ومباركٌ على غيره. مبارك في حكمه وأحكامه وفي جميع مقاصده وأهدافه.

ولكن.. ما موقف الناس من بركة القرآن؟ وما الذي يترتب على إخبار الناس بذلك؟ وما النتائج التى تترتب على العمل به أو الإعراض عنه؟

وما الذي يفيده إسناد إنزاله إلى نون العظمة في الآيات كلِّها ﴿أنزلناه﴾ سواء في عزته أو في مؤاخذة من ينكره أو يعرض عنه؟

ولِمَ جاء بقوله ﴿ذكر مبارك﴾ في سورة الأنبياء؟ وجاء في سورة الأنعام وص بقوله ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾؟ ولم أشار إليه في آيتي الأنعام بقوله ﴿وهذا كتاب﴾ ولم يُشِرْ إليه في آية ص: وقال ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾.

وماذا يعني مجيء كلمة ﴿مبارك﴾ مرفوعةً في الآيات كلِّها؟

وما السبيل إلى تراحم الناس فيما بينهم ورجاء الرحمة من خالقهم؟

وما صفات الذين يؤمنون به وسمات الذين ينكرونه ويعرضون عنه؟

ولِمَ خَصَّ أولي الألباب بالتذكر دون غيرهم؟ وماذا يعني تخصيصهم بهذا الوصف ﴿أولي الألباب﴾ في هذا المقام بالنسبة لغيرهم؟

وما الذي يستفاد من قوله ﴿مصدق لما بين يديه﴾ في دعوة أهل الكتاب؟

وما دلالة قوله ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ في عموم الرسالة وعالميتها؟

البركة: زيادة ونماء وسعادة: فلِمَ يَنْعَمُ ببركة هذا الكتاب ناسٌ ويخسر آخرون؟

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢﴾ (الإسراء: ٨٢).

هذه التساؤلات لا تجيب عنها كلمة ﴿مبارك﴾ بعيدة عن وصف القرآن بها، وإنما تجيب عنها الآيات التى تضمنتها، وتستبين بها مجالات البركة وآثارها ونتائجها.

إن وصف القرآن بالمبارك ليس كوصف غيره بهذه الصفة.

فإن وصف القرآن بالمبارك قد أعطى البركة دوامها وثباتها وشمولها.

وقد وُصِفَ الماءُ بأنه مبارك ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾.

والماء مرتبط بحياة الإنسان في دنياه وقد يأتيه غدقا أو غرقا. فإذا بارح الإنسان دنياه لم تكن له حاجة إلى بركة الماء وهو في قبره.

بينما حاجة الإنسان إلى بركة القرآن لا تنقطع بموته أو بعثه أو حسابه وجزائه.

في حديث القرآن عن القرآن يُستفاد من دلالة صفاته عند الوقوف عليها منزَّلةً في آياته. وتدَبُّرُ الآيات في مَوْرِدِها غيرُ تدبر الصفات التى ترد فيها بمفردها. والقرآن الكريم لا يمكن تجريد صفاته عن آياته.

فكلمة ﴿هدى﴾ ــ وهي من صفات القرآن ــ من أكثر الكلمات ورودًا في القرآن. ومعناها في اللغة: البيان.

والحديث عن كلمة ﴿الهدى﴾ بعيدًا عن موقعها في الآيات لا يُحقق الإفادة بها كما تتحقق في صلتها بالآيات، فالآيات هي التي تُبَيِّن من يكون القرآن لهم هدًى ومن يكون عليهم عمًى، وهي التي تجعلنا نقف على هداية القرآن في وقائع وأحداث، وعقائد وفرائض ومعاملات، وحدود وحقوق وواجبات.

لا بد من معرفة هداية القرآن في كل شأن وهو يهدي للتي هي أقوم. والقرآن في آياته لا تنقضي عجائبه، ولا يتوقف مدُّه، ولا يطفأ نوره، ولا ينفد عطاؤه.

لذا قد رأيتني وأنا أتابع حديث القرآن عن القرآن ـ ألتمس ذلك من القرآن كله، أقتبس منه، واستشهد به، وأسترشد بهدايته، وأستبصر بنوره. فما من شأن إلا وللقرآن فيه كلمة، ولا عملٍ إلا وللقرآن فيه تبصرة وموعظة. تراه في كل شيء روحا ونورًا وحياة.

لا تفتقده في عسر أو يسر أو شدة أو رخاء.

بل تراه ـ وأنت تؤمن به ـ مؤنسًا لـك مُسَرِّيًا عنك. يمدك بطاقة لا تنفد من الثقة في الله وحسن التوكل عليه.

وترى نفسك ـ في طوفان الحياة الغامر ـ في حاجة إلى الاستمساك به طلبًا للنجاة. في حاجة إلى نوره لتدفع عن نفسك ظلمات الشبهات والشهوات والأهواء.

وتراه في جميع الأحوال عزيزًا لا يقترب من ساحتـه باطل. ولا يميل بهدايته عن الرشد مستبد ظالم.

ترى عزَّته في سلطان كلمته وبالغ حكمته، ونفاذ وعده ووعيده.

ترى ذلك في أحداث واقعة وأمم ماضية وسنن نافذة باقية.

وعندما تقرأ من إخبـار الله عنه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ تعلم ـ وهو يتلى عليك ـ أنـه ليس أعزل من قـوة تحقق وعده ووعيده فإن لـه نورًا ونـارًا فمن أبى النور فالنار موعده.

إن حديث القـرآن ـ وأنت في صحبته ـ يجعلك تـراه أمامك نورا تبصر بـه الأشياء على حقيقتها. يُحدِّد لك المعالم ويبصرك بما يجب أن تكون عليه ويهديك صراطًا مستقيمًا.

ولا يَدَعُك في أيِّ موطن كنت دون هداية وتبصرة.

ويا لـه من تقديـر لشأنه، وتعظيم لقـدره ومكانته أن تـراه يأتي أو يُؤتى بـه يوم القيـامة ليشفع فيمن صاحبه في دنياه وعمل به.

فقد روى مسلمٌ في صحيحـه عن أبي أمامـة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: اقـرءوا القـرآن، فإنـه يأتي يـوم القيـامـة شفيعًـا لأصحـابـه اقـرءوا الزَّهـراويْن: البقرة، وسـورة آل عمران، فإنهمـا يأتيان يـوم القيامـة كأنهما غمـامتان، أو غيايَتَانِ. أو كأنَّهما فِـرقانِ طيرٍ صَوَافَّ تحاجَّان عن أصحابهمـا. اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركـة وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلةُ. قال معـاوية بن سلام: بَلَغنى أن البطلة السَّحَرةُ. رواه مسلم.

وعن النواس بن سمعـان ـ رضي الله عنه قـال ـ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقـول: «يُؤتى بالقرآن وأهله الذين كـانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سـورة البقرة وآل عمران تحاجَّان عن صاحبهما» رواه مسلم.

ذاك ما يجده مَنْ صاحَب القرآن وعمل به.

وأما من كرهه وأعرض عنه فذاك مصيره.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨).

والقرآن الكريم يُتلى على الناس في دنياهم قبل أن يصلوا إلى أخراهم لكي يُسارعوا إلى اتّباعه والعمل به. ولا يكونوا من أولئك الذين يُقال لهم وهم في عذاب جهنم خالدون ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأعراف: ٥٢، ٥٣).

إعذار و إنذار يقدمه للنَّاس حديث القرآن عن القرآن.

فطوبى لمن استبصر به واهتدى بهداه وويلٌ لمن أعرض عند ذكره واتبع هواه.



ولقد تابعت حديث القرآن عن القرآن في كتاب الله عز وجل وأفدت منه.

ودعوت الله أن يعينني على أن أقدمه للناس.

رجاء أن نعتصم جميعا بحبله ولا نتفرق وأن نهتدي في جميع شئوننا بهداه.

وقد أذيع في حلقات من إذاعة القرآن الكريم بالرياض.

وقد وجد من المسئولين عن هذه الإذاعة والعاملين فيها عناية طيبة، سواء في تسجيله أو في اختيار الوقت الملائم لإذاعته و إفادة الناس به، والمعاونة الصادقة على طبعه ونشره. وهذه الإذاعة قد حقق الله بها نفعا وخيرا كثيرا.

جزى الله القائمين عليها والعاملين بها والسامعين لها خيرًا، وجعلنا جميعا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هذا وقد رغب كثيرٌ من الإخوة الفضلاء الذين استمعوا إلى حلقات حديث القرآن من إذاعة القرآن بالرياض أن تجمع هذه الحلقات وأن تطبع في كتاب.

فجمعتها بعون الله وتوفيقه.

وجعلت مضمون ما أذيع مسطرا في هذا الكتاب بالعنوان نفسه (حديث القرآن عن القرآن).

وأحببت أن تقوم مكتبة العبيكان بطبعه ونشره لما عرف عنها من عناية وتوفيق.

فاستجاب الإخوة الكرام القائمون عليها ـ وفقهم الله ورعاهم وسدد خطاهم وبارك فيهم ـ وعملوا على طبعه دون إبطاء أو تأخير.

وها هو ذا بين يديك أخي القارئ.

آمل أن يكون مدعاة لك لصحبة القرآن وتدبره والعمل به.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

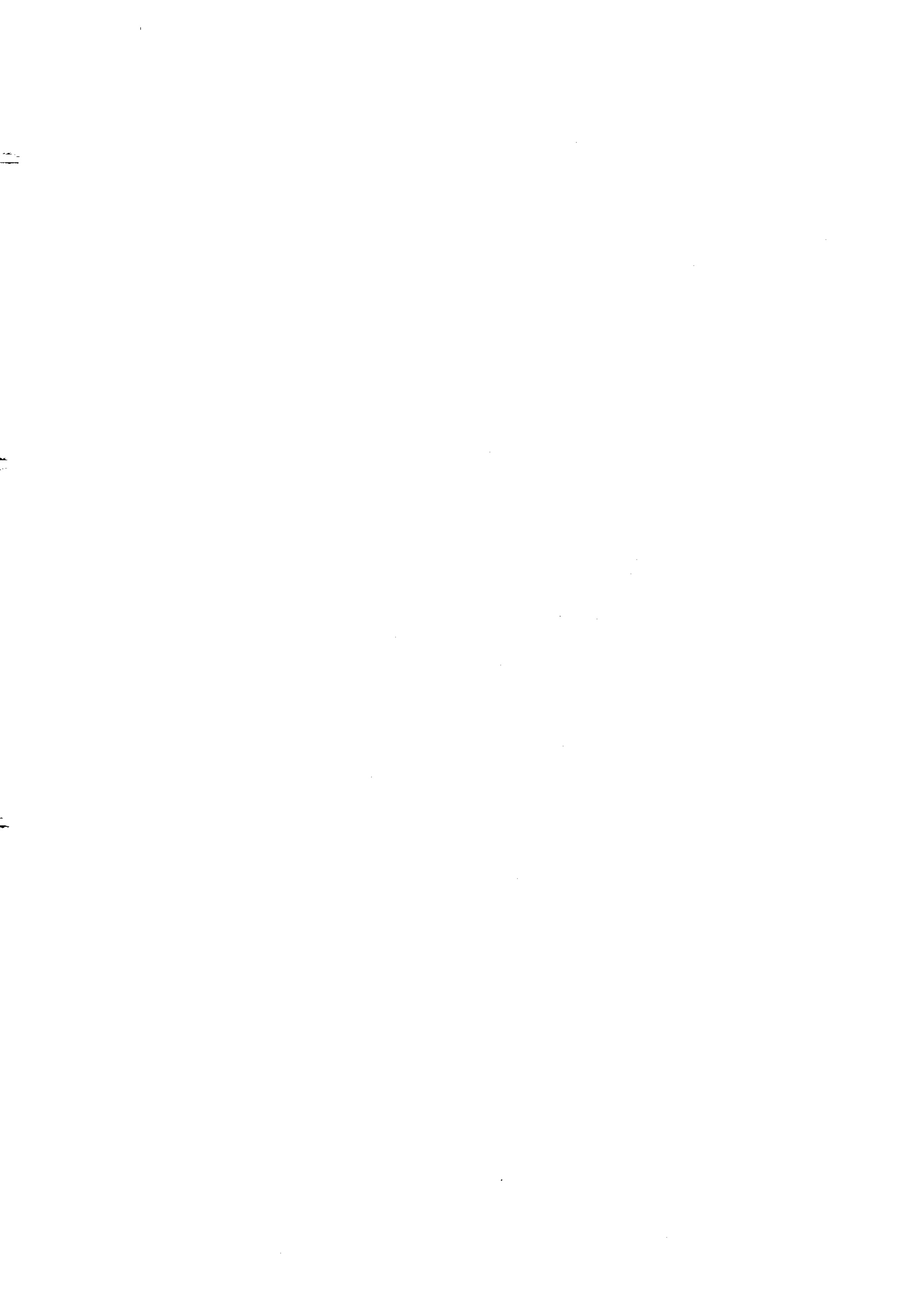
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الرياض

الإثنين ٦ من شهر شعبان ١٤١٤هـ

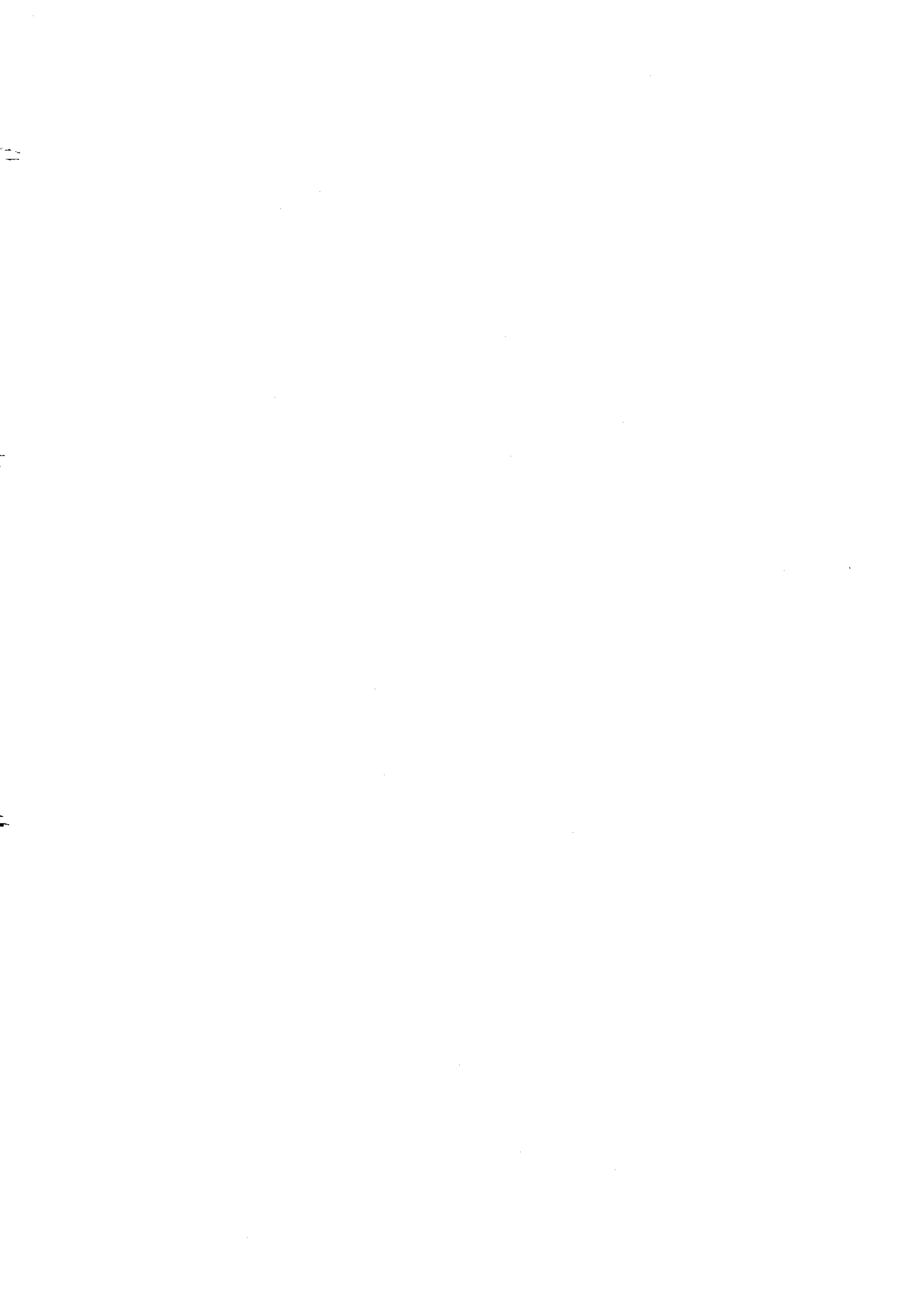
١٧ من يناير ١٩٩٤م

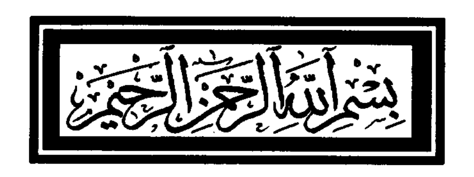
محمد الراوي



حـديث القـرآن عن القـرآن
في آيـات من:

١ ـ سورة البقرة
٢ ـ سورة آل عمران
٣ ـ سورة النساء
٤ ـ سورة المائدة
٥ ـ سورة الأنعام





إن حديث القـرآن عن القرآن فيـه بيان لهدايتـه ومقاصـده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به، وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1].

وفي البـدء بهذه الأحـرف «الٓمٓ» إعلامٌ للمخـاطبين بأن هـذا القرآن الكـريم منتظم من جنس ما تنظمون منه كلامكـم من الحروف المعهودة للناطقين بهذه اللغة لم يخـرج عنها أو يزد عليهـا. ومن غير المستطـاع لإنسٍ أو جنٍّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وفي ذلك مـا فيه من توجيـه القلوب إليـه وهي ترى تَفَـرُّدَهُ، مع أن الحروف التي انتظم منها هي الأحرف التي يعرفها الناس وينطقون بها.

ولكن رفعة شأنـه وبعد مكانته لا تجعل للخلق مطمعـا في الإتيان بمثله أو بسورة من مثلـه. ولذا جاءت الإشارة إليـه بقوله ﴿**ذلك الكتاب**﴾ للدلالة على بعد المشـار إليه. فإن مـا في الإشارة من معنى البعد مع قـرب العهد بـالمشار إليـه للإيـذان بعلو مكـانتـه وكونـه في الغايـة القـاصية من الفضل والشـرف. وكـذلـك القـرآن المجيـد بعيــد في شـرفــه ومكـانتـــه قـريب في تبصـــرتـه وهدايته. ﴿**ذلك الكتاب**﴾ إشارة دالة على التعظيم.

والكتاب في الأصل مصدر. وقد يُراد به المكتوب.

وأصل هذه المـادة الدلالة على الجمع ومنـه كتيبة الجيش. والكتاب عُـرْفا ضم بعض حروف الهجاء إلى بعض.

---

(١) سورة البقرة: ١، ٢

وتسمية القرآن بالكتاب هكذا بالتعريف فيه أيضا تنويه بمكانته وأنه الجدير بأن يُخَصَّ بإطلاق هذا الاسم عليه من بين الكتب المنزّلة ؛ لأنه المهيمن الحافظ لمقاصدها وهدايتها الشاهدُ المؤتمن على ما جاء فيها ، وبه ينقطع كلّ ادّعاءٍ على الكتب المنزلة قبله ويبطل كل باطل ينسب زورًا إليها ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٢) .

فلا سبيل مع هذا الكتاب لِتَقَوُّلٍ على الله أو ادعاء على رسله . ونور الحق الذي جاء به ساطعٌ يبطل كل باطل ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(٣) وقد حفظه الله وأبقاه .

وفي حفظ الله له مخاطبة للخلق بكلمة الحق التي بعث بها الأنبياء جميعا وجاء خاتَمُهم ﷺ ليبلغها للناس أجمعين ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(٤) .

فقد نُزّل الكتاب المحفوظ بحفظ الله على النبي الأمي خاتم النبيين بلاغا للعالمين فليس بعد هذا الكتاب كتاب ولا بعد الرسول المنزّل عليه رسول . ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا﴾(٥) .

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ .

---

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .
(٣) سورة فصّلت : ٤١ ، ٤٢ .
(٤) سورة الأعراف : ١٥٨ .
(٥) سورة الفرقان : ١ .

فإن قيل قد وجد الريب من كثير من الناس في القرآن، وقوله ﴿لا ريب فيه﴾ ينفي ذلك.

فالجواب أن المنفي كونه متعلّقا للريب ومَحلاًّ له. بمعنى أن معه من الأدلة ما لو تأمّله المنصف المحق لم يَرْتَب فيه، ولا اعتبار بريب يكون من مرتاب لم ينظر حق النظر ومعرض لم يرد أن يتدبر.

﴿هدى للمتقين﴾ أي رشاد وبيان. وتخصيص الهدى بالمتقين يدعونا إلى وقفة متأنية نرى فيها لماذا خصهم مع أن هداية القرآن عامة شاملة وقد جاءت الهداية مطلقة في قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ فلماذا خَصَّ وعَمَّ وأطلق وقيد؟ لماذا خَصَّ في موضع وعَمَّ في آخر؟

إن القرآن من حيث هو نور وهدى للناس أجمعين. ومن حيث الانتفاع به والفوز بهدايته لا يكون إلا لمن اتبعه وأخضع هواه لما جاء به ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾(٦).

فتخصيص الهدى بالمتقين لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بهدايته، وإن كانت هدايتُه شاملةً لكل ناظر من مؤمن أو كافر ولكن لا يظفر بنتائجه إلا من اتبعه واهتدى بهداه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

والآثار التي تترتب على التقوى في حياة الناس لا تخفى.

فإن من اتقى كف شرّه عن غيره وقدّم خيره. وردّته تقواه عن ظلمه لنفسه في الإعراض عن الذكر أو الإساءة لغيره.

---

(٦) سورة طه. ١٢٣ ـ ١٢٧.

وأما في الآخرة فالدار دارهم ونعم دار المتقين ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾(٧).

ومن رحمة الله بالخلق أن جعل للتقوى شرعةً ومنهاجا.

ومنهاج المتقين قرآن وسنة. وأهل التقوى في جميع أحوالهم متبعون لا مبتدعون، يخضعون أنفسهم للحق ولا يتبعون الأهواء. فإن اتباع الهوى جهل وضلال واتباع الهدى هدى ونور ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٨).

إن موقف الناس من الحق الذي أنزل هو الذي يحدد مصائرهم.

والقرآن الكريم يبين الجزاء ويذكر النتائج ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ فلا يدع الناس يتيهون دون تحديد للمعالم والصفات، بل يبيّن صفات الناجين المفلحين ليتبع الناس سبيلهم ويذكر صفات الهالكين الخاسرين ليجتنب الناس سُبُلَهم، ويفيض في ذلك إفاضة بالغة حتى لا تبقى لأحدٍ من الناس حجة أو معذرة.

القرآن هدى للمتقين لأنهم المنتفعون بنوره. فمن هم المتقون الذين خصهم القرآن بهدايته وشملهم الرحمن برحمته؟

نقرأ في القرآن المجيد تحديدًا لصفاتهم وبيانا لأعمالهم.

---

(٧) النحل: ٣٠ ـ ٣١.
(٨) الجاثية: ١٨ ـ ٢٠.

وإذا تدبرنا آثار هذه الأعمال وتلك الصفات رأيناها أمنا لدنيا الناس وسلاما لحياتهم وتراحما فيما بينهم والراحمون يرحمهم الرحمن، ومن لا يرحم لا يرحم.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾(9).

هؤلاء هم الذين انتفعوا بهداية القران فعَلموا وعمِلوا وبرّوا وصدقوا وآمنوا برسل الله جميعا ولم يفرقوا وأيقنوا بلقاء الله فسارعوا إلى الخيرات وكفوا عن السيئات. أرأيت أخي المسلم أن هداية القرآن رحمةٌ للناس في دنياهم وأخراهم.

فمن اهتدى بالقرآن استقام وأصلح وأفلح. ومن أعرض عنه ضل وشقي وأفسد وندم على التفريط فيه يوم لا ينفع الندم. وفي القرآن إنذار لهؤلاء وبشرى لأولئك ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾(10).

٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(11).

ولعلنا نستحضر ما ذكرناه من قبل من حديث القرآن عن القرآن في قوله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ وقلنا إن المنفي في

---

(٩) سورة البقرة: ٢ ـ ٤.

(١٠) سورة الإسراء: ٩، ١٠.

(١١) البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.

قوله ﴿لا ريب فيه﴾ كون القرآن متعلّقا للريب ومَحلاّ له. فالريب يتعلق بالنفوس لعللٍ فيها أو بشيء ما لأنه محل للشك والريب.

والقرآن الكريم ــ وقد نفي الريب عنه ــ ليس محلا للشك لأنه الحق. وللحق حجته وسلطانه وللريب علله وأوهامه وظنونُه وهو مُدْحضٌ بالحق زاهقٌ ذاهب. والكتاب الذي يخاطب العالمين بأنه إنذار من ربِّ العالمين يضيف إلى إعجازه في ذاته إعجازًا في مخاطبة الجاحدين المعاندين - في كل زمان ومكان - أن يأتوا بسورة من مثله مع حرصهم على إزهاقه و إطفاء نوره بل وتدمير أهله.

وتراهم في كل زمان - مع بغيهم وتسلطهم على أهله ــ عاجزين صاغرين أمام بلاغته وعزته وسلطانه.

وتراه ينتصر على النفوس الباغية. وأهلُه مستضعفون.

وكثيرا ما رأينا القرآن في عزته يُخضِع الأعداءَ فيؤمنون به و ينفذون أمره و يقومون بحقّه.

ومن تدبر تاريخ أمتنا الإسلامية عرف ما للقرآن من أثر وتأثير وما له من حجة وهدى وسلطان. إن تاريخ هذه الأمة - بين مَدٍّ وجَزْرٍ - يتصل به ولا ينفك عنه.

فهي في مدٍّ حين تقبل عليه وتستنير به وتعتصم ولا تتفرق.

وهي في جَزْرٍ حين تُشْغَل عنه وتعرض عن ذكره. وهو في منعته وعزته يظل يذكر و ينذر و يبشر و يهدي في كل شأن للتي هي أقوم. يظل يوجه نداءه إلى القلوب لتخشى وتخشع و إلى من شُغِل عنه أن يثوب إليه وأن يتبع هداه حتى لا تتفرق بهم السبل أو ينتهي بهم الإعراض والبعد إلى الضلال وسوء المصير. وهذا التذكير من جانب القرآن يخاطب به من نزل فيهم. وتخاطب به الأجيال

من بعدُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكأنه نـزل لساعته، وحمله جبريل إلى النبي ﷺ لوقته لا يختلف مع اختلاف الزمان ولا يتباين مع تباين الأجيال. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. يُخاطب بـه كل معـانـد مكـابر فـي أي زمان كمـا خـوطب بـه الأولـون من المكـذبين الجاحدين وهم جميعا في العجز سواء وهم جميعـا مَدْعُوّون لاتباعه والاهتداء بهداه. ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾. واتقاء النـار يكون بـالاعتصام بـه والاحتراز مـن جحوده والإعراض عنه. كأنه قيل فإذا عجزتم عن الإتيـان بمثله ـ كما هو واقع ومقرر ـ فـاحترزوا من إنكـار كـونه منـزلا من عنـد الله سبحانـه فإن ذلك يـدفعكم إلى الإعـراض عنه والصـد عن سبيلـه. ومن أعرض عنـه أو كـذب بآيـاتـه فالنـار موعده.

والخطاب على هـذا النحو خطاب عزيـز واثق لا يهين ولا يضعف ولا يأتيه أو يقترب من ساحته باطل.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾(١٢).

ذاك حـديث القـرآن عن القـرآن في بيـان إعجـازه وتحـدي المعـانـدين الجـاحدين في كل زمـان أو مكان أن يأتـوا بسورة مثلـه. تراه في بيـانه يصـدع بالحق وينطق بـالصدق ويعلن في عزة وثقة أنه تنـزيل رب العالمين. ليعتصم الناس جميعـا به ويهتـدوا بهداه ويجـدوا أنفسهم في ساحته في أمـن وتراحم

(١٢) يونس: ٣٧، ٣٨.

وتعاون وتآزر وبر وسلام ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾(١٣).

٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾(١٤).

والقرآن الكريم قد أنزله الله هدى للناس. وهو بهذا ليس بمعزل عن قوة تحقق وعده ووعيده. إنه الحق من ربك وللحق نور ونار فمن أبى النور فالنار موعده. وذاك بيان وبلاغ من الله بذكر النتائج والعواقب لمن تبع هدى الله ومن جحد وأعرض ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

إن في اتباع هدى الله أمن وأمان. أمن لا خوف معه ولا حزن. ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ والخوف غم يلحق الإنسان من توقع أمرٍ في المستقبل. والحُزن غم يلحقه من فوات أمرٍ في الماضي. والمتبعون هدى الله مبشرون بذلك عندما يفزع الناس ويخافون. وذاك وعد الله لهم ـ ولن يخلف الله وعده ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾(١٥).

(١٣) سورة الواقعة ٧٥ ـ ٨٠.

(١٤) سورة البقرة: ٣٧، ٣٩.

(١٥) سورة فصّلت: ٣٠ ـ ٣٢.

ذاك ما يكون لمن اتبع آيات الله فآمن واستقام وأما من أعرض وكذب وكفر وأصر على كفره وجحوده ـ من بعدما تبين له الهدى ـ فتلك عاقبته وذاك مصيره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾ .

وفي إسناد الآيات إلى نون العظمة في قوله ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ دلالة لا تغيب على أن هدى الله ليس بمعزل عن قوة تحقق الوعد والوعيد وأن المعرضين عن هدى الله مؤاخذون وترى نون العظمة هذه في تنزيل الذكر وحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١٦) وفي مؤاخذه المكذبين بآياته المعرضين عن ذكره . ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾(١٧) .

ومن عرف أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب أيقن أن حديث القرآن عن وعد الله ووعيده لمن اتبع هدى الله ولمن كذب بآياته سيأتي تأويله وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا . ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾(١٨) .

٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في مواجهة بني إسرائيل أولئك الذين واجهوا الدعوة الإسلامية في المدينة مواجهة نكرة وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة ـ ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾(١٩) .

(١٦) سورة الحجر : ٩ .
(١٧) المزمل : ١١ ـ ١٣ .
(١٨) الأعراف : ٥٢ ، ٥٣ .
(١٩) البقرة : ٤١ .

لقد كـان المنتظر أن يكـون اليهود في المـدينة هم أول مـن يؤمن بـالرسـالة ويؤمـن للرسـول ﷺ والقرآن يصدق مـا جاء فـي التوراة، وهم يتـوقعون رسـالة الرسـول ﷺ وعندهـم أوصـافه في البشارات التي تتضمنهـا التوراة. وهم كـانوا يستفتحون على العـرب المشركين ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾.

إن الله يأمرهم أن يـؤمنوا بما أنزل مـن القرآن لأن الإيمان به إيمـانٌ بما معهم والكفر به كفر بما معهم من التوراة. بل بالكتب وبالرسل جميعا وهم دعاة إلى دين واحـد. وقد أخـذ الله عليهم الميثـاق أن يؤمن بعضهم ببعض وأن ينصـر بعضهم بعضا وقد قال الرسول ﷺ : «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي».

﴿ولا تكونوا أول كافرٍ به﴾.

إن من الواجب أن يكونوا أول من آمن به لا أول من كفر.

لأنهم أهل النظر في معجزاتـه والعلم بشأنه وقد كانـوا من قبل يستفتحون به على الذين كفـروا ويبشرون ﴿ولا تشتروا بآيـاتي ثمنا قليلا﴾. أي لا تستبدلـوا بآياتي التي في كتابكم من نعت محمد ﷺ ثمنا قليلا والدنيا كلها ثمن قليل.

لقد كـان كعبُ بن الأشـرف ورؤساء اليهود وعلمـاؤهم يصيبون المـآكل من سفلتهم وجهالهـم وكانوا يأخـذون منهم في كل سنـة شيئا معلومـا من زرعهم وثمارهم ونقودهم، فخافوا أنهم إن بينوا صفة الرسول محمد ﷺ وتبعوه تفوتهم تلك الفوائد، فغَيَّـروا نَعتَه بالكتـابة فكتبوا في التوراة بـدل أوصافه أضـدادها. وكانوا إذا سئلوا عن أوصافه كتموها ولم يـذكروها. وقد أشار القرآن الكريم إلى التعبير بالكتابة بقوله ﴿ ولا تشتروا بـآيات الله ثمنـا قليلا ﴾ وقوله ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ وأشار إلى الكتمان بقوله ﴿وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾. وقد جمعوا بين الفعلين التغيير والكتمان. وهم يعلمون أنهم ينكرون الحق ويؤثرون الباطل. وقد فصّل القرآن ذلك في مواطن كثيرة.

هذا ما كـان من رؤساء اليهود وعلمائهم و«لو آمـن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود*» كما جاء فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

ونحن حين نقـرأ حـديث القـرآن عنهم ونتـدبـر مـا جـاء في شأنهم نعـرف حقيقتهم ومـا يريـدون فما كـان اليهود يجهلـون بعثة النبي ﷺ أو يمتـارون في معرفته، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة.

لقد تواترت الأخبارُ باقتراب زمانه، وغدا الناس يرقبون مبعثه، كما يرقب من أظلم عليه الطـريق مطلع الفجر وانطواء الليـل ليمضى إلى قصده ويصل إلى مأمنـه على نور وبصيـرة ولا يلتبس الفجر على من كـان ذا بصرٍ وبصيـرة، ولا يختلط إشـراق الشمس بظـلام الليل ولا يستـوي الهـدى والضـلال. كمـا لا تستوي الظلمات والنور.

إن القـوم قد عـرفـوا ولكنهم جحدوا. وهـدوا ولكنهم استحبـوا العمى على الهدى. وجاءتهم الآيات البينات فضلوا وأضلوا من بعد ما جاءهم البينات.

ولكن لا يخلو زمان من أهل إنصـاف وعدل. فمن اليهود ناس عرفـوا فلزموا وهدوا فأسلموا، وحفظوا ما في التوارة فشهـدوا بما علموا. ووجدوا في الرسول ﷺ مصداق ما حفظوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾(٢٠).

ولقد تناقل الربانيون والأحبار والقسيسون والـرهبان ما وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وبلّغوه من أنبيائهم وكانوا عليه شهداء.

وظلّت البشـرى بمبعثـه ﷺ تنتقل من جيل إلي جيل ومـن قبيل إلى قبيل. والنبأ العظيم يتردد بين الناس، والزمن يقترب حتى رأينا شابًّا كسلمان الفارسي

(*) مختصر صحيح البخـاري : التجريـد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للـزبيدي: بـاب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة.

(٢٠) القصص : ٥٤.

يَدَعُ ما هو فيه من رغد العيش وينتقل من دار إلى دار، ومن حال إلى حال، ويلاقي ما يلاقي طلبا للحق الذي دخل زمانه واقترب فجره وهو يحفظ من الرهبان الذين انتقل بينهم وعاش معهم وكان في خدمتهم. ويحفظ عنهم موطن هجرته ﷺ وصفات خَلْقِه وخُلُقه ويحدّث حين أسلم بكل ما جرى معه.

فالأمر لم يكن خافيا، وأكثر الناس عِلمًا به هم علماء أهل الكتاب من الربانيين والأحبار والقسيسين والرهبان الذي كانوا يبشرون باقتراب زمانه ويستفتحون. فلما بعث النبي ﷺ وأنزل عليه الكتاب أنكر علماؤهم ما عرفوا وكتموا ما أنزل الله من البينات والهدى ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ ذاك حديث القرآن عنهم وفيه عبر وعظات لمن اتعظ واعتبر.

وسيظل حديث القرآن عن القرآن وبيان موقف الناس منه حجة على من كذب وأعرض وهداية لمن اهتدى وصدّق. مخاطبا بذلك الأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة**﴾.



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمّنه قوله تعالى - بيانًا لمن عاداه وكتم ما جاء من عند الله - ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩)** ﴾[٢١].

(٢١) سورة البقرة: ٨٩.

﴿ولما جاءهم﴾ أي جاء اليهودَ المعاصرين النبيَّ ﷺ كتابٌ من عند الله هو القرآن. ﴿مصدق لما معهم﴾ كذبوا وكانـوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليـه ذلك الكتاب فلمـا جاءهم ذلكم النبي الـذي عرفـوه ويجدونـه مكتوبـا عندهم في التوراة كفـروا به وصدوا عنه. يستفتحون به قبل مجيئـه وعند مجيئه يكفرون.

وذلك أنهم كانوا إذا حزبهم أمرٌ ودهمهم عـدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخـر الزمان الـذي نجد صفته في التوراة فكـانوا يُنصرون. وكـانوا يقـولـون لأعدائهم من المشـركين قـد أظل زمـان نبي يخـرج بتصديق مـا قلنـا فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم.

فلمـا جاء الـرسـول ﷺ تنكروا لمـا علمـوا ونبذ فـريق منهم كتـاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[22].

نبذوا كتابهم الذي كانوا قـد قبلوه من قبل وزعموا تمسكهم به، نبذوا التوراة لموافقة القـرآن لها كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ولا يـداخلهم شك فيما جاء فيه. ولكنه العناد والكفر والحسد من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

وهم بما علموا كانوا أولى الناس بـالإيمان به والدعوة إلى اتباعه. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[23]

---

(٢٢) سورة البقرة: ١٠١.

(٢٣) سورة المائدة: ٤١.

ومنكر الحقّ في حاضرٍ كمنكره في ماضٍ لأن الحق من عند الله واحدٌ لا اختلاف فيه وبه أرسل الله المرسلين وأمرهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه .

فمن كذب واحدًا منهم فقد كذب جميع المرسلين وحق عليه ما حقّ على المكذبين الضالين . إنهم جميعا دعاة إلى دين واحد أقاموه كما أمرهم الله ولم يتفرقوا فيه .

والفرقة بين الخلق في أمر الدين حملتها الأهواء ولم تكن في رسالة الأنبياء .

وقد يعرف إنسان الحق ولا يستجيب له فحسب . وقد يعلم آخر أنه الحق ثم لا يكتفي بالإعراض عنه بل يعمل على تشكيك الناس فيه وصدهم عنه وحملهم على محاربته والكيد له . وعمل اليهود من هذا اللون المفرط المغالي في الكيد والصد والعداوة والإفساد وقد قال الله فيهم ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾[24]. وقال مخاطبا أهل الكتاب من النصارى محذرا لهم من اتباع أهوائهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[25].

إن وصف الكتاب المنزل على محمد ﷺ بأنه من عند الله وأنه مصدق لما معهم فيه ما فيه من إدانةٍ للقوم وتسجيل لمواقفهم ودعوة للأجيال من بعد أن تثوب وأن تزن الأمور بميزان الحق لا بموازين الأهواء . وأن تعلم علم اليقين أن كل إنسان مؤاخذ عند الله بعمله . وأن الحق الذي أنزله الله وحفظه هداية للخلق وحجة عليهم . ولا أضرَّ من إعراضٍ عن الحق من بعد علمٍ به . واتباع للهوى من بعد ما تبين الهدى . وكتمان للحق من بعد عهد وميثاق . إن الحق

(٢٤) سورة المائدة : ٦٤ .

(٢٥) سورة المائدة : ٧٧ .

الذي جاء به موسى من عبادة الله وعدم الإشراك به هو الذي جاء به خاتم الرسل ﷺ وهو الحق من ربهم. فمن كفر بهذا كفر بذاك. ولا بقاء لادّعاء أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم لأن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق مصدقا لما معهم. فالكفر بما جاء به كفر بما معهم وهم يعرفون ذلك ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾.

وسيظل نداء القرآن الكريم يبصر كل جيل ويحذر من سوء العاقبة والمصير. والكل عائد إلى الله ومحاسب بين يديه ومن رغب عن الحق حوسب عليه. ولا حجة بعد بيان ولا عذر بعد إعذار و إنذار ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(٢٦).

٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾(٢٧).

والآية بما اشتملت عليه تبين أمرين: الأول: ما للقرآن من صفات وأنه من عند الله وهو الحق مصدقا لما معهم. الثاني: موقف اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ من القرآن والرسول ﷺ.

أما عن القرآن فإن القوم يوقنون أنه من عند الله وهو يتلى عليهم «مصدقا لما معهم» ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ ويعرفون الرسول

(٢٦) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(٢٧) سورة البقرة: ٩١.

ﷺ بصفاته وأخلاقه كما يعرفون أبناءهم وهم يجدونه مكتوبا فيما معهم. ومن أجل ذلك كانوا أولى الناس بتصديقه ومناصرته والدعوة إلى الإيمان به وفاء لكتابهم وتصديقًا لنبيهم وتكريما لأنفسهم ﴿وهو الحق مصدقا لها معهم﴾.

إن إعراض هؤلاء عن الحق وجحودهم به لا يرجع إلى خفاء في أدلته أو التباس في حقيقته. وحاشا أن تخفى دلائل الحق أو يلتبس نوره. ولكن إعراضهم يرجع إلى علل في نفوسهم لا عن جهل بحقيقته.

إن كفرهم بما أنزل الله على محمد ﷺ كان مبنيا على الحسد أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٢٨).

وهذا الحسد لم يقف بهم عند النكران والجحود فحسب وإنما دعاهم إلى محاولة رد المسلمين عن دينهم وتشكيكهم فيه، كما أغراهم بالطغيان والبغي لما رأوا ثباتهم عليه وتمسكهم به ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾(٢٩).

﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾.

فلم يبق لهم وقد كفروا بالحق لما جاءهم - إيمانٌ بحق. بل قادهم الهوى إلى جحود ما معهم وساقهم أن يكتبوا بأيديهم ما يكتبون وينسبون إلى الله ما يكتبون.

---

(٢٨) سورة البقرة: ٩٠.

(٢٩) سورة البقرة: ١٠٩.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(٣٠).

ونسوا أن الله الـذي فضلهم من قبل وآتاهم الكتـاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات قد أمرهم أن يكونوا أوفياء للعهد أمناء، وألا يتنكروا لما فضلهم الله به ويرون عزهم في غير ما أعزهم الله به من شرف النبوة والكتاب، فإن من اعتز بغير ما أعزه الله به أذلّه الله.

إن الـوفاء لـرسالـة الأنبياء والقيـامَ بحقها ــ كما أمـر الله ـ أصل في تكـريم الإنسان وإعـزازه. والرسل جميعـا ما جـاءوا إلا بالحق. وبالحـق تكون القيم ويعرف الفضل. والحق من عند الله فمن جحده فقد كفر بنعمه. ومن فرق بين من أرسلهم الله بـدين واحد وقـال نؤمن ببعض ونكفـر ببعض لم يبق له إيمـان بأحدٍ من رسل الله.

إن منشأ كل فُرْقَـةٍ وفساد في نكران الحق بعـد بيانه والإيمـان ببعض الرسل دون بعض والإيمـان ببعض الكتاب والكفر ببعـض بدافع الأهواء لا بسنـدٍ من حجة أو بـرهان. فإن ذلك يفقد الإنسان العـدل في شئونه كلهـا. ويبعده عن الإنصـاف في القـول والعمل. كما يفقـد الاعتـدال في مـواجهة سـراء الحيـاة وضرائهـا ويوقعـه في مرج واضطراب لا يسلم من عـواقبه إلا بـالعود إلى الحق والفرار إليه وإخضاع الهوى له وانشراح الصدر به.

وسيظل نداء القـرآن لأهل الكتاب بل للناس جميعـا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل ـ في عزته ـ يذكر ويبصر ويدعو إلى الحق ويهدي للتي هي

---

(٣٠) سورة البقرة: ٧٩.

أقوم. وهو يسوق العِبَرَ والعِظات ويدعو إلى كلمة سواء يقام بها العدل وينصف الحق ويشيع البر ويُدفع الفساد والظلم والشر وهذا نداؤه لأهل الكتاب بل للناس جميعا ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(31).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(32).

ذاك هو النداء الذي يبصر الناس بما جاء به الأنبياء. وبالاستجابة له يصان الأمن ويقام السلم وتحفظ الحياة. ويتحقق في الناس ما وصى الله به الأنبياء ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(33).



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمّنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾(34).

وسواء كان سبب نزول هذه الآيات مناظرة جرت بين اليهود ورسول الله ﷺ في أمر نبوته أو بينهم وبين عمربن الخطاب رضي الله عنه في أمر النبي ﷺ.

---

(31) سورة آل عمران: ٦٤.

(32) سورة الأعراف: ١٥٨.

(33) سورة العنكبوت: ٦٩.

(34) سورة البقرة: ٩٧ ـ ٩٩.

فإن في الآيات بيانًا لأمور يجب أن نتدبرها وأن ندرك منها هداية القرآن ومقاصده وأن نعتصم به في كل شأن. من ذلك موقف اليهود من رسل الله بعامة ومن الرسول الخاتم ﷺ بخاصة. ومن المعلوم أن عداوة رسولٍ من رسل الله هي عداوة لله وللرسل جميعا ـ ولا إيمان مع التفرقة بينهم أو تعمد الإساءة لأحد منهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾(٣٥).

وكذلك كان اليهود ولا يزالون يرون أنفسهم ولا يرون غيرهم ويكفرون بما أنزل الله مصدقا لما معهم بغيًا منهم وحسدًا من عند أنفسهم.

لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على رسوله ﷺ. فزعموا أن جبريل عدوهم لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب. وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا. فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر وهو ملك الرحمة، وجبريل عندهم هو ملك العذاب. هكذا يزعمون.

وهم يعلمون أن الله لم يبعث نبيًّا قط إلاّ وجبريل عليه السلام وليُّه. وجبريل عليه السلام لم يكن بشرا يعمل معهم أو ضدهم ولم يكن يتنزل إلا بأمر ربِّه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٣٦). ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾.

ولكن القوم ـ وهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ـ ينكرون ما يعرفون ولا يرون الفضل إلاّ لهم والنبوة إلاّ فيهم. ولو كان ما جاءهم كتابٌ من

---

(٣٥) سورة النساء: ١٥٠، ١٥١.

(٣٦) سورة مريم: ٦٤.

عند الله مصدق لما معهم. ذكر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيما روي عنه قال: كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم فأعجب من التوارة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدّق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحدٌ أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا. فقلت: إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق الإنجيل. ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبُكم فالحق به. قال: فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقّه وما استودعكم من كتاب. هل تعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه.

قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت.

قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا فإنا نعلم أنه رسول الله.

قلت ويحكم إذًا هلكتم. قالوا: إنا لم نهلك. قلت. كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه؟

قالوا إن لنا عدوًّا من الملائكة وسِلْمًا من الملائكة. وإنه قرن بنبوته عدوّنا من الملائكة. قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟

قالوا عدوّنا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قالوا إن جبريل ملك الفظاظة والغلظه والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا. قال: قلت وما منزلتهما عند ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال فقلت فوالله الذي لا إله إلا هو إنهما

والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبرائيل قال: ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان.

فقال: يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل. فقرأ عليّ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى قرأ الآيات: قال: قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر(*).

ذاك ما كان فلنتدبر ما أنزل من القرآن ولنعرف مقاصده ولنتبع هدايته. وفي حديث القرآن عن القرآن بيان لهدايته ومقاصده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ومنه نعلم أن اليهود لا يكونون إلا حيث تهوى نفوسهم لا حيث يأمر ربّهم هكذا كانوا مع الرسل ومع خاتمهم ﷺ إلا من رحم الله منهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(٣٧).

إن من اتخذ إلهه هواه يأتي بما يفضح ويُخجل ولا يستحي من قول أو فعل. إن النتيجة الحتمية لقول هؤلاء أنهم لا يؤمنون بأحدٍ من الرسل، لأنهم جميعا قد جاءهم الروح الأمين بأمر من رب العالمين. فلم يبق لمن عاداه صلةٌ بدين أو إيمانٌ برسول.

٨

ومع حديث القرآن عن القرآن في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(*) جامع البيان لابن جرير الطبري.

(٣٧) سورة البقرة: ٨٧.

ومن قبل وقفنا معـا عند هذه الآيـة . وعرفنـا ما كان من اليهـود من مفارقتهم رسـول الله ﷺ لأن وليَّـه جبريل عليـه السـلام وقـولهم لـو كان وليُّـه سـواه من الملائكة تابعناه وصدقناه .

وقلنـا إن من اتخـذ إلهه هـواه يأتي بمـا يفضح ويُخجل من قـول أو فعل . واليهود الذين ناظرهـم رسول الله ﷺ ـ وهـم يقولون ـ إن جبريل عدوّنا وهو وليّك فـلا نتبعك . يأتون بمـا يسجل عليهم الكفـر والفسوق ويحـرمهم من الهدايـة والتوفيق .

لقد حرموا الهداية والتوفيق بجحودهم الحق وكراهيتهم له .

والقرآن الكريـم هدى وبشرى للمؤمنين . وهـؤلاء بما قالوا وفعلوا لـم يكونوا أمناء فيما اؤتمنوا عليه . ولا إيمان لمن لا أمانة له . ومن فقد الإيمان فلا بشرى له . ومن أضله الله على علم وختم على سمعـه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؟

إن القرآن الكريم هدى وبشرى للقلوب التي تتفتح للحق وتستجيب له . لا لمن ختم الله على قلبه وسمعـه . القرآن هدى للمتقين . وهدى لقـوم يؤمنون . وهدى لقـوم يوقنـون . وشفاء ورحمـة للمؤمنين . وبنـو إسرائيل بمـا صنعوا لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون .

وعلة العلل فيهم أن جحودهـم ناشئ عن حقـد وحسد لا عن جهل بما جاء من الحق . ولا شيء أضر بحياة الناس مـن جحود الحق والإساءة إلى أهله مع وضوح الآيـات وتكرار البينات وتـوافر أسباب اليقيـن من كتاب يصدق كتـابا ، ورسـول يصدق رسـولاً . ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا

ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣٨).

إن جحود الحق مع بيانه إيثارٌ للباطل. ومـن آثر الباطل دُمِّر به وزهق معه. فما بالك بمن صدَّ عن الحق وعادى أهله.

والقرآن حق وله نوره وتلك بشراه. وله ناره وذاك إنذاره ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾(٣٩). تلك بشراه لمن آمن واتبع وذاك إنذاره لمن كذب أو أعرض وهـو بهذا يكون هدى للناس أجمعين. ولا عذر لأحدٍ من بعد ما تبين له الهدى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾(٤٠).

ذاك حديث القرآن عن القـرآن في بيان حقيقته رآثاره. إنه من عنـد الله بلاغا للنـاس أجمعين ونذيـرا للعالمين يهـدي للتي هي أقوم وينـذر ويبشر. يبشـر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عن ربهم. وفي بشراه لهم حثٌّ للناس أن يتبعوا سبيلهم. وفي إنذاره تحذير للناس أن يتبعـوا غير سبيل المؤمنين ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يولِّه الله ما تولى ويُصله جهنم وساءت مصيرا.

وفي جميع ذلك لا ترى فيه إلا الحق ولا تسمع إلا الصـدق ولا تجد تناقضا بين الخبر والواقع أو اختلافًا بين ما يخبر عنه وما يدعو إليه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ

---

(٣٨) سورة البقرة: ٩٩ـ١٠١.

(٣٩) الإسراء: ٩، ١٠.

(٤٠) سورة النساء: ١١٥.

﴿... اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾(٤١).

٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾(٤٢).

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام فبعث فيهم رسولا منهم. بعثه برسالة عامة إلى العرب والناس أجمعين. وجعل معجزته هذا القرآن الذي تُتلى آياته ولا تنقضي عجائبه ولا يَخْلُق من كثرة الرد. وقد حفظه الله ليتلى على الناس في كل زمان ومكان تُبلّغ به رسالته ويعرف هديه. ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ والمراد القرآن فهو آيات الله المنزلة على نبيه ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدي بأقصر سورة منه.

لقد استجاب الله دعاءَ إبراهيم وكانت الاستجابة هي بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ بَعْثَة رسولٍ من ذرية إبراهيم وإسماعيل يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس. فكانت الأمة الإسلامية بهذه الاستجابة هي الوارثة لإمامة إبراهيم الداعية إلى ما دعا إليه جميع المرسلين وهم جميعا دعاة إلى دين واحد هو الإسلام الذي فُطِر الخلق عليه وأرسل جميع الرسل دعاة إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤٣).

وهذا الكتاب الذي يتلى على الناس شاهد حق بما بعثوا به وما دعوا إليه وهو محفوظ بحفظ الله عزيز بعزّته، لا تُهزم حجته ولا يطفأ نوره ولا تخفى

---

(٤١) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

(٤٢) سورة البقرة: ١٢٩.

(٤٣) سورة الأنبياء: ٢٥.

دلالته بـه أخرج الله النـاس من الظلمات إلى النور، وعلّم النـاس ما لـم يكـونوا يعلمون. وبه قد حفظت كلمة الحق وعُرف ميزان العدل وتحددت قيم الأشياء وعلت قيمة الإنسان حين انتسب إليه وشـرف به واستجاب لندائه. علت قيمة الإنسان وتعلو كلمـا أخذ نفسه بكلمة الحق التي جـاء بها القرآن، فلم يخضع لنزعـة جنس أو لون ولم يستجب لدافع هـوى أو إغراء منفعة. نعم تعلـو قيمة الإنســان حين ينصـر الحقَّ ــ والحق من ربك ــ وبه يـرفع الله أقـوامًـا ويضع آخرين. تعلو قيمة الإنسان حيث ينصر الحق دون نظرٍ لقريب أو بعيد أو عدو أو صديق. فيغدو بـالحق صاحبَ رسالة وإنسان مبدأ وعقيـدة ينصر المظلوم ولو كان من غير جنسـه ويأخذ على يد الظالـم ولو كـان من أهله وذوي قرابته. يقوم بالقسط ويأمر بالعدل ولو على نفسه.

وهـذا ما تنطق بـه الآيـات التي تتلى والتى أمر الـرسـول ﷺ بتلاوتهـا ﴿يتلو عليهم آياتك﴾. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾(٤٤).

وسيظل القـرآن الكريم يتلى وينـذر ويهـدي للتي هي أقوم إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليهــا وستكـون العــزة لمن آمن وعمل بمقتضـــاه ولن يضل من استمسك بـه واهتـدى بهداه. ومن رحمـة الله بـالخلق أن جعل لهم أسـوة في رسول منهم يرون فيه القرآن قولا وعملا ويشاهدونه في حياتهم بيانا وخلقا. ولا فصل بين بيان ومبيّن، لا فصل بين قران وسنة، فالأخذ بالسنة الصحيحة عمل بالقرآن. والعمل بالقرآن يقتضي حسن الاتباع لرسول الله الذي بيّن بقوله وفعله وإقراره ما نزل إليه من ربه.

---

(٤٤) سورة النمل: ٩١، ٩٢.

وقد كان دعـاء إبراهيم جامعًا إذ دعا ربّه فـاستجاب له ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . فتلا الرسول الآيات وعلّم الكتاب وبيّن وبصّر وربّى وطهّر. وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه .

١٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾(٤٥) .

حديث عن الزمان الذي أنزل فيه وعن هدايته ومقاصده .

وفي الحـديث عن الـزمن تشريف لشهـر رمضـان وتعظم إذ اختص من بين الشهور بإنزال القرآن فيه ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ .

والشهر فيـه قولان لأهل اللغـة أشهرهما أنـه اسم لمدة الـزمان الـذي يكون مبدؤها الهلال ظـاهرًا إلى أن يستتر. سمي بذلك لشهرته في حـاجة الناس إليه في العبادات والمعاملات وغيرها . الثاني : اسم للهلال نفسه .

ورمضان علم لهذا الشهـر المخصوص . وقد قيل في تسميته بـرمضان لأنه وافق مجيئه في الرمضـاء وهي شدة الحر فسمي به . وقيل لأنه يَـرْمَضُ الذنوب أي يحرقها ويمحـوها . وأما القرآن فهو في الأصل مصدر قـرأتُ ثم صار علما لما بين الدفتين . وقـد نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الـدنيا وكان

---

(٤٥) سورة البقرة : ١٨٥ .

ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه . كما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾[٤٦] وقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ ﴾[٤٧] .

ثم نزل بعده مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقوله ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ .

حديث عن هداية القرآن وما يحققه في حياة الناس .

لقد أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه وأحسن اتباعه .

﴿ هدى للناس وبينات ﴾ أي دلائل واضحات وحججًا جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال والرشد المخالف للغي ، ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام .

وما من شأن من شؤون الخلق إلا وللقرآن فيه إرشاد وبيان وتبصرة وذكرى . ويخطئ من يظن أن هداية القرآن عرضٌ يأبونها أو يعرضون عنها فيتركون دون حساب وجزاء .

يخطئ من يظن أن القرآن ـ وهو الحق من ربهم ـ يعرض عنه من يعرض فلا يؤاخذ بذنب أو يحاسب على إعراضٍ وترك . إنه الهدى والحق . وللهدى وللحق نور ونار فمن أبى النور فالنار موعده .

---

(٤٦) سورة الدخان : ٣

(٤٧) سورة القدر : ١ .

إن الكارهين للحق مأخوذون به. والمعرضون عنه ماكثون في ناره ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٤٨).

إن القرآن الكريم ـ وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم ـ به تتحدد مصائر الناس وتتميز صفوفهم. فمن اتبع هداه اهتدى ونجا، ومن أعرض عنه ضل وخسر. وسيظل يدعو الناس إلى اتباعه ما بقيت الحياة ثم هو ـ يوم القيامة ـ شافع شاهد تَسأل كلُّ آية فيه عن فريضتها. ومن تدبر عرف النتائج ومن استبصر أدرك العواقب، ومن أبى النور والهداية في يومه ندم على ما فرّط في غده. كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه «أخاف أن يقال لي يوم القيامة علمتَ أم جهلتَ؟ فأقول: علمتُ. فلا تبقى آية في كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا وتسألني فريضتها. تسألني الآمرة هل ائتمرت؟ وتسألني الزاجرة هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع».

اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماما ونورًا وهدى ورحمة واجعله لنا حجة يا رب العالمين.

١١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾(٤٩).

والإشارة في قوله ﴿تلك آيات الله﴾ إلى قصة أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وقصة طالوت وجالوت وما وقع فيها من عبر وعظات. وبيان سنة الله في دفعه النّاس بعضهم ببعض.

---

(٤٨) سورة الزخرف: ٧٤ـ٧٨.

(٤٩) سورة البقرة: ٢٥٢.

ونصـر من يستحق النصر وإن قلّ عـدده، وخذلان من يستحق الخـذلان وإن كثر جنـده. وكل ذلك بإذن الله وفضله ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٥٠). ﴿**نتلوها عليك بالحق**﴾ أي بـاليقين الثـابت الذي لا يعتـريـه شك ﴿**وإنك لمن المـرسلين**﴾ بحيث تخبر بهذا القصص من غير أن تعرفه بقراءة كتب ولا استماع أخبار فدلّ ذلك على رسالتك ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾ أي بشهادة إخبـارك عن الأمم من غير مطـالعة كتاب أو اجتماع يخبـرك بذلك. ولا أدلّ على رسالة الـرسول ﷺ من هذا القرآن الحكيم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾(٥١). والمناسبة بين قوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بينة واضحـة. فإن الآيات دالّـة على صدقه وأنه مرسل من ربّه.

ومثله ما جاء في قوله تعالى ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥٢) فإن المقسم به ﴿**والقرآن الحكيم**﴾ دليل على صدق المقسم عليه كافٍ في الدلالة على نبـوته وأنه مرسل من ربّه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥٣). ووصف القرآن بالحكيم في القسم على رسـالة مَنْ أُرسِل ليعلِّم الناس الكتاب والحكمة فيه اتساق بين المقسم به والمقسم عليه.

---

(٥٠) سورة البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢.
(٥١) العنكبوت: ٤٨.
(٥٢) يس: ١ ـ ٤.
(٥٣) العنكبوت: ٥١.

إن هذا الكتاب الذي نزل بالحق يشهد بنفسه على نفسه بأنه خطاب رب العالمين للناس أجمعين ويتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة منه. ويقطع بأنهم لن يأتوا بمثله وإن اجتمعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. لأنه من عند الله الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت. وما كان من عند الله فهو الحق بلا شك أو امتراء. ﴿**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾.

وهذه الحقيقة تحدد لطالب الحق مصدر المعرفة والتمسك بما هو حق. وبالحق يعرف الباطل لأنه ضده. وبه لا بغيره يكون الإصلاح ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(٥٤).

والناس مأمورون بأن يصلحوا في الأرض ولا يفسدوا. منهيون عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها. فلا بد من منهج وشرعة تُتّبع يكون مصدرها الحق لا الهوى. والله هو الحق، وقوله الحق، وقد أنزل الكتاب بالحق.

فإذا أراد الناس صلاحا لدنياهم وفلاحًا في أخراهم فلا سبيل لذلك إلا باتباع ما نزل من الحق ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق**﴾.

وهذا ما أمر الرسول ﷺ أن يعمل به وأن يبلغه الناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٥٥).

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾(٥٦).

---

(٥٤) المؤمنون : ٧١.

(٥٥) الجاثية : ١٨.

(٥٦) الشورى : ١٥.

وسيظل القرآن الكريم في ثباته وعزته ـ وهو الحق ـ يدعو إلى اتباع الرسول ﷺ وهو حق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يطفأ نوره ولا يتوقف مده. وفي الحديث عنه ﷺ وعن الكتاب المنزل عليه في آية واحدة بلا تفرقة تبصرة وذكرى للمؤمنين ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

١٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾(٥٧).

آيات فيها بيان عمَّن نزَّل الكتاب، ومن نُزِّل عليه. وعن وصف هذا الكتاب وما يهدي إليه. فالمنزِّل هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم. ولكل صفة من هذه الصفات دلالتها في الأخذ بما جاء في هذا الكتاب والاعتصام به وحسن اتباعه ولها دلالتها كذلك في الجزاء، جزاء من صدّق وآمن ومن كذب وأعرض ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ والله لا يخفى عليه شيء من أمر هؤلاء وأولئك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ وفي قوله ﴿**نزّل عليك الكتاب**﴾ بيان للمنزّل عليه وهو الرسول ﷺ. وفي هذا القول ما فيه من إشادة بالكتاب وأنه الجدير بهذا الوصف دون سواه، ومن تكريم لمَنْ نزّل عليه بتوجيه الخطاب إليه ﴿**نزل عليك**﴾، ومن بيانٍ لمكانة المنزلِ وحقيقته وأنه منزل بالحق. فهو حق في ذاته وفيما يدعو

(٥٧) سورة آل عمران: ١ ـ ٦.

إليـه. فليس للباطل إليـه سبيل فهـو مصون بحفظ الله في الأرض وفي السمـاء ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [58] ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [59].

﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ بيان لحقيقـة هذا الكتاب ومن نزّلـه ومن نزل عليه.

وقد سُبِقَ بقوله ﴿ الله لا إله إلا هـو الحي القيوم ﴾ ولا شيء أدعى للتمسك بالكتاب المنزل من معـرفة هذه الحقيقة ﴿الله لا إله إلا هـو الحي القيـوم. نزل عليك الكتاب﴾. إنها تحقق في نفس المتدبر المهابة والخشية وحسن الإقبال عليه والاعتصام به. ومن عرف أن كتابـا يأتيه من عظيم له شأن أحسن استقباله وعمل بمقتضاه ـ ولله المثل الأعلى ـ والكتاب ــ الذي يدعى الناس جميعا إلى الاستمساك بـه وحسن اتباعه وعدم الإعـراض عنه ـ من الله الذي لا إلـه إلا هو الحيّ القيـوم. والـرسـول رسـوله. وفي الكتـاب دلالـة على هـذه الحقيقـة لا تخفى. وفي الرسـول كذلك وهو الأسـوة والقدوة في بيان هـذه الحقيقة. والله شاهد له وكفـى بالله شهيدا. وأقوى الدلالات ما يجده الإنسـان في نفسه وهو يتلو كتاب ربه، يجـد هذه الخاصية الفريدةَ التي لا تـوجد إلا في هذا الكتاب ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [60]. خصوصية دالـة على أنه من الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم. وجدير بـه وتلك نسبته أن يكون كذلك في تأثيره وفيما يخبر به أو يدعو إليه.

---

(٥٨) سورة النحل : ١٠٢ .

(٥٩) الإسراء : ١٠٥ .

(٦٠) الزمر: ٢٣ .

﴿ الله لا إله إلا هـو الحي القيوم . نـزل عليك الكتاب بـالحق ﴾ إن حديث القرآن عن القـرآن في هذا المقـام بما اشتمل عليه يـدعو إلى عبـادة الله وعدم الإشراك به وحسن التوكل عليه .

فإن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم . فهو المتفرد بصفة الألوهيـة وهو الحي الذي يتوكل عليه ولا يتـوكل على غيره . فإن الإنس والجن يمـوتون والله حي لا يمـوت ﴿**وتوكل على الحي الـذي لا يموت**﴾ وهو القيوم الذي به تقـوم كلّ حياة وبه يقوم كلّ وجود فلا قيـام لحياة في هذا الكون ولا وجود له إلا به سبحانه .

إن هذه الصفـات وهي تذكر في الحديث عن القـرآن تهيئ النفس لاستقبال ما يتلى وتثيـر الخشية وتدعـو إلى صدق الإخـلاص وحسن التقبل . لأن الذي نـزل القرآن يستحـق أن يُعْبَدَ وأن يطـاع ويتقى ، وهـو أحق أن يُخشى . ومنهج عبادتـه وتقواه ما نُـزِّل في هذا الكتاب على رسولـه ﷺ وقد كان خلقـه القرآن . فمن رام صلاحًا وفلاحًا في عاجلـه وآجله فعليه أن يتبع هذا المنهج في صدق وإخلاص واقتداء وحسن اتباع ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾(٦١) .

١٣

ومن حـديث القرآن عن القـرآن ما جاء فـي قوله تعـالى في سـورة آل عمران ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (٢-٣) .

وقد تحـدثنا عن هذه الآيات من قبـل . وقلنا إنها حديث عمن نـزّل الكتاب ومن نُـزّل عليه وعن وصـف هذا الكتـاب ومـا يدعـو إليـه . وفي ذلك ما يثيـر الخشية ويدعو إلى صدق الإخـلاص وحسن التقبل لأن الذي نزل الكتاب هو

(٦١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

الله الذي لا إلـه إلا هو الحي القيـوم. كما أنـه نزَّل التـوراة والإنجيل من قبل. وهذا الكتـاب الذي نزلـه الله عليك بالحق ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ من التوراة والإنجيل. وكلهـا تستهـدف غـايـة واحـدة ﴿هدى للنـاس﴾ وهـذا الكتـاب ﴿فرقان﴾ بين الحق الذي تضمنته الكتب المنزلة والانحرافات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والشهوات.

فلا وجه للتكـذيب أو الإعراض من أهل الكتاب. والقرآن مصـدق لما بين يديه من الكتاب وقد نزّلـه من أرسل الرسل وأنزل الكتب الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وفي قـوله ﴿مصدقا لمـا بين يديه﴾ دلالة على هيمنتـه ومكانتـه، وأنه الشاهـد على ما جـاء فيها، المـؤتمن على حقيقتها ودفع الشبـه عنها ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. فلم يبق بعـد نزولـه سبيل لادعـاء على رسل الله أو تقول عليهم. وهـذا الكتـاب فرقـان واضح مبين، يفرق بين الحق والبـاطل، والحلال والحرام، والظلمـات والنور ﴿وأنزل الفرقان﴾ وتلك مهمـة الكتـاب المهيمن والـرسـول الخـاتَم. مهمـة الكتاب بيـان ما كـان عليه الرسل جميعـا وأنهم بعثوا بـدين واحد هـو الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٦٣).

ومهمة الرسـول الخاتم أن يبلغ ما أنزل إليه من ربّه وأن يخـاطب الناس جميعا في يقين وثقة كما أمر ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾(٦٤).

فمن أبى إلا الإعـراض والجحـود من أهل الكتـاب أو من غيرهم فهـذا هـو الوعيد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾(٦٥).

(٦٣) سورة آل عمران: ٨٥.

(٦٤) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٦٥) سورة آل عمران: ٤.

وفي صدد الوعيد بالعذاب الشديد يؤكد لهم علم الله الذي لا يندّ عنه شيء فلا خفاء عليه ولا إفلات منه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾(٦٦).

فلا يمكن ستر النوايا عليه. ولا إخفاء الكيد عنه. ولا يمكن كذلك التفلت من الجزاء والتهرب منه. ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾(٦٧).

وفي ذلك بلاغ للناس جميعا ليعرفوا حقيقة الرسالة والرسول وليتقوا الله في أنفسهم وفيما ينسبونه إلى الأنبياء. فإن حفظ «الفرقان والذكر» حفظ للرسالة. وفي هيمنته صون للأمانة التي بعث بها الرسل وصدقوا جميعا في تبليغها والتمسك بها وفي حفظ «الذكر» شهادة على أولئك الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾(٦٨).

ذاك هو الإيمان الذي يدعو إليه هذا الكتاب والذي دعا إليه الرسل جميعا.

والكل مسئول عما بُلِّغ به وما دعي إليه ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾(٦٩).

وذاك ما يوحي به حديث القرآن عن القرآن في هذه الآيات ﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾.

---

(٦٦) آل عمران: ٥.

(٦٧) سورة النور: ٢٥.

(٦٨) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٦٩) سورة الأعراف: ٦ ـ ٧.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[70]. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حديث عن القرآن وعمن أنزله ومن أنزل عليه. والضمير في قوله «هو» يعود إلى الله عز وجل وقد ذُكِرَ من قبل في آيات. وقد جاء الضمير في قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد هذه الآيات ليُعلم أنّ من أنزله تلك صفاته فهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وهو عزيز ذو انتقام، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وهو **﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾**.

فقوله بعد ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه بيان لمنزلة الكتاب ومكانته ببيان من أنزله، وفيه تشريف وتكريم لمن نُزِّل عليه.

فالمنزِّل هو الله وقد عرفت صفاته وشوهدت آياته.

والمنَزَّل عليه رسولٌ من الله فهو جدير بأن يطاع وأن يتّبع. فإن طاعته طاعةٌ لله الذي أرسله **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**. ولا نجاة إلا بصدق الإخلاص لله واتباع رسوله ﷺ.

والكتاب في قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو القرآن فإنه الجدير بهذا الوصف على الإطلاق دون سواه. وقد حفظ بحفظ الله ليبقى منهج الهداية محفوظا للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وبه حفظت الرسالة وختمت وعرفت الحقيقة ـ كما جاءت من عند الله ـ مع جميع الأنبياء. حفظ الكتاب المهيمن فحفظت الهداية كاملة لجميع الخلق.

---

(٧٠) سورة آل عمران: ٧.

وإذا عرف الناس مصدر الهداية ومنهجها وحفظ الله الذكر وبيانه هدى للناس إلى يوم الدين فلا عذر لمخالف ولا حجة لمعرض بعد إعذار وإنذار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ وتقرير الجزاء ـ كما جاء في هذا الكتاب ـ لمن أحسن أو أساء فيه دلالة على أن الحق الذي أنزل وحفظ بحفظ الله لا يمكن أن يهزم أو يضيع ومن تدبر العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يمكن أن يهزم أبدا. والأمور بعواقبها. والعاقبة نصر للحق ودمار لمخالفيه، وتكريم للعاملين به وهلاك للكارهين **﴿والله عزيز ذو انتقام﴾**.

وإذا تدبرنا ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ دعانا ذلك إلى الاعتصام بالكتاب والتمسك بالسنة. ذلك أن الله هو الذي أنزل الكتاب، وخاطب به رسوله بقوله **﴿ أنزل عليك الكتاب﴾** فالمنزل عليه رسول مصطفى من الله يجب أن يطاع، وطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾(٧١).

وقد جاء الحديث عن هذا الكتاب في قوله ﴿ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ وهو يفيد أن منه محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في القرآن، مما يدل على أنه كلّه محكم؛ إذ قال الله عز وجل ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾(٧٢) وما جاء فيه مما يدل على أنه كله متشابه إذ قال الله عز وجل ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾(٧٣). لا تعارض بين هذه الإطلاقات لأن معنى إحكامه أنه متقن رصين، لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي كأنه بنيان مشيد محكم يتحدى الزمن ولا ينتابه تصدع ولا وهن.

---

(٧١) سورة النور : ٦٣.

(٧٢) سورة هود : ١.

(٧٣) سورة الزمر: ٢٣.

ومعنى كونه متشابها أنه يشبه بعضه بعضا في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإعجاز.

وأما أن بعضه محكم وبعض متشابه فمعناه أن من القرآن الكريم ما اتضحت دلالته على مراد الله عز وجل منه. ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد. فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء في ذلك. بيد أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه، هو أنه لا تنافي بين كون القرآن، كلّه محكما أي متقنا وبين كونه كلّه متشابها أي يشبه بعضه بعضا في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسما إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى وما خفيت دلالته. فالقرآن كلّه محكم أي متقن، لأن الله قد صاغه صياغة تمنع أن يتطرق إليه خلل أو فساد في اللفظ أو المعنى. والقرآن كله متشابه لأنه يماثل بعضه بعضا في هذا الإحكام. والقرآن منه محكم واضح المعنى المراد وضوحا يمنع عنه الخفاء ومنه متشابه تخفى دلالته. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي تحريفه على ما يرون. وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ..﴾ إلى قوله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

أخي المسلم: لا تكن من أولئك الذين يتكلمون في أمرٍ بلا علم. أو يبتغون التأويل بلا حجة أو دليل، أو يتبعون ما تشابه ويعرضون عن

المحكمات ـ وهن أم الكتاب ، فإن الله قد جعل لك ما به تستيقن . آيات محكمات هن أم الكتاب ـ وامتحنك بأخر متشابهات وهداك بفضله ورحمته إلى الحق بإذنه . فادع الله بصدق ويقين ألا تقع فيما وقع فيه أولئك الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وقل آمنت به كل من عند ربي ، وسله مخلصًا مع الراسخين المتقين ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾(٧٤).

ولا تجعل فكرك أسيرًا لهواك بإقحامه فيما لا مجال له فيه وما لا يعلم تأويله إلا الله واحذر الظن والتخمين وكن مع الحجة والبينة والبرهان فبها يطلب العلم ويكون اليقين . فإن الراسخين في العلم لا يقولون قولا بلا علم يستند إلى برهان وحجة . وما استأثر الله بعلمه يجب أن يوقن به وألا يلجأ إلى تأويله بل يقول المؤمن ما يقوله الراسخون في العلم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ . ومن هذا القبيل ما أخفاه الله على الناس من معرفة الساعة ، فإن الحكمة في ذلك لا تخفى على ذي عقل ورشد . فإن الله قد أخفى ذلك عن الناس رحمة بهم ، كما أخفى عنهم آجالهم . فسبحانه من إله حكيم . فما استأثر الله بعلمه وأخبر به وقال ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه من حكمة الامتحان والاختبار ما لا يخفى ، وبه يتميز الناس ويتفاوتون في درجات الإيمان واليقين ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾(٧٥).

وقد قضى الله أن يُمتحن الناس ، وقد أحكم لهم ما به يكون الثبات على الحق واليقين ، وامتحنهم بالمتشابه الذي ذكره واستأثر بعلمه ؛ ليميز الصادقين الراسخين من الكاذبين المذبذبين .

---

(٧٤) سورة آل عمران : ٨ .

(٧٥) سورة العنكبوت : ٣ .

وإذا تجاوزنا هذا النوع من المتشابه ـ وهو ما استأثر الله بعلمه ــ إلى غيره مما يعلمه خواص العلماء وما يعرفه الإنسان عن طريق الدرس والبحث. فإن الحكمة فيه لا تخفى سواء في رفع درجات الناس وتنافسهم على معالي الأمور وتحصيل كثير من العلوم، أو حث الناس على البحث والدرس وطلب المعرفة فيما صعب عليهم واستعمال عقولهم فيما طولبوا بتدبره والتفكر فيه. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

١٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(٧٦).

ولنا عند دلالة هذه الآيات من سورة آل عمران وقفات:

الأولى: دلالة هذا النداء ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وما يقتضيه من حسن استجابة وعملٍ بمقتضاه. فإن من مقتضيات الإيمان حسن الاستجابة لله وللرسول فيما يُدعَى إليه أهل الإيمان من فعلٍ أو تركٍ. فإن في الاستجابة حياة أيّ حياة. وفي الإعراض فتنة لا تخصّ الظالمين وحدهم، بل تعم، مصداقا لقوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٧٧).

---

(٧٦) سورة آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٣.

(٧٧) سورة الأنفال: ٢٤، ٢٥.

إن أمة الإسلام في مجموعها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وهذه الأمة لا يحفظ كيانها إلا حسن استجابتها لله وللرسول في كل شأن من شئونها، وقيامها بما أوجب الله عليها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة إلى الخيرات. فإن هي قصّرت أو أعرضت حوسبت وعوقبت، فإن سنن الله لا تجامل ولا تحابي ولا تتحول ولا تتبدل.

وقد جعل الله حياتها بوصفها أمة مرهونة بحسن استجابتها لنداء ربِّها وعملها بمقتضى إيمانها. فإن هي استجابت لنداء الإيمان حفظت نفسها وأدّت رسالتها وظفرت بعزّتها ونصرِ ربها. وإن تراخت نالها ما ينال غيرها دون تعلّق بالأماني أو ركون إلى المغفرة.

وهذا النداء ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ له دلالته في وحدة المؤمنين وترابطهم وتعاونهم في تحقيق مقتضيات الإيمان ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٧٨). وهذا وعد الله لهم بحسن المثوبة والجزاء والله لا يخلف وعده﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾(٧٩).

إن أيّ تراخٍ في تحقيق مقتضيات الإيمان أو استخفافٍ بها أو إعراضٍ عنها يودي بالأمة ويوقعها في الاضطراب والإحباط، فإن هي تمادت أخذت بذنبها ويستخلف الله قوما آخرين لينظر ما يعملون.

---

(٧٨) سورة التوبة : ٧١.

(٧٩) التوبة : ٧٢.

ومن الفهم الخاطئ، بل من الخطيئة أن يُتَصور أن كلَّ إنسان في محيط الأمة الإسلامية من حقّه أن يفعل ما يشاء دون التزام بمعالم أو حدود. فإن ذلك قد يُودي بالأمة كلها ما لم يؤخذ على يد المفسد أو الضال. فقد شبه الرسول ﷺ أمرنا نحن المسلمين حيث كنّا كالراكبين في سفينة واحدة ليس من حق أحد فيها أن يقول هذا نصيبي أفعل فيه ما أشاء؛ فقد قال ﷺ فيما رواه البخاري عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونَجَوْا جميعا». وما الخرق الذي أشير إليه إلا الذنوب والآثام والمعاصي التي يُترك أصحابها دون رادع من منكرٍ لها أو مؤاخذٍ عليها. وقد روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لَتَدْعُنَّه فلا يستجاب لكم.

تلك مقتضيات الإيمان وما يوحي به هذا النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» وفي رواية «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

الوقفة الثانية: عند قوله ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم ﴾ وقد جاء التكليف أو التحذير في هذه الآية في أسلوب الشرط والجزاء لتعرف النتائج وتدرك العواقب. **﴿إن تطيعوا . . يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾**. وتلك هي الغاية عند القوم ومن يتوهم غير ذلك فقد ضل سواء السبيل.

ولئن كان للآية سبب خاص فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والسبب حين يذكر يعين على حسن فهم وتدبر ويشير إلى أصل الداء والخطر.

ومما جاء في سبب نزول هذه الآية أن شاس بن قيسٍ اليهودي ـ وكان عظيم الكفر ـ قد مرّ بنفر من الأوس والخزرج ـ وهم في مجلس يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذاتِ بَيْنِهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد. والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث ـ وكان يوم بُعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج قبل مبعثه ﷺ ـ ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة وخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه، من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم إصْرَ الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟ اللهَ اللهَ. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيدٌ من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبَكَوْا واعتنق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين. قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم فأنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾. ذاك ما ذكر من سبب وهو يعين على حسن فهم وتدبر.

فكيف خرج المسلمون آنذاك من فتنة عدوهم وسلموا من كيده. إن ذلك ما بينته الآيات في أسلوب أخاذ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ ففي الآيات دعوة إلى الاعتصام بالكتاب والتمسك بالسنة

﴿تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ فإن في ذلك عصمةً من التفرق والتنازع والمطاوعة للهوى والباطل .

إن لأهل الباطل وسائلَهم في صرف الناس عن الحق وإبعادهم عنه .

ومن الناس ناسٌ تستخفهم وسائل أهل الشر وتسهل مطاوعتهم للباطل وتستحوذ عليهم الشياطين فيُرَدُّ أحدهم إلى الكفر بعد إيمان ويشاقُّ الرسول بعد بيان .

ومن أهل الكتاب ناسٌ تخصصوا في ترويض المسلمين وردّهم عن دينهم وإفساد ذات بينهم . ولا سلامة من وسائل هؤلاء إلا بصدق اعتصام وحسن اتباع . والكتاب يتلى علينا والسنة قائمة فينا ويكون الأمر بالغ العجب إذا رأيت من يشكو الظمأ والماءُ محمولٌ على ظهره أو يقع في الحيرة ومعه التبصرة ، أو يُردُّ على عقبه بعد إذ هداه الله ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ إن الغاية التي يسعى العدو نحوها ، والنتيجة التي يودُّها أن يُرَدَّ المسلمون عن دينهم وأن يعودوا كافرين . ومن توهم غير ذلك أيقظته الفواجع والنكبات . وجميع ما يُرى غير ذلك إن هو إلا مقدمات في العمل على إضعاف المسلمين وتمزيق صفوفهم للوصول إلى هذه الغاية وتلك النتيجة ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾(٨٠) .

وقد تساءلنا من قبل ما السبيل إلى حماية الأمة الإسلامية من ذلك؟ بل ما السبيل إلى تأثيرها في غيرها لا في تأثرها به ومطاوعتها له؟

---

(٨٠) سورة البقرة : ١٠٩ .

إن ذلك لا يكون إلا بإيجاد الإنسان الصحيح في عقيدته وسلوكه وجميع أمره .

فإن الإنسان الصحيح تصح به الأمور الفاسدة . والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة . والمنهج في إعداد الإنسان الصحيح كتاب وسنة . كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة صحيحة تتم بها الأسوة وتصح القدوة .

ومع الأخذ بالكتاب والسنة تصعب المطاوعة للباطل ويستعصي على العدو أن يميل بالمسلمين حيث يريد .

وذلك لا يقع إلا عندما تضعف صلة المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم .

والكتاب ما أُنزل إلا ليعمل به ويُتَّبع لتتحقق هدايته وينعم الناس بفضل الله ورحمته . ولا تفرقة في الاتباع بين قرآن وسنة . فإن التفرقة بين الكتاب والسنة ردٌّ عن الدين كلِّه ، وتحقيق لمآرب أعداء الله الذين يسعون إلى ذلك بشتى الوسائل ﴿**وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله**﴾ . وآيات الله ـ وهي تتلى ـ تبين للناس ما يجب أن يكونوا عليه في كل شأن وتهدي للتي هي أقوم . وسنة الرسول ﷺ تُري الناس خُلُق القرآن في واقع حيث تكون الأسوة والقدوة بمعرفة وبصيرة ولا يكون للأهواء سبيل في تفسير أو ظن أو تخمين ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٨١] .

ويكون الأمر بالغ العجب إذا وقعت المطاوعة من المسلمين لأعدائهم وحققوا فيهم ما يريدون من فرقة وتنازع والقرآن يتلى عليهم ورسول الله فيهم . أي كيف يوجد منكم الكفر مع وجود هذين النورين؟ فإذا كان تدبيرُ الأعداء داءً يعمل على فرقتكم وإشاعة البغضاء بينكم ، بل على إخراجكم من دينكم

---

(٨١) سورة النحل : ٤٤ .

وإرجاعكم إلى ظلمات جاهليتكم فإن معكم الدواء الذي يحفظكم ويعينكم على رد الكيد ودفع الشر وإحراز الفوز والنصر، وهو من عند الله، وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته، وفي بيان القرآن ما يغنيكم ويبصركم بما يجب أن تكونوا عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾(٨٢).

هكذا يبين لنا القرآن الكريم ما يجب أن يكون ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا**﴾ وتحقيق ذلك باتباع المنهج دون غلو أو تفريط والمنهج مسطور ومحفوظ ومن حاد عنه ضل ومن ابتغى العز في غيره ذلّ ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم**﴾ .

الوقفة الثالثة : عند قوله ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ .

فإن من رحمة الله بخلقه أن هداهم إلى معرفته وجعل هدايته عصمة لهم من الضلال وسوء المصير وأمرهم أن يعتصموا بكتاب الله وأن يتمسكوا به فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم. والنور المبين. عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ أمرهمْ بالجماعة ونهاهم عن التفرقة. وبيّن لهم ما به تجتمع كلمتهم ويأتلف جمعهم. تجتمع كلمتهم ويستقيم سعيهم وتقوى مودتهم بالاعتصام بكتاب ربهم والعمل بما جاء به في أنفسهم وفي روابطهم وفي علاقتهم بغيرهم وفي كل شأن من شئونهم. ونهاهم عن التفرق وحذرهم منه فإن التفرق دمارٌ لأهله ومدعاة للفشل وذهاب الريح.

---

(٨٢) سورة آل عمران : ١١٨ ـ ١٢٠ .

والله عز وجل ـ وقد أرسل الرسل وأنزل الكتاب ـ لم يترك الناس لكي يجعلوا من أهـوائهم شرعـا يتبع أو منهجـا تجتمع عليـه كلمتهم فإن الأهواء تفـرق ولا تجمع، وتفسد ولا تصلح، ولكل شخص هواه. ولكل حزب مآربه ﴿**ولو اتبع الحق أهـواءهـم لفسدت السمـوات والأرض ومن فيهن**﴾ فلا بـد لجمع الكلمة من شـرع منـزه عن الأهـواء، يحفظ الحـق لجميع الخلق، ويقيم العـدل بـلا تفرقة. من أجل ذلك أنزل الله هذا الكتـاب وتكفل بحفظه رحمة بخلقه وهداية لهم. أنزله على خـاتم الرسل ﷺ وقد كان خلقه القرآن يـرضى برضاه ويسخط بسخطه، فالأسوة به استمساك بالكتـاب والسنة. ومخالفته إعراض عن الذكر وانحراف عن الصراط المستقيم ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٦٣) ﴾ (٨٣).

وبذا يكون المنهج قد تحدد علما وعملا ولم يترك لهوى الناس.

وتجربة التاريخ أمام أعيننا ـ نحن المسلمين ـ ترينا أن كلمتنا لم تجتمع إلا به. ووحدتنـا لم تصن إلا باتباعه. ولقـد بين الرسول ﷺ أن أمر هـذه الأمة في كل زمان ومكـان لا يصلح إلا بما صلح بـه أولها فقال ﷺ «تـركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي».

ذاك ما ائتلفت به القلوب، وتآخت النفوس، وعزت حين اعتزت به، ولم تر عزّهـا في غيره، وهذا مـا يذكرنـا به الله لنسلك الطريق القـويم، ونحذر السبل التي تفرقنا عن سبيله، وتجعلنا شيعًا وأحـزابًا، يعادي بعضُنا بعضًا، ويضرب بعضنـا وجـوه بعض. ولا بقـاء لأمة مع الفـرقـة ولا صـلاح لجمع مع التنـازع ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**

---

(٨٣) سورة النور : ٦٣.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٨٤]، هذا التذكير ليس لمن نزل القرآن فيهم فحسب، بل هو لهم ولنا ولمن جاء بعدنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونحن مطالبون بشكر هذه النعمة ولو كانت لأسلافنا من قبل. فكل نعمة أنعمها الله على أسلافنا من قبل لنصر دينه وإعلاء كلمته هي نعمةٌ لنا نُطَالَب بشكرها؛ إذ لولا ذلك لما وصلت إلينا ونعمنا بها. وذكرها في القرآن ذكرٌ لنا وتبصرةٌ وشرف عظيم لا يدانيه شرف، فمن أبى القرآن أو أعرض عن الذكر عاش في دنياه مهينا بلا شرف، وسئل بين يدي الله عما فرط وضيع ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٨٥].

وقد بين لنا القرآن الكريم كيف نحافظ على جمع الكلمة ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق كما أمر الله، وحفظ البيان لتكون الأجيال كلها على بصيرة من أمرها فلا تَضِلُّ أو تُضَلُّ.

فإن أبى ناسٌ إلا أن يسلكوا سبل الباطل ـ والله يدعوهم إلى الحق ـ فإن الله بما يعملون بصير، والحق الذي أنزله الله وحفظه لا يُضَيَّع، فإن للحق نورًا ونارًا فمن أبى النور فالنار موعده. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾[٨٦].

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[٨٧]. إن مصدر قوة هذه الأمة ـ وهي من الله ـ تتوقف على الاستجابة في التمسك بأسباب القوة كما أمر الله لتسلم من

---

(٨٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٨٥) سورة الزخرف: ٤٤.

(٨٦) سورة محمد: ٣٨.

(٨٧) سورة الأنعام: ١٣٣.

تدبير العدو وكيده وتحقيق مآربه وغايته. هو يريد أن يرد المسلمين بعد إيمانهم كافرين. فليكونوا في جميع أحوالهم مؤمنين صادقين موحِّدين موحَّدين. وليحذروا أسباب الفرقة والتنازع والتشاحن والتخاصم. فإنها تحقق للعدو ما يطمع فيه دون مشقة أو تكاليف، ولا يجوز لهم بحال أن يتركوا للعدو العبث بمقدراتهم ـ وهم يتخاصمون وأن يتداعى عليهم كما تداعى الأكلة على قصعتها ـ والأمر في بدايته ونهايته يتصل بالمسلمين أنفسهم لا بعدوِّهم، فإن من سنن الله ألّا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم. وذنوبهم أخطر عليهم من عدوهم. وما يأتيهم من شر هو من أنفسهم لا من كيد عدوهم. فليسألوا الله العون على أنفسهم كما يسألونه النصر على عدوهم.

فليحذروا أن يقع الشرط منهم، فإنه فِعلهم، فيأتي الجزاء مدمِّرا لدنياهم مُخسِرًا لأخراهم. الشرط ﴿إن تطيعوا﴾ وهو مسند إليهم لا إلى غيرهم وهم الفاعلون. والجزاء ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾. تلك هي غاية العدوّ. وفي سبيله يتخذ جميع الوسائل لإضعاف المسلمين وتمزيقهم للوصول إلى هذه النتيجة ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾. ويا له من جزاءٍ يحمل من العار والمذلة وسوء العاقبة ما ينفر منه كلّ حر تقي كريم.

والقرآن الكريم الذي أُمِر أهل الإيمان أن يعتصموا به ولا يتفرقوا قد بيّن كل شيء. وما فُرّط فيه من شيء. بيّن للمسلمين كيف يعتصمون ويحافظون ويستمسكون ويتوحدون ولا يتفرقون. فقال الله جل شأنه في هذا الكتاب العزيز ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٨٨). ذاك ما بينه القرآن ودعا إليه وحذر من مخالفته أو الإعراض عنه.

---

(٨٨) سورة آل العمران: ١٠٤.

وهذا ما يصون وحدة الأمة ويحفظها من الفرقة والاختلاف .

دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر تقوم به أمة راشدة تعتصم بحبل الله ولا تتفرق أمة تدرك العواقب ـ فتؤدي ما فرض الله عليها ـ ولا تأسرها الأهواء والرغائب .

فإن من فرط فيما أمر به وضيع ما فرض عليه لقي ما لقيت الأمم التي تفرقت واختلفت من قبل ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[٨٩]. إن الأمة لا تفلح إلا إذا ساد الخير فيها ، وكان المعروف معروفا والمنكر منكرا . وهذا واجب الأمة في المقام الأول أن ترعى هذا الحق ، وأن تصونه ، وأن يبذل في سبيله كل مرتخص وغال ، وألا تدع للشهوات والنزوات سبيلا للفساد والإفساد .

وإذا لم تفعل الأمة ذلك تكون قد رضيت لنفسها الفرقة المذِلّة والاختلاف المشين الذي يحقق للأعداء غايتهم وينفذ كيدهم وينتهي بهم إلى أسوأ مصير ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[٩٠] عذاب وتبكيت وتأنيب على ما وقع من فرقة واختلاف من بعد ما جاءهم البينات .

وجدير بمن عرف هذا المصير على هذا النحو ألا يكون في سعيه إمعة يطيع أهل الشر في شرِّهم دون مبالاة بعاقبة أو مصير.

ولنذكر ما بدئت به الآيات وما تضمنه النداء في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[٩١] .

---

(٨٩) سورة آل عمران : ١٠٥ .

(٩٠) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٩١) سورة آل عمران : ١٠٠ .

فذاك المصير الـذي نهانا الله أن نقع فيه فـي قوله ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا . . .**﴾ هو مصير أهل الكتـاب الذين نهى الله أن يطيعهم أهل الإيمان أو يطاوعوهم فيما يودون ﴿**وأولئك لهم عذاب عظيم . يـوم تبيض وجوه وتسود وجوه**﴾ .

فهل من متعظ ومعتبر يحـذر الآخرة ويرجـو رحمة ربّه فيرد أمـة الإسلام إلى الاعتصـام بحبل الله والقيام بمـا فـرض الله من دعوة الخيـر والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ـ كمـا أمر الله ليتحقق لها ما ترجـوه من فوز وفلاحٍ ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٩٢].

١٦

ومن حـديث القرآن عن القـرآن ما جاء فـي قوله تعـالى في سـورة آل عمران ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾[٩٣].

والمخـاطب هو الـرسـول ﷺ وفي مخاطبتـه تنـويه بشأنـه وذكـر لمكانتـه ورسـالته والمشـار إليه بقـولـه ﴿تلك﴾ ما سبق من الآيـات ومـا تقرر فيهـا من حقائق ومصائر ومنها ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ ﴾[٩٤].

---

(٩٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٩٣) سورة آل عمران : ١٠٨ .

(٩٤) سورة آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٨ .

تلك آيات الله وبيناته لعباده نتلوها عليك بالحق. فما تقرره من مبادئ وقيمٍ حقٌّ وما تعرضه من مصائرَ حقٌّ، وهي آيات حق من الله الحق.

ومن أدرك ذلك وآمن به تمسك بالحق وعمل به، ولم تصرفه منفعة عاجلة أو رغبة طارئة عن الاستمساك بالحق والثبات عليه والرضا بنتائجه. فإن الجزاء واقع لا محالة.

فمن تمسك بالحق وجده، ومن آثر الباطل أُخذ بالحق. والجزاء في الحالين حق. فالجنة حق والنار حق ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾.

إن ترتيب الجزاء على العمل إحقاق للحق الذي لا تستقيم شئون الناس إلا به.

ومن تدبر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبدًا لأنه من الله، والله هو الحق، وقوله الحق ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٩٥).

إن من له ما في السموات وما في الأرض لا يستطيع أحد أن ينفذ من ملكه أو يفلت من حكمه، ومن إليه ترجع الأمور لا إلى غيره يحاسب على الحق الذي بصَّر به ودعا إليه وأقام الحجة على الخلق بآياته وبيناته، وهو قادر على ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾(٩٦).

فالأمر جد لا هزل فيه، وحق لا يقترب من ساحته باطل ولا يتسرب إليه.

إن من نزّل هذه الآيات لا يعجزه من شيء في الأرض ولا في السموات. وبالحق أنزل القرآن، وبالحق نزل، وبالحق ومن أجل الحق تقوم الساعة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٩٧)

---

(٩٥) سورة آل عمران: ١٠٩.

(٩٦) سورة فاطر: ٤٤.

(٩٧) سورة الجاثية: ٢٧.

فالحق ليس ضياعًا أو خذلانا لمن تمسك به . فما الساعة في قيامها وأهوالها إلا إحقاق للحق و إحضار لميزانه . ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[98] . ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[99].

إن الإيمان بالحق والعمل به أمن لدنيا الناس، وفوز لهم في أخراهم. ولا أمن ولا استقرار لمن كذب بالحق أو أعرض عنه.

و إذا تنكر الناس للحق وأُخْسِرَ ميزانه بين الخلق فلا تسل عن الاضطراب والهرج والمرج في كل شيء في داخل النفس وخارجها . في الكلمة التي تقال وفي العمل الذي يُراد وفي كل شأن من الشئون مرج واضطراب شقاءٌ يقع بمن كذب بالحق في دنياه وفي الآخرة عذاب أيّ عذاب .

إن الآيات التي تتلى على الناس بالحق فيها دعوة لهم إلى اتباع الحق ويأتي الجزاء لمن اتبع الحق وأعرض عنه من الله عدلا و إنصافا و إحقاقا للحق و إبطالاً للباطل ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[100].

١٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾ . وسواء كانت الإشارة في قوله :

---

(٩٨) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٩٩) سورة الروم : ١٤ ـ ١٦ .

(١٠٠) سورة ص : ٢٧ ـ ٢٩ .

﴿**هذا بيان للناس**﴾ إلى القرآن أو إلى ما يسبق هذه الآية من آيات، فإن المشار إليه جدير أن يتدبر وأن تُعلم هدايته ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

والبيان في قوله ﴿**هذا بيان**﴾ هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة. والهدى: بيان طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغيّ.

والموعظة: هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين.

فالحاصل أن البيان جنسٌ تحته نوعان: أحدهما الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى. والثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة.

هذا ما أجمله العلماء في تفسير البيان والهدى والموعظة. وهو إجمال يحتاج إلى تفصيل وحسن تدبر لآيات الله.

فمن المعلوم أن الناس جميعا يمرون بالحياة الدنيا ولا يقيمون.

والأجل الذي كتب لهم إن هو إلا فترة امتحان يُرى فيها أيحسنون أم يسيئون؟ فترة عمل وجد وإخلاص وكَدّ ﴿**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾.

ومن رحمة الله بالخلق أن بين لهم نتيجة عملهم وبصّرهم بما يجب أن يكونوا عليه ليفلحوا في يومهم ويفوزوا في غدهم. فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين. وأنزل معهم الكتاب والميزان وجعل الجزاء لمَنْ أحسن أو أساء وفاء لأعمالهم وإنصافا للحق الذي دعوا إليه وأمروا به. ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾**﴾(١٠١).

---

(١٠١) سورة النجم: ٣١.

ومن تدبر إحسان المحسن وإساءة المسيء وجد أثر ذلك في الدنيا عدلاً وبرًّا أو فسادًا وظلما. يحسن من يحسن في الدنيا ويسيء من يسيء، فينعم الناس بإصلاح من يحسن. ويساءون بإساءة من يسيء. وحكمة الخلق تأبى أن يستوي عند الله محسن ومسيء أو متّقٍ وفاجر وحكمة الخلق تقتضي أن يعود الناس إلى خالقهم وأن يجدوا ما عملوه في دنياهم حاضرا أمام أعينهم في حساب وجزاء لا مناص منه ولا مفر. وإلا كان الخلق عبثا وباطلا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾[١٠٢].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾[١٠٣].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[١٠٤].

وهذا البيان للناس دلالة لهم على ما يجب أن يكونوا عليه. وقد حفظ الله الذكر للأجيال كلها ليكون بيانه هدى لهم وتبصرة ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[١٠٥].

وليس بعد البيان للناس عذر لمعتذر أو حجةٌ لمنكرٍ أو جاحد. وفي البيان الذي سبق هذه الآية صفات يجب أن تتبع وهي صفات المتقين الذين يرجون رحمة الله وينالون مغفرته ورضوانه وهي صفات لها أثرها في تزكية النفس

---

(١٠٢) سورة ص : ٢٧.

(١٠٣) سورة المؤمنون : ١١٥ ـ ١١٦.

(١٠٤) سورة البقرة : ٢٨١.

(١٠٥) سورة الأنفال : ٤٢.

وروابط المجتمع . فالمتقي بتقواه ليس بمعزل عن شئـون الحياة وأحوال الناس بل هو عـامل على إصلاحها . يكف شـره عن غيره ويقدم خيـره . فعلى الذين يؤثرون الحياة الدنيا أن يعرفوا سبيل الأمن والسلام فيها .

فإنهـا لا تأمن إلا بإيمـان المـؤمن ولا تسلم إلا بتقـواه . ويخطئ من ينشـد الإصلاح بعيدا عن صلاح الفرد وهو الأصل في تكوين المجتمع .

إن صلاح الإنسان فيه إصلاح لشئون الحيـاة واستقامتها . فالإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة . والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة .

ومن هنا كانت العناية بتربية الإنسان وإعداده هي السبيل لإعداد أمةٍ ناهضة تنشد معالي الأمور وتبعد عن سَفْسافِها .

ولنتدبر بيان القرآن في صفات المتقين لنرى ما تؤديه هذه الصفات في حياة الفرد وروابط المجتمع ومـا تجنيه الإنسانيـة من ثمار الخير والبـر حين تتنافس على المكارم لا على المغانم .

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾(١٠٦).

---

(١٠٦) سورة آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٧ .

تلك هي الآيات التي سبقت قوله تعالى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وفيها صفات أهل التقى التي يُسارع بها أهلها إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. أما أهل التكذيب والجحود فلن ينتظروا إلا سنة الله في عاقبة المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. ومن ذلك فليحذر المخالفون المكذبون، وليسارعوا بالتوبة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾[107]. إن صفات أهل التقى رحمة بالناس في دنياهم والراحمون يرحمهم الرحمن ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ فإنهم ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ وتلك صفة لها دلالتها في إشاعة الخير بين الناس وتحقيق المودة ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾.

ولا تسل عن برٍّ من يكف عن إمضاء غيظه مع القدرة عليه فإن من ملك زمام نفسه وكظم غيظه ولم يَدَعْه ينفذ إلى غيره كان أقدر على تحقيق السلم في حياة الناس عن غيره. والعافين عمن ظلمهم أي التاركين عقوبتهم أولئك يبرون بغيرهم ويبتغون بما صنعوا وجه ربهم ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

إن أهل التقى مُنْفِقون، كاظمون غيظهم، عافون عن الناس، محسنون، تائبون، ذاكرون لله، مستغفرون. وتلك صفات يعود أثرها على الناس سلما وأمنا ووُدًّا وخيرا وصلاحا وبرًّا. إنهم بصفاتهم رحماء عاملون في تحقيق الخير

---

(١٠٧) سورة الروم: ٤٣ ـ ٤٥.

وإشاعة البر ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١٠٨).

١٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١٠٩).

والحديث عن القرآن في هذه الآية يأتي في سياق منّةِ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم.

﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ يعني أحسن إليهم وتفضل عليهم. والمنّة النعمة العظيمة ولا تكون في الحقيقة إلا لله عز وجل. وخص المؤمنين بهذه النعمة مع أن بعثة الرسول ﷺ رحمةٌ للعالمين؛ لبيان أنهم المنتفعون برسالته المقتدون بهدايته.

ورسالته رحمة للعالمين لا تخصُّ جنسا دون جنس ولا قبيلا دون قبيل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾(١١٠)، فمن اتبع هدى الله الذي جاء به اهتدى ونجا، ومن أعرض خَسِر وهلك.

---

(١٠٨) سورة آل عمران: ١٣٨، ١٣٩.

(١٠٩) سورة آل عمران: ١٦٤.

(١١٠) سورة الأعراف: ١٥٨.

والمنة على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم، هدايتهم للحق الذي جاء به، وإيمانهم بما نزّل عليه، وفوزهم بالعاقبة التي لا تكون إلا لمن اتبع وآمن.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾(١١١). وفي قوله ﴿يتلو عليهم آياته﴾ أضاف الآيات إلى ضمير الجلالة، وفي إضافتها تشريف لها أيُّ تشريف ودعوة إلى حسن تدبرها والاستمساك بها؛ لأنها آيات الله عز وجل.

والرسول ﷺ مأمور بتلاوتها وتبليغها كما أمره الله ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(١١٢).

﴿ويزكيهم﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ والكتاب: القرآن. والحكمة: السنّة المتعلمة من لسانه ﷺ. ذاك معناها حين تقترن بالكتاب. وقال مجاهد ومالك: «إن الحكمة معرفةُ الحق والعملُ به والإصابةُ في القول والعملِ. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان».

تلك منة الله على المؤمنين في إرسال الرسول وإنزال الكتاب وهي منة تستوجب الشكر وتدعو إلى تقدير النعمة واتباع ما جاء من الحق. نعمة أيُّ نعمة في كتاب وسنّة، يُعْصَم من تمسك بهما من الزيغ والضلال وينجو من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾(١١٣).

---

(١١١) سورة محمد: ٢.

(١١٢) سورة النمل: ٩١ - ٩٢.

(١١٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(١١٤).

وفي مناداة الـذين أوتوا الكتاب وأمرهم بـالإيمان بما نزِّل من القـرآن حديث عن القـرآن من وجهين. الأول : أنه منـزلٌ من الله. والثاني : أنـه مصدق لمـا معهم.

واستعمال نون العظمة في قوله ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ يشعر بالقدرة على مؤاخذة من أعرض وكذب. وكثيـرا ما نرى نون العظمة في جـانب التنزيل في كثير من الآيات. من ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾(١١٥). وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾(١١٦) وقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١١٧). وفي ذلك مـا فيـه من إرشـاد إلـى حسن الاتبـاع والتحـذيـر من الجحود أو الإعراض.

وفي قوله ﴿مصدقا لما معكم﴾ تسجيل على القوم بأنهـم إن كذبوا بمـا نزِّل من القرآن فقـد كفروا بما معهم من الحق. ولم يعودوا مـؤمنين. لأنّ من كذب من جاء مصدقـا لما معه فقد كذب بمـا معه وعرّض نفسه للمـؤاخذة بين يدي الله الـذي أرسل الرسل بـالبينـات وأنزل معهم الكتـاب والميـزان ليقوم النـاس بـالقسط. والذي أنـزل الكتـاب وأرسل الرسل هـو الله الـذي يعود الخلق إليـه ويحاسبـون بين يديه. ولن يفلت أحد أو يفـر من بعث وجزاء ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٨).

(١١٤) سورة النساء : ٤٧.
(١١٥) سورة الحجر: ٩.
(١١٦) سورة النساء : ١٠٥.
(١١٧) سورة المائدة : ٤٨.
(١١٨) سورة المجادلة : ٦.

وموقف الناس من الحق الذي جاءهم من ربهم هو الذي يحدد مصيرهم.

ولن يستويَ عند الله مُتَّقٍ وفاجرٌ، ولن يستوي مؤمن وكافر.

لا يستوي هؤلاء وأولئك في أعمالهم في الدنيا ولا في جزائهم في الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾(119).

فما جاء به الرسل وما أُنزل من الحق ليس ضياعًا لا يُسأل الخلق عنه. بل يُسأل الرسل ومن أرسل إليهم ـ والله عالم بهم ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾(120). ولذا وجب أن يؤخذ التهديد والوعيد مأخذ الجد وأن يُعَدّ الزاد ليوم لا ريب فيه.

ألا و إن الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ هذا الوعيد داع للمسارعة إلى صدق الإيمان والجد في الانتهاء عن المخالفة والإعراض. وفي تنكير الوجوه ﴿نطمس وجوها﴾ المفيد للتكثير تهويلٌ للخطب، وفي إبهامها لطفٌ بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان، والله قدير والله غفور رحيم. والقرآن وهو يتلى على الناس جميعا يبصرهم بما يجب أن يكونوا عليه ويحذرهم من التكذيب أو الإعراض عنه. وإذا خوطب قومٌ بالتحذير والوعيد

---

(119) سورة الروم: ١٤ ـ ١٦.

(120) سورة الأعراف: ٦ ـ ٩.

فليحذر جميع الخلق أن يصيبهم ما يصيب المعرضين المخالفين؛ فإن أهل الكتاب قد أمروا بالإيمان وجاءهم الوعيد على المخالفة والإعراض.

والعذاب صنوف وألوان، والوعيد حق لكل من خالف أو أعرض أن يؤخذ بذنبه أو يهلك بمعصيته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ و«من» الشرطية هذه من صيغ العموم فالوعد والوعيد عام لكل من اتبع أو أعرض. وحديث القرآن عن المعرضين وما يلقونه من سوء عاقبة ومصير فيه نذير للعالمين وتحذير للناس أجمعين.

فإن نداء أهل الكتاب لا يعني مخاطبتهم وحدهم. وإنما يعني البيان للناس والتبصرة والذكرى لكل عبد منيب.

والقرآن يتلى على الناس جميعا ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(١٢١).

٢٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾(١٢٢).

ففي حديث القرآن في هذه الآية بيان لموقف فريق من الناس منه وذكر للجزاء المترتب على الكفر به ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾(١٢٣).

ومن رحمة الله بالخلق أن يخبرهم بالجزاء قبل وقوعه وأن يبصرهم بما يجب أن يكونوا عليه. «ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حي عن بينة». وآيات

(١٢١) سورة النمل: ٩٢.
(١٢٢) سورة النساء: ٥٦.
(١٢٣) سورة النور: ٢٥.

الله تتلى على الناس صباحَ مساءَ، والقرآن محفوظ بحفظ الله ما بقيت الأرض والسماء. ليجد كل جيل تبصرته وهدايته. والقرآن يهدي للتي هي أقوم في جميع شئون الحياة. والله على كل شيء شهيد. والكل مسئول عما دُعي إليه اؤتمن عليه. ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعذار و إنذار. وتلك عاقبة من كفر ومن آمن. فليتدبر من شاء هذه العاقبة وليختر لنفسه ما يشاء ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾(١٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾(١٢٥).

ومن تدبر حكمة الثواب والعقاب وأدرك النتائج والعواقب علم أن حديث القرآن لدنيا الناس صلاح و إصلاح. فالذين يصليهم الله في الآخرة نارًا لم تر الدنيا منهم إلا فسادًا و إفسادًا والذين يدخلهم الله جنات قد آمنوا وعملوا الصالحات.

فالإيمان بالآخرة وما فيها من حسابٍ وجزاء داعٍ إلى عمل الخير في الدنيا والكف عن الشر والإفساد فيها. فليس الإيمان بمعزل عن شئون الحياة، بل هو مصلح لها بارٌّ بها.

إن إرادة الآخرة والسعي لها تمكين لمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال في الدنيا.

إن من أحسنتْ إلى كلبٍ فسقته ابتغاء مرضاة ربّها شكر اللهُ لها فغفر لها، ومن أساءت إلى هرة حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض

(١٢٤) سورة ق : ٤٥.

(١٢٥) سورة النساء : ٥٦-٥٧.

دخلت النـار. دلالة ذلك أن الله يطلب منـا أن نحسن في الدنيـا ولا نسيء وأن يرحم بعضنـا بعضًا حتى نُـرحم والراحمـون يرحمهم الرحمـن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. ومن لا يَرحم لا يُرحم.

ألا وإن الكفر بـآيات الله كفر بما تضمنتـه من الإيمان بالآخرة ومـا فيها من حساب وجزاء ومن كفر بالآخرة أفسـد في الدنيا وأساء. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن أصلح في سعيه وأحسن وأولئك كان سعيهم مشكورا.

إن إرداة الدنيـا دون سواها تـدمير في الـدنيا وخسران في الآخـرة. لأن إيثار الدنيا يوقع أهلها في التنافـس المسعور عليها دون مبالاة بظلم أو غدر. ولسان حال هؤلاء يقول مـرحبًا بالظلم إن حقّق لذة بل مرحبا بـالغدر إن أحرز غنيمة. بل واحسرتاه عند هؤلاء إن فات مطلوبهم منها أو بعُد المرغوب. وعندئذ يكون التنـافس على المغانم لا على المكـارم، والصـراع على سلب أقوات الجيـاع دون وازع. كل يريد دنياه ولو هلك الناس من حـوله. إن ظمأ اللهو بالتكاثر لا يطفئه مزيد من التكاثر وإنما يطفئـه يقين صادق باليوم الآخر. وباليقين يتحقق التعادل والاعتدال الـذي تنهزم معه الأثرة ويتحقق الإيثار. ويكـون ذلك عندما يوقن الناس أنهم يمـرون بالحياة الدنيا ولا يقيمون فيعملـون لآخرتهم ما يصلح أمر دنياهم ويحقق الأمن والسلام فيها.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾(١٢٦).

أرأيت أخي المسلم أن الجـزاء على كفرٍ أو إيمان دعـوةٌ لاستقامـة الإنسان لينعم النـاس فيمـا بينهم بـالتعارف والتعـاون على البـر والتقـوى لا على الإثم والعدوان.

---

(١٢٦) سورة المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١.

ويخطئ من يظن أن إهمال الآخرة وما فيها من حساب وجزاء يحقق التفوق والسبق في الدنيا. إنه سبقٌ - إن وقع - مفتون مدمّر لأهله إن لم يُصَن بإيمان ويقين ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١٢٧).

فلن يفلت أحد من جزاء أو يَفِرَّ من عاقبة ومصير.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(١٢٨).

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(١٢٩).

٢١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(١٣٠). والرد إلى الله ردٌّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرسول ﷺ ردٌّ إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته. ذاك هو السبيل لاستقامة الحياة وتراحم الأحياء وقيام الناس بالقسط على شرعة ومنهاج. وذاك هو الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال؟ وإذا أراد الناس الخير لأنفسهم في عاجل أمرهم وآجله فما لهم من سبيل سوى الرضا بالحق والتسليم له والعمل به. وليس من بعد ذلك إلاّ اتباع الهوى من بعد ما تبين الهدى. والرد إلى الله والرسول ردٌّ إلى الحق وبعد عن الهوى والضلال. وعدم الرضا بالرد إلى الله والرسول إيثار للباطل واتباع له، بل وقوع فيما لا تحمد عقباه من ضياعٍ واضطراب وشقاء وخسران. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١٢٧) سورة الزخرف: ٤١ - ٤٤.

(١٢٨) سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

(١٢٩) سورة المائدة: ١٠٥.

(١٣٠) سورة النساء: ٥٩.

﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾(١٣١) وهؤلاء لـن يفلتوا من حساب وعقـاب. ومن أبى الطاعـة لله في دنياه لقي ما يلقاه في دنياه وآخرته. ومـا أرسل الرسول إلا ليطاع، وطاعته طاعة لله والله يعلم ما تبديه النفوس وما تخفيه الصدور فلا بد من الصدق في الطاعة وإخلاص النية لله في الـرد إلى الله وإلى الرسول والسمع والطاعـة لما جاء في الكتاب والسنة. فذاك دليل الإيمـان ولا إيمان لمن صدّ عن ذلك أو أبى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾(١٣٢).

إن القرآن الكريم قـد أُنزل ليكون منهج حياة وهـدى للناس، على رسول من البشر لتحسن القـدوة والأسوة. ويُرى القرآن عمـلاً وخلقا ومنهجا وسلـوكًا في رسول الله ﷺ. وقـد سئلت أم المؤمنين عـائشة ـ رضي الله عنهـا ـ عن خـلـق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه». ولا فـلاح للناس ولا نجـاة لهم إلا باتبـاع الصراط المستقيم الـذي أنزل من أجلـه القرآن، وأرسل الرسول، به تسمو النفوس بتجردها للحق، وخضوعها للعدل. وتنمـو الـروابط بتغليب أمـر الله على هـوى النفس وتحيـا النفـوس بحسن استجابتها لله وللرسول. وتتحـرر الإرادة من أسر الأهواء والشهوات. إن الحكم بمـا أنزل الله والـردّ إلى الله والـرسول بـرهـان إيمان ويقين، وإن الإعـراض عن حكم الله في أي شأن من الشئون ينبئ عن مرض في القلوب وفساد في النفوس ولا نجاة من ظلـم وظلام وسوء عـاقبة ومصيـر إلا بالإذعـان لحكم الله وإعلان السمع والطـاعة لما نـزل من الحق. بهـذا يتحقق الفوز والفـلاح وبغيره تـدمِّر الإنسانية ما عمَّرت وتسوق الفناء بمعاصيها وآثامها إلى ما شيَّدت من بناء.

---

(١٣١) سورة النساء: ٦٠ ـ ٦١.

(١٣٢) سورة النساء: ٦٥.

أخي المسلم : إن آيات الله ــ وهي تتلى عليك ــ لا تخاطبك بأحداث ماضية لا صلة لها بحاضرك ومستقبلك ، وإنما تخاطبك بسنن باقية لا تتبدل ولا تتحول ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(١٣٣) .

فإذا رأيت الناس في مرج واضطراب وفتن وشقاء فاعلم أنهم قد بعدوا عما يجب أن يكون من اتباع الحق وطريق مستقيم ، ولم يرضوا بحكم الله ورسوله فتحكمت فيهم الشياطين . وماذا يكون من الإعراض عما قضى الله ورسوله إلاّ الضلال والخسران والضياع . وماذا يُجنى من ثمار ذلك إلا الظلم والفساد . ولا فلاح ولا فوز إلا بالسمع والطاعة والرضا بما قضى الله ورسوله ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(١٣٤) .

٢٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾(١٣٥) .

والكتاب هو القرآن . والله هو الذي أنزل الكتاب بالحق ليتحاكم الناس في كل شأن بما قضى الله ورسوله . وذلك هو مقتضى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١٣٦) .

(١٣٣) سورة فاطر : ٤٣ .
(١٣٤) سورة النور : ٥١ ــ ٥٢ .
(١٣٥) سورة النساء : ١٠٥ .
(١٣٦) سورة الأحزاب : ٣٦ .

والآية وإن كان لهـا سبب خاص فإن العبرة فيها بعمـوم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالحكم بين الناس جميعا بما أرى اللهُ رسولَه لا بما يرى الناس. لأن ما يراه الناسُ غيـرُ معصوم من هوى. والله هو الحق لا يحكم بين النـاس إلا بالحق، والحق لا يتبع أهـواء النـاس ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(١٣٧).

والنبي ﷺ ـ وهـو يحكم بين الناس بما أراه الله ـ معصـوم بعصمة ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾(١٣٨) فإذا بعد النـاس عن الحكم بما أنزل الله ـــ وهو الحق ـ تقـاذفتهم الأهواء، واقتادهم البـاطل، وعمَّت الفوضى وكثر الفسـاد وضيعت الأمانة وتطـاولت الخيانة. والحكم بين النـاس بالحق، وهو يقـام بمقتضى الإيمان وبدافعٍ من يتنـزه عن المؤثرات التي تميل بـالناس من حبهم لأنفسهم، أو ميلهم لذوي قرباهـم، أو انعطافهم لصديقٍ وجفائهم من عدو.

الحكم بـالحق يتنزه عن المـؤثرات التـي تميل بالنـاس عما يقتضيـه الحق وتـوحي به دلائلـه ومعـالمـه والله جل وعلا يأمـر المـؤمنين أن يكـونوا قـوامين بالقسط غير متبعين لهوى أنفسهم أو أهـواء غيرهم ومن تخلص من هوى نفسه كان قادرًا ـ بعون الله ـ على التخلص من هوى غيره. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١٣٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ

---

(١٣٧) سورة المؤمنون: ٧١.

(١٣٨) سورة النجم: ٣ ـ ٤.

(١٣٩) سورة النساء: ١٣٥.

شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[140].

والتحذير من الميل أو اتباع الهوى في تحقيق العدل وإقامة الحق لا يُلقى على الناس موعظةً بلا حساب أو جزاء. لا. بل لا بد من حساب عليه وجزاء لمن أحسن أو أساء. والآيتان كما ترى تُخْتَمان بقوله ﴿**فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾ وقوله ﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾.

وفيهما من الدلالة على العلم والإحاطة ما يجعل المؤمن يخشى حتى من وسوسة نفسه ومن نيته وعزيمة قلبه. فإن من تولى عن حكم الحق أو أعرض عنه مأخوذ بنيته محاط بخطيئته ﴿ **وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾** ﴾[141].

إن الله قد أنزل الكتاب ليحكم به بين الخلق، وذلك من مقتضيات الحق أن يكون حكما بين الناس ولا يكون غيره. ومصالح الناس لا تستقيم بل لا تتحقق إلا بحكم الحق والعدل. والحاكم بما أنزل الله ــ وهو الحق ــ متّبع يحكم بشرع الله لا بهواه. واجتهاد المجتهد لتطبيق حكم الله هو اتباع للحق يجعل الله له به فرقانًا ونورًا ومغفرة وأجرا ويهديه إلى سواء السبيل.

فمقصد الشرع هو إقامة الحق والعدل بين الناس. والكتاب وهو حق هدى للناس إلى الحق. والرسول ﷺ هادٍ إليه. والناس لا يتراحمون إلا بإقامة الحق والعدل. ولا تراحم بظلم وجور وإنما الرحمة في إحقاق الحق وإقامة العدل بين الناس جميعا بلا تفرقة ﴿**إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾** ﴾[142].

---

(١٤٠) سورة المائدة : ٨.

(١٤١) سورة المائدة : ٤٩.

(١٤٢) سورة النساء : ١٠٥.

وقد ذكرت من قبل أن هذه الآية وإن كان لها سبب خاص فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. أي إن الحكم بين الناس بما أنزل الله وبما أوحى إلى نبيِّه عامٌّ لا يَخص ناسا دون آخرين وإنما هو حكم رب العالمين للناس أجمعين. ولكن السبب قد يعطي دلالة خاصة وهي أن الحكم بالحق أعزُّ من الصلات بين الناس، صلات القرابة والصحبة.

فمهما كانت العداوة بينك وبين غيرك فأنت مطالب بتنفيذ حكم الله - وهو الحق - لصالح عدوك إن كان الحقُّ له، وأن تنصفه وإن عاداك وأبغضك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[143].

إنه الحق الذي لا مجاملة فيه ولا محاباة.

وإذا عرفنا أن هذه الآيات ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[144].

إذا عرفنا أنها أنزلت حين أنزلت لتنصف رجلا يهوديا اتّهم ظلما في سرقة - هو منها بريء - كادت التهمة أن تلصق به لوجود المسروق عنده.

نزلت الآيات لتبرئه وتدين الذين تآمروا على اتهامه وهم أهل بيت من الأنصار. إذا عرفنا ذلك أدركنا أن الحق أعزُّ من أن يخضع للأهواء أو يستدرج أو يستمال لصالح من ظلم أو خان لأي سبب أو أي اعتبار.

نزلت الآيات لتكون تبصرة للمؤمنين في كل زمان ومكان لكي يرتفعوا إلى المستوى الذي يقتضيه الإيمان. وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط وأن لا تحملهم العداوات مهما كانت ضراوتها على مجاوزة العدل أو مجافاة الحق.

---

(١٤٣) سورة المائدة: ٨.

(١٤٤) الآيات من سورة النساء: من الآية: ١٠٥ إلى الآية ١١٤ تقرأ بتدبر.

حُكْمٌ صدر لصالح اليهودي وإدانة الأنصاري الذي تآمر عليه في الوقت الذي كان اليهود فيه لا يدعون سهْمًا مسموما يملكونه إلا أطلقوه في حرب الإسلام وأهله، لكنّ الوحي الذي عُلِّمُوه وحكموا به جعلهم جندًا للحق في كل حال دون اعتبار لأي شيء سواه؛ لأن الحقَّ أكبر وأعلى وأغْلَى وأبقى شيء في الوجود، فلا اعتبار عندهم لشيء سواه، وهم بالحق ولن يكونوا بغيره. والنفوس المؤمنة حين تؤمر به تطيع وترتفع بإيمانها وصدقها عن الخلود إلى الأرض، فتقيم العدل وتحكم بالحق دون تفرقة بين قريب وبعيد أو عدو وصديق ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان، فقام الرسل بما أمروا به دون ميل أو استدراج وجعلوا حكم الله نافذا لا تقبل من شفاعة ولا يحول دون إمضائه أن يكون على شريف أو وضيع «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» يذكر الرسول ﷺ أقرب الناس منه وأحبهم إليه ليعلم الناس أن ميزان الحق والعدل لا يفرق بين قريب أو بعيد فالناس جميعا أمام العدل الذي شرعه الله سواء. والحق دائما أحق أن يتبع. وحكم العدل حري أن يُمضى وأن يقبل دون شعور بحرج. إنه حكم الله رب العالمين، ولا يقبل في حكم الله أن يساء إلى بريء لوضاعته أو عداوته، وأن يترك ظالم خائن لشرفه ومكانته دون تطبيق حكم الله عليه. فإن ذلك مجلبة للفساد ومدعاة للدمار والهلاك «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها.

إن الحكم بما أنزل الله هو الحكم بالحق والراضون به هم طلاب حق وعدل، والمعرضون عنه - من بعد ما تبين لهم - هم أرباب شقاق ونفاق وعبيد هدى ومنفعة. وأسرى شكوك وريب.

هؤلاء لا يرضون بالحق إلا إذا كان لهم أما إذا كان عليهم فهم عنه معرضون وله منكرون ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾(١٤٥).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾.

وسواء كان المراد بقوله ﴿بما أراك الله﴾ بالذي علَّمه أو بما يؤدي إليه اجتهاده فإن الحكم في الحالين حكم بما أنزل الله فإن الرسول ﷺ معصوم بعصمة ربه من الهوى الذي يُضلُّ عن سبيل الله. وما يكون من اجتهاد من غيره فيما لم يرد فيه نص قاطع ـ محكوم بضوابط وقواعد ـ فلا ينشئ المجتهد حكمًا من عند نفسه دون نظرٍ في سند أو دليل و إنما يعتمد في اجتهاده على معرفته بشرع الله و إدراكه لعلل الأحكام ومقاصد الشرع وحصوله على شروط الاجتهاد. فما يكون عليه المجتهد من صفات تحول بينه وبين الركون إلى الهوى أو التعمد أن يحيد عن الحق. وتعينه على أن يتحرى العدل مجتنبًا ما استطاع المؤثرات التي تميل به ولذا فإن التربية الإيمانية أصل أصيل في إعداد النفوس التي تقوم بالقسط وتحكم بالعدل. إن إنزال الكتاب بالحق داع إلى الحكم به وعدم مجاورته والحيدة عنه ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾(١٤٦).

فمقتضى نزوله بالحق أن يُتبع وأن تحذر الفتنة عن شيء منه. فإن الفتنة عن بعض ما أنزل الله مفضية إلى الفساد والفسوق ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(١٤٧).

---

(١٤٥) سورة النور : ٤٨ ـ ٥٠ .

(١٤٦) سورة المائدة : ٤٨ .

(١٤٧) سورة المائدة : ٤٩ .

إن كثيرا من الناس يقودهم هواهم إلى الخروج عن حكم الله طمعا في العاجلة ورغبة عن الآخرة مع أنهم تاركون لما طمعوا فيه، مقبلون إلى ما رغبوا عنه، محاسبون على الحق الذي خالفوه، مأخوذون بالباطل الذي اتبعوه. ومن رغب عن الحق لم تسلم له منافعه. ولن تبقى له مطامعه، ومن آثر الباطل خسر دنياه وآخرته وعاش في الدنيا ظمآن يحسب السراب ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه. الحق هو الذي يجده الطالب ولا يجد غيره. فهو الحياة وهو المرجع والمصير. فمن استهان به أو أعرض عنه أو آثر سواه في سلوكٍ أو معاملة أو اعتقاد حوسب بالحق على اتباع الباطل. ووجد الحق ولم يجد شيئا سواه. لأن ما سواه ذاهب هالك. وما عداه باطل وضلال يقود إلى الدمار والهلاك والعذاب والخسران ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(١٤٨) يقول الإمام ابن كثير في تفسيره القرآن العظيم: «وهذه وصيةٌ من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحقِّ المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. أخي المسلم، إن لليوم الآخر شأنا أيَّ شأن في استقامة النفس وخضوعها للحق وإيثارها ما يبقى على ما يفنى. وإن نسيانه والغفلة عنه وترك العمل به يبعد عن الحق ويوقع في الضلال. ومصالح الناس لا تستقيم إلا بالعدل وروابطهم لا تحسن إلا بإقامة الحق.

إن الحكم بالحق اتساق مع فطرة الكون وحقيقة الوجود في حسن الاستجابة لله والتسبيح بحمده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن

---

(١٤٨) سورة ص: ٢٦.

﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[149]. والحكم بالحق ليس نافلة يخير الإنسان بين فعلها وتركها. بل هو فريضة محكمة لا يعذر تاركها ولا يسلم من ريبة أو جحود. وأهل الإيمان أوفياء للحق ولا يخلو منهم زمن وإن قلَّ عددهم وكثر عدوهم ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾[150].

٢٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[151].

والكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ هو القرآن نزّله على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا. والكتاب الذي أنزل من قبل على الرسل بمعنى الكتب فـ«أل» فيه للجنس والكتب المنزَّلة يصدق بعضها بعضا. وقد جاء خاتمها مهيمنا عليها محفوظا بحفظ الله لتظل كلمة الحق على ألسنة الرسل جميعا مصونةً من التلبيس والافتراء والكذب.

جاء القرآن الكريم ليعلم الناس حقيقة الرسالة ويصدع بالحق الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب. ويرد كلَّ باطل أُلبس عليهم وكل ضلال نسب إليهم. فلم يعد هناك سبيل لكتمان ما جاء به الرسل والكتاب المحفوظ مهيمن وأمين وشاهد. ولا مهرب للمفرقين بين الرسل من حسابٍ وجزاء. والقرآن يتلى عليهم ويبين حقيقة ما جاءوا به من الدين وأنه واحد. ولا حجة بعد بيان، ولا معذرة بعد تبليغ وإنذار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾[152].

---

(١٤٩) سورة الإسراء: ٤٤.

(١٥٠) سورة الاعراف: ١٨١.

(١٥١) سورة النساء: ١٣٦.

(١٥٢) سورة النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

إن التفرقة بينهم وهم يدعون إلى دين واحد ـ كفر بهم جميعا وتكذيب أحدهم تكذيب لهم جميعا. وعداوة أحدهم عداوة للحق الذي بعثوا به.

والحق واحدٌ لا يتعدد. وهو ما دعوا إليه جميعا ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾(١٥٣) إن رسالات الرسل جميعا منبعها واحد وأصلها واحد.

وهذه الحقيقة ذات تأثير بالغ في سلوك الفرد وروابط المجتمع.

وشتان ما بين من يؤمن بالرسل جميعا والكتب جميعا ولا يفرق. وبين من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ شتان ما بينهما في الصفات والسلوك والأخلاق. شتان ما بين من يوحّد ولا يفرق وبين من يفرِّق ويرى ذلك دينًا يدين به. ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾(١٥٤).

إن رسول الله ﷺ كرَّم الأنبياء جميعا وآمن بهم وطلب الإيمان بهم جميعا وعدَّ الإيمان بهم أصلاً في رسالته والتفريق بينهم إنكارًا لدعوته. وذاك هو إيمانه وتلك دعوته ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾(١٥٥).

وكان من فضل الله على الناس أن يضمن لهذا الكتاب الذي ضم الاعتراف بالأنبياء جميعا الحفظ والبقاء وهو يسجل الصفحات البيضاء لهم جميعا ويضعهم في موضعهم إذ يردُّ ما افترت الأهواء عليهم.

---

(١٥٣) سورة الأنبياء: ٢٥.

(١٥٤) سورة الشورى: ١٤.

(١٥٥) سورة البقرة: ٢٨٥.

وهو بهذا يقول للإنسانية جميعا تلك هي الحقيقة الماضية على يد الداعين إليها من رسل الله وأنبيائه. وتلك هي الحقيقة محفوظة باقية في كتاب عزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾(١٥٦).

وذاك هو النداء في هذا الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾(١٥٧).

أخي المسلم، ومع إنزال الكتاب وحفظه وهداه وتبصرته لا عذر لمن فرط في جَنب الله أو أساء الظن بالله. والكتاب الكريم يخبرنا في ثقة وحق عن مصير هؤلاء وأولئك وعاقبة من أحسن أو أساء ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾(١٥٨).

٢٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(١٥٩).

والبرهان: الحجَّةُ الفاصلة البينة. وبرهن عليه: أقام الحجة.

---

(١٥٦) سورة فصلت: ٤٢.

(١٥٧) سورة النساء: ١٣٦.

(١٥٨) سورة النساء: ١٢٣ ـ ١٢٦.

(١٥٩) سورة النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥.

والظاهر في نفسه المُظْهِرُ لغيره يُسمَّى نورًا .

والنـــور من صفـات الله عـــز وجل . قـال الله تعـــالى ﴿**الله نـور السمـوات والأرض**﴾ .

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤**﴾ وهو القرآن الكريم سمَّـاه نورًا ، لأنه يُهتَدَى به من ظلمات الضـلال والباطل . وهذا القـرآن يحمل برهـانه للنـاس من رب العـالمين . وهو نـور كاشف للظلمـات والشبهـات . فمن اهتدى بـه فاز ونجـا ومن أبى وأعرض شَقِي وخَسـر ﴿**وأنزلنا إليكم نـورًا مبينا**﴾ تنكشف بـه حقـائق الأشيـاء ويُفـرق بين الحق والبـاطل في داخل النفس وواقع الحيـاة . حيث تجد النفس من هـذا النور مـا ينير حيـاتها وللقرآن أثـره البالغ في لين القلـوب وسكون النفوس وزيـادة الإيمان واستقـامة السلوك ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣**﴾[١٦٠].

وللقرآن أثره في روابط الناس وصلا تهم . فهو هدى ونور مبين .

والنور المبين تتحـدد به المعـالم ويُعرف الطريق ويهتـدى به للـوصول إلى الغاية والمصير بلا تعسر أو التباس ﴿**قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ**﴾[١٦١].

---

(١٦٠) سورة الزمر : ٢٣ .

(١٦١) سورة المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

إن هـذا الكتاب الـذي جعلـه الله نورًا كمـا جعل الشمس ضيـاء قد حفظـه ليكون النـاس على بينة من أمرهم ولا حياة بـلا نور ﴿ومن لم يجعل الله لـه نورًا فما لـه من نور﴾ . ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(١٦٢).

إن للحق نوره وبرهانه . وإن له نفعا وبقاء .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾(١٦٣).

وأنعِم بنور لا يكشف لك دُرُوبَ دنياك فحسب ، بـل يبين لك ما أنت صائر إليه ومنتهٍ عنده . ولا يدع مرحلة من مراحل السير بغير كشف وبيان .

ومن تدبـر القرآن عرف نفسه من أيـن جاء ؟ وإلى أين يصير؟ والقرآن يـذكره بـالبداية والنهايـة ، ويبصره بمـا يجب أن يكون عليـه للفوز بـالعاقبـة وحسن المصير ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(١٦٤).

---

(١٦٢) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(١٦٣) سورة الرعد : ١٧ .

(١٦٤) سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٧ .

هكذا في ثقة ويسر تقدم الحقائق للنـاس ويقام البرهان ويتضح المسير في غير لَبْسٍ أو غمـوض. الناس يمـرون بالحيـاة ولا يقيمون. «والله لتمـوتن كما تنامـون. ولتبعثن كما تستيقظـون. ولتحاسبن على مـا تعملون». حقـائق لها تأثيرها البالغ في تربية الإنسـان وتبصرته وإعداده للفوز برحمة الله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾[165].

أخي المسلم، إن رحلة الحياة الدنيا عميقة الدلالة. يظفر السعيد بدلالتها وينعم بتبصرتها. ويفتن الشقي بزينتها ويؤخذ بزهرتها. ومن رحمة الله بالخلق أن تكـون دلائل الحق فيهم وفيمـا خلق لهم من شيء، وأن يجيئهم الحق من ربهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ليكـون العلم بالحق فطريا لا تكلف فيه. تقـرأ آيات الله فيمـا أنـزل وتجـد صدقهـا في نفسك وفي الآفـاق من حـولك. والحق نـور تقـوم به الحيـاة. وحبل واصل مـن السماء، يعتصم بـه الأحيـاء، ويرتفعـون عن الخلود إلـى الأرض واتباع الأهواء. ومـن آمن بالله اهتـدى بهداه ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[166].

---

(١٦٥) سورة النساء: ١٧٥.

(١٦٦) سورة التغابن: ١١.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنـــه قوله تعالى في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[١٦٧].

نور وكتاب مبين، وصفان لما جاء به الرسول ﷺ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ذاك هو السبيل لمن ينشد السلام في أي زمان أو مكان. السلام بمعناه الواسع الممتد في حياة الفرد والمجتمع والعالم بأسره. سلام البيت والأسرة. وسلام المجتمع والأمة، بل سلام البشر والإنسانية جميعا في العاجلة والآخرة.

السلام القائم على الحق والعدل. الذي تنتصر فيه الفضائل وينعم الناس بالأمن والتراحم. ولا أمن مع ظلم وجور، ولا سلام يرجى مع كفرٍ وجحود.

فإن الأمن والسلام يرتبطان بصفات النفس ويتصلان بالقيم والأخلاق. ولا بد للقيم من منهج يهتدي الناس به، وللأخلاق من أسوة تكون أمام الناس في كل شأن. وقد اختار الله الأسوة وأنزل الكتاب. ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[١٦٨]. ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾[١٦٩].

وليس من يرجو اليوم الآخر بمعزل عن شئون الحياة. بل هو مصلح فيها محقق لما ترجوه من خير وما تنشده من بر.

---

(١٦٧) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(١٦٨) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(١٦٩) سورة الأحزاب: ٢١.

إن العدل والحق. والأمانة والصدق والوفاء والبر والرحمة والحب. صفات لا بد منها لتحقيق الأمن الصادق والسلام الآمن. وهي صفات من يرجو الله واليوم الآخر فيتأسى برسول الله ﷺ ويتخلق بما تخلق به وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه. ذاك هو النور الذي تُرى به الأمور على حقيقتها دون غبش أو التباس. ويعرف الإنسان ما له وما عليه دون تعدٍّ أو انتقاص. وبغير هذا النور يتخبط الناس في الظلمات وتُساء المعاملة ولا تصان الحرمات.

والإنسانية ـ وقد غدت بوسائل العصر وكأنها في بيت واحد ـ تحتاج في سلامها العالمي إلى دين عالمي يكون العالم أمام عدله سواء. لا يفرق بين جنس وجنس أو لون ولون. كما لا يفرق في عدله بين عدوٍّ وصديق وقريب وبعيد وشريف ووضيع.

دين يحترم قيمة الإنسان ويقدِّر كرامته ويحوطه بسياج اليقين ويطبعه على البر والرحمة، دين يبدد بنوره ظلام الخوف ويحقق أسباب السلام ويقيم دعائم الثقة.

يقيم العدل في ذات الإنسان أولا بين مطالب جسده وفضائل روحه ليتحقق العدل في الخارج وتقوم عليه حراسة ذاتية من قبل الإنسان وضميره.

دين يبقى على الإنسان مكرَّما في الأرض وخليفة لمالك الملك وأمينا على شرائع الحق والعدل وقد ارتضى الله لنا هذا الدين وأتم لنا به النعمة وحفظ لنا النور والكتاب المبين. ولا إنقاذ للبشرية كلها إلا بما حفظ الله ولا هداية لها إلاّ بهداه.

دين يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعا ولا يفرِّق ويدعو إلى كلمة سواء تنصف المظلوم حيث كان وتأخذ على يد الظالم من أي جنس كان. هو دين

السلام والإسلام وبه أرسل الله الرسل جميعا وأنـزل الكتاب وحفظ ما أنزله على رسله في كتاب عزيز لا يقترب الباطل من ساحته.

دين رب العـالمين للنـاس أجمعين ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[170].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[171] ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[172].

والمسلمون جميعـا مسئولـون بين يدي الله عن إدراك هـذه الحقيقة والعمل بها ودعوة الناس إليها ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[173] فعليهم أن يدركوا أن دينهم يـدعو إلى السلام. وللسلام أسسـه ومقوماته، ولـه قواعده وغاياته.

واتباع الكتاب والاقتداء بـالرسول هو سبيل السلام فليستمسكـوا بما أُمروا به من ربهم وما دعوا إليـه وليعلموا أن دوافع الماديين ترتبط بمنـافعهم لا بمرضاة ربهم. فلا يستخفهم من يـزهو بدنياه ولا يـوقن بأخراه. وليجعلوا من نـور هذا الكتاب المبين هـدًى لهم في كل شأن وليعتصموا بـه حيث كانوا. فإنـه حجة لهم أو عليهم. وليخـاطبوا الناس بـه وليأخذوا بـالأسباب في نصـرته والـدعوة إليـه. فإنه الحق فمـاذا بعد الحق إلا الضـلال؟ وليكـونوا على علمٍ بعصـرهم وزمنهم حتى يأخـذوا بـالأسبـاب على بصيـرة وليخلصـوا النيـةَ في جميع أعمالهم؛ فـإن إعلاء كلمة الله عـز لمن ابتغاه، وقـد أعزهم الله بـالإسلام فمن ابتغى العز في غيره أذله الله.

---

(١٧٠) سوة الفرقان: ١.

(١٧١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(١٧٢) سورة الأعراف: ١٥٨.

(١٧٣) سورة الزخرف: ٤٤.

وذاك هو الطريق إلى السلام لهم ولغيرهم، وهذا ما جاء من ربهم الذي له القوة جميعا والعزة جميعا ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١٧٤).

٢٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة المائدة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝٤٩﴾(١٨٥).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ والكتاب هو القرآن الكريم وهذه الآية لها دلالتها فيما تؤديه كلُّ كلمة بذاتها أو متعاونة مع أخواتها في بيان شأن القرآن الكريم في ذاته، وبالنسبة لما بين يديه من الكتب، وما يجب من عملٍ به، واتباعٍ له، وتسليم بحكمه.

وتدبر أخي المسلم دلالة الكلمات في هذه الآية من حديث القرآن عن القرآن.

﴿وأنزلنا﴾ والمنزِّل هو الله تعالى. وكفى بذلك دلالة على الحق وما يجب من حرص عليه وتمسك به وقد اتصل الفعل «أنزل» بنون العظمة «نا» في

---

(١٧٤) سورة المائدة : ١٥، ١٦.

(١٧٥) سورة المائدة : ٤٨، ٤٩.

الحديث عن الكتاب المحفوظ المعجز المهيمن، كما نرى ذلك في الحديث عن تنزيل الذكر وحفظه في قوله تعالى من سورة الحجر ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

«**إليك**»: هكذا بكاف الخطاب دون ذكر اسمه ﷺ، فيه ما فيه من تكريم لنبيه وتنويه بعلو مكانته واختصاصه بانتهاء التنزيل إليه دون سواه ﷺ، وجلَّ من أنزله واصطفى من أُنزل عليه و﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾.

«**الكتاب**»: دون وصفٍ له لأنه الجدير بأن يُسمَّى وحده الكتاب «فهو الفرد الكامل الحقيق بأن يسمّى كتابا على الإطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوي وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم فاللاَّم فيه للعهد.

«**بالحق**» وكل ما سبق قبل هذه الكلمة يدل عليها. فالمنزِّل هو الله. والمنزَّل عليه هو رسول الله ﷺ. والمنزَّل هو ذلك الكتاب. والنَّازل به هو الروح الأمين. فأيُّ دلالة على الحق وصونه وحفظه أوفى وأكمل من ذلك ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١٧٦). **وقوله**: ﴿**مصدقا لما بين يديه**﴾ مع ما فيه من دلالة على تصديق الكتب المنزلة قبله فإن كلمة «لما بين يديه» تكاد تجعلك تنطق بهيمنته قبل أن تسمع:

«**ومهيمنا عليه**» وأنه حاكم عليها ومؤتمن وحافظ وشهيد.

والقرآن الكريم أمين على الكتب المتقدمة قبله يعرض ما فيها من الحق ويرد ما ينسب إليها من باطل.

﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ والمقصود الحكم بين أهل الكتاب بما بيَّن الله في هذا الكتاب ولكن لم يأت القول على هذا النحو الذي ذكرتُ، وإنما جاء بما يدعو إلى وجوب الخضوع والرضا والتسليم حيث قال ﴿**بما أنزل الله**﴾

(١٧٦) سورة النحل: ١٠٢.

فلا مجال للمراوغة أو التفلت والإعراض. فإن الحكم بما أنزل الله ليس منسوبا إلى غيره فمن عارضه أو أباه فقد عارض الله ومن أعرض عنه فقد أعرض عن الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ولا مفر من عَوْدٍ إلى الله وحسابٍ بين يديه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

إن الحكم بما أنزل الله واجب الطاعة والرسول ﷺ يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه، فطاعته طاعةٌ لله ومعصيته معصيةٌ لله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[177] ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا**﴾[178].

والرسول ﷺ مأمور أن يتبع الحق الذي أنزل إليه منهيّ عن مجاوزته أو الانحراف عنه ﴿**ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾. إن الحكم بما أنزل الله يتنافى مع اتباع الأهواء، لأنه الحق، واتباع الأهواء ضلال وباطل تفسد به أحوال الناس. والحق ثابت مستقيم، لا تجوز مجاوزته أو الميل عنه، فلا تتزحزح أو تنحرف عما جاءك من الحق ـ وهو القرآن ـ متّبِعًا أهواءهم كما قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[179].

إن إنزال الكتاب بالحق داعٍ إلى حسن اتباعه والاستمساك به.

ومما يعين الناس على اتباع الحق في كل شأن من شئونهم تطبيق ما جاء من الحق في الاعتقاد والتربية و إقامة الفرائض التعبدية والفضائل والأخلاق.

---

(١٧٧) سورة النور: ٦٣.

(١٧٨) سورة الأحزاب: ٣٦.

(١٧٩) سورة الجاثية: ١٨ ـ ٢٠.

فإن الإنسان هو محور الإصلاح وهو المخاطب بالتطبيق فلا بد من صلاحه واستقامته، والمسلمون مطالبون دائما أن يعالجوا الأحداث المتجددة بفطرة الدين مستعينين بقواعده وأصوله. فإن من الخطأ بل من الخطيئة أن تثار قضايا الدين بعيدًا عن الواقع أو يعالج الواقع بغير فطرة الدين.

إن الناس إذا لم يُسعفهم البيان الحق في الأحداث المتجددة والقضايا المتلاحقة تخطفتهم أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتذليل شئون دنياهم.

ولأن يخطئ المسلمون في الاجتهاد السليم الصحيح خير لهم من التبعية والمطاوعة لغيرهم.

ولأن يعيشوا بأجر الخطأ في الاجتهاد خير من العيش بوزر القصد في المطاوعة، مطاوعة من يردهم عن دينهم ويبعدهم عن أصوله. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[(١٨٠)] إن الأمر ميسور لمن تحرَّى العدل ورغب فيه. وطلب الحق واجتهد في الحرص عليه والتمسك به.

والدين هو الحق والعدل في كل ما جاء به ودعا إليه.

وهذه الكلية من أمر الدين تحث المسلمين على مواجهة الأحداث المتجددة في ثقة وبينة فمقصد الدين هو إقامة العدل بين جميع الخلق.

فليثق المسلمون في أنفسهم مع ثقتهم في دينهم وليُعَالِجُوا - في غير حرج - قضايا عصرهم بفطرة دينهم، وليخوضوا معركة الحياة وفي طريقهم نوران: كتابٌ وسنة. فمهما اتسعت الحياة وتعددت أحداثها فإن معهم من الثابت في أمر دينهم ما ينير طريق المتغيّر في حياتهم. معهم من القواعد والأصول ما يتسع لجزئيات الأحداث واختلافها باختلاف الزمان أو المكان وما يجعل شريعتهم صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

---

(١٨٠) سورة آل عمران: ١٠١.

وبـذلك تكـون صلتهم بـالحق الـذي أنـزله الله دائمـة ومتجـددة، راشـدة ومثمرة، ويستمـدُّ كلُّ جديد في دنيـاهم أسباب حياتـه من شمس دينهم ونور كتابهم، فـلا تنفصل قضايا عصـرهم عن الحق الذي أنزلـه الله وأمر أن يُحكم به.

بل تتصل بــه اتصـال النبت المتجـدد بـأسبـاب الحيـاة واتصــال الحيـاة بمصدرها فلا تُحْكَمُ إلا بما أراها الله.

وبذلك تحقق الأمة الإسلامية ما أمـر الله به وحذَّر من مخالفته أو الميل عنه ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾(181).

وهل تسلم دنيانا من سيطرة الأهواء وغلبـة الأعداء إلَّا باتباع هدى الله؟ وهل تتحـرر نفوسنـا من المـؤثرات التي تميل بهـا عن الحق وتبعـدها عن الصـراط المستقيم إلا بصـدق الإخلاص لله وحسن التـوجه إليـه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(182) ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾(183).

٢٧

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(184).

إن الحكم بما أنـزل الله ـ وهـو الحق ـ ليس نافلـة في حياة النـاس، بل هو الواجب الذي لا يُعْفَى أحدٌ من السؤال عنه والتمسك به.

---

(181) سورة المائدة: 48.

(182) سورة العنكبوت: 69.

(183) سورة التغابن: 11.

(184) سورة المائدة: 49.

إن ما أنـزل الله من الحق لا تستقيم الحياة إلا بـه ولا يتحقق بدونـه سلام ولا أمن. وواجب على المؤمنين في كل زمـان ومكان أن يعرفـوا سنن الله في خلقه وأن يدركـوا أنها سننٌ لا تجـامل ولا تحابي ولا تتبـدل ولا تتحول. فلكل عمل جزاؤه، ولكل سعي عاقبته ومن مقتضيات الإيمان تحكيم شرع الله والتسليم به وإيثاره على كل ما سواه.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[١٨٥].

فليحذر أهل الإيمان في كلِّ زمان ومكان ما يبعدهم عن شريعة الله والحكم بما أنزل. فليحذروا المؤثرات التي تميل بهم عن الحق وتصرفهم عنه وتبعدهم عن استحباب الهدى والـرشاد فالحسد والبغي والظلم والكبـر والعناد. واتباع الهـوى، والغلـو. والاستهـزاء بـدين الله والقـول على الله بغيـر حق، واتبـاع الشيطـان. وكـراهــة الحق. وإرضـاء النـاس في سخـط الله، واتبـاع الظن، والجهل وعـدم العلم، والنفـاق، وتكذيـب الحق من أول وهلة دون تـدبـر أو نظـر، والغرور بـالحياة الـدنيا، وسـوء الظن بالله وطـول الأمد وقسـوة القلب، واتخـاذ أعداء الله أوليـاء تـوهما لتحقيق منفعـةٍ أو دفع مضـرة. واتباع البـاطل والركون إلى أهله..

كل ذلك وغيره من الشـرور والمفاسد والعلل التي تصـرف الناس عن الحق وتبعدهم عن استحباب الهدى والرشاد.

وهـذه المؤثـرات التي تميل بالنـاس عن الحق ــ وإن تعددت أو تـداخلت فإنهـا جميعا ظلمٌ للنفس وظلمـات يوم القيـامة **﴿وما ظلمهم الله ولكن كانـوا أنفسهم يظلمون﴾** إنها ذنوبٌ وآثام تدمر أصحابها وتسوقهم إلى أسوأ مصير.

---

(١٨٥) سورة النساء: ٦٥.

وكم من نداء للعباد أن يفيئوا إلى رشدهم وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من قبل إن يأتيهم الموت. كم من نداء يحذرهم من التكذيب بالحق والإعراض عنه.

وما أنزل الله من الحق هو لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم والله غنى عن العالمين. وآيات الله تتلى عليهم وتدعوهم إلى الإنابة إليه والإسلام له واتباع ما أنزل من قبل أن يأتي الموت أو يقع العذاب ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾(١٨٦).

إن من أنزل الحق سيحاسب عليه والخلق جميعا عائدون إليه ومحاسبون بين يديه. وسيكون شاهد الإنسان عليه من نفسه وإدانته بعمله. ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾(١٨٧) فطوبى لمن استمسك بالحق ولم يمت إلا عليه. وطوبى لمن رضي بحكمه واتبع هداه ولم يفرط في جنب الله. طوبى لمن آمن ولم يلبس إيمانه بظلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٢٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمَّنه قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ

---

(١٨٦) سورة الزمر : ٥٤ـ٥٩.

(١٨٧) سورة النور : ٢٤ـ٢٥.

يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾(١٨٨).

القرآن حق. وللحق سلطان على النفوس، وهو يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. نعم، للحق سلطانه وتأثيره في النفوس وانتصاره فيها.

وانتصار الحق في النفوس تراه في صور متعددة: تراه في صبر مجاهد، وفي توبة تائب، وفي سخاء جواد، وعفة فقير.

تراه في خضوع النفس لدوافعه وانقيادها لأوامره، وفي وجل القلب لحديثه ويقينه بوعده ووعيده.

وانتصار الحق في النفوس يحقق لها فوزًا وفلاحا. وتلك ميزة لا تكون إلا للحق ومنفعة لا تقوم إلا به. تخضع له النفوس فتعز. وتستجيب لأوامره فتسمو. وتعتصم به فتبرأ من الآثام وتسلم من النقائص. وتلجأ إلى غيره فلا تأمن إلا باللجوء إليه.

إنه الحق. والحقُّ خير كلُّه. وبر وصدق وعدل ورحمة.

يذنب المذنب فيتوب فلا يعيِّره بذنبه ويُعرض من يعرض عنه ثمَّ يئوب فَيَبَرُّ به ويكرمه.

تتحول به النفس من ضلال إلى هدى، ومن فجور إلى تُقًى. ومن ظلامٍ إلى نور، ومن خوف إلى أمن، ومن خسران إلى فوز، ومن جهل إلى علم، ومن سفاهة إلى حلم، ومن ابتغاء غير الله إلى الإخلاص لله، ومن الخلود إلى الأرض إلى رجاء من في السماء، ومن الإساءة إلى الخلق إلى الإحسان إليهم والبرِّ بهم، ومن الظلم للنفس والغير إلى العدل مع النفس ومع الغير، ومن

---

(١٨٨) سورة المائدة: ٨٣ ـ ٨٥.

نصـرة القريـب مهما ظَلَم إلى الأخـذ على يـده إذا ظلم، ومن وأد البنـات إلى تكريمهن وحسن تـربيتهن، ومن الخصومـة والتباغض إلى الأخـوة والتراحـم، ومن التناكر والتقاطع إلى التعارف والتعاون.

ذاك هـو الحق وتلـك بعض آثـاره وانتصـاره فـي النفس و إيثـاره. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[189]. إيمـانٌ بالحق نشأ عـن علم ومعرفـة وَجِلَت لـه القلوب وفـازت بهـدايته ــ هـداية الله ــ واستقـامت على صراطـه المستقيم.

ومن آمن بالحق أبصـر نتائجه وأدرك عواقبـه. ومن لم يؤمن أيقظته طـلائعه وصبحته قوارعه.

والمؤمن يتعهد قلبه بذكر الله ومـا نزل من الحق كما تُتَعَهَّد جنةٌ بوابلٍ أو طلّ فتؤتي أكلها وثمارها كل حين بإذن ربها.

و إحيـاء النفوس بـالحق لا يتـوقف، وعطـاؤه لا ينقطع، بل يتجدد تجـدُّدَ الماء في السماء فيصيب الله به من يشاء، ويصـرفه عمن يشاء وهُوَ هو من قبل ومن بعد.

لا تنبت الأرض بغيره ولا تحيا بسواه. والماء هو الماء في ماض وحاضر.

والحق هو الحق في سابق ولاحق. من آمن به اليوم وجد نفسه مع السابقين من المـؤمنين يحسُّ بإحسـاسهم ويشعـر بشعـورهم ولا يجد فـارق زمن بينـه وبينهم، بل يقـول في ثقـة، ذاك هو الحـق الذي آمن بـه السـابقـون وجاء بـه النبيون. كما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ حين جاءه الوحي. هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. قال: أومخرجيّ هم؟ قال: نعم. مـا جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عودي. وكمـا قال من آمن

---

(١٨٩) سورة الحج: ٥٤.

من أهل الكتاب حين تُلي عليهم ما أُنزل على الرسول ﷺ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾[190].

وذاك تأثيره في نفوسهم وأثره في أقوالهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤﴾[191].

وهذا ثوابهم وجزاؤهم عند ربهم ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[192] إن للحقِّ خصائصه وآثاره وله نبتـه وثماره التي لا تستند إلى غيره ولا تكـون لسواه، ومن رأى النخل بـاسقات لهـا طلع نضيد لم يغب عنـه أن في التـربة مـاءً وأن الحياة لا تكـون بدونه.

وأهل العلم والإيمـان في كل زمـان ومكـان يعرفـون مـا للحق من حيـاة ولا تخفى عليهم آثاره وثماره، والحقُّ في نفوس هؤلاء ينتصر على ما سواه، ويرون بنوره ما هم مقبلـون عليه وصائرون إليه. يرون أخراهم في دنيـاهم ويعملون لها ويشفقون منها.

ينتصـر الحق في النفوس فيطـوّعها لعمل الخيـر ويجعلها تنظـر ما قـدَّمت لغد. فلا ترى غير الحق أصلا للحياة وسببًا للنجاة. ولا تماري في وقائع الحق وآياته. وهي تؤمن أن الساعة آتيـة لا ريب فيها ـ وهي حق ـ فتعمل لها وتشفق منها.

إن الـذين آمنوا بـالحق ينتصر الحق فـي نفوسهم فـلا تلهيهم العاجلـة عن الآخـرة ولا تشغلهم الرغـائب عن العـواقب. بل يمشون في الأرض يبتغـون من فضل الله وهم يحـذرون الآخرة ويـرجون رحمـة ربهم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

---

(190) سورة القصص: ٥٣.

(191) سورة المائدة: ٨٣ ـ ٨٤.

(192) سورة المائدة: ٨٥.

بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾(١٩٣).

والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق وأنها تكون بالحق للفصل بين من اتبع الحق ومن اتبع الباطل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾(١٩٤).

ذاك ما يحققه إيمانهم بالحق يخلصهم من الركون لدنياهم ولا يجعل لها سلطانا عليهم. بل تكون بسبب الحق الذي آمنوا به خادمة لغاياتهم خاضعة لمقاصدهم، يريدون بها الآخرة فيصلحون ولا يفسدون، ولا يريدونها في ذاتها فيفسدون ولا يصلحون.. وإشفاقهم من الساعة نصرٌ للحق وإعلاءٌ للصدق وإشاعة للبر وإمساك عن الشر.

وتلك ـ وربِّي ـ دعائم السلم لمن طلب السلم وأسباب الأمن لمن ابتغى الأمن.

وليس انتصار الحق في النفوس وإيثاره في معركة طارئة من معارك الحياة فحسب. بل هو انتصار يقود إلى ملازمةٍ واتباع. اتباع للحق في كل شأن وطاعة له في كل أمر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾(١٩٥).

وليست هذه الملازمة في الاتباع ترتبط بمعنى يقف عند حدود الحياة الدنيا ولا يزيد، بل هو اتباع يتجاوز حدود الحياة الدنيا إلى غيرها وينشد ما وراءها.

وشتان ما بين اتباعٍ واتباع. بين اتباع الباطل في بطلانه واتباع الحق في ثباته وبقائه. شتان ما بين النتائج في الحالين. وشتان ما بين الفريقين ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾

(١٩٣) سورة الشورى: ١٧ ـ ١٨.

(١٩٤) سورة الروم: ١٤.

(١٩٥) سورة محمد: ٢، ٣.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[196].

تواصٍ بالحق يدل على إيثاره وتواصٍ بالصبر يدل على دوامه، وتآزرٌ يدل على الإصرار على الثبات حتى الممات. وقد يتواصى الذين يتبعون الباطل فيما بينهم لحظة من نهار. وتراهم فيما بينهم وعند تبدُّل الأحوال أشدَّ الناس نكرانًا لباطلهم. وما يبدو غير ذلك إنْ هو إلا ركون لزهرة حياة في إملاء واستدراج ينتهي بدمار وخسران.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[197].

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها إنك نعم المولى ونعم النصير.

٢٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمَّنه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾[198].

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت لما قال كفار مكة للنبي ﷺ أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنا لا نرى أحدًا نُصدِّقه. ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر.

---

(١٩٦) سورة العصر.

(١٩٧) سورة الجاثية: ٢٧.

(١٩٨) سورة الأنعام: ١٩.

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾(١٩٩). وقد روي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام وهو من هو بين اليهود شرفًا وعلما، فهو حبرهم وابن حبرهم وعالمهم وابن عالمهم. فلما أسلم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله قد أنزل على نبيه بمكة **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ فكيف هذه المعرفة؟**

قال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشدُّ معرفة بمحمد مني بابني.

فقال عمر: كيف ذلك: قال: أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدري ما تصنع النساء.

وَا عَجبًا أن تُطْلَبَ الشهادة على نبوة محمد من كفار مكة والقرآن يتلى عليهم. وفي القرآن شهادة من الله له، وما كان يتلو من قبله من كتاب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢٠٠).

﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ والقرآن الذي أوحى الله به إلى نبيّه قد حفظه ليكون بلاغا

---

(١٩٩) سورة الأنعام: ٢٠.

(٢٠٠) سورة العنكبوت: ٤٨ ـ ٥٢.

للناس ونذيرا للعالمين فهو للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢٠١). ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٢٠٢).

رسالة عامة شاملة ينذر كتابُها ويبشر وهو يتلى على الناس ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾(٢٠٣).

وقد بلّغ الرسول ﷺ ما أنزل إليه من ربه وبشر وأنذر كما أمر ولم يعد لأحدٍ عذرٌ بعد بلاغ ولا حجة بعد إعذار و إنذار ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(٢٠٤).

إن هذا القرآن بيان للناس وإنذار لهم قبل يوم الحساب. وهو كتاب مقروء محفوظ تبلَّغ به الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا يقترب الباطل من ساحته. وبه يعرف ما ينسب إلى الحق وما يخالفه وتكشف أوثان الباطل وأصنامه، وأولياء الشيطان وأعوانه. وتبقى به مصابيح النور على الصراط المستقيم مشرقة مضيئة هادية فلا يُلبَس الحق بالباطل ولا تلتبس على الناس السبل. إنه صراط واحد مستقيم يقف القرآن الكريم داعيا وهاديا إليه. وما عداه سبلٌ يتخبط أهلها في الظلمات وتفضي بهم إلى فرقة ضالة وعذاب مهين ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢٠٥).

---

(٢٠١) سورة الفرقان: ١.
(٢٠٢) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٢٠٣) سورة النمل: ٩٢.
(٢٠٤) سورة النساء: ١١٥.
(٢٠٥) سورة الأنعام: ١٥٣.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢٠٦).

والضمير في قوله ﴿وكذب به﴾ راجع إلى القرآن الكريم ويحتمل أن يعود على الوعيد الذي تضمنته هذه الآية من قبل ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٢٠٧).

﴿وهو الحق﴾ يعود إلى القرآن الكريم أو ما تضمنه من وعيد.

والرسول ﷺ مبلِّغ عن ربِّه. ينذرهم عاقبة تكذيبهم ولا يملك هدايتهم أو إجبارهم على الإيمان، كما لا يملك حفظهم أو دفع العذاب عنهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾.

ولا حجة لهم وقد أُرسل إليهم، ولا عذر لهم وقد جاءهم الحق من ربهم. ولا مفرَّ من العذاب لمن كذب بالحق وأعرض عنه. ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾ وعيد لمن كفر.

لكل خبرٍ أخبر الله تعالى به من وعدٍ أو وعيد مستقرٌّ في الدنيا أو في الآخرة.

ويخطئ من يستبطئ العاقبة أو يستبعد الجزاء.

فإن السنين الطوال إذا مضت غدت في حسِّ الإنسان دقائق وثواني. ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾

(٢٠٦) سورة الأنعام: ٦٦، ٦٧.

(٢٠٧) سورة الأنعام: ٦٥.

﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾(٢٠٨).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (٢٠٩). ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾(٢١٠) وعندئذ تُوَفَّى كلُّ نفس ما عملت ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾(٢١١).

إن التكذيب بما نَزَلَ من الحق مُفْضٍ إلى عقاب قد يُعَجَّلُ وقد يُؤَجَّلُ إلى حين ولكن المكذبين لن يفلتوا منه بحال. ولن يجدوا مَوْئِلاً لفرار. ولن يكونوا أكثر أو أشد قوة ممن كذب من قبلهم. فقد أخذهم الله بذنبهم وجعل أخذهم عبرة لمن بَعْدهم. والأرض هي الأرض، تحكي لكل جيل ما جرى عليها وما وقع فيها.

وفي آثار من كذّبوا صمتٌ رهيب ترتجف منه القلوب وتخشع النفوس. ومن لم يعتبر بما يرى من بوار فليس له من جزاءٍ إلا النار ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾(٢١٢).

---

(٢٠٨) سورة المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٦.
(٢٠٩) سورة الروم: ٥٥.
(٢١٠) سورة النازعات: ٤٦.
(٢١١) سورة النبأ: ٤٠.
(٢١٢) سورة غافر: ٢١، ٢٢.

تلك سنة الله فيمن كـذب بما نزل من الحـق ولن تجد لسنة الله تبـديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾ (٢١٣).

إن القرآن الكريم حق وهو يدعو الناس جميعا إلى اتباع الحق.

وللحق سلطانه وحجتهُ ولو نظر الجاحدون في أنفسهم لرأوا سلطانه فيهم. فكيف ينكـرونـه ومـا من شيء من أمـرهم في خلقهم ومعـاشهم، وحيـاتهم وموتهم، وليلهم ونهارهم، إلا وللحق فيه دليل وله بيان وحجة وسلطان؟!

فإذا دعوا إلى عبادة الله وحـده ـ وهذا حق ـ كـان لهم من الأدلة على صدق الـدعوة إلى الحق مـا يدعـوهم إلى حسن الطـاعة والاستجـابة ويبعـدهم عن الفسوق والعصيان.

وإذا دعُوا إلى الإيمـان بالبعث ـ وهو حق ـ وفيه ما فيه من صـلاح دنياهم ـ كان لهم من الأدلة في الآفاق وفي الأنفس ما يدعوهم إلى اليقين بأنه حق.

ومن لا يَدِنْ دين الحق ـ فللحق معه موقف محدد منضبط بضوابط الحق.

والحق من الله ولا دخل لأهواء الناس فيه.

والحساب بين يدي الله الذي يعلم حق النـاس وباطِلَهم وسرَّهم وعلانيتهم ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۝٢٥﴾ (٢١٤).

إن الناس مأمورون باتباع الحق ومحاسبون عليه. والحساب لا يدع شيئا ولا يفلت من ميزانه شيء ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢١٥).

---

(٢١٣) سورة: محمد ١٠.

(٢١٤) سورة النور: ٢٥.

(٢١٥) سورة الأنبياء: ٤٧.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٢١٦).

إن كلمة «مبارك» يوصف بها الماء كما يوصف بها هذا الكتاب. ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾(٢١٧).

وكلُّنا يدرك إلى أيِّ حدٍّ تنتهي بركة الماء وإلى أي مدى تمتد بركة هذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ، وكيف يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه. فبركته ـ بحمد الله ـ ثابتةٌ وممتدةٌ.

وإذا كانت الأرض الطيبة تقبل الماء فتنبت الكلأ والعشب الكثير، فإن النفوس الطيبة ـ بفضل ربها ـ تتقبل وحي الله وتؤمن بآياته، فتنبت العمل الطيب، وتثمر الخلق الحسن. تتحرك بإيمانها وتنبعث بيقينها ويؤازر بعضُها بعضا تَعَبُّدًا لله وطاعةً لأمره ﴿**كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه**﴾ وكثيرا ما نجد الحديث عن القرآن الكريم يتجاور مع الحديث عن الماء في كتاب الله عز وجل. وهذا التجاور يلفت نظر المتدبر إلى ما بينهما من مناسبة.

والرسول ﷺ يبين ذلك بقوله «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه.

إن إيمان الإنسان بهذا واستجابته لما دعاه إليه يحقق له الحياة. كما أن تقبل الأرض للماء يحييها من بعد موات ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾(٢١٨).

---

(٢١٦) سورة الأنعام: ٩٢.
(٢١٧) سورة ق: ٩.
(٢١٨) سورة الحج: ٥.

ألا و إن أثر الماء في تحقيق الحياة محدود بأجل .

ولكن آثار القرآن تمتد مع الإنسان ولا تتخلف عنه في موت أو بعث أو حساب أو جزاء . «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه» كما جاء فيما رواه مسلم عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ وعن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما» . وروى أبوداود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال : يقال لصاحب القرآن : «اقرأ وارتقِ ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» .

تلك هي بركة القرآن لمن اهتدى به ، تمتد ولا تنقطع . وتدوم مع الإنسان في موت وبعث وحساب وجزاء . نورٌ لصاحبه وحرزٌ من النار. رفعة وارتقاء في درج الجنة بقدر ما حفظ وعمل . اقرأ وارتق . أي في درج الجنة بقدر ما حفظت من آي القرآن فأَنْعِم به من صاحبٍ وأكرمْ به من محفوظ وحافظ . ومن محبوب يُدخل صاحبه الجنة بفضل الله ورحمته ، ومن وفيٍّ لا يتخلى عن صاحبه عندما يفرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، كتاب مبارك لا تنقطع بركته ولا يتوقف عطاؤه ولا ينطفئ نوره ولا يضيّع صاحبُه فاحفظ أخي المسلم كتاب ربك وحافظ عليه واجعل لسانك رطبا به فإنه أفضل ذكرٍ تذكر به ربّك . واحذر هجره أو الإعراض عنه . فإن في كل حرف منه أجرًا أيَّ أجر. «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلَمّ حرف ولكن ألفٌ حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرف» كما جاء فيما رواه الترمذي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال حديث حسن صحيح . ولا تجعل قلبك محرومًا بتركه «فإن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» وكن مُتَّبِعًا لهداه فإن من اتبعه قاده إلى الجنة .

ومن أعرض عنه شقي في دنياه وأخراه .

اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إمامًا ونورًا وهدى ورحمة .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ • وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢١٩).

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والبصائر جمع بصيرة وهو النور الذي تُبصر به النفس. كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين. والمراد بالبصائر الأدلة والحجج. ويراد بها هنا آيات القرآن الكريم.

وفي قوله ﴿من ربكم﴾ حث وتحذير. حثٌّ على صدق التمسك وحسن الاتباع. وتحذير من المخالفة والإعراض. فإن هذه البصائر من ربكم الذي خلقكم وربَّاكم بنعمه، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض بفضله ورحمته.

وفي وصف البصائر بالمجيء تَفْخِيمٌ لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. أي من تعقَّل البصائر وعَرَفها وأذعن لها فَنَفْع ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من النار ﴿ومن عمي فعليها﴾ أي عمي عن البصائر ولم يتعقلها ولم يذعن لها فضرر ذلك عائد عليه؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا والآخرة. وللإبصار نتائجه وللعمى عن البصائر عواقبه.

ولما كان هذا واردًا على لسان الرسول ﷺ وقد أمر بتلاوته وتبليغه قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي قل لهم هذا وذاك، قل لهم مبلِّغا عن ربك ما أنزل إليك: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا

(٢١٩) سورة الأنعام: ١٠٤ ـ ١٠٦.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي برقيب أحصي عليكم أعمالكم وإنما أنا رسولٌ أبلّغكم رسالة ربّي وهو الحفيظ عليكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل ذلك التصريف البديع نصرِّفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه لتقوم الحجّة وتنقطع المعذرة.

ومع تصريف الآيات وبيانِها ترى من الناس من يجادل في آيات الله بغير علم ويحاول أن يجد تعليلا لهواه بنسبة هذه البصائر لغير الحق.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمتَه منهم وهم يوقنون أنه ما تلا من قبلُ من كتابٍ ولا خطه بيمينه ﷺ.

وما كان أحدٌ من قبل من أهل الكتاب ولا من غيرهم يعلم شيئًا على هذا المستوى من التنزيل المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكنه العمى والجهل يقود صاحبه إلى التخبط والجحود.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢٢٠).

إن هذا القرآن يقوم في حياة الناس مقام الشمس في عالم الكون لا يخفى نوره ولا ينقطع مدُّه ولا يذهب أثره. ﴿**فمن أبصر فلنفسه**﴾ والبصائر قائمة لا تغيب. ومن عمي عن البصائر فَلِعِلَّةٍ فيه لا في النور والهدى ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩ ﴾(٢٢١).

ومع الضياء والنور ترى ناسًا يأبون إلاّ أن يكونوا في القبور.

---

(٢٢٠) سورة العنكبوت: ٤٨، ٤٩.
(٢٢١) سورة الرعد: ١٩.

ومن أصحاب القبور أولئك الذين يقولون للرسول الكريم ﷺ - وهم يعلمون نشأته - «درست» أي أعانك عليه قوم آخرون وليس من عند ربّك. ويقول أمثالهم على مر السنين ما يقولون. وشمس القرآن فوق رءوسهم لا تغيب، إن بارحت رءوسهم أنارت عند آخرين، والناس قديما وحديثا أمام حجج الحق وبيانه فريقان: فريق مبصرٌ يعلم أنه الحق، وفريق أعمى يجادل في الحق بغير علم.

وعلى دعاة الحق حيث كانوا أن يقتدوا بنبيِّهم فيما أُمِرَ به، وأن يستمسكوا بالحق دون أن يعبأوا بالذين لا يوقنون.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢٢٢).

ذاك هو السبيل ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ فإنه الحق الذي يريد أهل الباطل أن يصرفوا الداعين عنه وأن يردوا المتمسِّكين به، وأن يشغلوهم عنه بلغوٍ من القول وأن يبعدوهم بشتى الوسائل والأساليب. والسبيل لردِّ الكيد والصدّ هو صدق الاتباع والتمسك بما أنزل الله على رسوله ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾(٢٢٣) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾(٢٢٤).

وبذا يكون تحقيق النصر ودفعُ الكيد. إذ لا سبيل لنصر الحق إلا التمسك به والعمل بمقتضاه والصبر والتقوى كما أمر الله.

ومن تدبر النتائج وعرف العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن الحقَّ لا يهزم أبدا؛ لأن العاقبة له لا لغيره.

وسيعلم الناس جميعا ذلك ويوقنون به ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٢٢٥).

---

(٢٢٢) سورة الأنعام: ١٠٦.

(٢٢٣) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٢٢٤) سورة الروم: ٦٠.

(٢٢٥) سورة الشعراء: ٢٢٧.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾(٢٢٦). إن الميل عن الحكم بما أنزل الله قصدًا وعمدا دلالة على انحراف القصد وسوء المصير.

والإعراض عنه دلالةٌ على ريب النفوس ومرض القلوب. وسوء ظن بالله وبالرسول. ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾(٢٢٧).

إن القرآن الكريم قد أُنزل ليحكم به ويرجع إليه وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم ولا يأبى حكمه إلا أولئك الذين يبغونها عوجا.

ولن تستقيم حياة الناس إلا بالرضا بحكم الله والتسليم له.

وقد أمر الله الرسول ﷺ بأن يقول لأولئك الذين يميلون إلى زخارف الشياطين ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ معناه: قل لهم: أأميل إلى زخارف الشياطين فأبتغى غير الله حكما؟

وفي توجيه هذا القول ما فيه من إنكار على أولئك الذين تميل قلوبهم لغير ما أنزل الله مما تمليه الشياطين وتزينه فتصرفهم عن الرضا بحكم الله والتسليم له.

---

(٢٢٦) سورة الأنعام: ١١٤، ١١٥.

(٢٢٧) سورة النور: ٤٧ ـ ٥٠.

إن الحكم بغير ما أنزل الله مجافاةٌ للحق وبعد عن الصراط المستقيم .

والله قد أنـزل الكتاب بـالحق وحفظه من التبديل والتحـريف ليكون هـداية للأجيال كلِّها ورحمةً للعالمين . فمن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .

إنه القول الفصل والحكم العدل في كل شأن من شئون الخلق .

والذين آتيناهم الكتـاب من علماء اليهود والنصارى يعلمـون أن القرآن منزل من ربك بـالحق . وفي تقريـر أن القرآن منـزل من ربك بالحق فيـه ما فيـه من دعوة لجميع الخلق لاتبـاع الحق . والحق جدير أن يتبع . وأن تحذر مخـالفته أو الإعراض عنه . فإن للحق نورًا ونارًا فمن أبى النور فالنار موعده .

ومن علم أنه الحقُّ مدانٌ ومسئول .

والكارهون للحق أو المبغضون له مأخوذون به خالدون في ناره .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[228] وعلَّـة خلـودهم فيهـا كـراهيتهم للحق الذي جـاءهم من ربِّهم ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[229].

فهم بسبب كراهيتهم للحق مجرمـون . وهم من أجل ذلك في عذاب جهنم خالدون . ذاك هو المصير لمن كره الحق أو أعرض عنه وهو يعلم أنه الحق .

والله هو الحق وقوله الحق وقد أنزل الكتاب بالحق .

ولا نجاة إلا لمحق ولا فوز إلا لمن كان على الحق الذي أنزل الله به الكتاب وأرسل الرسل ومـا هلك هالك إلا وقـد جاءه الحق من قبل وبلَّغ بـه وحذَّر من مخالفته ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[230].

---

(٢٢٨) سورة الزخرف : ٧٤ .

(٢٢٩) سورة الزخرف : ٧٨ .

(٢٣٠) سورة الإسراء : ١٥ .

فإذا جاءت العاقبة كان الحساب بعد بيان و إعذار وابتلاء وامتحان . ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢٣١).

و إن الله الذي أرسل الرسل وأنزل الكتاب هو الذي يجمع الخلائق و يقضي بينهم وهو الذي خلقهم وهو الذي أحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه .

وفي يوم الجمع : القول للحق . والباطل مدان . والقضاء بين جميع الخلق ولا شفاعة إلا لمن شهد بالحق .

و إذا تأملنا في أمر الفريقين ـ من أهل الجنة وأهل السعير، وتدبرنا حالهم لم نجد إلاّ الحق سببا فيما وصلو إليه . وصاروا إليه . إن كانوا محقِّين فبالحق أدخلوا في رحمة ربهم . والجنة حق . و إن كانوا مبطلين فمن أجل الحق الذي كرهوه وأنكروه ـ آوتهم النار ـ وهي حق .

وما ظنوه بعيدًا وجدوه قريبا . وما لم يكونوا به مستيقنين وجدوه يقينا وذاك ما جاء به الكتاب مفصلا إعذارًا و إنذارًا .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾(٢٣٢).


٣٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢٣٣) .

---

(٢٣١) سورة فاطر: ٢٤ .

(٢٣٢) سورة محمد: ٣ .

(٢٣٣) سورة الأنعام: ١٥٥ .

والإشارة في قـوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ إلى القـرآن الكريم. و«أنـزلناه» صفـة لـ«كتاب» و«مباركٌ» صفـة أخرى لـه. والـوصفان يـرشدان إلى صـدق اليقين وحسن الاتباع فالله هو الذي أنزله، وبـالحق أنزله. فهو جدير أن يُسْتَمْسَك به وأن يتبع. وهو مبـارك ثابت البركة لا ينقطع مـدُّه ولا يزول نفعه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإنـه لكتاب مبـارك حقـا إذ تناطُ بـه رحمـةُ الله لمن أحسن الاتباع واتّقى ربّه فأخلص وأحسن.

مبارك في ذاتـه ومبارك في آثاره ونتـائجه. وكفـاه شهادةُ الله له بأنـه «مبارك» ففيه من التعظيم لشأنه والإشادة بذكره ما فيه.

فهو جـامع لكل أسباب الهداية الثـابتة الدائمة النـامية. فاتبعوا مـا هداكم إليه واتقوا ما نهـاكم عنه وحذركم إياه، لتكون رحمة الله تعـالى مرجوة لكم في دنياكم وآخرتكم فإن أكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملاً.

فما من خيـر إلاَّ ودعا إليه ورغب فيه ومـا من شر إلا ونهى عنه وحـذر منه. فهو مبارك في ذاته وفي آثاره ونتائجـه بما يفيض به من الخيرات وما يحققه من طمأنينة نفسٍ واستقامة سعي وهدى للتي هي أقوم.

ومن تدبـر آثاره في عالم النفس وعـالم الحس رأى المكانة التي سمـا إليها الإنسان حين استمسك بـه واسترشد بهدايته. حيث نهـاه أن يسجد لشمس أو قمر وأمره أن يسجد لله الذي خلقه وعلَّمـه أن الأشياء مع عظمها وكبرها خلقت من أجله وسخِّرت له. وأنه خُلق لعبادة ربِّه فلا يسجد لغيره ولا يذل لسواه.

فسمت بذلك مكـانة الإنسان وتحـددت منزلته وغـايته، وغدَا بـه صاحب رسالة ومبـدأ. ارتفع به عن جاذبية التعصب لجنس أو لـون. وجعله ينظر إلى الحياة من أفق أعلى. ويرى أرضـه شيئا في ملك الله وليست كل شيء، فتحرر من الخلـود إليها والإفساد فيهـا. مشى في منـاكب الأرض ينشد رزق ربـه وهو يوقن بالعـود إليه والحساب بين يديه. فلـم يفتن بعطاء، ولم يَقنط بمصاب أو

بلاء. والقرآن الكريم يوجه سعيه ويطمئن قلبه ويحفظ نفسه من الدمار بإيثار الحياة الدنيا أو الركون إليها. دعاه إلى الأخذ بالأسباب والعمل لدنياه دون غفلة عن أخراه فما ضيعت دنيا ولا تركت الأخرى.

فكانت بركة القرآن تعميرًا لدنيا الناس وحفظا لأخراهم.

وقد حدد للمجتمع كلِّه طريق أمنه وسلمه. ودعا إلى تعارفه وحذر من تناكره. وجعل الفرائض التي أمر بها عونا له على تقديم خيره وكفِّ شرِّه.

ومن الحدود التي شرعها حماية للإنسان من ظلم نفسه أو ظلم غيره.

ومن العقيدة التي نادى بها طلبًا لأخراه في صالح العمل في دنياه.

فما ضيعت دنيا ولا أهملت أخرى. بل نعمت دنيا الناس بما في سعي الآخرة من عمل بر وتقديم خير. وطابت الآخرة بما يكون في الدنيا من إخلاص قصد واستقامة سعي.

فكانت بركة القرآن وهدايته عدلاً للإنسان في ذات نفسه بين مطالب جسده وفضائل روحه. عدلاً بينه وبين غيره. عدلا في حق دنياه وحق آخرته.

فوجد به الإنسان الصحيح الذي يتحقق به الأمن ويصان السلم.

والإنسان الصحيح تصح به الأمور الفاسدة والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة. ومن أجل الإنسان نزل القرآن نورًا وهدى للناس ليتراحموا فيما بينهم وليتعارفوا ولا يتناكروا. نزل ليتَّبع ويعمل به **﴿فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾**.



حديث القرآن عن القرآن
في آيات من:

١ ـ سورة الأعراف
٢ ـ سورة الأنفال
٣ ـ سورة يونس
٤ ـ سورة هود
٥ ـ سورة يوسف
٦ ـ سورة الرعد
٧ ـ سورة إبراهيم
٨ ـ سورة الحجر
٩ ـ سورة النحل
١٠ ـ سورة الإسراء
١١ ـ سورة الكهف



ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢٣٤).

والمخاطب بقوله ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ هو الرسول ﷺ. والكتاب المنزل هو القرآن الكريم.

وفي قوله ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ تنبيهٌ لما يلاقيه الداعي إلى الحق من صدٍّ وتكذيب وكيد. وهو يصدع بالحق ويجابه عقائد وعادات ويعارض انحرافات وأباطيل. فالحرج في طريقه كثير؛ لأن الحق لا يجامل ولا يحابي، ولا يُستخفُّ أهل اليقين ولا يستدرجون. فهم على ثبات وصدق فيما يؤمنون به ويدعون إليه.

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ المؤمنون لهم الذكرى. وغير المؤمنين لهم الإنذار. وللحق نورٌ ونارٌ فمن أبى النور فالنار موعده ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

دعوة إلى الناس كافة أن يتبعوا القرآن ولا يتخذوا من دون الله أولياء يطيعونهم في معصية الله فإن ذلك مفضٍ إلى دمارٍ وهلاك.

﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ

(٢٣٤) سورة الأعراف: ١ ـ ٣.

يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢٣٥).

إن مصارع المكذِّبين الغـابرين فيها تذكير وإنـذار وتحذير ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ كثيرة تلك القرى التي أهلكت بمعـاصيها وأخذت بذنـوبها ودمّرت بتكذيبها. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾(٢٣٦). إن سنن الله نـافـذة في الأولين والآخرين لا تتبدل ولا تتحول ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢٣٧).

وليس أمـام الخلق من سبيل لنجـاةٍ إلاّ بصـدق الاتبـاع لمـا نـزل من الحق ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

وفي إنذار النـاس بما حصل للأمم المـاضية بسبب إعـراضهم عن الحق ما يكفي للعبرة والموعظـة. والسعيد من اتعظ بغيره. وتدبـر ما وقع ولم يكن من الغافلين.

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾.

أهلكوا في ساعة بياتٍ أو قيلولة حيـث الاسترخاء والأمان فكان أخذهم أشدّ ترويعا وأعنف وقعًا وأدعى للتذكر والاعتبار دون إرجاء أو إبطاء.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ

---

(٢٣٥) سورة الأعراف: ٤ـ٩.

(٢٣٦) سورة محمد: ١٠.

(٢٣٧) سورة العنكبوت: ٤٠.

﴿تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[٢٣٨]. إن لكل شيء عاقبته. وعاقبة المكذبين دمار وخسران.

وتراهم ـ والدمار لاحق بهم ـ يعترفون بذنوبهم وآثامهم ويبدون الأسف والندم حيث لا ينفع ندم ولا تقبل توبة أو معذرة. فإن الندم قد فات موعده والتوبة لا تقبل إذا حضر الموت أو وقع العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[٢٣٩].

الأمر إذن جد خطير. فلنتدبر ما أنزل إلينا من ربنا ولنستمسك به ولنحذر مخالفته أو الإعراضَ عنه.

فإن القرآن قد أنزل وحفظ ليعمل به.

فمن اتبعه قاده إلى الجنة ومن أعرض عنه ساقه إلى النار.

فليس أعزل من قوة تحقق وعدهُ ووعيده وهو تنزيل رب العالمين إنه الحق. وللحق نورٌ ونار فمن أبى النور فالنار موعده.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[٢٤٠].

نحن مأمورون باتباعه ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلنحذر مخالفته أو الإعراض عنه. فإن الإصرار على الإعراض عنه دليل شرك وخسران واتخاذ الشياطين أولياء.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فتشركون وتضلون.

---

(٢٣٨) سورة النحل: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢٣٩) سورة غافر: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢٤٠) سورة طه: ١٢٣، ١٢٤.

ولا عذر بعد بيان، ولا حجة بعد تذكير وإنذار ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾(٢٤١).

٣٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣ ﴾(٢٤٢).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ قرآنٍ فصلناه بإيضاح الحق من الباطل وبينا فيه كل شيء عالمين بتفصيله. أو فصلناه مشتملاً على علمٍ أيٍّ علم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون بهدايته الفائزون برضا الله ورحمته.

إنهم آمنوا به واتبعوه واهتدوا بهداه ففازوا وسعدوا وكان لهم نورًا في دنياهم وأخراهم وتلك عاقبة من اتبع القرآن واهتدى بهداه.

أما أولئك الذين كذبوه وأعرضوا عنه فإنهم ـ وهم يصرون ـ سيؤمنون به ويعلنون أنه الحق ولكن بعد فوات الأوان، حيث لا ينفعهم اعتراف ولا إيمان ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يقولون ذلك يوم القيامة حين يرون العاقبة في صدق ما أخبر به ودعا إليه.

---

(٢٤١) سورة الأعراف: ٦، ٧.
(٢٤٢) سورة الأعراف: ٥٢، ٥٣.

لقد تركوا الإيمان من قبل، وندموا حيث لا ينفع الندم وقالوا معترفين نادمين ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي تبين لنا صدق الرسل فيما أخبرونا به في الدنيا. فيعترفون بذلك لمشاهدتهم ومعاينتهم العذابَ الذي أخبروا به، وحذروا منه. وها هم يلتمسون كل سبيل لكي يعودوا إلى ما تركوه وفرَّطوا فيه، معلنين إيمانهم به واعترافهم بأنه الحق ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾(٢٤٣).

لقد فات أوان الامتحان والاختبار ومضي وقت العمل وانقضى الأجل وجاء الحساب والجزاء. وفاز من صدَّق وآمن وعمل صالحا. وخسر من كذَّب وأعرض وكره ما جاء من الحق. وترى هؤلاء في حسرتهم ينشدون الشفعاء ويطلبون أن يعودوا ليحصلوا ما فرَّطوا فيه فلا يجابون إلا بتوبيخ وتقريع ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾.

ذاك هو الحق في انتصاره.

إن من تدبر العاقبة أيقن أن الحق لا يهزم أبدًا وأن الباطل زاهق لا محالة. وترى الناس جميعا مؤمنين وكافرين يعلنون ولاءهم للحق وقد رأوا بأعينهم عاقبة ما أخبرهم به ودعاهم إليه أو حذرهم منه.

أما أهل الإيمان فإنهم يقولون ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ حمدًا وشكرا. وأما أهل الكفر فيقولون ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أسفا وندما على تفريطهم. وشتان ما بين قول هؤلاء وأولئك.

---

(٢٤٣) سورة سبأ: ٥١ ـ ٥٤.

هؤلاء يقولونها أسفا وندما على التفريط في الإيمان بالحق وقد خسروا أنفسهم، وأولئك يقولونها حمدًا وشكرًا وهم يدخلون رحمة ربهم وقد عملوا بما آمنوا به من قبل. لقد رأى الخلق جميعا تأويل ما جاء به القرآن وتحقق الجزاء وفاز من فاز وخسر من خسر وحقَّ الحق وبطل الباطل.

والقرآن الكريم - وهو الحق - يرينا عاقبة هؤلاء وأولئك مَنْ صَدَّق وآمن ومن كذَّب وأعرض؛ ليختار الناس لأنفسهم على بينة سبيل النجاة، أو سبل الدَّمار والهلاك.

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(٢٤٤).



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الأعراف ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢٤٥).

لقد تضمنت هذه الآيات حديثا عن القرآن من حيث وصفُه وآثاره ونتائجه.

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالإيمان بالقرآن والعملُ بمقتضاه في اتباع لا ابتداع فيه تطلب

(٢٤٤) سورة الكهف: ٤٩.

(٢٤٥) سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧.

بـه رحمـــة الله وتـرجى . ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢٤٦).

وقد وعد الله ـ ووعـده الحق ـ أن يتغمد برحمته أولئك الذيـن يتبعون الرسول النبي الأمي الذي أرسله الله رحمةً للعالمين ونـزَّل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا .

فالإيمان برسالته إيمانٌ بـرسل الله جميعا وصفته ﷺ معلومة لأهل الكتاب ، حملتهـا التـوراة وحملهـا الإنجيل ﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ .وهو رحمـة الله للخلق جميعا . ولا تكتـب الرحمة فـي الآخرة إلا لمن اتبعه وآمن به .

ومن كفر به ـ بعد بعثته ـ ليس له نصيب في رحمة الآخرة التي تعم المؤمنين من سـائر الأمم ممن آمن برسل الله من قبـل وآمن به بعـد بعثته بـلا تفرقـة بين رسول ورسول .

﴿لا نفرق بين أحدٍ من رسله﴾ .

وإعلام الخلق بذلك رحمةٌ بهم وإعذار.

وقـد تضمنت الآيات في الحـديث عن القـرآن الذي أنـزل على النبي الأمي تضمنت وصفه بـ «النور»﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾اتبعوا النور الذي أنزل معه أي القرآن وقـد عُبِّر عنه بالنور المنبئ عـن كونه ظاهرًا بنفسـه مظهرًا لغيره . أي اتبعوا القـرآن المنزَّل عليه مع اتباعـه ﷺ بالعمل بسنته وبما أمـر به أو نهى عنه . أو اتبعوا القرآن كما اتبعه هو ﷺ مصاحبين له في اتباعه .

وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ .

---

(٢٤٦) سورة الأنعام : ١٥٥ .

إنه النـور. وبالنور تتميـز الأشياء وتـدرك المعالـم ويهتدي النـاس. والقرآن يهدي به الله إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾(٢٤٧).

ولا حياة بلا روح ولا سعي إلى الغاية بلا نور ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾(٢٤٨) وهذا أمـرُ الله لنبيه ونداؤه للخلق جميعا أن يتبعـوه وأن يهتدوا بهداه.

نداءٌ أُمـر الرسول ﷺ بتبليغـه ـ وقد بلّغ الرسـالة وأدى الأمانـة ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢٤٩).

والذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنـزل معه مطالبون في كل زمان ومكان أن يقدروا لهذا الأمر قـدره. وأمة الإسلام مسئولة عما آمنت بـه وشرفت بالانتساب إليه. فإنها أمة أقام فيها التنـزيل مقام الشمس في فلك السماء. أضاء جوانب الحياة كلها.

فعرفت بـه نفسها وفهمت رسالتهـا وخاض بها تجربـة حياتها فعـرفته سبيل عزِّها ومجدهـا وطريق نصرها وفوزها. فأحيت بـه ليلها وطهرت سعيها فأحلت ما أحل وحرمت ما حرَّم.

---

(٢٤٧) سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢٤٨) سورة النور: ٤٠.

(٢٤٩) سورة الأعراف: ١٥٨.

وامتد ملكها بنوره وعرفت به بين الأمم.

وظل في مكانته وسيظل عزيزا، لا يقترب من ساحة باطل، أو يأتي إلى حرفٍ من حروفه عدوٌّ غادر. قد يقصد أرضه أو يهزم أهله فينال منهم - إن هم فرَّطوا - ولا يستطيع أن ينال منه أو يقترب من حماه. ومن حفظه الله لا يضيِّعه الناس.

المسلمون مطالبون في كل عصر أن يستمسكوا به فهو عزُّهم وشرفهم وأن يعتصموا به ولا يتفرقوا وأن يتبعوه وأن يبلِّغوه وأن يحذروا مخالفته أو الإعراض عنه فإنهم به ولن يكونوا بغيره ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون﴾.

٣٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٢٥٠).

والذين كذبوا بآياتنا ﴿القرآن﴾ سنستدرجهم : أي ننقلهم درجة بعد أخرى من علو إلى أسفل أو من أسفل إلى علو.

ومعناه : نَقْلهم وتقريبهم إلى العقوبة بواسطة النّعم التى اغترُّوا بها.

نستدرجهم إلى الهلاك قليلا قليلا أي نُقرِّبهم منه بإمهالهم وإدرار النعم عليهم حتى يأتيهم وهم غافلون.

ولذا قيل : إذا رأيت الله أنعم على عبده وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مُستَدْرج.

﴿من حيث لا يعلمون﴾ أي من حيث لا يعلمون أنه استدراج. فكلما جدَّدُوا معصيةً زِيدوا نعمةً ونسوا الشكر.

(٢٥٠) سورة الأعراف : ١٨٢ - ١٨٣.

وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يُغْبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غِرَّة أغفلَ ما يكونون.

تلك عاقبة من كذب بالحق وجحد ما أنزل الله من كتاب.

والله وحده هو الذي يستدرج هؤلاء ويُمْلي لهم.

الله الذي لم يخافوه وهم يُخالفون رسولَه، ويحاربون من يهدون بالحق وبه يعدلون. هو وحده الذي يستدرجهم ويأخذهم ويُمْهِلُهُم ولا يُهْمِلهم.

الله الذي ينسون قوته ويذكرون قوتهم، يملي لهم في العصيان والطغيان استدراجا لهم في طريق الهلكة، وإمعانا في الكيد لهم والتدبير. ومن الذي يكيدهم؟ إنه الجبار ذو القوة المتين. ولكنهم غافلون.

والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(٢٥١).

إن الله ــ سبحانه ـ يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان. وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو استدراجٌ إلى أسوأ مصير. وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ويأتوا إلى الموقف الرهيب مُثْقَلِين بالذنوب.

ولو تدبَّر الإنسان ذلك في دنياه ـ وهو في سعة من أمره ـ لم يُشْغَل بالرغائب عن العواقب ولم يُفتن بالزينة عن القيمة.

إن كشفَ الاستدراج والتدبير عَدْلٌ من الله ورحمة.

والله ـ سبحانه ـ يقدّم لأعدائه المكذبين بآياته عدلَه ورحمتَه في هذا التحذير وذلك التدبير. وهم وما يختارون لأنفسهم.

---

(٢٥١) سورة القلم: ٤٤ـ٤٥.

إنه ــ سبحانه ــ يُمْهل ولا يُهمل، ويُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته، وذلك ما وقع للمكذبين بالحق من قبل، وما جرى للمستهزئين بالرسل. ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(٢٥٢).

فتَرْكُ أهل الباطل فترةً ليس نسيانا لهم أو غفلة عنهم.

والإملاء للظالمين ليس تكريمًا لهم ــ كما يظنون ـ أو إهانةً لغيرهم ــ كما يتوهمون ـ وإنما هو الاستدراج إلى العذاب من حيث لا يشعرون.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(٢٥٣) ومن يتدبر القرآن يرى ما وقع من قبل مع أقوامٍ وأقوام. ويرى ما يقع مع أمثالهم في كل زمان ومكان **﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾(٢٥٤).

والأرض قد سُكِنَتْ من بعد هؤلاء وأولئك، وبقيت آثارهم خَاوِيَةً خاليةً تدل عليهم، وتسوق العبرة لمن بعدهم.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٢٥٥).

---

(٢٥٢) سورة الرعد: ٣٢.
(٢٥٣) سورة إبراهيم: ٤٢.
(٢٥٤) سورة الحج: ٤٢ـ٤٤.
(٢٥٥) سورة غافر: ٨٢.

وكم في الأرض من عبرٍ وعظات. وكم فيها من دورٍ قد خلَت، وأقوام قد ذهبت، وقرى ظالمةٍ قد أخذت ودمّرت، فما بكت عليهم السماء والأرض. ولا رُئِيَ منهم بعد هلاكهم حراك، ولا سُمِع لهم صوت ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾(٢٥٦).

فطوبى لمن اعتبر. وهدى بالحق وبه عدل.

٣٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾(٢٥٧).

لقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله ﷺ جاهلين حقيقة الرسالة وطبيعة الرسول، وأنه يتلقى من الله ما يعطيه، ولا يقدِّم بين يدي الله، ولا يقترح عليه، ولا يأتي بشيء من عند نفسه.

ولكنَّ أهل الشرك ــ في عمى وجهالة ــ يطلبون الآيات وما هم بمؤمنين بها ولو جاءتهم كلُّ آية. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾(٢٥٨). ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا قالوا: هلاَّ أنشأتها من قِبَلِ نفسك. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ وليس لي أن آتي من عند نفسي بشيء.

إنهم لم يقترحوا الآيات ويطلبوها رغبة في الإيمان، وإنما طلبوها إمعانا في الجحود والنكران.

ولو كان الأمرُ أمر إيمان لكفاهم القرآن.

---

(٢٥٦) سورة مريم: ٩٨.
(٢٥٧) سورة الأعراف: ٢٠٣.
(٢٥٨) سورة يونس: ٩٦ ـ ٩٧.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢٥٩) إن هؤلاء لن يـؤمنوا حتى يـروا العذاب الأليم ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(٢٦٠) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾(٢٦١) وقد أمر الرسـول ﷺ أن يجيبهم بقـوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ ﴾ ليعرفوا حقيقة الرسالة والرسول وأنه مبلغ عن ربه ، لا يملك إلا ما يوحيه إليه ، ولا يأتي إلا بما أمره الله به .

كـذلك أمر الـرسول ﷺ أن يقـول لهم وهو يشيـر إلى القرآن الكـريم ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ فأي آيات الله يطلبـون وأمامهم هذا الذي يغفلون عنه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ .

إن الخوارق المادية لا تصلح إلا لمن رآها أو عاش في عصرها .

والقرآن الكريم هو كتاب ـ من عند الله ـ للزمن كلّه وللأجيال كلّها .

إنه كتاب الدعوة الإسلامية للناس جميعا في كل زمان ومكان .

وأية خـارقة مـادية لا تبلغ من الإعجاز مـا يبلغه القـرآن في أي زمان وفي أي مكـان . ولكن الجـاحـدين ـ في ظلمهـم لأنفسهم ـ يـأبون أن يخضعـوا لمـا تستيقنه نفـوسهم ظلمـا وعلوا . ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(٢٦٢).

---

(٢٥٩) سورة العنكبوت : ٥١ .

(٢٦٠) سورة الأنعام : ١١١ .

(٢٦١) سورة الأنعام : ٧ .

(٢٦٢) سورة يونس : ١٥ ـ ١٦ .

إن الـذين طلبـوا الآيـات لـم يطلبـوهـا لخفـاء الأدلـة والحجج على صـدق الداعي وما نزل من الحق . وإنما طلبوها إمعانا في المكابرة والجحود .

والنفوس إذا جحـدت والبصائر إذا عميت لـم تسمع ولـم تبصـر هُدَى الحقِّ وبيانه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[263] والقرآن هو القرآن للمـؤمنين هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنـون في آذانهم وقر وهـو عليهم عمى . ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[264] إنه القرآن ، يقـول عنه العليـم الخبير ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنه بصائر تكشف وتنير ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها .

فطـوبى لمـن اتبع هـداه واستمسك بـه ، وويلٌ لمن تعمـد مخـالفتـه أو الإعراض عنه . اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماما ونورا وهدى ورحمة .

٤٠

ومن حـديث القرآن عن القـرآن ما جـاء في قـوله تعـالى في سورة الأعـراف ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[265] .

وقد جاءت هذه الآيـة بعد قوله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ والمناسبة بيِّنةٌ واضحـة . لما ذكر ـ سبحانه ـ أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر ـ سبحانه ـ بالإنصات عند تلاوته ؛ إعظامًا له واحترامًا ، لا كما كـان يتعمده المشركـون من كفار مكـة في قولهم ﴿**لا تسمعوا لهـذا القرآن والغوا فيه**﴾ .

ولكن يتأكـد ذلك في الصلاة المكتوبـة إذا جهر الإمـام بالقـراءة . كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال

---

(٢٦٣) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٢٦٤) سورة فصلت : ٤٤ .

(٢٦٥) سورة الأعراف : ٢٠٤ .

رسول الله ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا». وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ «أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاةٍ جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ أحدٌ منكم معي آنِفًا؟ قال رجل: نعم يا رسول الله قال: إني أقول ما لى أنازع القرآن. قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ».

وقد اختلف العلماء في الحال التى أمر الله بالاستماع لقارئ القرآن والإنصات له.

لأن قوله سبحانه ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أمر. وظاهر الأمر الوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماعُ والسكوت واجبين.

فمن العلماء من يرى أن فحوى هذه الآية على العموم، ففي أي وقت وفي أي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماعُ له والسكوت.

ومنهم من يرى أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة، فقد روي عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن.

والأخذ بعموم اللفظ في قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أولى من قصره على حال دون حال. وإن تأكد ووجب في الصلاة فإن ذلك أرجى في طلب الرحمة. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنةٌ مضاعفةٌ. ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة».

إن تدبر القرآن يستلزم حُسْنَ الإصْغَاءِ له والعمل به.

وقد أنزل الله القرآن وحَفِظَهُ ليُتَدَبَّر وليُعمل به.

فمن الواجب أن تسلم مجالسُ القرآن من الصخب أو الاشتغال بغيره، وأن ينقاد الناس لأوامر القرآن ونواهيه، وأن يتلقوه كما تلقَّاه الصحابة الكرام ـ رضي

الله عنهم ـ وأن يحققوا ما دلت عليه الآيات من الإيمان والعلم والعمل، وأن يتخلقوا بأخلاقه وآدابه، فإنه خطاب من الله موجَّهٌ إلى الناس، وهم مطالبون بتدبره ومعرفة معانيه والعمل بما جاء فيه.

فلْيستمعوا له ولْيُنْصِتُوا عند قراءته؛ رجاء أن ينالوا رضوان الله ورحمته. إنه الحق، وبيان الحق للناس رحمةٌ بهم؛ حتى لا تقودهم الأهواء بعيدًا عن ساحته. وبالقرآن وبيان يعرف ما ينتسب للحق وما يخالفه. إنه هدى للناس في دنياهم، ونورٌ في أخراهم، وهو حجة لهم أو عليهم. حجة لهم إن هم أقبلُوا عليه وعملوا به. وحجة عليهم إن هم أعرضوا عنه ولم يتبعوا هداه.

وبه يَرفع الله أقوامًا ويضع آخرين.

٤١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾(٢٦٦).

ففي الآية بيان لتأثير القرآن في قلوب الناس وسلوكهم.

فإن قلوب المؤمنين تستقبل القرآن، كما تستقبل الأرض الطيبة ما ينزل عليها من الغيث، فتهتز وتربو وتنبت وتثمر.

إن للقرآن تأثيره في النفوس وهو يوجهها ويهديها إلىْ الحق وإلى طريق مستقيم، وترى أثر ذلك في حسن الاستجابة لله وللرسول، وفى الرضا عن الله في جميع الأحوال، وفي حسن التوكل على الله والاستعانة به سبحانه، وفي الأخذ بالأسباب دون ركون إليها.

---

(٢٦٦) سورة الأنفال: ٢.

إن القرآن الكريم يتعهد قلوب المؤمنين ويبصِّرها بما يجب أن يكون، فتنشط النفس لعمل البر وفعل الخير. وتسعى في الأرض واثقة مطمئنة بذكر الله، معتدلة في السراء والضراء، لا تأسى على ما فات، ولا تفرح بما أوتيت، بل تصبر في الضراء، وتشكر في السراء، وتعلم أن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يطغى المؤمن بعطاء ولا يقنط بمصابٍ أو بلاء.

وتُرى زيادةُ الإيمان مع تلاوة القرآن في طيب النفس وسرورها بعمل الخير، وانشراحها بتوفيقها للتعاون على البر، والكف عن الشر «و إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتُك فأنت مؤمن».

إن القرآن الكريم قد حول نفوسا من حال إلى حال، ووجه طاقات المؤمنين إلى التسابق على البر، والتنافس على الخير، وقد فازوا وأفلحوا حين اعتصموا به ولم يتفرقوا، واستمعوا إليه وعاشوه قولا وعملا، فأناروا به قلوبهم، وأحيوا به ليلهم، وواجهوا به عدوَّهم مستمسكين به متخلقين.

كانوا كما وصفهم سعدُ بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ وهو يقود المجاهدين في أشد المعارك وأقساها، يقول وهو يصف حالهم: «كانوا يَدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ الليل كَدَوِيِّ النحل لا يفْضل من ذهب منهم من بقي إلاَّ بفضل الشهادة».

هكذا كأن القرآن في حياتهم يقيمون حدوده، ويتبعون هدايته وينشدون غايته في إعلاء كلمة الله وابتغاء مرضاته، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، بل صبروا وصابروا، فأفلحوا في دنياهم، وسعدوا بلقاء الله في أخراهم ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾(٢٦٧).

(٢٦٧) سورة الأنفال: ٢ ـ ٤.

تلك صفات المؤمنين حقا وهذا جزاؤهم ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يزيدهم ما يتلى عليهم من آيات الله إيمانا مع إيمانهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾(٢٦٨).

والقرآن هو القرآن، تستقبله نفوس آمنت بربها وأخلصت له، كما تستقبل الأرض الطيبة ما يصيبها من غيث فتثمر خيرًا وبرًّا. وتأباه نفوسٌ فيزيدها رجسا إلى رجسها ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢٦٩).

إن الإيمان الصادق يتجاوب مع آيات الله، ويُفيدُ بما فيها من تبصرة وذكرى.

أما أهل الكفر والنفاق - وهم لا يستعملون حواسهم إلا لجلب منفعة أو طلب متاع - فإنهم يولون مستكبرين إذا تليت عليهم آيات الله. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾(٢٧٠).

ولا يرون في آيات الله في الآفاق - والقرآن يخاطبهم بها - لا يرون فيها ما خُلِقَتْ له وما دلت عليه من دعوة إلى الحق وإيمان به وإفادةٍ بالتبصرة والذكرى. ولا تتجه حواسهم إلا إلى ما تتجه إليه حواس الأنعام من شهوة ومتاع.

وأولئك إن سمعوا القرآن لا يسمعونه سماع تدبر وخشية. وهم إن قالوا سمعنا فهم لا يسمعون. وقد نهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾(٢٧١).

---

(٢٦٨) سورة التوبة : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢٦٩) سورة الإسراء : ٨٢ .

(٢٧٠) سورة لقمان : ٧ .

(٢٧١) سورة الأنفال : ٢١ .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾(٢٧٢).

إن الآيات المنزلة تتسق مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان وتبصرته، ولكنَّ من الناس ناسًا يَغْفُلُون عما جُعلت الآيات له، وأنزلت من أجله، ولا يرون إلاّ أن يكونوا شركاء للأنعام في متاع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾(٢٧٣).

٤٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ﴾(٢٧٤) والإشارة بقوله ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾ إلى الآيات المذكورة في سورة يونس، فهي آيات من الكتاب الحكيم وهو القرآن.

والحكيم: المنظوم نَظْمًا مُتْقَنًا لا يعتريه خلل من أي وجه من الوجوه. والمحكم معناه الممتنعُ من الفساد فيكون المعنى لا تُغَيِّره الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض.

وهو حاكم على شئون الخلق. فهو حكيمٌ في ذاته حاكم على غيره. ومن تدبر عَلِمَ وأيقن.

وفي السورة حديث عن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس. في السماء وفي الأرض وفي الشمس والقمر والليل والنهار، وفي قصص الرسل ومصارع المكذبين بدعوتهم. آيات وآيات من وحي الله تدل بنورها على آياته في الآفاق وفي الأنفس وتتسق معها في مخاطبة الإنسان وتبصرته.

وأي حكمة أجل وأعظم من ذلك في مخاطبة البشر بما يناسب طبائعهم ويتصل بهم؟ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

---

(٢٧٢) سورة الأعراف: ١٧٩.
(٢٧٣) سورة محمد: ١٢.
(٢٧٤) سورة يونس: ١.

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٢٧٥]. إن الله سبحانه قد جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا لحكمة ولفائدة عظيمة ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فلم يخلق ذلك عبثا ولا باطلاً. وإنما خلقه متلبسا بالحق والحكمة.

ولا يكون ذلك إلا بتقرير البعث والجزاء.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[٢٧٦].

وإذا كنا نرى الشمس ـ وقد جعلها الله ضياءً ـ تَعُم الخلق جميعًا، وتُسَخَّر لهم جميعا، ولهم فيها من المنافع ما فيها ـ فإن دَلَالَتها في إحكام شروقها وغروبها أبْعَدُ مدى من أن تكون لمنفعةٍ عاجلةٍ.

إنها تُشْرِق عليهم مذكِّرةً ومبصّرة وتغيب عنهم فلا تغيبُ عبرتُها وعِظَتُها، بل نراها في جميع أحوالها، تنطق بالحق وتدعو إليه وتبصّر به، وهي آية من آيات الله تدل على قدرته وحكمته وفضله ورحمته.

وكذلك القمر جعله الله نورًا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. وفيه من الفوائد والمنافع ما لا تخفى دلالتُه ولا تغيب حكمته.

---

(٢٧٥) سورة يونس: ٣ـ٦.
(٢٧٦) سورة يونس: ٤.

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ فلم يخلقه عبثا، وإنما خلقه لحكمة ومصلحة. وهو آية من آيات الله، تدل على قدرته وحكمته وفضله ورحمته.

آيات مسخَّرةٌ تُقَدِّمُ النفع للناس وتدعوهم إلى عبادة مَنْ خلقها وسخَّرها ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[277].

إن هذه الحكمة البالغة في تسخير الشمس والقمر وخضوعهما لأمر الله في غير تخلّف أو سبق لهما من الدلالة ما لا يخفى على ذي علم وإيمان. ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[278].

كل ذلك بالحق ومن أجل الحق خلقا ودلالة وحكمة وغاية.

ومن رأى ذلك عبثا وباطلاً أو رآه مصادفةً بلا تدبير ولا تقدير لقي من الجزاء الحق ما يدين به للحق. ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾[279].

أخي المسلم: أرأيت كيف تتسق آيات الله المنزلة مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان بلا تناقض أو اختلاف ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾.

٤٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

---

(٢٧٧) سورة فصلت: ٣٧.
(٢٧٨) سورة يس: ٣٨ـ٤٠.
(٢٧٩) سورة النور: ٢٥.

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ (٢٨٠) إن القرآن الكريم وحي من الله رب العالمين.

والرسول ﷺ مُتَّبِعٌ مُبَلِّغ. قد أمر أن يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه دون حرجٍ من صدِّ المكذبين أو كيدهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (٢٨١) ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (٢٨٢).

إنه الحقُّ. والحق لا يتّبع أهواءَ الناس. والذين لا يرجون لقاء الله يتبعون أهواءهم. واتباع الهوى ـ بغير هدى من الله ـ مُضِلٌّ مُفْسد يقود صاحبه إلى سوء المصير ويبعده عن العدل في القول واتباع الصراط المستقيم.

﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٢٨٣).

إن من ينشد الحق ويتدبر القرآن لا يخطر له أن يطلب سواه.

أما الذين تأسرهم أهواؤهم فيتبعون الباطل ولا يرجون لقاء ربهم. فإن قلوبهم تشمئز من ذكر الله ـ وهذا شأن كل كفورٍ جحود وأفاك أثيم.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾.

---

(٢٨٠) سورة يونس: ١٥ ـ ١٧.
(٢٨١) سورة المائدة: ٦٧.
(٢٨٢) سورة الأعراف: ٢.
(٢٨٣) سورة القصص: ٥٠.

سبحان الله، أي شيء يريدون؟! وبأي شيء يؤمنون؟!

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢٨٤).

لقد قال الكفار لمن يتلو عليهم القرآن وهو الرسول ﷺ: «ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّلْهُ» قالوا ذلك لمَّا سَمِعُوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمٍّ عبادة الأوثان والوعد الشديد لمن عبدها.

وقد أمِرَ الرسول ﷺ أن يقول في جوابهم ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي ما ينبغي لي ولا يحل ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾.

ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم بقوله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ من عند الله ـ سبحانه ـ من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف.

ثم أمره سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إن كفار مكة قد شاهدوا رسول الله قبل مبعثه، وعلموا أحواله وأنه كان أميًّا لم يطالع كتابا ولا تعلّم من أحدٍ مدة عمره قبل الوحي ﴿فقد لبثت فيكم عمرا من قبله﴾ أي زمانا طويلا من قبل إنزال القرآن، وهم يعرفونه بالأمانة والصدق.

فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم أن هذا القرآن من عند الله، أوحاه الله إلى نبيه ولم يأت به من عنده نفسه ﴿أفلا تعقلون﴾؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

---

(٢٨٤) سورة الجاثية: ٦ـ٨.

أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا أو ممن كذب بآياته بعد بيانها.

فإن ذلك أعظم جرما على الله وأكثر استشرافا إلى عذابه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يظفرون ببغيتهم ولا يفلحون.

وفي الآية ما فيها من ردعٍ وزجرٍ لأولئك المكذبين الذين يكذبون بآيات الله ويتبعون أهواءهم حيث كانوا.

والإخبار بما يصير إليه هؤلاء له فائدته في الدعوة إلى التمسك بالحق بمعرفةٍ ويقين، والتحذير من اتباع سُبُل هؤلاء في اتباع الظن والقول بغير علم وقد جاءهم من ربهم الهدى.

فمن الناس من اهتدى بهدى الله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(٢٨٥) ومنهم من جاءهم هدى الله فاستحبوا العمى على الهدى فأخذوا بما كانوا يكسبون.

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٤٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة يونس من قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾(٢٨٦) زعم أهل الكفر والجحود أن محمدًا ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق. فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحيٌ أنزله الله عليه وأنه مبرأٌ عن الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحدٌ إلا الله عز وجل. ثم ذكر ما يؤكد ذلك بقوله ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(٢٨٥) سورة محمد: ١٧.

(٢٨٦) سورة يونس: ٣٧-٣٨.

وفي قوله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء برهانٌ على نَفْي جواز الافتراء.

فما كان من شأنه أصلاً أن يُفْترى والنبي ﷺ الذي نسبوا إليه أنه جاء به من عند نفسه لم يطلع على الكتب المنزلة من قبل ولم يتعلم ما جاء فيها ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن كان له علم به ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾. فتصديق القرآن للكتب المنزله قَبْله وهيمنته عليها معجزة مستقلة تحدِّد مَصْدَرَهُ وأنه لا ريب فيه من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدًا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثلِه وأنتم على معرفة بلغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام، وادعوا من استطعتم دعاءه والاستعانة به. ادعو مِنْ سوى الله مِنْ خَلْقِه مَنْ شئتم إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مفترى من دون الله.

فإنهم لما نَسَبُوا الافتراء إلى واحدٍ منهم في البشرية والعربية قال لهم: هذا الذي نسبتموه إلي وأنا واحدٌ منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع بسورةٍ مماثلة لسورة من سوره. واستعينوا بمن شئتم من أهل العربية على كثرتهم أو من غيرهم من الإنس أو من الجن ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ﴾ وآمنوا بما نزل من الحق.

إن هذا القرآن منزل من عند الله هداية للناس ونذيرًا للعالمين.

ومن تدبر أيقن يقينا لا شك فيه أن الجن والإنس لو اجتمعت على أن تأتي بمثله ما استطاعت أن تأتي بمثله في نظمه أو فيما اشتمل عليه من أخبار الغيب وما سيحدث من الأمور المستقبلية قبل وقوعها فإن ذلك لا يكون إلاّ من العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علما ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢٨٧).

---

(٢٨٧) سورة النساء: ٨٢.

إن المسارعة إلى تكذيب القرآن ــ وهو الحق من ربهم ـ قبل تدبره والعلم بما جاء به سفهٌ يُودي بصاحبه إلى سوء العاقبة والمصير ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢٨٨).

ومع كثرة العاملين على محاربته وإبادة أهله تراه يفرض سلطانه بالحجة والبينة ويُتلى على العالمين في عزَّةٍ وثقة دون أن يقترب من ساحته باطل، أو يأتي على حرف من حروفه حاقد غادر. ولن تستطيع قوة مهما بلغت أن تقترب من حصنه، أو تنال من عِزَّته؛ ذلك لأن الله قد حفظه؛ ومن حفظه الله لا يضيعه الناس.

وسيظل بإعجازه يصدع بالحق وينطق بالصدق ينذر ويبشر ويهدي للتي هي أقوم، سيظل يوجه نداءه للقلوب لتخشع وإلى من شُغِل عنه ليعود إلى حماه ويتبع صراطه المستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾(٢٨٩).

٤٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢٩٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نداء عام للناس جميعا وخطابٌ لهم.

---

(٢٨٨) سورة يونس: ٣٩.
(٢٨٩) سورة الشورى: ٥٣.
(٢٩٠) سورة يونس: ٥٧ـ٥٨.

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والموعظة : القرآن الكريم . وتلك صفته وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويَعِدُ ويُوعِد .

وقوله ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ له دلالته في حث الناس على حسن الاستجابة والقبول .

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يأت بها محمد ﷺ من عند نفسه بل هي موعظة من ربكم الذي خلقكم وربّاكم بِنِعَمِه وَوَسِعَكُمْ بِرَحْمَتِه .

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ شفاء من الجهل والغفلة والعتوّ عن النظر في آيات الله مما يباعد الإنسان عن الإيمان واليقين .

والقرآن الكريم قد جعله الله موعظة للناس جميعا ، وهو كذلك في ذاته وفيما يدعو إليه . وجعله هدًى ورحمة للمؤمنين ؛ لأنهم المتبعون له ، المنتفعون بهدايته .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢٩١) . فهو حجة ورحمةٌ لمن اتبعه وآمن به .

وهو حجة وخسار على من كذب به وأعرض عنه .

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(٢٩٢) .

إن الناس في دنياهم قد يخطئون ويسيئون فيما يختارونه لأنفسهم ، ويرونه خيرًا . قد يؤخذون بزينة الحياة الدنيا وحطامها وينسون ما هم مقبلون عليه وصائرون إليه .

---

(٢٩١) سورة الإسراء : ٨٢ .
(٢٩٢) سورة النساء : ١١٥ .

والقرآن الكريم هـو الموعظة من ربكم يحدد للناس قيم الأشيـاء ويدعوهم إلى مـا هــو خيـر وأبقى. ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾(٢٩٣). هكذا يعظ القرآن الناس ويبين لهم ما هو خيـر وأبقى. هو لا يحرمهم من دنياهم، ولا يحرِّم عليهم زينتها.

وإنمـا يُعرِّفهم حقيقتهـا ويبصرهم بعـاقبتهـا ليتحقق الاعتدال والتـوازن في سلوك الإنسـان فلا يـؤخذ بالـزينة وينسى القيمة ولا يـركن إلى العاجلـة ويذر الآخرة، بل يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

وهـذا الاعتدال والتـوازن هو السبيل لأمن الـدنيا وسـلامِها وتحقيق المـودة والتعاون فيها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ومن فقد التوازن في نفسه أساء وأفسد وضلَّ وأضل.

ومن آثر الحياة الدنيا طغى وابتغى التكاثر دون حدود أو ضوابط.

ومن خاف مقام ربه كف شره عن غيره وقدّم خيره.

وجاءت العاقبة تكريما لمن أحسن وجزاء وفاقا لمن أساء.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾(٢٩٤).

---

(٢٩٣) سورة آل عمران: ١٤ ـ ١٧.
(٢٩٤) سورة النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

ومن تدبر ما أُمِرَ بتدبره أيقن أن الخير في العاقبة فعمل لَهَا واستمسك بأسبابها .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢٩٥).

أي بهذا القرآن الذي جاءهم بالهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة .

لما قَدِم خَراجُ العراق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج عمر ومولىً له ، فجعل عمر يَعُدَّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك .

فجعل عمر يقول : الحمد لله .

ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته .

فقال عمر له : كذبت . ليس هذا .

هو الذي يقول الله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ . . . الآية﴾ وهذا مما يجمعون .

يبين له عمر دلالة الآية وأنها تعني ما جاء من الهدى ودين الحق لا ما يكون في أيدى الناس من متاع فذلك مما يجمعون .

ذاك فقه الصحابة في النظر إلى الأشياء وتحديد قيمتها . لقد أنار القرآن حياتهم وجعلهم يؤثرون ما يبقى على ما يفنى ، فاختاروا ما رضيه الله لهم . رضي الله عنهم ورضوا عنه .

٤٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٢٩٦).

---

(٢٩٥) سورة يونس : ٥٨ .

(٢٩٦) سورة يونس : ٦١ .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد هو وغيره.

﴿في شأن﴾ من جميع الشئون. والشأن: الأمر بمعنى القصد. والمراد وصف إحاطة علم الله تعالى بكل شيء.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وفي الآية مؤانسة لأهل الحق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم، وفيها تحذير لأهل الباطل أن لا شيء من أمرهم صغر أو كبر يخفى على الله. فهم مأخوذون بذنوبهم ومؤاخذون على أعمالهم. ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وتُفيضُون: تنهضون بجد. يقال أفاض الرجل في سيره وفي حديثه: إذا اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ يعزبُ: معناه: يغيب حتى يخفى.

حتى قالوا للبعيد: عازب. وقيل للغائب عن أهله: عازب.

حتى قالوه لمن لا زوجة له.

لا يغيب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وللآية دلالتها وفائدتها في استقامة النفس وصدق إخلاصها لله وخشيتها منه، ولها أثرها في تربية الإنسان، وهو يخشى الله ويرجو اليوم الآخر. ويوقن أن الله قد أحاط بكل شيء علما. فما غاب عن أعين الناس لا يخفى على علم الله.

إن العبد إذا استحضر ذلك في نفسه اتقى ربَّه حيث كان، وآثر رضاه ورغب فيما عنده وأحسن عمله ابتغاء وجهه وقدم خيره وكفّ شره عن غيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٢٩٧).

---

(٢٩٧) سورة المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

أخي المسلم: تدبر هذه الآية واستحضر مقاصدها ودلالتها واجعل جميع أمرك طاعة لربك ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية. لقد عمَّت هذه الآية وخصَّت. خَصَّت القرآن الكريم بالذكر مع أنه داخلٌ فيما عمَّت؛ للتنبيه على عظم شأنه، وأنه السبيل لصلاح كلِّ أمرٍ وهو يهدي للتي هي أقوم. وأن الملائكة تحف أولئك المجتمعين على تلاوته ومدارسته، والله سبحان يَذْكُرُهم فيمن عنده. «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

هكذا شأن القرآن الذي خصَّته الآية بالذكر تَنَزَّلُ السكينة له، وتحضره الملائكة ويُذكر أهلُه في الملأ الأعلى، ويأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه.

«يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما».

فاعمل به أخي المسلم في كل شأن من شئونك. واجعله ميزان قصدك وعملك لتقوم بالقسط كما أمر ربُّك. إن الله قد أنزل القرآن وحفظه ليُتَدبر وليُعمل به. فمن اتبعه قاده إلى الجنة، ومن أعرض عنه شقي في دنياه وخسر في أخراه. إنه فضل الله ورحمته فلا تُشْغَل عنه بما تجمع من حطام دنياك وزينة حياتك، فإنه معك في دنياك وآخرتك. لا يتخلى عنك في ساعة موتك وانفرادك بعملك. إنه وفيٌّ لا يتخلى عَمَّن صاحبه في دنياه وعمل به. كل حرف فيه تقرؤه أو تستمع إليه تلقاه هناك حسنات مضاعفات في كل حرف عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾(٢٩٨).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ نداء وخطاب للناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والحق المراد هنا هو القرآن الذي نَزَّلَهُ الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي اتبع الحق واستمسك به فإنما يهتدى لنفسه؛ لأنه يَطْلُبُ لها رحمة الله التى وعد الله بها من اتبع هداه ويدفع عنها عذابه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي حاد عن الطريق المستقيم وأعرض عن هذا الذكر فإنما يضل على نفسه. وقد أُمِرَ الرسول ﷺ أن يُخْبِرَ الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مريةَ فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفعُ ذلك الاتباع على نفسه.

ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا موكَّل عليكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذيرٌ مبين، أبلغكم ما أرسلت به وأمرت بتبليغه.

ثم أمره سبحانه أن يتَّبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التى يشرعها له ولأمته. وأمره بالصبر على أذى الكفار، وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من الصَّد والكيد من أعداء الله. وجعل هذا الصبر ممتدًّا إلى غاية ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ أي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم. وهذا وعْدٌ من الله لنبيه.

---

(٢٩٨) سورة يونس: ١٠٨ـ١٠٩.

وقد صبر النبي ﷺ ومن معه من المـؤمنين حتى تحقق وعد الله بنصر الحق وإزهاق الباطل وحكم الله بما قدَّره وقضاه.

وفي مخاطبة الرسول ﷺ وأمره بذلك توجيهٌ لدعاة الحق حيث كانوا أن يقتدوا وأن يُحسنُوا الاتباع وأن يصبروا على ما يلاقونه صادقين محتسبين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

فإن حكمته قد اقتضت أن يُبتلى أهلُ الحق حتى تتبيّن معادنهم وتُعْرَف حقيقتُهم وتتميز صفوفهم ـ والله عالم بهم.

ولا بد لمن رغب في الفوز والنجاة أن يعتصم بالصبر وحسن الاتباع ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾.

فتلك سنة الله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(٢٩٩) ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٣٠٠).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٣٠١).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٣٠٢).

وسبيل أهل الإيمان لطلب النصر والرجاء فيه أخذهم بالأسباب التى أجملتها هذه الآية ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾.

---

(٢٩٩) سورة محمد : ٣١.
(٣٠٠) سورة العنكبوت : ١ ـ ٣.
(٣٠١) سورة آل عمران : ١٤٢.
(٣٠٢) سورة البقرة : ٢١٤.

وحسن الاتباع لما نـزل من الحق يتطلب عملاً صادقًا خـالصًا في مجالات شتَّى لإقامة الحق ودفع الفساد والظلم .

يقتضي أن تتضافـر الجهود وتخضع كـافةُ الإمكـانات لإعـلاء كلمة الله في إخلاص وصدق وحب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٣٠٣) .

إن العلم بالحق والعمل به لا تتحـدد به العاقبة فحسب بل يتحـدَّد به مسار الإنسان من بدئه إلى منتهاه .

ولم تكن عقبى الدار لمن اتبعـوا الحق من ربِّهم إلا خاتمة مسـارٍ في طريق مستقيم متميِّز بمعالمه وصفات أهله .

وحيثمـا قـرأت القــرآن لا تخطئك هـذه المعـالم ولا تستبهـم عليك هـذه الصفات .

ولا ترى في هذا الصراط المستقيم ضيقًا ولا حـرجًا . ولا ترى في أهله سوءًا ولا عوجا . بل ترى فيه وفيمن اتبعه نورًا وهدًى وصلاحا وتراحما وتقى .

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾(٣٠٤).

٤٨

ومن حديث القـرآن عن الـقرآن ما تضمـــنه قولـه تـعـالى في ســورة هـود ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(٣٠٣) سورة الحجرات : ١٥ .
(٣٠٤) سورة الأنعام : ١٥٣ .

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾(٣٠٥).

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾.

حديث عن القرآن الكريم ـ وقد وُصِفَ بإحكام آياته وتفصيلها الدَّالين على عُلُوِّ رتبته في ذاته. ثم وصف بقوله ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. وهذه الصفة دالَّة على علوِّ شأنه من حيث كونُه من عند حكيم خبير وهو الله عز وجل.

والوصفان دَالَّان على ما للكتاب من شأن في إحكامه وتفصيله. أحكمها حكيمٌ وفصَّلها خبير، عالمٌ بمواقع الأمور وهو يحكم الكتاب عن حكمةٍ ويُفَصِّلُه عن خبرةٍ.

وماذا تضمَّنت آياتُ هذا الكتاب؟

تضمنت أصول العقيدة التى أرسل بها الرسل جميعا وأنزلت الكتب.

لقد أنزل هذا الكتاب ليُخاطب العالمين برسالة الرسل جميعا ـ ممثلة في أصول العقيدة ـ بلا تفرقة.

يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. والإيمان برسله. ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة ليصلحوا في الأرض ـ كما أمر الله ـ ولا يفسدوا. ويقرر الجزاء المترتب على الأعمال خيرِها وشرِّها في الدنيا والآخرة، وأن المرجع إلى الله لا إلى غيره ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

فما تُدْعَوْن إليه وتُؤْمَرُونَ به أو تنهَوْن عنه في هذا الكتاب ليس وعظًا مجردًا من مؤاخذة وجزاء.

---

(٣٠٥) سورة هود: ١ ـ ٤.

إنه الحق وللحق جزاؤه وحسابه ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾(٣٠٦) والقرآن الكريم يُذكّر الناس كثيرا بلقاء ربّهم ويدعو إلى تدبر الأدلة التى تقود إلى صدق الإيمان به واليقين بلقائه .

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنـزل الكتاب وفصل الآيات ليجد المتـدبر عونه على تثبيت يقينه ولا تبقى هناك حجةٌ لمُنكرٍ أو مرتاب .

ومـا أسرع مـا تَمْضِى الأيـام وتنقضي الآجال، ويـأتي اللقاء، ويقع الجـزاء ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾(٣٠٧).

الناس عائدون إلى الله لا محالة . . راجعون إليه ومحاسبون بين يديه . وهذا ما تخبرنا به آياته .

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾(٣٠٨).

والوعد الحق هنا وعدٌ برجوع الخلق إليه ووعد الله حق .

ومن قَدَر على البدء قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾(٣٠٩) .

---

(٣٠٦) سورة النور : ٢٥ .
(٣٠٧) سورة يونس : ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣٠٨) سورة يونس : ٤ .
(٣٠٩) سورة الروم : ٢٧ .

أخي المسلم : إن تفصيل الآيات مع أحكامها لك ومن أجلك . لتحسن ولاتسيء ، وتستقيم كما أمرك الله . وهي تذكرك بيوم الرجوع إلى الله من قبل أن يقع ، لتنظر كلُّ نفس ما قدمت لغدٍ ، ولا تركن إلى زوال . فإن متاع الدنيا قليل والأجل فيها محدود وقصير ، ومن طلب البقاء فيها فقد طلب المحال .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾(٣١٠).

٤٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله في سورة هود ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾(٣١١).

هذه الآية من خواتيم سورة «هود» التى قال الرسول ﷺ فيها «شيبتني هود وأخواتها» .

وقد قصَّ الله فيها على نبيه من أنباء الرسل ـ نوحٍ ، وهودٍ ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوطٍ ، وشعيب ، وموسى ـ ما قَصَّ .

وما جاء من قصص في القرآن الكريم هو الحقُّ الذي لا مرية فيه ، ومنه تُعرفُ سنن الله في خلقه . ويُدرِك كلُّ داعٍ إلى الله في أيّ عصر ما يحيق بمن كذَّب بالرسل . فقصص القرآن ليس حديثا عن أحداثٍ ماضية وكفى ، بل هي تبصرة بسنن باقية . ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . فكم من حضارات قامت في الأرض ثم بادت ؛ لأن أهلها كفروا بآيات الله وعَصَوْا رسله ، فأحاطت بهم خطاياهم وأهلكهم الله بذنوبهم .

---

(٣١٠) سورة البقرة : ٢٨١ .
(٣١١) سورة هود : ١٢٠ .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[(٣١٢)].

فالقصص القرآني ـ وهو الحق ـ آية للخلق. فيه عبر وعظات وذكرى تنفع المؤمنين وهو يخاطب الأجيال بما هو ماضٍ في الخلق من سنن يجب أن تُعْلَم وتُحْذر.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾[(٣١٣)]، والقرآن الكريم حين يذكر لنا قصص الأنبياء يبين لنا ما وقع بالمكذبين من أقوامهم لتحذر الأجيال ـ من بعد ـ أن تفعل فِعْلَهم أو تسلك سُبُلَهم. ويرينا آثارهم قائمةً بدونهم أو مدمَّرةً بذنوبهم.

وكل ذلك فيه من العبر والعظات ما فيه.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[(٣١٤)].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبأ حق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

---

(٣١٢) سورة الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.

(٣١٣) سورة محمد: ١٠.

(٣١٤) سورة هود: ١٠٠ ـ ١٠٣.

وذلك كلُّه لـه أثره البالغ في تربيـة النفوس و إعدادها وتقويتهـا وتثبيتها على الحق . يخاطب الرسـول ﷺ بما قصه الله عليه من أنباء الـرسل ليثبت به فؤاده ويطمئن نفسه وهو يرى العاقبة للمرسلين ، والهلاك والدمار للمكذبين .

ويؤمر الرسول ﷺ بأن يَتْلُوَ ما أنزل إليه وأن يبلغه للناس .

ويسمع المؤمنون مـا أنزل إلى الرسول ﷺ ـ وهـم يمرون بشـدّة أو محنة يرون فيها صَلَفَ الباطل وطغيان أهله . فتطمئن قلوبهـم وتثبت على الحق نفوسهم .

عندئذ لا تُشْغَلُ نفسُ المـؤمن بعداوة الأعـداء و إنما تُشْغَلُ بـالأسباب التى تحقق الفوز وتجلب رضا الله ونصره .

وهذا ما خوطب به الرسول ﷺ وأمر بتحقيقه في نفسه كما أمر به المؤمنون .

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٣١٥) .

إعداد النفوس هـو الأصل فيما يُطلبُ من فوز أو نصر. والنصـر من عند الله وحده، ومـا عند الله لا يطلب إلا بطـاعته . وهـو في حقيقة النفس لا فـي كيد العدو .

ومن حديث القرآن عن القــرآن ما جاء في قـوله تعــالى في سـورة يـوسف ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾(٣١٧).

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾. والإشارة في قـوله ﴿تلك﴾ إلى الآيات المؤلفة من هذه الأحرف العربية المعروفـة. وهذه الأحرف قريبة للناس متداولة بينهم. ولكن الآيـات التي ألفت منها بعيـدةٌ في رتبتها ومكـانتها وعجـز الناس عن الإتيـان بمثلها ولـذلك أشـار إليهـا بقولـه ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ المظهر للحق من الباطل والحلال من الحرام.

وقد أنزله الله قرآنًا عربيًّا وقَصَّ فيه من القصص ما لم يكن الرسول ﷺ يعلمه هو ولا قومه. فهو معجز في بيانه وفيما قَصَّه وأخبر به.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

وذلك، لأن لغـة العـرب أفصحُ اللغـات وأبينُهـا وأوسعُهـا وأكثـرهـا تأديـةً للمعاني التي تقوم بالنفس.

فلهذا أنـزل الله أشرف الكتب بـأشرفِ اللغات علـى أشرف الرسـلِ بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشـرف بقاعِ الأرض. وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو شهر رمضان، فكمل من كلِّ الوجوه.

ولهذا قال ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي بسبب إيحائنـا إليك هذا القرآن كما ذكـر ابن كثير في تفسيره وقـال بعد أن ذكر ما ورد فـي سبب النزول قال: «ومما ينـاسب ذكره عند هذه الآيـة الكريمة

---

(٣١٧) سورة يوسف: ١ ـ ٣.

المشتملة على مدح القرآن وأنه كافٍ عن كلِّ ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عُمَرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب النبي ﷺ وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ معناه: أمتحيّرون أنتم في الإسلام حتى تأخذوه من اليهود؟

والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه.

والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلاَّ أن يتبعني.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ ﴾ ففي القرآن قص الله على نبيه أحسن القصص، ونزل أحسن الحديث وما كان من قبل نزوله يتلو من قرآن ولا يخطه بيمينه. وما قصَّ الله على نبيه ﷺ في سورة يوسف لم يكن متداولاً بين قومه حتى بُعث إليهم. إنه من أنباء الغيب التي لم يشهدها الرسول ﷺ ولم يُشاهِدْ أحداثها ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[318].

وفي ذلك دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن والعمل بما جاء فيه؛ لأنه وحي من الله إلى نبيه، لينذر به ويبشر. ويقدّم سنن الله في آيات تتلى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[319]. إن القرآن الكريم وهو يقص علينا أحسن القصص يقدم لنا العظة والعبرة في آيات تتلى. ويرينا سنن الله الباقية في أحداث ماضية.

---

(318) سورة يوسف: 102.
(319) سورة يوسف: 111.

يرينا سننه فيمن خافه واتقاه، وسننه فيمن جحد بآياته وعصاه.

ومن تدبر ما انتهى إليه أمر يُوسف وإخوته أيقن أن الحق لا يهزم أبدًا. وأن الأمور بعواقبها، والعاقبة لن تكون إلا لمن آمن واتقى.

وفيما قَصَّهُ الله علينا نرى النتائج والعواقب.

نرى كيف بطل الكذب والكيد وظهر الصدقُ والحقُّ.

نرى أن من حفظه الله لا يُضَيِّعُه الناس. وأن من حَفِظَ اللَّهَ في جميع أمره حفظهُ الله ورعاه، وجعل الفوز والعاقبة له.

وذاك ما كان من أمر يوسف عليه السلام.

فمن كذبتْ عليه وكادت له هي التى قالت ﴿**الآن حَصْحَصَ الحق**﴾ أي ثبت واستقر وتلاشى كيدُها ﴿**أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين**﴾.

ومن جاءوا على قميصه بدم كذب وكادوا له هم الذين وقفوا أمامه طالبين تلبية حاجتهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾(٣٢٠). ولما أذهلتهم المفاجأة وعلموا أنه يوسف الذي كادوا له، واتهموا الذئب كذبا في دمه ـ أعلنوا مقسمين أن الله قد فضله عليهم وأعزه وأذلهم بالوقوف بين يديه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٣٢١).

وانتصر الحق وبطل الكيد وبقيت آية الحق تخاطب الأجيال كلها بعبرتها ودلالتها.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٣٢٢).

---

(٣٢٠) سورة يوسف : ٨٨.

(٣٢١) سورة يوسف : ٩١ ـ ٩٢.

(٣٢٢) سورة يوسف : ٩٠.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾(٣٢٣).

وفي سورة الرعد بيان لما أجملته هذه الآية ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ . فقد تحدثت عن منزِّل الكتاب وهو الله عز وجل . كما تحدثت عمن أنزِلَ عليه وهو الرسول ﷺ وبيَّنت ما أرسل به .

وذكرت الحق الذي أنْزل وضربت له مثلا يكشف عن أصالته وبقائه ونفعه .

وبينت موقف الناس منه ما بين مستجيب له ، يعلم أنه الحق ومعرضٍ عنه لا يراه ولا يهتدي بهداه ، وأفاضت في بيان الذين لا يؤمنون وهم أكثر الناس .

وكل ذلك قد أجملته هذه الآية في مطلع السورة في ترابط وتناسق معجز بينها وبين ما جاء في السورة كلِّها .

والمراد بالحق في قوله ﴿ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ القرآن الكريم . والحقُّ من ربك ، وبالحق كان الخلق ، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب ولا عذر لمن كذب بالحق أو أعرض عنه .

وفي الأنفس والآفاق آيات وآيات ، فيها بيان للحق لا تخفى دلالته . ولا تُسْتَبْهَمُ حكمته وغايته .

---

(٣٢٣) سورة الرعد : ١ ـ ٢ .

وفي الحديث عن الله الذي أنزل الحق نقرأ ما تطمئن به القلوب وتخشع النفوس.

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾(٣٢٤).

ذلكم الله ربكم الذي أنزل الكتاب بالحق. هو الذي رفع السموات التى ترونها. وهو الذي مد الأرض التى تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه. وهو الذي جعل فيها رواسي من فوقها حتى لا تميد بكم، وأنهارًا حفظا لحياتكم وصونًا لمتاعكم وتبصرتكم، وهو الذي سخر الشمس والقمر دائبين بسطًا لنعمته ورحمته ومخاطبةً منه بالحقِّ لجميع خلقه.

وهذه الأدلة وغيرها مما جاءت به الآيات داعية إلى الإيمان بالحق الذي أنزله الله على نبيه، مبصرة به مؤيدة له.

يَتَفَكَّر فيها ويعقلها من رغب في الحق وآمن به.

ويقف عند ظاهرها من غفل عن حكمتها وغايتها، فلا يجاوز حدود دنياه مع أنها سيقت لتبصرته بقضايا الحق في نفسه وما يصير إليه وما أرسل الرسل من أجله. أفلا يكون عجبًا أن يرى الإنسان أدلة القدرة في خلقه وينكرها في بعثه.

يراها في دنياه ولا يراها في آخرته ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٣٢٥).

---

(٣٢٤) سورة الرعد: ٢ ـ ٤.
(٣٢٥) سورة الرعد: ٥.

عجب أن ينكر الحق من يرى أدلته في نفسه وينعَمُ بآياته ولا يتذكر ولا يستبصر. ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾(٣٢٦).

إن سورة الرعد التي بدئت بهذه الآية ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ تبين لنا النتائج والعواقب لمن آمن بهذا الحق وعمل به، ومن عمي وأعرض عنه، لمن استجاب لربه فيما دعاه إليه والذين لم يستجيبوا له.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(٣٢٧).

وبذا يُعلم أن الحق الذي دُعي الناس للإيمان به ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده. إنه من الله، والله على كل شيء قدير وإليه المصير ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(٣٢٨).

٥٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الرعد ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٣٢٩).

ففي الآية بيان لموقف الناس من الحق الذي أنزل وهو القرآن الكريم.

فمنهم مؤمن ومنهم كافر. منهم متبع لهدى الله ومنهم معرض عن ذكره.

---

(٣٢٦) سورة الرعد: ١٩.
(٣٢٧) سورة الرعد: ١٨.
(٣٢٨) سورة الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٣٢٩) سورة الرعد: ١٩.

ولكل موقف آثاره ونتائجه في صفات الناس وأخلاقهم وأعمالهم ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(٣٣٠).

تلك هي الصفات. صفات الذين استجابوا لربهم وعلموا أنما أنزل إلى محمد ﷺ هو الحق. وهي صفات بارَّةٌ بالخلق. بها يستقيم التعامل ويتحقق التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

فهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق.

ويصلون ما أمر الله به أن يوصل.

ويخشون ربهم.

ويخافون سوء الحساب.

ومن كانت هذه صفاته كفَّ شره عن غيره وقدَّم خيره، ومشى بين الناس بنورٍ من ربِّه لا يكذب ولا يَغْدُر ولا يُفسد أو يسيء، بل يُصلح ويُحسن ويَبَرُّ ويرحم ويصبر في أداء الخير وكف الشر ابتغاء وجه ربه. ويؤدي الأمانات في أدبٍ وصدق وإخلاص. يقيم الصلاة وينفق مما رزقه الله سرًّا وعلانية. يدرأ بالحسنة السيئة طلبا لمرضاة الله وطاعة لأمره.

صفات يحققها الإيمانُ بما نزل على محمد ﷺ والعمل بمقتضاه.

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾.

---

(٣٣٠) سورة الرعد: ١٩ ـ ٢٤.

لا يستويان في صفاتهما ولا في الآثار والنتائج المترتبة على سلوكهما .

لا يستوي عند الله من يؤمن ويوقن أن ما أنزله الله على رسوله ﷺ حق لا شك فيه فيستجيب لما يدعو إليه ربُّه ويؤمن به ويعمل بما نزل من الحق . لا يستوي من كان هذا شأنه ومن هو معانِدٌ مكابر يرى الحق فيُعرض عنه ويتبع هواه وتلهيه الرغائب عن العواقب . كما لا يستوي هؤلاء وأولئك في الصفات والأخلاق والأعمال .

وفي دنيا الناس ترى هؤلاء وأولئك .

ترى الوفي الكريم الذي يؤمن بربه ويخشاه . وترى الغادر اللئيم الذي ينقض العهد ويفسد في الأرض .

ترى من يصلح ولا يفسد ، وترى من يريد علوًّا في الأرض ويبغي فيها الفساد . ومرجع ذلك كلِّه إلى الإيمان بالحق أو الكفر به .

فمن آمن بالحق خضع له وعمل بمقتضاه ، ومن أعرض عنه قاده هواه . ومن اتبع الهوى ضل عن سبيل الله .

ومن رحمة الله بالخلق أن حفظ الحق الذي أنزله ليزن الناس أعمالهم وليكون الحق حَكَمًا فيما بينهم . والواقع المعاصر في حياة الإنسانية كلِّها ينشد إنسان الحق الذي ينصر المظلوم ولو كان من غير جنسه ، ويضرب على يد الظالم ولو كان من أهله وعشيرته .

الواقع المعاصر ينشد من يعلم أن الحق الذي جاءت به الرسل وأنزل الكتاب هو ميزان العدل بين جميع الخلق بلا تفرقة . وأن الله الذي أنزل الحق سيحاسب عليه ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾[٣٣١] .

---

(٣٣١) سورة النور : ٢٤ ـ ٢٥ .

عندما تأتي ساعة الحساب وينظر المرء ما قدمت يداه، بل عندما تأتي سكرة الموت يتطاير الظن الفاسد من رءوس أصحابه. ويذهب الباطل الذي اتبعوه ويأتي الحق الذي عَمُوا عنه وأنكروه. ويقول الذين كفروا ـ وقد وجدوا ما وَعَدَ ربُّهم حقا ـ ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣٣٢).

ويعترفون في أسف وندم ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾(٣٣٣). اعترفوا بالحق في وقت لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. ورَجَوا أن يكون لهم شفعاء فيشفعوا لهم أو يُرَدُّوا إلى دنياهم فيعملوا بالحق الذي أنكروه من قبل. يرجون ذلك ويودُّون حين يُوقَفُون على النار.

وهيهات أن يكون لهم هذا أو ذاك. فلن ينفعهم إيمان بعد فوات الأوان ولن يكون لهم شفعاء لأنهم ليسوا أهلاً للشفاعة. ولو رُدُّوا إلى دنياهم لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. ولن يعودوا إلى دنياهم وقد فارقوها بعد امتحان واختبار وانقضاء أجلٍ وانقطاع عمل ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٣٣٤).

٥٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ

---

(٣٣٢) سورة الأنعام: ٢٧.
(٣٣٣) سورة الأعراف: ٥٣.
(٣٣٤) سورة المؤمنون: ١٠٠.

﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾(٣٣٥).

والحديث عن القرآن هنا حديث عمن أنزله ومن أنزِلَ إليه والغاية من إرسال الرسول ﷺ و إنزال الكتاب إليه.

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تلك هي الغاية ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ من أجل ذلك أرسل الرسول وأنزل الكتاب.

وهذه الغاية لها أبعادها في فطرة الخلق وحقيقة الحياة.

فإن الإخراج من الظلمات إلى النور لا يكون إلا بإذن الله وهداه ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ومن أجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور جعل الله الكتاب نوراً يهدي به من يشاء وأرسل نبيّه داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

وبنور النبوة والكتاب يُهدى الناس بإذن الله إلى صراط العزيز الحميد.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾(٣٣٦).

ونحن نعرف حقيقة النور وما يؤديه في حياة الناس وما يهيئه من أسباب وما يرشد إليه ولولاه لعميت الأبصار وبعُدت الغايات وقصرت الوسائل.

---

(٣٣٥) سورة إبراهيم: ١ - ٣.
(٣٣٦) سورة الشورى: ٥٢ - ٥٣.

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور ليس بالأمر الهيِّن الذي يُستطاع بلا هـداية وتـوفيق ولو تُـرِكَ النـاس بلا هـداية من الله لعـاشـوا في ظلمات الـوهم والجهل وحيـرة الضـلال والإفك. وتحـولت الـدنيـا بظلمـاتهـا إلى مقبـرة لا استجابة فيها لنداء حقٍّ أو دعاء.

والله الـذي خلق السموات والأرض هـو الـذي جعل الظلمات والنـور وهم يرون ما جعله الله محسوسًا أمام أنظارهم، يرون السموات ويمشون على الأرض ويعرفون ما للنور من تأثير في حركة الحياة وعمل الأحياء.

وإخراج النـاس من الظلمات إلى النـور في صفاتهم وأخـلاقهم وعقائدهم ومعامـلاتهم وصلاح ذات بينهم له نـورُه وهداه في عـالم النفس كعالم الحس ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[٣٣٧].

من أجل ذلك اتّسقت آيات الله في الآفاق وفي الأنفس مع آياته المنزَّلة على نبيه في هداية الإنسان وإرشاده وتبصرته ودعوته إلى صراط العزيز الحميد.

وامتـزج الحديث عن الكتـاب مع الحديث عن السمـوات والأرض وأن من نَزَّل هذا الكتاب هو من له ملك السموات والأرض فلا مجال لأحدٍ أن ينفذ من أقطار أرضه وسمـواته. ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. فمن كفر بآيـاته فلا مجال لـه أن ينفذ من ملك الله في السموات أو في الأرض ولن يفلت من حساب وجزاء ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

---

(٣٣٧) سورة الأنعام : ١٢٢.

إن الحياة لا يستقيم أمرها إلا بنور ربِّها . والله برحمته قد أنزل الكتاب إلى نبيه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. والذين كفروا بما أُنْزل . لهم من الوعيد ما لهم ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ فإن هؤلاء قد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وعملوا على الصد عن سبيل الله ، وتنكبوا الطريق القويم ، وأرادوها عوجا لتحقيق أهوائهم وإشباع شهواتهم .

وهذه الخصال هي نهاية الضلال .

ولذا وصف الله ضلالهم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ .

بعيدٍ عن الحق ، بعيدٍ عن الصراط المستقيم .

ولا تسل عما يكون في دنيا الناس من فسادٍ ودمارٍ إذا حكمتهم أهواؤهم وضلوا السبيل .

ومن أجل إنقاذ الناس وهدايتهم وإصلاح ذات بينهم قد جاءهم من الله نور وكتاب مبين لمصلحتهم والله غني عن العالمين .

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٣٣٨] .

٥٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة الحجر من قوله تعالى ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ وقوله ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣٣٩] .

وفي الآيتين حديث عن القرآن من حيث وصفُه وإنزالُه وحفظُه .

---

(٣٣٨) سورة المائدة : ١٥-١٦ .

(٣٣٩) سورة الحجر : ١ ، ٩ .

فهو قرآن مبين، وهو الذكر. والله قد أنزله وتكفل بحفظه.

وقد ناسب هنا أن تتكرّر نون العظمة في جانب إنزال الذكر وحفظه ليُعلَم أن لا مجال فيه لتغييرٍ أو تبـديل أو انتقاص أو اختلاف ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

إن الله الذي أنزل الحق قد حفظه كما حفظ ما ينفع الناس وما لا تقوم الحياة إلاّ به. ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾(٣٤٠). ومكث الحق وثباته وبقاؤه من الأشياء التى قد يَغْفُلُ عنهـا الناس ـ وهم يتقلبـون في زينة الحيـاة ـ وقد تقـودهم الغفلة عن هذه الحقيقة إلى اتباع الباطل في سـاعة استدراج له و إملاء. ثم يَفْجؤهم زوال ما اتبعوه و إظهار مـا غفلوا عنه، وعندئذ يعلمون أن ما تعلقـوا به من غير الحق باطلٌ لا يمكث ولا يبقى.

والحق الذي أنـزله الله ثابت لا يميل، مـاكث لا يذهب. ويخطئ من يظن أن أحدًا من الخلق يستطيع أن يحجب ضـوء الحق أو يطفئ نوره. ومن حفظه الله لا يضيعه الناس. إن فساد الناس في بـرٍّ أو بحر على أنفسهم. به يؤخذون ويبقى الحق. ويهلكون وينتصر الحق.

وعبث الناس لإفساد الماء أو تغيير منفعته لاحقٌ بهم.

ويبقى الماء ما بقيت الحياة طهورًا مُتَجَدِّدًا وهو ينزل من السماء.

وَهُـوَ هُوَ في خصـائصه قـد نـزَّله الله مـاءً مبـاركا وجعل منـه كلَّ شيءٍ حي وأخرج به نبات كلِّ شيء. ومن أراده على غيـر ما أنزله الله لم يستطع ولم يجد لغيره أثرًا في الحياة. ومن أنزل الحق هو الذي أنزل الماء من السماء.

---

(٣٤٠) سورة الرعد : ١٧.

هذا يُقْذَف به الزبد ويمكث في الأرض لينفع الناس. وذاك يُقْذَف به الباطل لتأمن الحياة. ويَعْـرِف مَنْ يخاطب به الغـاية والمصير ولا يفقـده في موتٍ أو نشور. بل تأتيه سكرة الموت بـالحق، ويأتيه البعث بالحق. ويُساق من يُلقى في النـار بالحق ويُقْضى بين الخـلائق جميعا بالحـق. فلا يتوقف أمـر الحق على نفع النـاس في الأرض فحسب، بـل هم بـه حيث كـانـوا في دنيـاهم أو أخراهم ولن يَنْفكَّ عنهم في بدءٍ أو مصير.

وحـديث الحق إليهم له آثـاره ونتائجـه في جميع مـراحل سيرهم من حيـاة ومـوت وبعث وحساب وجـزاء. فأي شيء أثبت من ذلك وأبقى وأنفع وأدوم؟ وهل يكون ذلك إلا للحق؟

ألا إن الإيمـان ببقـاء الحق حـري ألا تنخدع معـه النفس بـزبـد البـاطل أو تُسْتَخَفَّ بإملائه واستدراجه أو تؤخذ بإغواء شياطينه وأتباعه.

فإن الباطل محكوم عليه بالذهاب والفناء، وللحق وحده الثبات والبقاء.

ومن اتبع الحق سَلِمَ معه. ومن اتبع الباطل زهق معه.

إن من تدبر العواقب أيقن أن البقاء للحق.

وفي العـاقبـة لا ترى لأهل البـاطل وأتبـاعهم تمـاسكـا ولا ثباتـا، بل تـرى بعضهم يبرأ من بعض ويلعن بعضُهم بعضا.

تدبر قول ربك ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. واعلم أنه الحق. وفي مكث الحقِّ وبقائه نَفْعٌ للناس.

والخسارة التى تلحق بعض الناس تأتي من التفريط فيما تحقق نفعه.

ويأبى الحقُّ إلاّ أن يقـدِّم نفعـه حتى لخصـومـه وأعـدائه في فـرض العـدل شريعة تقام دون نظر لعداوةٍ أو شنآن.

لهم جميعا نفع في إنصاف مظلوم وعقاب ظالم.

لهم حياة في القصاص وأمن مع الإيمان.

ورحمة في تراحم. ومنفعة في تعاون على برٍّ وتعارف.

وكل ذلك وغيرُه من دواعي الحق وما يأمر به الحق.

من أجل ذلك حَفِظَ الله الذكر كما حَفِظَ ما تبقى به الحياة من نورٍ وماء. وما ينفع الناس. وكان من فضل الله ورحمته بخلقه أن يبقى الذكر ما بقيت الحياة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

٥٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله في سورة النحل ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣٤١).

والمراد بـ﴿الذكر﴾ القرآن الكريم وفي تسميته بالذكر دلالة على ما له من شأن في تبصرة الناس وتذكرتهم وأنه الجدير بهذه التسمية وَحْدَه لبلوغه حد الكمال.

والله عز وجل قد أنزل الذكر وخاطب الرسول ﷺ بقوله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

وقد حفظ الله البيان كما حَفِظَ المُبَيَّن وجعل بيان الرسول ﷺ من قوله وفعله وإقراره شريعةً تُتَّبَعُ.

والقرآن وحي والسنَّة وحي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٣٤٢). وكم من أحكام أجملها القرآن الكريم وفصلها بيان الرسول ﷺ بفعله وقوله.

---

(٣٤١) سورة النحل: ٤٤.

(٣٤٢) سورة النجم: ٣ ـ ٤.

ولولا بيان الـرسول ﷺ لما عرف الناس كيف يـؤدون ما فرَض الله عليهم من صلاة وزكاة وحج وغير ذلك مما فرضه الله ودعا إليه في كتابه .

فسنَّة الرسول ﷺ يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها .

وبهذا أمر القرآن الكريم وحذر من المخالفة والإعراض .

قال الله عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٣٤٣).

وقال سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٤٤). إن بيان الرسول ﷺ قد تلقاه الصحابة علمًا وعملاً .

فرأى الصحـــابة ـ رضـوان الله عليهم ـ كتـابَ ربِّهـم عملاً فـي سلوك نبيهم فاقتدوا به .

وقد كان خُلُقُهُ القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه ﷺ .

قال أبـو عبد الرحمن السُّلمي وهو من التـابعين الذين سمعوا من الصحـابة ونقلوا عنهم ، قـال : «حدثنا الـذين كانوا يُقْـرِئوننا القرآن كعثمـان بن عفـان ، وعبد الله بن مسعود وغيـرهما أنهم كانوا إذا تعلمـوا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا» . من هـذا يتبين لنا كيف كـان بيانُ الرسـول ﷺ للناس وكيف كان منهج المسلمين في تلقي القـرآن الكريم وأنهم كانـوا يجمعون بين الحفظ والعلم والعمل جميعا بلا فصل أو تفرقة بين بيانٍ ومُبَيَّن ، بين قرآنٍ وسنة .

وذاك هو الحق الذي أمرنا باتباعه ونُهينا عن مخالفته ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾(٣٤٥) .

---

(٣٤٣) سورة الحشر : ٧ .

(٣٤٤) سورة النور : ٦٣ .

(٣٤٥) سورة النساء : ٥٩ .

والرد إلى الله ردٌّ إلى الكتاب، والردُّ إلى الرسول ردٌّ إلى السنة.

ومن أبى ذلك أو رأى الرد إلى الكتاب وحده فقد جهل وضل وخالف القرآن نفسه فيما دَعَا إليه وأمر به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فانتهوا﴾(346).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾(347).

دينٌ عُرفت معالمه وحفظت آياته وبيناته، فلا موضع فيه لمحدِث أو مبتدع.

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وفي رواية لمسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمْرنا فهو ردٌّ».

ذاك هو الحق الذي لا يقبل عند الله غيره. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(348).

روى البخارى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى. قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» وقد روى الترمذي عن أبي نجيح العِرْباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوب، وذَرَفَتْ منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي. وإنّه من يعش منكم فَسَيَرَى اختلافًا كثيرا. فعليكم بسنتي وسنة

---

(346) سورة الحشر: 7.

(347) سورة النساء: 65.

(348) سورة الأنعام: 153.

الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُّوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» .

ذاك هو البيان ، بيان الرسول ﷺ للذكر الذي أُنزل عليه ، بيَّنه كما أُمِرَ بقوله وفعله وإقراره . ولا فصل في دين الله بين البيان والمبيَّن ، بين القرآن والسنة . ومن فرّق فزعم أنه يعمل بالقرآن وحده ضل السبيل ، ولم يستطع بغير البيان الذي أُمِرَ الرسول ﷺ به أن يؤدي ما بني الإسلام عليه من الفرائض ، ولو أداها مبتدعا غير متَّبع لرُدَّت عليه وعوقب عليها . ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣٤٩) فاتباع البيان اتباعٌ للمبيّن ومخالفه البيان مخالفةٌ للمبيَّن ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٣٥٠) . ومن يعص الرسول فقد عصى الله والرسول ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾(٣٥١) . ذاك هو السبيل فاتبعه ولا تتبع سبل الأهواء والشهوات ونزعات الشياطين .

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣٥٢) .

٥٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾(٣٥٣) .

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣٥٤) .

---

(٣٤٩) سورة آل عمران : ٣١ .
(٣٥٠) سورة النساء : ٨٠ .
(٣٥١) سورة الأحزاب : ٣٦ .
(٣٥٢) سورة التغابن : ١١ .
(٣٥٣) سورة النحل : ١٠٢ .
(٣٥٤) سورة النحل : ١٠١ .

مسارعة في الإنكار ومبالغة في الجحود والتكذيب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ فقد طعنوا في النبي ﷺ بصيغة القصر، قصر الموصوف على الصفة. فجعلوا الرسول ﷺ لا صفة له إلا الافتراء. فأنت لست بمرسل من الله وما جئت به قد افتريته من عند نفسك وليس من عند الله.

وفي السورة نفسها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾(٣٥٥).

ولما كان من أكبر أغراض هذه السورة بيان أن القرآن الكريم منزل من عند الله فله فضله وهديه وشرفه ومكانته ـ وأهل الكفر تضيق صدورهم به وهو يعيب آلهتهم ويكشف باطلهم ـ فإنهم يلتمسون كل سبيل للطعن فيه والصدّ عنه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾(٣٥٦) ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ ۙ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾.

هكذا تراهم يسرعون في الإنكار والاتهام ويلتمسون كل سبيل للمبالغة في الجحود والكفران، فإذا بدل الله آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزل ـ لمصلحة وحكمة ـ والتبديل لا يكون إلا في التكاليف والأحكام لا في العقائد والأخلاق ـ اتخذوا ذلك سبيلا للطعن في الرسالة والرسول وقالوا «إنما أنت مفترٍ».

وأصل الافتراء: الاختراع، وغلب على اختراع الخبر، أي اختلاقه وهو يساوي الكذب في المعنى. وهم كما أثبت القرآن عنهم يعلمون صدق الرسول ﷺ ولا يكذبونه ولكنهم بآيات الله يجحدون. وهذا الجحود يحملهم على نكران ما لا ينكر وجحود ما لا يجحد ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾(٣٥٧) وقد جاء الرد

(٣٥٥) سورة النحل: ٢٤.
(٣٥٦) سورة فصلت: ٢٦.
(٣٥٧) سورة الأنعام: ٣٣.

عليهم في قولهم ﴿إنما أنت مفتر﴾ بقول ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وفيه إبطال لدعواهم ونقض لها وبيان لماهية القرآن وحقيقته وأنه من عند الله مصون من كل تحريف أو تبديل. كما جاءت الآيات من بعد لتبين من هم الذين يفترون؟ فأثبتت لهم الافتراء ونفته عن أهل الإيمان واليقين ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(٣٥٨).

إن جحود هؤلاء بآيات الله يقودهم إلى نكران ما استيقنته أنفسهم ظلما وعلوا.

فهم ينسبون إلى الرسول ﷺ الكذب والافتراء وهم يوقنون بصدقه وأمانته.

ويتوهمون أنهم يستطيعون أن يبطلوا ما نزل من الحق ويطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وروح القدس: هو جبريل عليه السلام. والقدس: الطهر: ومعناه المَلَك المقدس.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾(٣٥٩).

فمن نزل به مؤتمن على إنزاله، قوى لا يُغلَبُ عليه حتى يُغيَّر فيه. أمينٌ لا يُغيِّر ولا يبدّل ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾(٣٦٠).

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ فما يتلوه الرسول على الناس هو من عند ربه وحيٌ يوحيه إليه ملابس للحق لا شائبة للباطل فيه.

وهذا الإثبات بهذه القوة والثقة مبطل لما زعمه الكفار من أن الرسول ﷺ قد جاء بالقرآن من عند نفسه؛ إذ لو كان من عند الله لما وقع التبديل والنسخ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتلك علة العلل فإن من جهل الحق أعرض عنه.

---

(٣٥٨) سورة النحل: ١٠٥.
(٣٥٩) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٣٦٠) سورة التكوير: ٢٠.

ومن كان هذا حاله كره الحق وتخبط في ظلمات الباطل. والعلة عند أكثر أهل الباطل أنهم للحق كارهون. فلم يصرفهم عما أُنزل على نبيه ﷺ شيء في الرسالة أو الرسول ـ حاشا أن يكون ـ وإنما هو الكره للحق وهو داء لا يستقيم معه قول أو سعي. وهم لهذا الكره لا يطيقون سماع الحق، ويوصي بعضهم بعضًا أن يَلغوا عند سماع القرآن وينهى بعضهم بعضا عن سماعه.

والكُرهُ للحق يقود إلى الكذب والعناد والعتو والاستكبار.

ولا حِمَى للإنسان من هذه العِلَلِ كلِّها ولا حصانة منها إلاَّ بإخضاع الهوى للحق. فانتصار الحق في النفس مرهون بتغليبه على هوى النفس.

وبالحق وحده تبرأ النفس من عللها وتخرج من ظلمات الباطل التى تحيط بها وترى الأشياء على حقيقتها وتمشي في الناس بنور ربِّها **﴿ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾** به يَثْبُتُ الإيمان ويستقر اليقين وتعم البشرى نفوس المؤمنين.

ومن أجل ذلك أنزِلَ القرآن وحفظ للأجيال كلِّها لتصان به معالم الحق والهدى واليقين ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٥٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٣٦١).

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

---

(٣٦١) سورة الإسراء: ٩ ـ ١٠.

هكذا على الإطلاق. ففي كل شأن له هدايته وله تبصرته وتذكرته ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾(٣٦٢).

ومن تدبر القرآن الكريم عرف ذلك وأيقن به ووجد في نفسه نورا يمشي به في الناس إنه «نور» وإنه «روح».

ومن فقد النور تعثرت خُطاه وضل في مسعاه.

ومن فقد الروح فهو من الموتى ﴿والموتى يبعثهم الله﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾(٣٦٣).

وهل يُبْصِرُ الناسُ الأشياء على حقيقتها بغير نور.

وهل تطيب لهم حياةٌ إذا عميت قلوبهم وأظلمت بصائرهم.

إنّ هداية القرآن شاملةٌ كاملة يهدي للتي هي أقوم في كلِّ شيء في العقيدة والعبادة في ظاهر الإنسان وباطنه، في خاصة نفسه وفي علاقته بغيره، في شئون الحياة كلِّها يهدي ويرشد في عدل واعتدال، يفي بالحقوق وينهض بالواجبات. وهو يقيم العدل في ذات الإنسان أولا بين فضائل روحه ومطالب جسده، فلا ينسى نصيبه من دنياه ولا يُشْغَلُ بدنياه عن أخراه.

وهذا التوازن في هداية القرآن هو السبيل لإيجاد الإنسان السوي. الذي يُنصِفُ المظلوم، ولو كان من غير جنسه ويأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وعشيرته؛ لأنه يأخذ نفسه بِهَدْي القرآن، ويتبع هداه، ويخشع لحديثه، ويستجيب لندائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ

---

(٣٦٢) سورة النحل: ٨٩.
(٣٦٣) سورة الشورى: ٥٢.

﴿أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (٣٦٤).

تلك هداية القرآن في إقامة العدل والقيام بالقسط. هداية يتحقَّقُ بها السلام الحق بين جميع الخلق. ولا سلام بغير عدل ولا أمن بغير الخضوع للحق.

والعدل والحق لا تحدده أهواء الناس ولم يُترك تحديده لنزواتهم وشهواتهم. بل قد جاءهم الحق من ربهم ربِّ العالمين، والله غني عن العالمين. وبتحديد معالم الحق في كل شأن تنقطع الحجة وتبطل المعذرة.

والناس جميعا مأمورون باتباع ما نزل من الحق ومحاسبون عليه.

وذاك هو موطن امتحانهم وفتنتهم وعليه يكون حسابهم وجزاؤهم.

وما من شأن إلا ويَجِدُ الإنسانُ نفسَه في امتحان بين اتباع الهوى أو الخضوع للحق. ومن اتبع الهوى ضل عن سبيل الله. ومن اتبع الحق من ربه نجا من ضلال وشقاء وفاز بحسن عاقبة وجزاء.

ونداء القرآن الكريم للناس لا ينقطع، ودعوتُه لا تتوقف. وبيانه فيهم شمس لا تغيب إن بارحت رءوس قوم أنارت عند آخرين، ولهم جميعا من النور ما يهديهم للتي هي أقوم ويقودهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وتلك بشرى القرآن لمن اتبع هداه، وتحذيره لمن أعرض عنه واتَّبع هواه ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.
والذين لا يؤمنون بالآخرة لا يؤمنون بما جاء في القرآن وما دعا إليه.

---

(٣٦٤) سورة النساء: ١٣٥.

ألا فليعلم الناس جميعا أن هداية القرآن لهم هي السبيل لإنقاذهم من ضنك الدنيا وعذاب الآخرة، وليعلم المسلمون بخاصة أن هداية القرآن لهم هي السبيل لدفع الكيد عنهم. والقرآن يدعوهم أن يأخذوا بالأسباب؛ طاعة لربّهم و إنقاذا لأنفسهم.

فإن التفريط في الأخذ بالأسباب التي أمروا بها معصيةٌ لربهم. وهم يطلبون نصره و ينشدون رحمته، وما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته.

فاتبعوا ـ معشر المسلمين ـ هداية القرآن في روابطكم وفي صلتكم بغيركم. اتبعوا هداية القرآن إنقاذًا لحاضركم وأمانا لمستقبلكم.

اتبعوا هداية القرآن في الحكم فيما بينكم.

واستجيبوا لنداء الله وهو يدعوكم بأكرم نداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٣٦٥).

٥٨

وفي حديث القرآن عن القرآن نلتقي معًا مرة أخرى عند هذه الآية من سورة الإسراء ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

فقد التقيت معك في الحديث عن هذه الآية في عموم دلالتها.

وأود على نورها أن نرى هداية القرآن في صلاح حالنا و إصلاح ذات بيننا فللقرآن هدايته وتبصرته. وهو هدى من الله للناس.

وقد يسأل بعض الناس ما لنا نحن المسلمين في واقعنا المعاصر على هذا الحال والقرآن يُتْلى علينا والرسول ﷺ بسنته الصحيحة فينا ؟

---

(٣٦٥) سورة الأنفال : ٢٤.

ولنطلب الإجابة من القرآن نفسه .

فإن هداية القرآن تبصِّرنا بأسباب هـذا الواقع وتدلنا على ما يجب أن يكون . فمن المعلوم أن لله سُنَنًا لا تتبدل ولا تتحـول ولا تجامل ولا تحابي ﴿من يعمل سوءًا يُجْزَ به﴾(٣٦٦) من أي جِنْسٍ ومن أي لون .

والمسلمون الأوائل ـ وفيهم رسول الله ﷺ ـ قـد خوطبوا حين رأوا ما وقع بهم في غزوة أحـد وقالوا «أنى هـذا»؟ خوطبوا بقـول الله عز وجل ﴿قلْ هُوَ من عند أنفسكم﴾ وهُمْ مَنْ هُمْ في استقـامتهم وفـي طـاعتهم لـربهم واتبـاعهم لنبيهم ﷺ. والقرآن الكـريم حينما يقص علينا ذلك إنمـا يبصرنا بمـا يجب أن نكون عليه من ترك السلبيات المعوقة والبعد عن المخالفة والمعصية .

وما من داءٍ يبيّنه القرآن إلاّ ويرشد معه إلى الدواء .

فهو حين يحـذرنا من مطاوعة أهل الكفـر والضلال وينهانا أن نتخـذ بطانة من دوننا يبصرنا بما يجب أن نكون عليه من تُقًى وثباتٍ وصبر حتى لا ينفذ فينا كيدُ أعـدائنا ، أو يتحقق فينـا مكرهـم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾(٣٦٧) .

هكذا نرى القرآن الكريم يذكر لنا الـداء في مطاوعة أهل الكفر واتخاذ بطانة من دوننا وما أكثر ما يقع ذلك في حياة المسلمين في واقعنا المعاصر. يذكر لنا

(٣٦٦) سورة النساء : ١٢٣ .
(٣٦٧) سورة آل عمران : ١١٨ ـ ١٢٠ .

ما تطـويه صدور أعـدائنا وما يسـرُّهم بالنسبـة لنا وما يُسيئهم . فمـا يمسنا من حسنة تسـؤهم وما يُصيبنـا من سيئة تفـرحهم . هذا الـداء يبين معه الـدواء وما يجب أن نكون عليه لرد الكيد ودفع الشر.

تبصرنا هداية القرآن أن نكون دائما على تقًى وصبر.

تقًى يحقق فينا أبرَّ الصفات وأكرم الأخلاق .

وصبر يحقق فينا الثبات على الحق والأخذ بالأسباب ـ في مثابرة وجد ـ دون قنوطٍ أو يأس ، واثقين في وعد الله ، آخذين بأسباب نصره ، مؤمنين بأننا إذا لم ننتصر بفضلنا لم نغلب بقوتنا وأن مـا عند الله لا يطلب إلا بطاعته ، وأن العاقبة لا تكون إلا لمن آمن به واتقاه .

إن هداية القرآن تبصرنا أن صلاح نفوسنا هو السبيل لطلب النصر من ربِّنا .

فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم فـأسباب تخلفهم من أنفسهم لا من كيد عدوِّهم . ومن سنن الله أن جعل تَغَيُّرَ الحـالِ من تَغَيُّرِ النفوس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٣٦٨).

فإصلاح الواقع ، أيِّ واقع ، يستلزم تربية النفوس وإعدادها واستقامتها على نهج سوي لا تناقض فيه ولا اختلاف . فإذا تنـاقضت وسائل التربية فكان منها ما يدعو إلى فضيلة ومنها ما يناقضه ساءت النتائج وعظمت البلوى .

ومن الخطأ بل من الخطيئة أن نلتمس علاج واقعنا بعيدًا عن هداية القرآن ، فإذا كنـا ننشد التراحـم فيما بيننا أولا فعلينـا أن نستمسك بمـا دعانا إليـه لكي نتراحم ، وتلك إشارته الـدالة على قرب القرآن الكريم مِنَّا ودعـوته إلى تراحمنا ورجاء الـرحمة من خـالقنا ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣٦٩).

---

(٣٦٨) سورة الرعد : ١١ .

(٣٦٩) سورة الأنعام : ١٥٥ .

هداية القرآن لنا لإصلاح حاضرنا ومستقبلنا لدنيانا وأخرانا، لسرّنا وعَلَنِنَا، لسرائنا وضرائنا، ليُسرنا وعسرنا، لكل شأن من شئوننا للقرآن هدايته وتبصرته وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم.

فإن أبينا إلا الإعراض عنه دفعنا الثمن غاليا في ضنك معيشتنا وفشل حياتنا وذهاب ريحنا. وكنا نحن بإعراضنا عن هدايته الذين نحقق لأعدائنا أكثر مما يطمعون فيه دون جهد منهم. وكانت هزائمنا من معاصينا لا من كيد أعدائنا. فإن ذنوبنا أخوف علينا من عدوِّنا. وما من سبب لعزِّنا ونصرنا إلا وبيَّنه لنا القرآن وحثَّنا عليه وذكَّرنَا بمآسي التقصير في الأخذ بالأسباب بذكر العبر والعظات وتلاوة الآيات البينات. فما يقع فينا مِنْ ظلمنا لأنفسنا. ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

ومن رحمة الله وفضله أن حفظ لنا المِصْعَد لِيَصْعَدَ به من أحب أن يصعد «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع آخرين».

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾(٣٧٠).

٥٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾(٣٧١).

يُخبر الله سبحانه أنه قد بيَّن في هذا القرآن وصرَّف أمثاله ومواعظه وقصصه وأخباره وأوامره ليتذكر الناس ويتعظوا.

ولكن أهل الشرك والضلال ما يزيدهم ذلك التصريف والتبيين إلا نفورًا عن الحق. ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى

---

(٣٧٠) سورة محمد: ٣٨.

(٣٧١) سورة الإسراء: ٤١.

ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٣٧٢).

إن نفور الناس عن الحق وإعراضهم عنه ــ في ماض أو حاضر ــ يُودي بهم، ويدمِّر عليهم. والحق الذي أنزل القرآن به وصُرِّفت آياته أصلٌ في فطرة الخلق وحقيقة الوجود. لن يفلت مَنْ كرهه أو أعرض عنه ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾(٣٧٣).

فمن أعرض عن الحق أُخِذَ به.

فلنتبع هدى القرآن وبيانه فإن فيه تبصرةً وتذكرة، فيه أوامر ونواهٍ، فيه ترغيب وترهيب لمن استجاب ولمن أعرض، فما من عمل إلا وله جزاؤه من خير أو شر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٣٧٤).

وإذا نحن تدبرنا القرآن عرفنا هدايته في كل شأن صَغُر أو كبر، فمضينا في الحياة كلِّها على بينة ونحن ندرك ما نأخذ وما ندع وما يحل وما لا يحل، واستقامت نفوسنا مع الحق دون تَعَدٍّ أو تجاوز ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾.

وقد جاءت هذه الآية بعد بيانٍ لخصال أُمِرْنا بِهَا أو نهينا عنها. نقرؤها في سورة الإسراء من أول قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

---

(٣٧٢) سورة فاطر : ٤٢ ـ ٤٣.
(٣٧٣) سورة الزخرف : ٧٧ ـ ٧٨.
(٣٧٤) سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨.

إحسانا﴾ . ونرى فيها بعض ما أمرنا به وما نهينا عنه وكيف بيَّن القرآن الكريم وصرَّف الأوامر والنواهي، ودعا إلى مكارم الأخلاق ونهى عن سيئها، وكيف حدد الحقوق وبين الواجبات في خمسٍ وعشرين من الخصال جمعت في آيات متتابعات شرعة ومنهاجا للقيم والأخلاق. فاقرأ أخي وتدبر واعمل رعاك الله وهداك. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)﴾ (٣٧٥).

---

(٣٧٥) سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٣٨.

تلك هداية القرآن وهذا بيانه، يُبيّن ويصرّف الآيات للناس ليذَّكروا. وقد رأيت كيف بيّن القرآن وصرّف الأوامر والنواهي. فنهى عن كل شر، وأمر بكل خير، أحلَّ ما هو طيب، وحرَّم ما هو خبيث، وربط الأوامر والنواهي بصدق الإيمان بالله وعدم الإشراك به لتقوم في النفس رقابة ذاتية من معرفة الله وخشيته.

وقد سبقت هذه الآيات بقوله سبحانه ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾(٣٧٦).

وختمت بقوله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾(٣٧٧). فليكن الإخلاص لله رائدك وأنت تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه فإن الله لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصا لوجهه.

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

٦٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾(٣٧٨).

إن من كفر بالله وجحد بآياته وأنكر البعث حُرِم الهداية والتوفيق.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

---

(٣٧٦) : سورة الإسراء : ٢٢.

(٣٧٧) سورة الإسراء : ٣٩.

(٣٧٨) سورة الإسراء : ٤٥ ـ ٤٦.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾(٣٧٩).

إن الإيمان بالآخرة أصل في حقيقة الإيمان والذين لا يؤمنون بالآخرة يخسرون أنفسهم ولا يزيدهم القرآن إلا خسارًا.

قال قتادة : لم يجالس القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله الذي قضى ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

إن القلوب التى جعل الله عليها أكنَّةً قد حِيلَ بينها وبين تدبره والانتفاع به ؛ عقابا لها على الإصرار على الكفر والجحود وإنكار العود إلى الله والحساب بين يديه.

وكم من ناس نسُوا خلقهم واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأخذوا بها فصُرِفوا عن الهداية وانغمسوا في الضلالة وكان ذلك جزاؤهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٣٨٠) إن من شرح بالكفر صدرًا واستحب الحياة الدنيا على الآخرة خسر الدنيا والآخرة. فما بقيت له دنياه ولا سلمت له أخراه.

وكم من ناسٍ تجحد قلوبهم ما تستيقنه نفوسهم طلبا للعلو في الأرض وإيثارًا للحياة الدنيا، مع يقينهم بأن ما يخاطبون به هو الحق وما يسمعونه هو الصدق، ولكنهم يُعرضون ولا يستجيبون ؛ لأن أهواءهم تقودهم إلى العاجلة وتنسيهم الآخرة. ومن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم فمن يهديه من بعد الله؟

---

(٣٧٩) سورة الكهف : ٥٧.

(٣٨٠) سورة النحل : ١٠٧ ـ ١٠٩.

إن عِلَلَ النفوس تُودي بها، وأمراضَ القلوب تُهلك أصحابها. فالحقد والحسد والبغي والظلم والكبر واتباع الهوى و إيثار العاجلة ونسيان الآخرة كلٌّ ذلك وغيرُه أمراضٌ مدمّرة لأهلها مهلكة لأصحابها.

سئل أبو جهل ـ وقد استمع إلى القرآن كما استمع غيره. سأله الأخنس ابن شُريق ـ وكان ممن يتسلَّل بليلٍ ليستمع إلى رسول الله ﷺ ـ سأل أبا جهل ـ وقد رآه يستمع وتعاهد معه ومع أبي سفيان ألا يعودوا ـ سأله فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ما سمعت. قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك ذلك؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه».

تلك هي العلة في نفس كافر جحود. حقدٌ وحسدٌ حَالَ بينه وبين الاستجابة للحق وحرمه من الهداية والتوفيق. ودفعه إلى الصد والكيد والمبالغة في الكفر والجحود وقد لقي جزاءه خسارة لدنياه وخسرانا لأخراه.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾(٣٨١).

---

(٣٨١) سورة الجاثية: ٢٧ـ٣٣.

تلك هي عاقبة الذين لا يؤمنون بالآخرة. غرّتهم الحياة الدنيا فرضوا بها واطمأنوا إليها ونسُوا الآخرة وشُغِلُوا عنها، فضلوا وأفسدوا فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾(٣٨٢).

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

٦١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٣٨٣).

إن للقرآن شأنًا أيَّ شأن.

له شأنه في تبصرة الناس وهدايتهم، وله شأنه في بيان مصائرهم تبعًا لأعمالهم وإيمانهم.

له شأنه في النفوس وما تكون عليه. فمن آمن به فهو له شفاء ورحمة ومن أشرك وأعرض فله به خسران أي خسران.

شفاء ورحمة للمؤمنين. شفاء للصدور وشفاء للقلوب وهي تطمئن بذكر الله فتسلم من الهوى والحسد ونزعات الشياطين، شفاء من الاعتقادات الفاسدة والأخلاق المذمومة، شفاء من جميع الأمراض الباطنة والظاهرة، حيث يسلم قلب المؤمن من الحقد والحسد والشرك والشك والنفاق والكذب والرياء. ويسلم ظاهره من البغي والتسلط والإساءة لغيره.

---

(٣٨٢) سورة الجاثية: ٣٤-٣٧.
(٣٨٣) سورة الإسراء: ٨٢.

ومن تدبر القران واستجاب لندائه أيقن بما للقرآن من أثر في طمأنينة القلب وراحة النفس ووجد هدايته في كل شأن.

وإذا عُرف ما للقرآن من شفاء ورحمة، وأن السبيل لتحقيق ذلك هو صدق الإيمان به والعمل بما فيه، فإن من أعرض عنه قد حرَم نفسه بنفسه الرحمةَ والشفاءَ، وعاش في دنياه في قلق وحيرة، فلا نَعِمَ في دنياه بأمن وسلام ـ ولو امتلات خزائنه بوفرة من المال ـ ولا سعد في أخراه بفوز أو نجاة.

إن القرآن الكريم قد حدد للناس المعالم وعرَّفهم ما يوصلهم إلى الفوز والنجاة، وما يَسُوقُهم إلى الدمار والهلاك وقَصَّ عليهم من القصص ما يبيِّن لهم سنن الله في خلقه. فلم يكن حديثه عن السابقين مجرد حديث عن أمم ماضية، وإنما كان حديثا يعرِّفنا سنن الله الباقية ونحن نراها في مصائر المكذبين وآثارهم. ويبصرها من يبصرها في ديارٍ قد خلت وأمم قد ذهبت، ليتعظ من يتعظ ويعتبر من يعتبر. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٣٨٤).

فحديث القرآن يُراد به هداية الإنسان. وهو يذكر بسنن الله الباقية في وقائع وأحداث ماضية، يرى المتدبر مثيلها في أحداث حاضرة وواقعة. والسعيد من اعتبر واتعظ والتمس لنفسه النجاة في صالح عمل وصدق يقين. وعرف ما للقرآن من رحمة وشفاء، فاعتصم به واهتدى بهداه واقتدى بمن كان خلقه القرآن، فرضي برضاه وسَخِطَ بسخطه، كما كان هذا حالَ رسول الله ﷺ. وللقرآن آثاره ونتائجه، لا في دنيا الناس فحسب، بل في دنياهم وأخراهم.

---

(٣٨٤) سورة آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨.

وهو يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه مدافعًا عن أهله الذين كانوا يعملون به في دنياهم.

وإذا عُلم أن «الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع آخرين» كما جاء في صحيح مسلم فيما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فهل يعي المسلمون أن القرآن سبيل عزهم ومجدهم - في كل عصر وزمن - وأن من ابتغى العز في غيره أذلَّه الله ؟ هل يدركون أن لا عصمة لهم من فرقة وتنازع إلا بالاعتصام به. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ؟ هل يدركون أن لا مخرج لهم من ضياع وهوان ولا أمن لهم ولا سلام إلا بنوره وهداه.

هكذا جعله الله. ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣٨٥).

وهذا أمر الله لهم في كل زمن ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾.

ذاك هو السبيل للرحمة المرجاة ولا سبيل غيره لفوز أو نجاة.

٦٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(٣٨٦).

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف. واللام في قوله ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ دالة على قسم مقدر.

---

(٣٨٥) المائدة : ١٥ـ١٦.

(٣٨٦) سورة الإسراء : ٨٦ـ٨٩.

وقوله ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جواب القسم.

ولهذا القسم وجوابه دلالةٌ لا تخفى وهي أن الأمر كلَّه لله وحده وأنه صاحبُ المنَّة والفضل في إنزال الوحي واستبقاء ما أوحى به إلى نبيِّه ﷺ.

منَّةٌ منهُ وفضلٌ على نبيه وعلى الناس وقد أَنْـزَلَ كتابه وحفظه لينعم به الناس جيلاً بعد جيل، وهم يجدون هدايتهم وتبصرتهم فيما استبقاه الله وحفظه.

وفي ذلك ما فيه من ردٍّ على أولئك الذين قالوا لرسول الله ﷺ ـ وهم لا يرجون لقاء الله ـ : ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فهو ﷺ لا يملك هذا ولا ذاك ولا شأن له في الإتيان أو استبقائه ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

ولقد كان الرسول ﷺ ـ وهو يتلقى هذا القرآن ـ يخاف أن ينسى شيئا مما يُوحى إليه ويحرك لسانه ليستوثق. فجاءه من ربِّه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾(٣٨٧).

فالله وحده هو الذي تكفَّل بشأن هذا القرآن وحيا وحفظا وبيانا وجمعا.

وليس للرسول ﷺ من أمره إلا ما كلِّف به من تبليغ واتباع.

ولقد كانت الآيات الطوال تنزل عليه وهو يتلقاها ﷺ ويبلغها كما أنزلت بعد مفارقة جبريل عليه السلام. وهو النبي الأمي الذي لم يَتْلُ من قبل من كتاب ولا يخطه بيمينه. كم تستغرق سورة الأنعام من زمن مع من أراد أن يقرأها ويحفظها ليتلوها على الناس من حفظه؟ وقد ورد في الخبر أنها نزلت جملةً واحدة.

إن الإعجاز فيه وفي إنزاله وحفظه وفي جمعه في صدر نبيه بيِّن لا تخفى دلالته. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ علينا لا على غيرنا، هكذا بنون العظمة الدالة

---

(٣٨٧) سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩.

على انفراد العلي العظيم بأمرٍ لا استطاعة فيه لأحدٍ غيره من إنسٍ أو جن. ولا استطاعة لأحدٍ أن يبقيه إن شاء الله أن يُذهبه.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ لكنَّ الله بـرحمته وفضلـه أبقـاه هدى للنـاس. فكمـا امتنَّ على نبيِّه ﷺ امْتَنَّ عليـه بإبقائه وحفظه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي لكن أبقيناه رحمة من ربِّك.

والناس عليهم أن يعـرفوا هـذا الفضل وأن يفرحـوا به ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ إنه فضل الله ورحمته. ومن آمن بذلك عرف قدر ما تفضل الله به، فاعتصم به واهتدى بهداه. ومهما قيل في إعجاز القرآن فإنَّ أمره أعظم وأكبر.

إنـه روح، والـروح من أمـر ربي. فـلا يمكن محـاكـاتـه، ولا يملك الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

ولقـد صـدق السكـاكي حين قـال عن إعجـاز القـرآن: «إن شأن الإعجـاز عجيب يُدرَك ولا يمكن وصفُه». ومن تدبـر القرآن وكان لـه قلب عرف ذلك؛ فالقـرآن ليس عباراتٍ وألفـاظًا يحاول الجن والإنس أن يحـاكوهـا. إنه روح، وللروح أثرها في حياة الإنسان وليس لـلإنسان حياةٌ إلا بها. ومن لم يكن له مع القرآن حياة فهو من الموتى ﴿والموتى يبعثهم الله﴾.

والحياة التى يتميز بهـا الإنسان هي في حسن الاستجابـة لله وللرسول. ومن هنا كـان النداء لأهـل الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لقد صرَّف الله القـرآن وبيَّنه فمن أبى بعد البيـان والتذكير إلا الكفر والجحود والإعراض والتكذيب يُولِّه الله ما تولَّى ويُصله جهنم وساءت مصيرا. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مصيرا﴾(٣٨٨).

---

(٣٨٨) سورة النساء: ١١٥.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء:
﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ ﴾(٣٨٩).

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾. الحديث هنا عن القرآن الذي قال الله عنه من قبل في هذه السورة سورة الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

وفي إنزال القرآن بالحق ونزوله به دعوة إلى حسن اتباعه والعمل به.

فإنه الحق. والحق جدير أن يُتَّبع وأن تخضع النفوس له.

ومن اتبع الحق قاده إلى الجنة. ومن اتبع الباطل دمَّر بدماره ولم يجد سوى الحق في عاقبته ومآله. إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل نورٌ تقوم به الحياة، وحبل واصل من السماء يعتصم به الأحياء ويرتفعون عن الخلود إلى الأرض واتباع الأهواء. له في معاملة الناس وروابطهم شأن أيُّ شأن.

لا تفقده في مواساة فقير أو محاسبة غني، ولا يغيب عنك في إنصاف مظلوم أو مؤاخذة ظالم. هو ميزان عدل بين الخلق، وحديث صدق في قيام الناس بالقسط. لا يُخْضعه ذو هوى لهواه، ولا ينشده ذو باطل لباطله. عزيز منيع يُقْذف به الباطل ولو احتمى بسلطان جائر. وينصف به الحق ولو كان لضعيف خامل.

---

(٣٨٩) سورة الإسراء: ١٠٥-١٠٦.

إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل تُخاطب به الأجيال كلُّها.

تَفِدُ وتذهب وهو باقٍ بإبقاء الله له، محفوظ بحفظه لا تنقضي عجائبه.

يهتدي بهداه المتقون ويخسر بجحوده المبطلون.

قد حفظه الله وأبقاه لتستقيم حركة الحياة وتعتدل كلما أريد لها أن تميل، وتصفو كلما عَلِقَ بها زبدُ الباطل أو غشيتها ظلماته.

إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل تحددت به قيم الأشياء وتميزت، وعلت قيمة الإنسان حين انتسب إلى الحق وشَرُف به. عَلَتْ قيمة الإنسان وتعلو كلما أخذ نفسه بكلمة الحق التى نزل بها القرآن، فلم يخضع لنزعة جنس أو لون، ولم يستجب لدافع هوى أو إغراء منفعة، ولم يصرفه عن الثبات عليه والتمسك به ما يلاقيه في سبيله.

إن قيمة الإنسان تعلو عند الله حين ينصر الحق حيث كان دون نظر لقريب أو بعيد أو عدوٍّ أو صديق. فيغدو بالحق صاحب رسالة وإنسان مبدأ وغاية.

ينصر المظلوم بالحق ولو كان من غير جنسه ويأخذ على يد الظالم بالحق ولو كان من ذوي قرابته وأهله.

ذاك مقتضى إنزال القرآن بالحق ونزوله به. ومن أنزل القرآن بالحق وحفظه سيُحَاسب عليه. ومن أُنزل إليهم وشرفوا به سيسألون عنه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(٣٩٠).



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا

(٣٩٠) سورة الزخرف: ٤٤.

﴿ مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥ ﴾ .

في حديث القرآن هنا ذكرٌ لمن أنزَلَ الكتاب ومن أُنزل عليه .

ومن أنْزَلَ الكتاب يستحق أن يُحمد ، ومن أُنْزِلَ عليه مختار من الله جدير أن يتبع ، وخير ما يُوصف به أنه عبد الله ورسوله ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ .

والكتاب : هو القرآن الكريم . وقد أنزله الله على عبده محمد ﷺ وجعله قائما على أحكام الدين ومصالح العباد ، مستقيما لا عوج فيه ولا اختلاف ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾(٣٩١) .

وفي ابتداء السورة بالحمد إرشاد للناس أن يحمدوا الله على إرسال الرسول وإنزال الكتاب . فإن ذلك من أجلِّ النعم وأعظمها .

وقد وصف هذا الكتاب بوصفين : نَفْي العوج عنه ، وإثبات أنه قيِّم مستقيم . وفي النفي والإثبات توكيد لمعنى الاستقامة وتشديد فيه لِيَعْظُم أمر الاقتداء به والعمل بمقتضاه .

والغرض من إنزال الكتاب على عبده واضح بيِّن ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ .

كتاب قيِّم في ذاته يدعو إلى الاستقامة ويبشر أهلها .

ويحذر من العِوَج وينذر أهله .

---

(٣٩١) سورة النساء : ٨٢ .

والقيِّم: المستقيم المعتدل. والأمة القيمة: المعتدلة.

وهذا الكتاب وهو يهدي للتي هي أقوم يدعو إلى الاستقامة في كل شيء:

في العقيدة بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به.

وفي السلوك بإتقان العمل وإخلاص القصد لله.

وفي المعاملة بإقامة العدل والبعد عن الظلم والجور.

والقرآن الكريم حين يبشر وينذر، إنما يُبشِّر بأجرٍ من الله لا من غيره. ووعد الله حق وجزاؤه حق ولن يخلف الله وعده. وحين ينذر بعذاب إنما ينذر بأمر واقع ما له من دافع.

فالذين يبغون الحياة عِوَجًا ويفسدون في الأرض ولا يصلحون محاصرون ومعاقبون وما هم بمعجزين.

ينذر ويبشر، ولكل عمل عاقبته، ولكل فعل جزاؤه ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(٣٩٢).

وللبشرى وللإنذار آثار أي آثار فيمن أيقن أو كذب، ونتائج في سلوك الفرد، وروابط المجتمع فإن من أيقن بالجزاء كف شرَّه عن غيره وقدَّم خيره، ومن كذَّب ولم تردعه عِبَرٌ واقعة وعظاتٌ بالغة طغى وأفسد، وأحيط به وكان عاقبة أمره خسرا ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ

---

(٣٩٢) سورة النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾(٣٩٣).

والفوز في العاقبة لا في الفانية.

فمن ظلم هنا وطغى أخذ بظلمه. ومن استبد واستكبر هلك بذنبه. وسيظل القرآن يبشر وينذر. فمن أصرَّ على شرك وكفر ندم حيث لا ينفع ندم ولا تقبل توبة. ومن تاب من قريب ـ قبل أن يأتي الموت أو يقع البأس يُغفر له ما قد سلف. ولن يُترك الإنسان سدًى. ومن حَسِبَ ذلك ولم تُبَصِّرْهُ نشأته أيقظته سكرةُ الموت بالحق ورأى ما كان عنه يحيد. فطوبى لمن استبصر وأناب قبل أن يأتي يوم الوعيد.

وتلك بشرى القرآن، وهذا إنذاره. ولا حجة بعد بلاغ، ولا عذر بعد بيان وإنذار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾(٣٩٤).



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾(٣٩٥).

---

(٣٩٣) سورة الطلاق: ٨ ـ ١١.
(٣٩٤) سورة الروم: ١٤ ـ ١٦.
(٣٩٥) سورة الكهف: ٦ ـ ٨.

من المعلوم أن الرسول ﷺ ـ وهو يعلم أن مصائر الناس تتحدد بموقفهم من الحق اتباعًا أو إعراضًا ـ كان يحزنه أن يكذّب قومه بالقرآن ويعرضوا عنه.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

والمراد بهذا الحديث: القرآن الكريم.

والتكذيب بالقرآن ـ وهو حق ـ مُفْضٍ إلى اضطراب في الدنيا وخسران في الآخرة ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(٣٩٦).

من هنا كان أسف الرسول وحزنه على هؤلاء المكذبين المعرضين لما يعرفه من سوء عاقبة لهم ومصير.

فخاطبه ربه في كثير من الآيات أن هؤلاء لا يستحقون أن تحزن عليهم وتأسف فإنهم لو استحقوا الهداية لهداهم الله.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾(٣٩٧).

إن من أراد الله إضلاله بما علم من سوء قصده وإحباط عمله لا مقدرة لأحدٍ من البشر على هدايته. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٣٩٨).

إن الناس يختلفون في تقبل الحق والعمل به، كما تختلف الأرض إذا أصابها الغيث فمنها ومنها.

---

(٣٩٦) سورة ق : ٥.
(٣٩٧) سورة فاطر : ٨.
(٣٩٨) سورة الجاثية : ٢٣.

منها مـا يقبل الماء فينبت ويعطي، ومنهـا ما لا يمسك ماء ولا يقـدم عطاءً وما بُعِثَ به الـرسول ﷺ من الهدى والعلم غيث تستقبلـه النفوس كما تستقبل الأرض ما يصيبها من ماء.

والمنتفعون بهذا الغيث أولئك الذين طـابت نفوسهم فاستقبلت ما بعث الله به نبيـه من الهدى والعلم كما تستقبل الأرض الطيبـة الماء فتهتز وتـربو وتنبت من كل زوج بهيج. وقـد اقتضت حكمة الله أن يبتلي الناس بمـا أنعم وأعطى، ولم يُجْبِـرْهم على إيمـان أو يقهـرهم عليـه. وإلا لانتفـى الحسـاب وبطل الجزاء.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبلِّغ مـا أنزل إليه من ربه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾(399).

والله عـز وجـل عليم بخلقـه لا يعـزب عنـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء. والحساب عنـده دقيق يجمع ما تطويه الصدور ومـا تكسبه الجوارح ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(400).

ولعل هـذا يكشف لنا وجـه المناسبة بيـن قولـه وهو يخاطـب نبيه ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

---

(399) سورة الرعد: 40.
(400) سورة الأنبياء: 47.

فلا أسف على من يكذب بهذا الحديث في دنيا الناس .

فإن دنياهم بساطٌ لا بدَّ أن يُطوَى ، وزرع لا بدَّ أن يُحصد ، ومتاع قليل لا بد أن يزول .

ومن الناس من يُفتن بدنياه ويرى نفسه بها ، ومنهم من يعرف حدودها فيخضعها لغاية أرْضَى وأبقى .

والقرآن الكريم وهو حديث حق ـ يذكر ويبصر ويهدي للتي هي أقوم ، يبصر بالعواقب ويذكِّر بالنتائج . لِيُعْلَمَ أن ساحة الحياة لم تكن متروكة لطاغية أو جبار، وإنما هي محكومة بسنن عادلة .

فمن طلب الحق هُدي إليه . ومن رغب في الباطل واتبعه دُمِّر به ولا أسف على مبطل ، ولا حسرة على ظلوم جحود .

ومع بيان العاقبة والمصير يدرك كل داع إلى الحق أن الحق لا يهزم أبدا وإن جحده المبطلون أو عارضه المكذبون .

والناس يدعون إلى اتباع الحق هنا في الدنيا وهم مأخوذون به مجزيون عليه عند مليك مقتدر.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤٠١).

إن حديث القرآن حق وصدق وعدل ، فاحذر أن تميل عنه إلى باطل أو تركن إلى ظالم ، أو تؤخذ ببريق خادع كاذب فتضل السبيل وتهلك مع الهالكين ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾(٤٠٢).

---

(٤٠١) سورة ق : ٤٥ .

(٤٠٢) سورة هود : ١١٣ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٤٠٣) أمر الله رسولَه ﷺ أن يبلِّغ ما أنزل إليه من ربّه هداية للمتقين ونذيرًا للعالمين وما أوحاه الله إلى نبيه هو الحق الذي تصان به الحقوق وتُعرف الواجبات .

وللناس أهواؤهم وشهواتهم ولهم دوافعهم ومنافعهم .

والحق لا يتبع أهواء الناس ولا يخضع لشهواتهم .

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ .

وأصحاب الهوى لا يريدون قرآنا يصدع بالحق وينطق بالصدق ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وهم يزنون الأمور بالأهواء والمنافع ، ويؤثرون الرغائب وينسون العواقب . . وينشدون العاجلة ويذرون الآخرة .

لذا نراهم وهم يسمعون القرآن يُتلى عليهم يقولون لرسول الله **﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾** إنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم فيذعنون له ويطيعون ، وإن يكن غير ذلك فهم عنه معرضون .

إن هؤلاء الذين يقولون لرسول الله ﷺ : «ائت بقرآن غير هذا أو بدله» ينشدون دينا يتبع أهواءهم .

والرسول ﷺ لا يأتي بشيء من عند نفسه وإنما يتبع ما يوحى إليه من ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ . ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن

(٤٠٣) سورة الكهف : ٢٧ ـ ٢٨ .

﴿كتاب ربك﴾ ولا تلتفت إلى قولهم، أي اقرأ ما أنزل إليك واتبع ما فيه واعمل به ﴿لا مبدِّل لكلماته﴾ أي لا مغير للقرآن، ولا يقدر أحدٌ أن يتوصل إليه بتغيير أو تبديل.

ومن همّ بتبديل أو تغيير لم يجد من دون الله ملجأ يلجأ إليه أو مهربا يأوي إليه.

القرآن قد أنزل بأمر الله وحفظ بحفظه ولا مبدِّل لكلماته.

والمؤمنون بالقرآن مطالبون ـ أسوة بنبيِّهم ـ أن يستمسكوا به وأن يثبتوا على الحق وألاَّ يميلوا عنه، وأن يحبسوا أنفسهم عما يصرفهم عن الثبات، وأن يحذروا استخفاف أهل الباطل واستدراجهم؛ فإن من مال عن الحق أو أعرض عنه أخذ بذنبه ودمِّر بمعصيته، ومن ركن إلى ظالم أخذ معه، ومن مال إلى باطل دمِّر به.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[٤٠٤].

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[٤٠٥].

ذاك ما أُمِرَ الرسول ﷺ به ودُعينا إلى اتباعه.

دُعِينا إلى رفقة أهل الإيمان ومصاحبة الكرام الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وأن لا تَزْدَري أعيُنُنَا فقيرا لفقره أو تؤخذ بغني لغناه.

بل علينا أن نَزِنَ الناس بأعمالهم وأخلاقهم كما أمر الله.

فإن أعراضَ الحياة الدنيا ذاهبةٌ فانية ولا يبقى للإنسان إلا ما قدمت يداه.

---

(٤٠٤) سورة الروم: ٦٠.

(٤٠٥) سورة الكهف: ٢٨.

ولن يجد إلا صدق الإخلاص وصالح الأعمال. ولن ينجو إلا بسلامة قلبٍ وإيثار خير. ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[406].

فلنصبر مع أهل التقى، ولنحذر أن نؤخذ بزينة أو متاع بعيدًا عن ملازمة عباد الرحمن الذين يحبهم الله ويحبونه، ويذكرون الله ولا ينسونه. ﴿**أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ ميزاننا في ذلك كلِّه القرآن الكريم والسنة المطهرة.

القرآن يهدي للتي هي أقوم. والسنة ترينا كيف نحقق ما يهدي القرآن له ويدعو إليه. وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ.

٦٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[407].

هكذا أمر الرسول ﷺ أن يخاطب الناس ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي هذا القرآن هو الحق من ربكم. وكونه كذلك يدعوكم إلى حسن اتباعه والاستمساك به فهو الحقُّ من ربكم. وقد اقتضت حكمة الله أن لا يُرغم أحدٌ على اتباعه أو يُكْره على الإيمان به.

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ومع ما يبدو في ذلك من تخْيير فإنّ فيه تخويفًا وردْعا ولذا أعقبه بقوله ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾.

---

(٤٠٦) سورة الشعراء : ٨٨ـ٨٩.
(٤٠٧) سورة الكهف : ٢٩.

إنها لجنة أبدا أو لنار أبدا. فمن شاء الجنة فليؤمن بالقرآن وليعمل به. ومن شاء النار فليكفر به ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعذار وإنذار.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾(٤٠٨).

إنه الحق يبلَّغ للناس ويُتْلى عليهم إصلاحًا لدنياهم وفوزا في أخراهم.

وللحق نَفْعه وأثره في النفوس وهي تؤمن به فتتحول ـ بفضل الله ورحمته ـ من ضلال إلى هدى، ومن فجور إلى تقى، ومن ظلام إلى نور، ومن خوف إلى أمن وسلام.

ذاك هو الحق وتلك بعض آثاره ونتائجه.

ومن رحمة الله بالخلق أن حفظ لهم الميزان الذي يزنون به أعمالهم ليقوم الناس بالقسط وليحكموا فيما بينهم بما أراهم الله وبيَّن رسولُه، لا بما تمليه أهواؤهم وشهواتهم وهم من بعد سيعودون إليه ويحاسبون على ما عملوا ويتحدد مصيرهم بموقفهم من الحق الذي خوطبوا به في دنياهم وأرسل الله من أجله الرسول وحفظ الكتاب.

ومن تدبر العواقب الباقية ولم تفتنه الرغائب العاجلة الذاهبة أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يهزم أبدًا وأن الباطل مهما طغى وعَرْبد محكوم عليه بالذهاب والدمار ومن عرف ذلك وآمن به استمسك بالحق وصبر على ما يلاقيه في دنياه.

ولا شيء يَعِزُّ به الإنسان وتعلو قيمته كانتصار الحق في نفسه وإيثاره.

(٤٠٨) سورة النمل: ٩١ ـ ٩٣.

وانتصار الحق في النفوس قد يواجهُ مَعَارِكَ ضارية في دنيا الناس، يجاهد فيها المؤمنون ويكابدون من سفهاء عصرهم ومن المبغضين لحقهم ما يكابدون. ويفتنون عن الحق بشتى الوسائل وصنوف البلاء. وقد يُقْتَلُون فينتصر الحق وهم يقتلون. ويَغْلِبُ وهم في نظر الناس يُغْلَبُون. وقد يَغْلِبُ المغلوب ساعة يُغْلَبُ. وينتصر المقتول ساعة يُقْتَلُ.

والحق حين ينتصر في النفوس تؤثره وترضى بالموت دونه. والحق لا يموت بموت الداعين إليه ويذهب بذهابهم. وكم من طغاةٍ قاوموه وعارضوه فهلك الطغاة وبقي الحق محفوظًا بحفظ الله. فلا الحقُّ ذهب ولا من قُتِلَ في سبيله قد مات. بل قُتِلَ من عاداه. وذهب ما سواه. والقتل في سبيل الله حياة أيُّ حياة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾(٤٠٩).

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، إنك نعم المولى ونعم النصير.

٦٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾(٤١٠).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي كررنا وردَّدنا القول في القرآن بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ليجد الناس هدايتهم في كل شأن من شئونهم. إنه من أجلهم ولرعاية

---

(٤٠٩) سورة آل عمران: ١٦٩.

(٤١٠) سورة الكهف: ٥٤ـ٥٥.

مصالحهم ومنفعتهم. لقد ضرب الله لهم الأمثال ونوَّعها لِتَشْمَلَ جميع الأحوال.

فما من شأن إلا وللقرآن فيه بيان، وما من أمرٍ إلاَّ وله فيه موعظةٌ وتبصرة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾(٤١١).

ومن تدبر آيات القرآن رأى في تفصيلها وتصريفها عاقبة كلِّ أمرٍ وجزاء كلِّ عمل. واستلهم العبرة والخشية مما يُتْلى عليه من مصائر الأمم وعاقبتها. وعرف أن كلَّ نفسٍ مأخوذة بعملها. وأن كلَّ إنسانٍ مرهون بما كسبت يداه. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٤١٢).

وإذا أيقن الإنسان بما هو صائر إليه لم يُفْتن بزائل أو يُستخَفَّ بفانٍ، بل ينظر في كلِّ أمرٍ عاقبته وفي كل قصدٍ جزاءه.

ومهما يكن فاللَّهُ ليس بزائلٍ ويجني الفتى من بعد ما هو غارسُ

ومع ذكر العواقب والنتائج واليقين بها يَتَّزِنُ سلوك الإنسان ويستقيم قصده ويبقى الإنسان مع السراء والضراء إنسانا بإيمانه وخلقه لا بزينته ومتاعه. وإذا علم أن هذا الكون مسخر لتبصرة الإنسان وتذكرته ـ وأن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تتسق في ذلك مع آيات الذكر الحكيم، استطاع الإنسان وهو يخاطب بآيات القرآن أن يرى في كلِّ شيء حوله دلالةً وهدايةً وتبصرة وذكرى.

وتدبَّر آية الله فيما يساق إليك من رزق وما يتلى عليك من ذكر ترى الاتِّساق الفطرى بين آية الوحي وآيات الله في الكون، كما ترى في تصريف الآيات

---

(٤١١) سورة النحل: ٨٩.
(٤١٢) سورة آل عمران: ٣٠.

وتقسيم الأرزاق تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

واقرأ إن شئت قول الله عـز وجل في سورة النور ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤)﴾[٤١٣] .

وتدبر تر العبرةَ تساق لـلإنسان في يسر في مطلع فجر وفي إقبال ليل ، وفي تقلُّبِ ليل ونهار، وفي تسخير شمس وقمـر، في تذليل أرض ورفع سماء ، وفي إنبات زرع و إنزال ماء .

فترى كلمة الحق ـ التى صرفها الله في هذا القرآن ـ تخاطب بدلالتها في كل خطـوة ، وتشهدهـا في كل لمحة ، وتبصـرهـا في الآفاق وفي الأنفس دائبـة لا تتوقف ، ظاهرة لا تُنْكر، بيِّنـة لا تخفى ، ملازمة للخلق في حل وترحال ، وليل ونهـار، وصحو ونـوم ، وجـوع وشبع ، وصحة ومـرض ، وعسـر ويسر، وشـدة ورخـاء ، لا تنفك عنهم في خلق أو مـوت ، أو بعث ونشـور، ولا تغيب في حساب وجزاء ، ولا يرون غيرها في جنة أو نار.

أرأيت لِمَ يُصَرِّف الله الآيات ويقلب الليل والنهار.

إن رحلة الحياة الدنيا ـ وفيها القرآن يُتلى ـ تراها عميقةَ الدلالة .

يظفر السعيد بدلالتها ، وينعم بتبصرتها .

ويُفْتَنُ الشقي بزينتها ويؤخذ بزهرتها .

وتبقى الآيات مع الأجيال كلِّها تقدِّم دلالتها وتعطي عبرتها وتدعو إلى الحق وتنهى عن الباطل . فـويلٌ لمن قرأ ولم يتـدبر ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(٤١٣) سورة النور : ٤٣ ـ ٤٤ .

وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾(٤١٤).

٦٩

ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قولـه تعالى في سورة الكهف ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾(٤١٥).

الحق بين واضح، ثـابت ينفع النـاس وما ينفع النـاس يمكث ويبقى. فإذا أعرض الناس عنـه أو آثروا غيره فَلِعِلَّةٍ في نفوسهـم. ومن أنكر النور فلِعَمى في بصيرته، لا في الحق المشرق المنير.

وعِلَلُ النفـوس هي التي تصرف النـاس عن الحق وتبعدهم عن استحبـاب الهدى والرشاد وتجعلهم يستحبون العمى على الهدى.

والرسل الكرام صلوات الله عليهم يبلغون رسالات ربِّهم ويبشرون وينذرون.

وأهل الكفـر والضـلال سـادرون في غَيِّهم يجـادلون يستهـزئون ويكـذبـون ويتخذون آيات الله وما أنذروا هُزُوًا ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾.

والعقاب لهـؤلاء حِرْمَانٌ من الهـداية التى سخروا منهـا وخَتْمٌ على القلوب،

---

(٤١٤) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١.

(٤١٥) سورة الكهف : ٥٦ ـ ٥٧.

وَوَقْرٌ في الآذان، يحقق لهم الحرمان ويجلب الخسران ﴿**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

هؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله لا يرجى منهم أن يفقهوا القرآن، ولا أن ينتفعوا به، لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم وقرًا فلا يستمعون إليه سماع تدبر ﴿**ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم**﴾.

وقد قدَّر الله عليهم الضلال بسبب إعراضهم واستهزائهم و إصرارهم ﴿**فلن يهتدوا إذا أبدًا**﴾ ذلك جزاء من أعرض عن الحق أو استهزأ به. جزاءٌ مهلك مدمّر.

وكم من نداء للعباد أن يفيئوا إلى رشدهم وأن يستجيبوا لنداء ربهم وأن يتبعوا ما جاءهم من الحق من قبل أن يأتيهم العذاب.

كم من نداء يحذرهم عاقبة التكذيب بالحق أو الإعراض عنه. وما أنزل الله الحق إلا لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم، والله غني عنهم وعن استقامتهم.

أخي المسلم، إن الاستمساك بالحق والثبات عليه لا يكون مع إيثار الدنيا والركون إليها والرضا بها و إنما يتحقق بصدق اليقين بالآخرة والسعي لها والإشفاق منها والرجاء فيها.

ولا يستطيع أن ينهض بتبعات الحق واتباع ما أنزل الله إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر.

إن الفتنة بالحياة أبْعَدَتْ ناسًا عن الحق وأنستهم ذكر الله فبدَّلوا نعمة الله كفرًا وأحلُّوا قومهم دار البوار.

وكم من ناسٍ ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون

صُنْعًا، استخفهم أهل الباطل فأطاعوهم فردوهم بعد إيمانهم كافرين.

ولا غنى لمن طلب النجاة من إيثار الحق وإخضاع الهوى له وإعلان الرضا به.

لِيَعْتَدِلَ سعي الإنسان في دنياه فلا ينسى نصيبه من الدنيا ولا تشغله الدنيا عن ابتغاء مرضاة الله، أو تجعله يَغْفل عما هو صائر إليه من الحساب والجزاء في الآخرة. وذاك ما يجعله لا يستحل حرامًا، ولا يحرّم حلالا، بل يأكل من الطيبات ويعمل الصالحات، ويذكر الله ذكرًا كثيرًا ولا ينساه.

حديث القرآن عن القرآن
في آيات من:

١ ـ سورة طه
٢ ـ سورة الأنبياء
٣ ـ سورة الحج
٤ ـ سورة المؤمنون
٥ ـ سورة النور
٦ ـ سورة الفرقان
٧ ـ سورة الشعراء
٨ ـ سورة النمل
٩ ـ سورة القصص
١٠ ـ سورة العنكبوت
١١ ـ سورة الروم
١٢ ـ سورة لقمان
١٣ ـ سورة السجدة
١٤ ـ سورة سبأ
١٥ ـ سورة فاطر



ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة طه ﴿طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝﴾(٤١٦).

في هذه الآيات حديثٌ عن القرآن في خطابٍ إلى الرسول ﷺ **﴿طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾**. فما أنزل الله عليك القرآن ليؤدي إلى شقائك به أو بسببه؛ فهو ميَسَّر للذكر، لا تكليف فيه فوق الطاقة.

وما أنزلنا عليك القرآن لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون، فإنما عليك البلاغ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. وما أنزلنا عليك القرآن إلاَّ للتذكير والإنذار **﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾**، وتلك هي وظيفتك أن تبلِّغ ما أنزل إليك من ربك. ولا عليك إن أعرضوا عنك أو لم يستجيبوا لك، فأنت لا تملك هدايتهم ولو أحببتَ ذلك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝﴾(٤١٧).

إن الله الذي أنزل عليك القرآن له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو أعلم بخفايا القلوب وما تضمره النفوس، يعلم السر وأخفى.

فمن هداه إلى الحق هداه عن معرفة وعلم، ومن أضلّه أضلَّه على علم. ولا أحد يملك أن يهدي من أضله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة. وهذه الحقيقة تحدِّد للإنسان غايته وتبصره بما يجب أن يكون

---

(٤١٦) سورة طه : ١ ـ ٦.
(٤١٧) سورة القصص : ٥٦.

عليه من صدق الإخلاص لله وحسن التوجه إليه وطلب الهداية منه . كما تُحقِّق في النفس أدبًا وتواضعًا وخشية .

إن المؤمن ــ وهو يأخذ بـالأسباب ــ لا يركن إليها ولا يسنـد الفضل إليها ، وإنما يسند الفضل إلى الله الذي هيأ لهُ الأسباب وحقَّق له النتائج .

إنه يأخذ بالأسباب طاعةً لربـه ، وهو يطلب ما عنده من هداية وتوفيق . وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته .

واليقين بأن الهداية والتوفيق بيد الله وحده تحقق للنفس فضائلها وللمجتمع روابطه في أخـوة بارة راشدة ، لا بغيٍ فيها ولا تسلط ولا كبْـر ولا استعلاء ، لأن الجميع يـؤمنون بأن الفضل لله وحـده فيما وفَّق إليـه . ولولا الله مـا اهتدينـا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا ، وهـذا الأدب الرفيع والخلق العالى . واليقين بأن الفضل لله وحـده يلازم أهل الإيمـان فلا يسمـعُ منهم نسبةُ فضلٍ إلى أنفسهم أو دعـوى نجاةٍ وفوزٍ بعملهم . ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٤١٨) .

تلك هداية القرآن وتذكرته . ما نزل لشقاء الناس والتعسير عليهم ، وإنما نزل رحمـة بهم وشفاء لمـا في صـدورهم . ومن خَسِـرَ خَسِرَ بعملــه ، ومن شَقِيَ شَقِيَ بإعراضه وكفره .

ومن حرم الهداية حُرمها بإصراره على معاداة الحق والكيد لأهله .

القرآن فضل الله ورحمتُه . فإذا شُغِلَ الناس عنه بما يجمعون ـ ورأوا أنفسهم

---

(٤١٨) سورة الأعراف : ٤٢ـ٤٣ .

بما يجمعون لا بما يوعظون به ويرحمون، فهم الذين اختاروا لأنفسهم وآثروا ما يَفْنَى على ما يبقى، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ـ كان من عقابهم في دنياهم أن تفقد دنياهم سلمها وأمنها وبرَّها وعدلها؛ لأن ذلك منوطٌ بصفات النفس لا بزينتها، مرتبطٌ بالقيم والأخلاق والإيمان بيوم الحساب.

وآيات القرآن وهي تُتلى علينا تنقلنا من ظلمات الأهواء إلى نور الإيمان واليقين، وتقودنا إلى الفرار إلى الله لنحسن في الحياة ولا نسيء، ونصلح ولا نُفسد ونؤمن ونعمل الصالحات دون تواكل أو قعود.

ذاك هو القرآن الذي يجب أن تفرح به النفوس وأن تراه عزَّها وشَرَفها وألا تُشغل عنه بما يفنى وهو يقودها بالخير والتُّقى إلى ما يدوم ويبقى.

﴿(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٤١٩).

فتدبر ــ أخي المسلم ـ ما يُتْلى عليك وانظر ما فعلت هذه الآيات مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. فقد حولته ـ بهداية الله ــ من حال إلى حال، وجعلت منه ـ وهو يؤمن بالله وكلماته ـ الفاروق عمر بن الخطاب. وتلك هي الآيات فاجعلها ذكرى لنفسك ونورًا لقلبك وسبيلا لنجاتك وفوزك ﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (٤) ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ (٥) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (٦)﴾.

٧١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا (١٠١)﴾(٤٢٠).

---

(٤١٩) سورة يونس: ٥٨.
(٤٢٠) سورة طه: ٩٩ ـ ١٠١.

جاءت هذه الآيات ـ التى تتحدث عن القرآن ـ بعد قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل والسامري .

وقد خوطب النبي ﷺ بقوله سبحانه ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ تسليةً له ﷺ وتبصرة، وتذكير للمستبصرين من أمته . ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرًا﴾ قرآنا منطويا على القصص والأخبار.

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ حملا ثقيلا من الإثم تسوء به العاقبة .

والذكر الحكيم وهو يَقُصُّ علينا من أنباء ما قد سبق يقدم لنا العبر والعظات. فالقصص القرآني وهو يخبر عن أحداث ماضيه يرينا فيها سُننًا باقية هي سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول. تقع في اللاحقين كما مضت في السابقين .

فمن طغى وتجبر وأصر على طغيانه واستكبر دمِّر بذنبه وأخِذ بمعصيته .

وإذا تدبرنا ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي كما قصَصْنا عليك هذه القصة قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل والسامري نقص عليك من أخبار ما قد سبق . إذا تدبرنا قصص القرآن بعامة وقصة موسى عليه السلام مع فرعون بخاصة أمكننا أن نرى الحقائق التالية التي تمتد مع الزمن ولا تنقطع :

أولا : أن من حفظه الله لا يُضَيِّعه الناس .

نرى ذلك في حفظ موسى ورعايته وهو وليد تخشى عليه أمه أن يذبح كما ذُبح غيره. فلا يوحي إليها أن تبتعد به عن الخطر وتختفي عن الأنظار.

بل يوحي إليها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾.

يُوحى إليها إذا خافت عليه وهي ترضعه بأن تُلْقيه في اليم، واليمُّ يوصله إلى عدوٍّ يكيد له فيربَّى عنده ويُنشَّأ بين يديه، لأن الله يريد حفظه. ومن حفظه الله لا يضيَّع ولو تآمر عليه المتآمرون وأحاط به الظالمون الجبارون ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وكان ما وعد الله بـه وعاد موسى إلى أمِّه تُرضِعُهُ وتأخُـذُ أجْرًا، وبقيت العبرة للأجيال كلِّها يعقلها العالمون ويُصرف عنها الغافلون ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾(٤٢١).

ثانيا: أن الباطل مهما طغى وعَرْبَد فإن له ساعةً يذل فيها ويزهق.

وفي فترة الإمـلاء له قـد ترى مفتونين بـه مأخوذين بـزينته يستخفهم بـوعده ووعيده ويغريهم بـزينته ومتاعه. فإذا جاءت الساعة القـاضية شملهم الانتقام وعمَّهم الهـلاك وجعلوا في أخـذهم عبرة لغيـرهم. ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝﴾(٤٢٢).

ثالثا: أن الحق إذا انتصر فـي النفوس فلا تسل عن قـوتها وثبـاتها وتجـردها لخالقها وهي تعلم العاقبة وتدرك المصير.

وهذا ما كان من سحرة فرعون ـ وقد أحضرهم وأغراهم ليكونوا نصْرًا لباطله ـ ولمـا وقع الحق وظهر سجـد السحـرة لخالقهم وأعلنـوا إيمـانهم برب مـوسى وهارون.

انتصـر الحق في نفـوسهم ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ

(٤٢١) سورة القصص: ١٣.

(٤٢٢) سورة الزخرف: ٥٤ـ٥٦.

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[٤٢٣]. فهل صرفهم هـذا البغي المتسلّط وهذا الوعيـد من متكبر جبار يعرفون بغيه ويشهـدون ظلمه، هل صرفهم عن الثبات على الحق أو مال بهم أدنى ميل؟

إنهم قد ألقـوا على الدنيـا كلِّها درسًا يُعلِّمهـا أنَّ الحقَّ غالٍ تبـذل في سبيله النفوس، وأن من أيقن بالعاقبة عـرف أن الحق لا يُهزم أبدًا، إنهم بموتهم على الحق هم المنتصرون وهم الغالبون.

وقد سجـل القرآن الكريم مـوقفهم ـ وهـو يُتْلى على الناس إلـى أن يرث الله الأرض ومن عليْها ليكـون موعظـةً للمتقين، وبيانًـا للناس أجمعين ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾[٤٢٤].

٧٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء فـي قوله تعالى من سورة طه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٤٢٥]. والحـديث هنـا عن القـرآن من حيث إنـزالـه بلسـان عـربي، وتصريف الـوعيـد فيه تخـويفـا وتهديـدًا؛ لعلَّ النـاس يتقون الشـرك ويتركـون المآثم والمحـارم والفواحش. أو يحدث لهم القـرآن اعتبارًا واتّعـاظا ويحقق فيهم طاعة وعبادة.

---

(٤٢٣) سورة طه: ٧٠ ـ ٧١.
(٤٢٤) سورة طه: ٧٢ ـ ٧٦.
(٤٢٥) سورة طه: ١١٣ ـ ١١٤.

ولما بيَّن الله للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه ـ سبحانه ـ عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء فقال سبحانه : ﴿**فتعالى الله الملك الحق**﴾ أي جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته .

فإنه الملك الذي بيده الثواب والعقاب وإنه الحق الذي تعنو له الوجوه ويخيب في حضرته الظالمون ، ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٤٢٦] ذلكم الله ربكم الذي أنزل القرآن وصرّف فيه من الوعيد لغاية وحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ النافذ أمرُه ونهيُه ، الحقيقُ بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده .

وفي الآية توجيه للنبي ﷺ وتعليم له كيف يتلقى القرآن . وقد كان ﷺ يبادر جبريلَ فيقرأ قبل أن يَفْرُغ جبريل من الوحى حرصًا على ما كان ينزل عليه وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك وأنزل ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ . وهذا كقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[٤٢٧] .

وفي ذلك ما فيه من عظم شأن القرآن وأنه محفوظ بحفظ الله ، وعلى عظم شأن الرسالة والرسول ، وأن الله قد علَّمه ما لم يكن يعلم ، وأن فضله كان عليه عظيما .

وأي فضل أعظم من إنزال القرآن عليه؟ وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا

---

(٤٢٦) سورة طه : ١١١ ـ ١١٢ .
(٤٢٧) سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

يخطه بيمينه .

وقد أنـزل القرآن بلسان عـربي مبين ، فصان العـربية وحفظها وأعلى قـدرها وشرّف أهلها ، وألزمهم مسئوليـة تبليغه وحق اتباعه والعمل به ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ .

فانتقل بـه العرب من حالٍ إلى حـال . فكانوا بـه خير أمةٍ أخـرجت للناس . تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . أضاء لها جوانب الحياة ، فعزّت بدينها وشرُفت برسالتها ، ويبقى لها عزها ما اعتزت به . ومن ابتغى العز في غير ما أعزَّه الله به أذلَّه الله . فلنعـرف للقرآن قدره ، ولنتبع أمره ، ولنعتصم به في كلِّ أمر ، ولنهتد بهدايته في كلِّ شأن ، وليدرك العـرب قاطبة ما شرَّفهم الله به ـ ومن نطق العـربية فهـو عـربي ـ ولتجتمع كلمـة المسلمين جميعـا على ما دعـاهم القرآن إليه ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ .

إنهم بالإسلام ولن يكونوا أبدا بغيره . وإن العروبة هي اللسان والإسلام . وما كـانت العربيـة لتبقى كلسـان لولا أن أبقـاها وأعـزهـا الله بنزول القـرآن فليست العربية ـ بعد هذا الشـرف ـ نسبًا إلى أب وأم وإنما هي اللسان . وكم من لسان أعجمي صار عـربيا بالقـرآن . وقد روى الحافـظ ابن عساكر بسنـده عن مالك قول النبي ﷺ «يا أيها الناس إن الـربَّ واحد ، والأب واحد ، وإن الدِّين واحد . وليست العربية بـأحدكم من أبٍ وأم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بـالعربية فهو عربي» .

فلنكن مع القرآن حيث كان فإنـه الحق ، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع . وإنه الهدى ومن ابتغى الهدى في غيره ضل .

قـال رجلٌ لعبد الله بن مسعـود ـ رضـي الله عنه ـ : علِّمني كلماتٍ جـوامع نوافع . فقال : لا تشـرك به شيئا وزُلْ مع القرآن حيث زال . ومـن جاءك بالحق فاقبل منـه وإن كان بعيدًا بغيضـا . ومن جاءك بـالباطل فاردده عليـه وإن كان

قريبًا حبيبًا .

هكذا كان الصحابة الكرام ترى كلماتهم وأعمالهم تَنْتَسِبُ إلى القرآن وهم يتبعون الرسول ﷺ، وقد كان خلقه القرآن .

فهل يعي أولئك المعرضون عن هدي القرآن أنهم يعرِّضون أنفسهم لعاجل شقاء وسوء مصير.

إن الله قد أنزل القرآن بلسان عربي مبين وصرّف فيه من الوعيد ليئوب هؤلاء إلى رشدهم ويتقوا ربَّهم ويحسنوا عملهم من قبل أن يأتي أحدهم الموت فيندم حيث لا ينفع الندم ﴿**وكذلك أنزلناه قرآنا عربيًّا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا**﴾ .

٧٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿**قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ**﴾(٤٢٨).

والمخاطب بقوله ﴿**ٱهْبِطَا مِنْهَا**﴾ آدم وحواء. والخطاب وإن كان لمثنى في اللفظ لكنه في المعنى جمع. اهبطا جميعا إلى الأرض ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ أنتما عدوّ إبليس وذريته وإبليس عدوّكما وعدو ذريتكما .

﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى**﴾ يقول : فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني

(٤٢٨) سورة طه : ١٢٣ ـ ١٢٧ .

هدى : بيان لسبيلي، وما أختاره لخلقي من دين ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ فمن اتبع بياني ذلك وعمل بـه ولم يزغ عنه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ : فلا يـزول عن محجة الحق، ولكنه يـرشد في الدنيـا ويهتدي ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخـرة بعقـاب الله لأن الله يدخله الجنة وينجيه من عذابه .

عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنه ـ قـال : « تَضَمَّن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيـه أن لا يضل في الدنيـا ولا يشقي في الآخرة» تم تـلا هذه الآيـة ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي أعرض عن الهدى الذاكر لي والداعي إلي فإن لـه معيشة ضنكا . قال ابن عبـاس رضي الله عنهما «المراد بالمعيشة الضنك الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة» .

ولا شك أن من أعرض عن الذكـر ساء سعيُه وفسد حالـه وخسر دنياه وضَيَّع آخرته ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾(٤٢٩) .

ولا أمان من الضلال والشقاء إلا باتباع هدى الله .

وما يعرض الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة دون توازن أو أمان أو استقرار فالشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا في المتاع .

ومن اتبع هـدى الله نجا من الشقـاء والضلال في دنيـاه وفاز برحمـة الله في أخراه .

---

(٤٢٩) سورة طه : ٩٩ ـ ١٠١ .

ولا تسل عما يكون مع الضنك من حيرة وقلق وشك وتنافس مسعور وراء بارق المطامع والحسرة على فوات المرغوب وذهاب المطلوب من زينة الحياة.

وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله.

وما يحسن راحة الثقة والرضا إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى.

إن طمأنينة الإيمان تُبقي على الإنسان ــ مع أعراض الحياة ــ ظافرًا بخصائصه فائزًا بثبات صفاته وأخلاقه.

والحرمان من الإيمان شِقْوَةٌ تُفقِد الإنسان الأمن والاستقرار.

ولقد أرسل الله الرسول وأنزل الكتاب رحمة بالخلق وهداية لهم وإنقاذا من الشقاء والضلال. فمن أبى إلا الإعراض فذاك هو الجزاء ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربِّه. أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنْفس ثراءٍ وذُخر. وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا.

فلا جرم يعيش معيشة ضنكا، ويحشر يوم القيامة أعمى.

إن الله قد أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، وجعل لهم السمع والأبصار الأفئدة لعلهم يشكرون. وفي شكره إسعادٌ لهم ورحمة بهم وتراحم فيما بينهم.

وجعل من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يعينهم على معرفة الحق. ونزَّل لهم الذكر وحفظه ليكون هدى لهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فمن رغب عن التبصرة والذكرى وأبى إلا أن تكون حواسُّه تبعًا لشهوته ومتاعه فقد رضي لنفسه أن يكون كالأنعام بل أضل. وعاش في دنياه معطل الحواس وإن ظنَّ أنه يسمع ويعقل. ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٤٣٠).

ولا عجب أن يحشر هؤلاء إلى جهنم بعمى البصائر؛ لأن حواسهم لم تسخر لما خلقت له من تدبر وتبصرة وإنما استعملت فيما تستعمل الأنعام حواسَّها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾(٤٣١). ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾(٤٣٢).

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا. اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، وارزقنا شفاعته عند لقائك واجعله حجة لنا لا علينا.



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) ﴾(٤٣٣).

---

(٤٣٠) سورة الفرقان : ٤٤.
(٤٣١) سورة محمد : ١٢.
(٤٣٢) سورة الأعراف : ١٧٩.
(٤٣٣) سورة طه : ١٣٣ ـ ١٣٤.

إن من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم يَتَعَنَّتُ في طلب الآيات رغبةً في الصد والكيد و إيغالاً في الكفر والجحود ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٤٣٤).

والله قد علم من هؤلاء جحودهم وكفرهم و إصرارهم على الغيِّ من بعد ما تبين لهم الهدى فأضل أعمالهم. ومن أعمال هؤلاء أنهم يحاولون دائما إحراج دعاة الحق بما يقولون ويقترحون ويظنون أنهم بذلك يستطيعون إطفاء نور الله وتبرير ما هم عليه من كفر وجحود. ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾(٤٣٥). ما الذي دعا هؤلاء الكفار إلى هذا كلِّه؟ هل دعاهم إلى طلب الآيات رغبتهم في الإيمان وحبُّهم له، أم هو التعنت والكبر والجحود؟

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مما يقترحونه ويطلبونه تعنتا ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ألم يكفهم اشتمال القرآن على بيان ما في الصحف الأولى في كونه معجزة حتى طلبوا غيرها ؟

---

(٤٣٤) سورة الأنعام : ١١١ .

(٤٣٥) سورة الإسراء : ٩٠ـ٩٦

إن آية القرآن كافية ـ وهو يبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى، ويذكر من أنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بسبب تكذيب الرسل ما فيه عبرةٌ وموعظة. ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل الله إليهم خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. فلا مجال لقولٍ عندما يحيق بهم ما حذِّروا منه وأنذروا به. وكم من ادعاء يكشفه الواقع. ومن دَعَاوَى تبطل عند مجيء الحق.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾(٤٣٦) هذا حال فريق من الناس عندما يُبَلَّغون بالحق وينذرون بها.

من قبل كانوا يُقْسِمون جَهْد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم النذير كانوا كغيرهم من المكذبين الضالين ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ ونسي هؤلاء أن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول فما وقع بالمكذبين السابقين يقع على المكذبين اللاحقين ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ والناس إنما يؤخذون بمعاصيهم ويهلكون بذنوبهم ويدمّرون بشركهم.

والقرآن الكريم يذكر ويبصر ويُنذر ويبشر. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

ولا عذر لأحدٍ من الناس بعد بيان ولا حجة بعد تبليغ وإعذار.

والأرض أمام أعينهم تخاطبهم بما فيها من عبرٍ وعظات وآيات بينات.

وهي ساحة تستقبل وتُودع. ومن مات لم يرجع ولن يرجع؛ فقد مضى إلى حسابٍ وجزاءٍ ولن يعود لدنيا امتحانٍ وبلاء.

---

(٤٣٦) سورة فاطر: ٤٢.

والسعيد من اعتبر واتعظ والشقي من أعرض عن ذكـر ربه ونسي ما هو قادم عليه فـي غده. والآيات فـي السابقين كافيـة في إنذار الـلاحقين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤٣٧).

٧٥

ومن حـديث القـرآن عن القـرآن ما تضمنـه قـولـه تعالى في سـورة الأنبيـاء ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(٤٣٨).
عجيب أمر الإنسان إذا أصيب بالغفلة وأعرض عن الحق.

يقترب منـه الحساب وهـو مُنْغَمِسٌ في غفلته، سـادرٌ في غيِّه، لا يفيق إلاَّ بأجلٍ يُدانيه أو بموت يأتيه، فيبدي حسرته ويُعلن توبته.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾.

ذاك صنف من الناس سـادرون في غفلتهم وقد اقتـرب حسابهم سواء بـدنو الآجال أو قرب الساعة، فإنها آتية لا ريب فيها، وكل ما هو آت قريب. وإنما البعيـد ما انقـرض ومضى. وإذا كنت في إدبـارٍ والمـوتُ في إقبـالٍ فما أسـرع المُلْتقَى.

والسنون والأعوام الطوال ـ عند قيام الساعة ـ كأنما هي دقائق وثوانٍ.

---

(٤٣٧) سورة العنكبوت: ٥١.
(٤٣٨) سورة الأنبياء: ١ ـ ٣.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٤٣٩). ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٤٤٠). وقـد يجهل الغافلـون أو يغفل الجـاهلون عمـا أعطي لهم من أجل مسمى عنـد الله لا عنـدهم، وأنهم مسئولون عن عمرهم: فيم ضيعوه ؟ كما يسألون عن مالهم: من أين اكتسبوه؟ وفيم أنفقـوه ؟ فلا مجـال في هذا العمـر المحدود لعبث أو بـاطل، ومن غفل عن اليوم الآخر فقد حسـب الخلق عبثا أو باطلا ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤٤١).

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (٤٤٢) والآيات البينات تـذكر وتبصر وتنـذر وتبشر ــ وتـرى صِنفًا من النـاس عن آيـات ربهم غـافلين. يخوضـون ويلعبون ويلهيهم الأمل حتى يأتي اليوم الذي كانوا يوعدون.

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

والغفلة: الـذهول عن الشيء وعن طرق علمه. والإعـراض: صرف العقل عن الاشتغال بالشيء.

والقرآن الكريم يـذكرهم بالبعث وينذرهم بيـوم الحساب وهم مستمرون في غفلتهم بسبب إعراضهم عن دلائل التـذكير به والتحذيـر منه. ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ إنهم إذا سمعـوا في القـرآن تذكيرا لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو فلم يفقهوا معانيَهُ ولم يتدبروا أمره، وكان حظُّهم منه سماع ألفاظه.

---

(٤٣٩) سورة النازعات: ٤٦.
(٤٤٠) سورة الروم: ٥٥.
(٤٤١) سورة ص: ٢٧.
(٤٤٢) سورة المؤمنون: ١١٥ـ١١٦.

والله عز وجل يحذر أهل الإيمان أن يكونوا كهؤلاء في موقفهم من تدبر القرآن ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٤٤٣).

إن القرآن الكريم قد أنزل ليُتدبر وليعمل به وهؤلاء قد اشتغلوا عنه بآمال باطلة وانصرفوا في إصرار و إعراض إلى اللهو واللعب.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. والذكر: القرآن الكريم. أطلق عليه الذكر ـ وهو مصدر ـ لإفادة قوة وصفه بالتذكير.

وبقي محفوظا بحفظ الله ليذكِّر الأجيال كلَّها بما دعوا إليه وما خُلِقُوا من أجله ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون**﴾.

والمحدث: أي المتجدد تَنَزُّله. وفيه دلالة على تكرار التذكير الذي تنقطع به الحجة والمعذرة، إذ يأتيهم الذكر من الرحمن شيئًا فشيئًا؛ رحمة بهم وهداية لهم، وهم في غفلة معرضون ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾(٤٤٤).

إن الحديث عن موقف المعرضين وجزائهم فيه موعظةٌ وذكرى للمؤمنين. ليحذروا أن يكونوا مثلهم.

«عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بايع المسلمون أبا بكر واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهَّد قبل أبي بكر فقال: «أما بعد فاختار الله

---

(٤٤٣) سورة الأنفال: ٢١ـ٢٣.

(٤٤٤) سورة الشعراء: ٥ـ٦.

لـرسولـه الذي عنـده على الـذي عندكم. وهـذا الكتـاب الذي هَـدَى اللّهُ بـه رسولَكُمْ فخذوا به تهتدوا لِمَا هَدَى الله بـه رسوله». يشير عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى القرآن الكريم ويدعو إلى الاعتصام بـه. وقد جاء في خطبة عمر «فإن يك محمد ﷺ قد مـات فإن الله قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون بـه بما هدى الله محمدًا ﷺ» اللهم اجعله لنا إماما ونورًا وهدى ورحمة.

٧٦

ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قوله تعـالى في سورة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾(٤٤٥) ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ .والمراد به القرآن الكريم.

وللآية دلالتها وهدايتها لمن خوطب بها عند نزولها ولمن جاء بعدهم إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليهـا. ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ أي والله لقـد أنـزلنـا إليكم يامعشر قـريش كتابا عظيم الشأن نيِّـر البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه شـرفكم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾(٤٤٦).

فيه شـرفكم إن تمسكتم به وعملتم بمـا فيه. فيه مـا تحتاجون إليـه في أمور دينكم ودنياهم. فيـه ما تطلبون حسن الـذكر من مكارم الأخلاق. وهـو شرف لمن تخلق به وعمل بمقتضاه. فيه موعظتكم و إرشادكم إلى الحق و إلى طريق مستقيم.

﴿أفلا تعقلون﴾ فيـه حثٌّ على تـدبـر هذا الكتـاب والتأمل فيـه، و إنكـارٌ وتوبيخٌ لمن أعرض عنه ولم يتدبر ما جاء فيه.

---

(٤٤٥) سورة الأنبياء : ١٠ ـ ١١.

(٤٤٦) سورة الزخرف : ٤٤.

إن هذا الكتاب بلاغ من الله للناس . وفي البلاغ إنذارٌ وتبشير. إنذارٌ لمن أعرض ولم يؤمن وتبشير لمن آمن به وعمل بمقتضاه .

إن من أعرض عنه ظَلَم نفسه وخسر دنياه وآخرته . وسنة الله ماضية فيمن ظلموا وأساءوا من قبل ومن بعد ، فهم مأخوذون بظلمهم و إساءتهم هكذا على مرِّ الأجيال .

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قوما آخرين﴾ .

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٤٤٧).

إن حديث القرآن له دلالته ومقاصده ، وله تأثيره وأثره في إحياء النفوس وهدايتها . ومن تدبر حال من نزل القرآن فيهم قبل نزوله وبعده أدرك مدى التحول الذي تم بنزوله . لقد نقلهم القرآن ــ بفضل الله ــ من ظلام الشرك وظلماته إلى نور الإيمان وطيباته . وسيظل حديث القرآن في الحياة يعلن رسالته للناس جميعا كما جاءت من عند الله ويقيم الحجة عليهم . يدعو الناس إلى كلمة سواء ويُتلى عليهم ويهديهم ويبصِّرهم ويُريهم النتائج والعواقب ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾(٤٤٨).

---

(٤٤٧) سورة الأنعام : ١٣٣ ـ ١٣٥ .

(٤٤٨) سورة الأنفال : ٤٢ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(٤٤٩).

تلك هي العقيدة التي أرسل بها الرسل جميعا وأنزل الكتب.

فهم جميعا دعاة إلى دين واحد لم يبعثوا بغيره ولم يبتغوا سواه.

والإيمان بهم جميعا وبما أرسلوا به أصل في حقيقة الإيمان.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٤٥٠). إن الكتب المنزلة يصدِّق بعضها بعضا وقد جاء خاتمُها مهيمنا عليها محفوظا بحفظ الله؛ لتظل كلمة الحق على ألسنة الرسل جميعا مصونة من التلبيس والافتراء والكذب.

جاء القرآن الكريم ليعلم الناس جميعا حقيقة الرسالة ويصدع بالحق الذي جاءت به الرسل وأنزلت الكتب. ويرد كلَّ باطلٍ ألبس عليهم وكلَّ ضلالٍ نسبته أهواء الناس إليهم. فلم يَعُد هناك سبيل لكتمان ما جاءت به الرسل، والكتاب المحفوظ مهيمن وأمين وشاهد، ولا مهرب للمفرقين بين الرسل من حساب وعقاب. والقرآن يُتْلَى عليهم ويبين لهم.

---

(٤٤٩) سورة الأنبياء: ٢٤ ـ ٢٥.

(٤٥٠) سورة آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥.

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾(٤٥١) إن التفرقة بينهم ــ وهم يدعون إلى دين واحد ــ كفرٌ بهم جميعا. وتكذيب أحدهم تكذيب لهم جميعا. وعداوة أحدهم عداوة للحق الذي بعثوا به. والحق الذي بعثوا به واحد لا يتعدد. وهم يدعون إلى عبادة إلهٍ واحد لا شريك له **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** إن الإيمان بإله واحد لا شريك له هو ما جاء القرآن يدعو إليه ويذكّر به وهو أصل أصيل في وحدة الإنسانية وصدق تعاونها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. وعندما يتخذ الناس بعضُهم بعضا أربابا من دون الله فلا تسل عما يكون من بغي وتسلّطٍ وظلمٍ وفساد. إن التوجه إلى الله الواحد الأحد أمن للإنسانية كلِّها وحفاظ على العدل الصادق بينها.

والقرآن الكريم يذكر الناس جميعا بأصلهم الواحد. ويدعوهم جميعا إلى عبادة الله الذي خلقهم جميعا، وفي ذلك تكريم لهم وحفاظ على حقوقهم وحرمتهم «إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب». ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(٤٥٢).

وهذا نداء القرآن الكريم وتلك دعوته تقوم على أساس راسخ من الإيمان بإله واحد لا شريك له ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾(٤٥٣).

---

(٤٥١) سورة النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤٥٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٤٥٣) سورة آل عمران: ٦٤.

وهذ العقيدة التى ينادي بها ليست بمعزل عن الحياة. بل الحياة نفسها في حقيقتها وفي آثارها ونتائجها هي حياة الصدق والحق والعدل والبر والوفاء والرحمة.

وهي التى يصلح بها أمرُ الناس في دنياهم وينعمون بها في أخراهم.

إنها دافعةٌ ومانعةٌ، دافعة إلى عمل الخير حاثَّةٌ عليه. مانعة من الشر زاجرةٌ عنه، بها يكفُّ الإنسان شَرَّه عن غيره ويقدم خيره. وينتصر الحق ويبطل الباطل. ويكون الهوى تبعا للحق. والحق لا يتبع الهوى. وبالحق يهدى الناس إلى الرشاد، ومع الهوى يضلون السبيل. وفي الواقع العملي ترى هذه العقيدة بنورها في صلات الناس وروابطهم. في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن. والله لا يؤمن. والله لا يؤمن. قيل من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقه». وفي رواية لمسلم «لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُهُ بوائقه». وروى مسلم عن أبي شريح الخُزاعى ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت».

أرأيت أثر العقيدة في تحقيق المودة والبر.

أرأيت أنها دافعة مانعة، دافعة إلى عمل الخير مانعة من الشر.

إنها ليست بمعزل عن الحياة. بل هي الحياة في أمنها وسلمها. وبرِّها وعدلها. في وفائها وصدقها. في تعاونها و إيثارها. في إخلاصها وابتغاء مرضاة ربها.

ذاك ما يدعو القرآن الكريم إليه وما يذكّر به وما تنهض به العقيدة التى أرسل بها الرسل جميعا بلا تفرقة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحج ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾(٤٥٤).

في هذه الآية بيان موقف أهل الكفر والجحود إذا تلي عليهم القرآن؛ فإنهم إذا ذكرت لهم آيات القرآن والحُجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إلاَّ هو وأن رسله الكرام حقٌّ وصدق ﴿**يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾ أي يكادون يُبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. يكادون يسطون: والسطوة شدة البطش. وأصل السطو: القهر. يقال سَطاَ به يسْطو إذا بطش به بِضَرْبٍ أو شَتْمٍ أو أخذٍ باليد.

هذا موقف أهل الكفر والضلال. وهكذا موقف أهل البدع المضلّة إذا سمع الواحد منهم ما يُتلى عليه من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة مُخالِفًا لما اعتقده من الباطل والضلالة.

إن النفوس الطيبة تتقبل الحق وتَهْتزُّ له كما تتقبل الأرض الطيبة الغيث فتنبت الخير الكثير.

والنفوس الخبيثة تشمئزُّ ويُرَى فيها المنكر عند سماع ما يُتلى عليها من آيات الله البينات. ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤٥٥).

---

(٤٥٤) سورة الحج: ٧٢.

(٤٥٥) سورة الزمر: ٤٥.

والذين يظنون أنهم ــ وهم يجحدون الحق ـ قد أفلتوا من عـذاب قد جَهِلُوا وظلمـوا أنفسهم فإن الحق من ربك وجميع الخلق يُـرجعـون إليه فينبئهم بمـا عملوا والله بكل شيء عليم .

وهذا وعيد الله لمن كره الحق وأعـرض عنه وأساء إلى أهله ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ذاك هو المصيـر لمن أنكر الحق وطغـى واستبد وبئس المصير مصيـر هؤلاء الذيـن لا يستمعون إلى ما أنـزل الله ولا يستجيبون لنـدائه وتنطـوي نفـوسهم على المنكـر وتهيج بـالبطش والاعتـداء ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ .

إن الحق يُبلَّغ للنـاس في آيات بينـات فمن جحـده وآثر هـواه لقي ما يلقـاه الجاحدون المكـذبون ، ومن استجاب له أمنَ في دنياه وفاز بـوعد الله في أخراه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ وستظل ساحة الحياة تستقبل وتودّع .

والأرض تضم الأحياء والأموات . هؤلاء في بطنها وأولئك على ظهرها . لتظل عبرةُ الحياة قائمةً وعِظَتُها دائمة .

والدعـوة إلى الحق مشفوعـة بسلطان الحجـة وبالغ المـوعظة ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(٤٥٦) .

أدلَّةٌ للحق بينات واضحات ملازمة للإنسان يراها ويبصرهاوينعم بآثارها ويسترشد بآياتها .

(٤٥٦) سورة المرسلات : ١٦ ـ ٢٨ .

فمن أبى إلَّا الإصرار على الجحود والانطواء على التكذيب فذاك هو المصير، يُنادي له ويُدعى إليه ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾(٤٥٧).

ذاك حديث القرآن عن مصير مَنْ كذَّب به وجحد ما دعا إليه.

إن للخلائق يوما يُجمعون فيه. إنه يوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل؟ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾﴾

فلنعرف صفات من شَقُوا، ولنحذر أن نركن إلى شيء من صفاتهم.

ولنعرف صفات من سَعِدوا ولنعمل ـ مستعينين بالله ـ أن نتبع سبيل من أنعم الله عليهم.

وحديث القرآن فيَّاضٌ ببيان صفات هؤلاء وأولئك.

فلنتدبر حديث القرآن ولنستمع إليه متبعين له مهتدين بهداه. وتلك بشراه لمن آمن وعمل صالحا وذاك إنذاره لمن كفر وَصَدَّ عن سبيله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾﴾(٤٥٩).

٧٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ

(٤٥٧) سورة المرسلات: ٢٩ ـ ٣٤.
(٤٥٨) سورة هود: ١٠٣ ـ ١٠٥.
(٤٥٩) سورة محمد: ١ ـ ٢.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾(٤٦٠).

ذاك حديث القرآن عن مصائر الخلق ــ وهو يتلى عليهم، وهم ما بين مصدق ومكذّب، ما بين متَّبعٍ ومعرض.

حديث القرآن عن مصير هؤلاء وأولئك فيه إعذارٌ و إنذار. وفيه عبرةٌ وعظة وتبصرة وذكرى. ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾(٤٦١).

إن عاقبة التكذيب بآيات الله والإعراض عن ذكره عاقبةٌ يخسر فيها المبطلون أنفسهم. وماذا بعد أن يخسر الإنسان نفسه؟ ماذا يملك؟ وماذا يبقى له وقد خسر نفسه؟ لقد كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا الباطل فخفت موازينهم ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

ويقال لهم توبيخا وتقريعًا ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إنه القرآن. حجة لك أو عليك.

فمن اتبعه قاده إلى الجنة ومن كذَّب به وأعرض عنه اضطرب أمره وساءت عاقبتُه، وأيام العمر تمضي والآجال تنقضي. ويجد الناس صدق ما أخبر به القرآن. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(٤٦٢).

---

(٤٦٠) سورة المؤمنون : ١٠١ ـ ١٠٥.
(٤٦١) سورة الجاثية : ٦.
(٤٦٢) سورة آل عمران : ٣٠.

إن حديث القرآن حديثُ حق وصـدق . وبالاستجابة للحق والصدق تصلح الأمـور وتحسـن العـواقب . فمن اتبع الحـق وآمن بـه طـاب سعيــه وحسنت عاقبته . ومن كذب بالحق وأعرض عنه فسد عملُه وساءت عاقبته . وللحق نارُه ونُوره . فمن أبى النور فإلى النار مصيره . والجنة حق والنار حق ودنيا الناس دار امتحان واختبار، يمر بها الإنسان ولا يُقيم .

وأدلّة الحق بيِّنةٌ واضحة ، وما جُعلت الحياة في امتحانها إلا ليُعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربُّك على كل شيء حفيظ .

وحديث القرآن فيَّاض بالبينات والموعظة ، فياض بالتبصرة والذكرى .

والله الذي أنـزل القرآن هو الـذي يحاسب الناس على مقتضـاه . وهو الحي الذي لا يموت .

وأجلُ الخلق مسمًّى عنـد الله لا عنـد الناس ، فـلا يـدري أحدٌ متَى يُـدْعى فيجيب ﴿**وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ .

والفوز هناك مبني على الإصلاح هنا ولا فوز إلا لمن آمن وعمل صالحا .

وما أنزل الله من الكتاب هـو الحق الذي أمرنا باتباعـه وحُذّرنا من الفتنة عن شيء منه . فمن عمـل به ثقلت موازينـه وهو في عيشـة راضية . ومن كـذب به وأعرض عنه خفت موازينه وخسر نفسه وقامت الحجة عليه . ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا

حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

تلك هي النتائج تأتيك في حديث القرآن هدى وموعظة وتبصرة وذكرى.

فاحذر أن تُلهيك الرغائب عن العواقب. أو تصرفك العاجلة عن الآخرة.

كن مع القرآن حيث كان فإنه الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. إنه الكتاب الذي هدى الله به رسولكم فاتبعوه تهتدوا ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾

٨٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة النور في قوله تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(٤٦٤) وقوله ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾(٤٦٥) وقوله ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ ﴾(٤٦٦).

﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾. والسورة في اللغة: اسم للمنزلة الرفيعة. ولذا سميت السورة من القرآن سورة. ومنه قول النابغة: ألم تر أن الله أعطاك سورةً: أي منزلة. والإشارة في قوله ﴿سورة أنزلناها﴾ إلى سورة النور التى افتتحت بهذه الآية. أي هذه ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾.

فرض الله فيها الآداب والفضائل كما فرض الحدود والعقوبات. وبيَّن الحلال والحرام في آياتٍ بينات تذكيرا للناس وتبصرة لهم وهدى وموعظة

(٤٦٣) سورة المؤمنون: ١٠٤ ـ ١١١.
(٤٦٤) سورة النور: ١.
(٤٦٥) سورة النور ٣٤.
(٤٦٦) سورة النور: ٤٦.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وقد جاءت هـذه الآية في سورة النور بعد بيان الأحكـام، وقد وصَفَت القرآن الكريم بصفاتٍ ثلاث: **الأولى**: أنه آيات مبينـاتٌ: أو واضحاتٌ في أنفسهن أو موضِّحـات. وقد تجلى ذلـك فيما ذُكر فـي هذه السورة مـن أحكامٍ وآداب ومعالم وحدود.

الصفة الثانية: كونه مثـلا من الذين خلَوْا من قبل هؤلاء. أي مثـلا كائنا من أمثال الذين مَضَوْا من قبلكم من القصص العجيبة.

فإن العجب من قصـه عـائشة ـ رضي الله عنهـا ـ هو كـالعجب من قصـة يوسف ومريم وما اتُّهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما، سلام الله عليهما.

وبيـان هذا القصص وإنـزاله في آيـات مبينـات فيه تـوجيهٌ وتـربية وتبصـرة ومـوعظـة. وأن من اتقى ربـه وأخلص القصد لـه حفظـه. ومن حفظـه الله لا يُضَيَّع.

وفي قصة عائشـة ـ رضي الله عنها ـ التى ذكرت في هذه السـورة سورة النور، كما في قصة يوسـف ومريم ـ عليها السلام ـ آيات وآيـات تنفع المؤمنين وتردع الكائدين والمرجفين.

ولقد أنـزلنا إليكم آيـات مبينات ومثـلا من الذين خلـوا من قبلكم ومـوعظة للمتقين، وتلك هي:

الصفة الثالثة: التى وُصِفَ بها القـرآن في هذه الآيـة من سورة النور، كـونه «مـوعظـةً» ينتفع بها المتقـون بخـاصـة. فيقتـدون بما في القـرآن من الأوامـر وينـزجـرون عما فيـه من النـواهي. وأمـا غيـر المتقين. فإن الله قـد ختم على قلوبهم وجعل على أبصارهـم غشاوة، فلا يسمعون المواعظ سمـاع تدبر. ولا

يعتبرون بقصص الذي خَلَوْا من قبل وفَهْمِ ما تشتمل عليه الآيات البينات من تبصرة وتذكرة، وحثٌّ على ما يجب أن يكون، وتحذير مما لا ينبغي أن يكون.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

ومن حرم الهداية فمن يهديه من بعد الله؟ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والله وحده المطلع على ضمائر الناس العليم بما في الصدور.

فمن اهتدى بالآيات زاده الله هدًى وآتاه تقواه.

ومن زاغ ونسي ربَّه أزاغ الله قَلْبَه وأنساه نفسه ولم تزده الآيات إلا وبالاً وخسرانا، إن طريقا واحدًا مستقيما يدعو القرآن الكريم إلى اتباعه.

فمن اتبعه توصل به إلى نعيم الجنة، وهو صراط مستقيم لا عوج فيه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ومن أجل الدعوة إليه أنزلت الآيات البينات وأرسل الرسل وحفظ الكتاب الذي جعله الله نورًا تتميز به الأشياء ويُعرف الصراط المستقيم.

إن حديث القرآن عن القرآن فيه بيان لهدايته ومقاصده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به، وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. فكنْ مع القرآن حيث كان، واستمسك به ولا تَحِدْ عنه، واعلم أن مصيرك هناك يتحدد بموقفك منه هنا اتباعا أو إعراضا ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

اللهم اجعله حجة لنا لا علينا يا رب العالمين.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٤٦٧).

هـذه اللفظـة «تبـارك» لا تستعمـل إلا لله سبحـانـه، ولا تستعمل إلاَّ بلفظ الماضي. وأصل «تبارك» مأخوذ من البركـة: وهي النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية. ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير.

وتبارك وتقدس في العربية معناهما العظمة. وقيل المعنى: تبارك عطاؤه.

ومن معاني «تبارك» في اللغة: دام وثبت.

والفرقان: هو القرآن وسمّي فرقانـا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه. أو بين المحق والمبطل.

والمراد بـ«عبده» نبينا محمد ﷺ.

وفي قـوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ بيانٌ لغـاية التنـزيل وحكمتـه والغرض المقصود من إنـزاله، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ والمـراد: محمـد ﷺ أو الفرقان.

والمراد بـ«العالمين» الإنس والجن؛ لأن النبي ﷺ مـرسل إليهما. ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلاً للثقلين. والنـذير: المنذر أي ليكون محمد ﷺ مُنْذِرًا، أو ليكون إنزالُ القرآن مُنْذِرًا. والله الذي نزَّل القرآن وأرسل الرسول تلك صفاتُه. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٤٦٨).

وصف الله نفسه في هذه الآية بصفات أربع.

---

(٤٦٧) سورة الفرقان: ١.

(٤٦٨) سورة الفرقان: ٢.

وهـذ الصفـات لهـا دلالتهـا في افتقـار الخلق إليـه وحـاجتهم في حسن الاستجابة لما دَعَاهُم له، لَهَا دلالتهـا في الإيمان بما نزل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم.

إن من نـزّل القرآن لـه ملك السمـوات والأرض فلن يَنْفُـذَ أحدٌ من ملكـه أو يَفْلِتَ من جـزائه. فما دعـاهم إليه في التنـزيل وبـلاغ الرسـول سيُسْألون عنـه ويحاسبـون عليه ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾(٤٦٩).

إن من نزَّل الفـرقان على عبده ليكون للعـالمين نذيرًا سيـرجع الخلق جميعا إليه، ويحـاسبون على ما خـوطبوا به ودُعُـوا إليه. ويُساق من يُسـاق إلى النار على إعراضـه وتكذيبه بما نـزل من الحق. ويُساق من بُساق إلى الجنـة لتقواه وإيمانه بما جاء من الحق.

ومن هنـا يُعلم أن الحق ليس ضيـاعًـا، وأن من خـوطبـوا بـه لا يفلِتـون ولا يُعجزون وهم جميعـا إلى الله راجعون ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٤٧٠).

إن الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرًا سيفرق بين المحق والمبطل والمتَّبع والمعرض. وستكون النتائج مبنيَّةً على المقدمات.

ومن تدبر الأمر على هذه الصورة لم تَشْغَلْه أعراض الحياة عن حقيقتها.

---

(٤٦٩) سورة الأعراف: ٦ ـ ٧.

(٤٧٠) سورة الزمر: ٧١ ـ ٧٢.

والجن والإنس يُسألـون ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾(٤٧١).

ذاك هو شأن التنزيل فينـا ، يُتلى علينا لنعمل به ونهتدي بهـداه . وهو حجة لنا أو علينا .

وقد أعذر من أنـذر. فإن من نزَّل الحق سيحاسب عليه . ومـن حفظ الذكر سيؤاخذ من أعرض عنه .

وكل نفس مرهونة بما كسبت ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًاۗ ﴾(٤٧٢).

ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعذار و إنذار.

إن الفرقان الذي نزله الله على عبده قـد أعذر وأنذر بذكر العواقب والنتائج . وقد بين أن مـا يُعمل هنا في الدنيا من خيـر أو شر سيراه صاحبُـه هناك ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ولا شيء يفلت أو يُضيَّع والإحصاء دقيق والله بما يعملون محيط﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ شَهِيدٌ﴾(٤٧٣). ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٤٧٤).

---

(٤٧١) سورة الأنعام : ١٣٠ .
(٤٧٢) سورة آل عمران : ٣٠ .
(٤٧٣) سورة المجادلة : ٦ .
(٤٧٤) سورة لقمان : ١٦ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٤٧٥) إن حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيانٌ لموقف أهل الكفر والجحود، وهم يُسيرون إلى القرآن حين قالوا ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ اختلقه محمد ﷺ وزعم أنه أنزل عليه من عند الله، وأعانه على اختلاقه قوم آخرون من أهل الكتاب.

هكذا تُلقَى الكلمات من أفواه الجاحدين دون نظرٍ أو تدبر.

وهي مُسَجَّلةٌ عليهم، وهم مؤاخذون بها. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (٤٧٦).

لقد حملهم كفرُهم على أن يظلموا الرسول ﷺ بما تقوّلوه عليه، ويفتروا عليه هذا الزور والبهتان، بجعل كلام الله المعجز مُخْتَلَقًا مُتَلَقَّفًا من بعض من أسلم من أهل الكتاب. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وأي ظلمٍ وأي زورٍ أكبر من نسبتهم الكذب إلى رسول الله ﷺ وتكذيبهم بما نزّل عليه من الحق من ربهم.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٤٧٧).

لقد اضطرب أمرهم حين كذّبوا بالحق لما جاءهم.

فلم يَثْبُتُوا على حال. فتارة يقولون عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ وتارة يقولون ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾.

---

(٤٧٥) سورة الفرقان: ٤ ـ ٦.
(٤٧٦) سورة النحل: ١٠٣.
(٤٧٧) سورة الفرقان: ٥.

ويقولون عن الرسول ﷺ ما يقولون وهم يوقنون في أنفسهم أنهم هم الكاذبون. وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرى من دون الله.

وما كان الرسول ﷺ مجهولاً عندهم ـ وهم الذين لقبوه قبل بعثته بالصادق الأمين وهم يوقنون بصدقه وأمانته واستقامته في قوله وعمله.

ولكنه الجحود يُعمي صاحبه ويوقعه في ظلم وظلمات ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(٤٧٨).

إنه البغض للحق. والنفوس إذا كرهت الحق أو أعرضت عنه ساءَ حالُها وفسد أمرها واضطرب سعيها. والحقُّ ليس ضَياعًا ينال منه أو يُعرض عنه ويأباه من شاء. إنه الحق. والحق من ربك الذي يعود الخلق إليه ويحاسبون بين يديه.

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾(٤٧٩).

فمن الظلم للنفس أن يستهين الإنسان بالحق وأن يأباه وهو مُؤَاخذٌ به. لذا نرى الرسول ﷺ يُؤمَر ليبلِّغ هؤلاء وغيرهم من المكذبين بلاغًا ينتفع بهداه المتقون. ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٤٨٠). وفي هذا القول الذي أمِرَ الرسول ﷺ بتبليغه دلالاتٌ لا تخفى.

فيه أن هذا القرآن قد أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض فاصدقوا معه وصدقوه فأنتم عائدون إليه ومحاسبون. ولن يفلت أحدٌ من موتٍ أو يفر من لقاء.

---

(٤٧٨) سورة الأنعام: ٣٣.
(٤٧٩) سورة النور: ٢٥.
(٤٨٠) سورة الفرقان: ٦.

وفيه إغراء لهم بالتوبة والإنابة في السر والعلن وعدم الإصرار على ما لا يرضاه الله . وفيه إرشادٌ إلى ما اشتمل عليه القرآن من غيب لا يعلمه إلا علام الغيوب .

وفيه دعوة إلى حسن تدبر القرآن والاعتصام به لأنه من عند الله ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ .

٨٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾(٤٨١) .

لقد شكا الرسول ﷺ إلى الله ما يعانيه من عناد قومه واستكبارهم وإعراضهم عن قبول دعوته والإيمان بما نزل من الحق . فردَّ الله على نبيه مُواسيًا ومُسلّيًا ومبيِّنًا سنَّته فيمن بُعثَ من قبله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ إن كلَّ نبي قد ابتلي بأعداءٍ من الكفار يناوئونه ويصدون عن سبيل الله ويعادون رسوله ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾(٤٨٢) . واعتمد على ربك فإنه ناصرك عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ .

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾(٤٨٣) .

---

(٤٨١) سورة الفرقان : ٣٠ ـ ٣٣ .
(٤٨٢) سورة الأحقاف : ٣٥ .
(٤٨٣) سورة فاطر : ٤ .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٨٤).

هكذا يُبيِّنُ القرآن سُنَّةَ الله في رسله وأنبيائه ليَعْلَم دعاةُ الحق حيث كانوا ـ وهم يقتدون برسل الله وأنبيائه ـ أن الله إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه.

و«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رِقّة ابتلى على قدر دينه فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة».

وتلك سنّته في خلقه وبيانه لعباده ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٤٨٥) تلك سنّة الله في خلقه. لا يترك الناس لدعواهم حتى تُميَّز صفوفهم ويستبين أمرهم أمام أنفسهم فيمحص أهلُ الإيمان ويمحص أهل الكفر. وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ (٤٨٦).

ومن هنا كانت مداولة الأيام بين الناس، وتباين الأحوال فيما بينهم من عسر ويسر وشدة ورخاء وخير وشر وموت وحياة.

كلُّ ذلك لتعرف معادن الناس وتحدَّد مواقفهم.

«وفي تباين الأحوال معرفة معادن الرجال».

والله يبتلي الناس بعضهم ببعض، وفي ذلك ما فيه من امتحانٍ لصبرهم وابتلاءٍ لإيمانهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (٤٨٧).

---

(٤٨٤) سورة فاطر: ٢٥ ـ ٢٦.
(٤٨٥) سورة العنكبوت: ١ ـ ٣.
(٤٨٦) سورة آل عمران: ١٧٩.
(٤٨٧) سورة الفرقان: ٢٠.

وفي صراع الحياة بين الحق والباطل يحاول أهل الباطل بشتى الأسباب والوسائل أن ينالوا من الحق وأهله بإلقاء الشبهات وطلب المعجزات ومخاطبة الشهوات .

وفي طريق الصراع قد تزِلُّ أقدام ويُستخفُّ أقوام .

ولا سبيل للنجاة في معركة الحياة إلا باتباع منهج الحق والثبات عليه . به تَرْشُدُ النفوس ، وتثبت أمام العواصف الهوج ، وتهدى في كلِّ شأن للتي هي أقوم .

وهذا ما كان من القرآن ـ وهو الحق ـ في مخاطبة الرسول ﷺ و إرشاد المؤمنين وهم يواجهون سفاهة المبطلين وشبهات المضلين . فقد حدَّد لهم منهج الحياة وسبيل النصر والنجاة وهداهم في جميع أمرهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

هكذا يقذف باطل المبطلين . يقذف بالحق الذي أنزل ليُتَدبر وليعمل به . ولا يأتونك لإبطال دعوتك باقتراح إلا أتيناك بالحق الذي يدفعه .

ولا فوز إلا بالحق ولا نجاة إلا لمحق . فإن العاقبة له والفوز لمن اتبعه .



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[٤٨٨].

---

(٤٨٨) سورة الفرقان : ٥٠ ـ ٥٢ .

لقد جاءت هذه الآيات بعد حديث القرآن عن الماء .

وحديث القرآن عن الماءِ لَهُ دَلاَلَتُه وتبصرته . فإنه لا يقف بالإنسان عند متاع الحياة الدنيا بل يَمْتَدُّ به إلى البعث والنشور، فيقدِّم مع المتاع التبصرة والذكرى نقرأ ذلك في سورة ق ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾(٤٨٩) أي خروج الموتى من قبورهم .

ونقرأ في سورة الأعراف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤٩٠) .

ونقرأ في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾(٤٩١) .

فتصريف القول على هذا النحو يعين على التبصرة والذكرى . والقرآن يحدث الإنسان عن شي يلازمه ولا تقوم الحياة إلا به لتبقى الذكرى ملازمة للإنسان حيث كان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(٤٩٢) .

---

(٤٨٩) سورة ق : ٩ ـ ١١ .
(٤٩٠) سورة الأعراف : ٥٧ .
(٤٩١) سورة فاطر: ٩ .
(٤٩٢) سورة الفرقان : ٤٨ ـ ٥٠ .

وسواء كان مرجع الضمير في قوله ﴿**ولقد صرفناه بينهم**﴾ إلى الماء أو إلى حديث القرآن فإن المقصود هو الدلالة في الحالين. وفي كلٍّ تبصرةٌ وتذكرة.

فإن آيات الله المنزَّلة على نبيه تتَّسق مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان وتذكرته. فآية الله في الآفاق تأتي في حديث القرآن تبصرة وذكرى للإنسان. فمن الناس من يأخذ من آية الله في إنزال الماء المتاع ولا يزيد.

وهؤلاء تشاركهم الأنعام فيما يتمتعون به ويأكلون ﴿**متاعًا لكم ولأنعامكم**﴾. ومنهم من يبصر في الآية دلالتها ويأخذ تبصرتَها وتذكرتها فيجمع مع المتاع التبصرة والذكرى وهو الأصل في الآيات. آيات الله في الأنفس والآفاق التي يخاطب بها الإنسان في حديث القرآن ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(٤٩٣).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾(٤٩٤).

تلك عناية الله بالإنسان يبصِّره بآياته في نفسه وفي الآفاق من حوله كما يبصره بما أنزل من الحق وما يتلى منه من الآيات.

والناس ـ مع التذكير ـ ما بين شاكر وكافر. فأما الشاكر فيحمد الله ويذكر

---

(٤٩٣) سورة ق: ٦ ـ ٨.
(٤٩٤) سورة الفرقان: ٦٢.

فضله. وأما الكافر فينكر نعمة الله ويسندها إلى غيره ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

لقد أنزلنا القرآن ليبلَّغ للناس وليُجاهَدَ به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾(٤٩٥).

والمؤمنون مأمورون بذلك في أي زمان وفي أي مكان ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾(٤٩٦).

وجهاد المؤمنين بالقرآن يقتضي اعتصامهم به، وإخلاصهم له، وصدقهم معه فإنهم لا يستطيعون نصره إلا إذا نصروه في أنفسهم بتغليب أمره على أهوائهم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٤٩٧).

إن الأجيال تفد وتذهب ودين الله باقٍ بقاء النور في الكون. وكتابه محفوظ يهدي ويَشْهد. ويُبَلَّغ للأجيال كلِّها دون أن يُطفأ نوره أو يضعفَ ذِكره. وبه يجاهد المجاهدون في سبيل الله، وهم يبلغونه كما أمر الله ويُخضعون لذلك أموالهم وأنفسهم لينالوا بذلك رحمة الله. ولا سبيل لهم إلى ذلك إلاَّ باتباع هداه.

---

(٤٩٥) سورة المائدة: ٦٧.
(٤٩٦) سورة الأنعام: ١٩.
(٤٩٧) سورة محمد: ٧.

ومن حديث القرآن، عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٤٩٨).

في هذه الآيات بيان لصفة من صفات هذا الكتاب.

وهي صفة تنبئ عن نوره وبيانه. ليكون الناس على بينة من أمرهم وهم يسلكون سبيل النجاة أو يتبعون سبل الهلاك والدمار.

فإن لا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعذار و إنذار.

وفي الإشارة إلى آيات هذا الكتاب الموصوف بهذا الوصف **﴿الكتاب المبين﴾** في الإشارة إليها لفتٌ للأنظار إليه وتوجيه إلى حسن تدبره والاعتصام به. فهو الكتاب المبين. المظهرُ الحقَّ من الباطل. الظاهر إعجازُه وأنه من عند الله والمناسبة بين قوله **﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾** وقوله مخاطبا رسول الله ﷺ ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ المناسبة بيِّنة واضحة.

فإن من ير ناسًا يُعرضون عن الحق المبين ولا يؤمنون به، ويأبون الرحمة ويسارعون إلى العذاب. من ير ذلك يحزنه ما يرى.

والرسول ﷺ ـ وهو الرحمة المهداة ـ تبلغ عنده الحسرة مداها عندما يرى إعراض قومه عن هذا الكتاب المبين الذي يقود من اتبعه إلى الرضوان والنعيم المقيم. **﴿لعلك باخعٌ نفسَك﴾** أي قَاتِلُها غمًّا ألا يكونوا مؤمنين بهذا الكتاب.

---

(٤٩٨) سورة الشعراء: ١ ـ ٦.

والترجّي هنا في قوله ﴿لعلك باخع نفسك﴾ بمعنى الأمـر أي ارحم نفسك وارأف بها وأَشْفِقْ عليها فـإن إيمانَهم ليس مما تعلقت به مشيئـة الله . فلا وجه للطمع فيه والتألـم من فواته .

فإننا إن نشأ نُنَزِّلْ عليهم من السماء آيةً مُلْجِئَةً لهم إلى الإيمان قاصِرَةً عليه . ولو شاء الله أن يكرههم على الإيمان لأكرههم عليه .

ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك . ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ .

فإن هؤلاء المصرِّين على الكفر لَيْسُوا أهلاً للهداية . والله لا يكرههم عليها . لأن الإكراه يتنـافى مع الابتلاء والامتحـان وما يتـرتب عليه من حسـاب وجزاء . ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾(٤٩٩).

والنـاس لو تـدبـروا العـواقب لـم يصـرفهم عن الإيمان صـارف من الأهـواء والرغائب . ولكل شيء عاقبتُه ، ولكل عمل جزاؤه .

والعاقل من لا تلهيـه الرغـائب عن العواقب أو تشغله العـاجلة الفـانية عن الآخرة البـاقية . والـذين يكذبـون بما نـزل من الحق ويُعـرضون عنـه سيجدون جزاءهم .

والله عز وجل عندما يذكر لنا أخبار المكذبين وما يلاقونه من عقاب وجزاء . إنما يحذّرنا أن نسلك سبيلهم أو نتبع منهجهم .

وحـديثُ القـرآن عن المكذِّبيـن فيه تهـديـدٌ ووعيـدٌ . قد لا يُبَـالي بـه أهلُ الضلال حتى يـلاقوه ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾ .

---

(٤٩٩) سورة الكهف : ٦ ـ ٨ .

ألا فلنتدبر كتـاب ربِّنا ولنعتصم به في جميع أمرنا. ولنحذر أن تَصْـرِفَنَا عنه زهرةُ حيـاة أو زينةُ متـاع. ولنعلم أنـه الشرف الذي أكـرمنا الله بـه وحذَّرنـا من الإعراض عنه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾.

٨٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾(٥٠٠).

إن حـديث القـرآن عن القرآن فـي هذه الآيـات يقـرر أمـورًا لها تأثيـرهـا في التصديق به والعمل بمقتضاه.

يقرر أولا أنه من عند الله، وينبه إلى إعجازه وعلى نبوة من نُزِّل عليه. فإن ما اشتمل عليه، وما أخبر به لا يمكن أن يُعْلم إلا بوحي من الله عز وجل. ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ نزل به الروح الأمين وهو جبريل عليه السلام، فإنه أمينُ الله على وحيه.

﴿على قلبك﴾ قلب النبي ﷺ. وقد خصَّ القلب بالذكـر ليؤكد أنه محفوظ بحفظ الله متمكن من قلب نبيِّه لا يقع فيـه تغيير أو تبـديل. ولا يملك الـرسول ﷺ إلا اتباعه وتبليغه كما أنزل إليه من ربِّه ﴿إن اتبع إلاَّ ما يوحى إلي﴾ ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٥٠١).

---

(٥٠٠) سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ٢٠٢.

(٥٠١) سورة الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧.

هكذا في ثقة وثبات يتحدث القرآن ويبين للناس الحقائق التي لا تستقيم لهم حياةٌ إلا بتصديقها والعمل بمقتضاها .

القرآن : تنزيل من رب العالمين ، والرسول ﷺ يبلغ ما أُنزل إليه من ربه . والناس ما بين موفَّق مهتدٍ بهداه ، وضالٍّ غافل مكذِّب به مأخوذ بزهرة الحياة . وهؤلاء لا يفيقون حتى يأتيهم العذاب ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي سلكنا التكذيب والكفر والجحود وأدْخلْناه في قلوب المجرمين فلا يؤمنون بالحق الذي أنزل حتى يروا العذاب الأليم ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ من هنا يعلم أن الحق الذي أنزل من عند الله عليه يتوقف العمل والمصير ، وأن الناس مأمورون باتباعه ، مأخوذون به في عاجل أمرهم وآجله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٥٠٢) ، إن ناسًا يُصِرون على الكبر والعناد والجحود وهؤلاء يدخل الله في قلوبهم ما يحول بينهم وبين الهداية والتوفيق فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

وهؤلاء يستبعدون ما يوعدون به ويستعجلون العذاب ظنًّا منهم أنه غير واقع . وتشغلهم زهرة الحياة عن حقيقتها وتلهيهم الرغبة فيها عما وراءها فإذا جاءت العاقبة أفاقوا من غفوتهم واستيقظوا من غفلتهم وعرفوا أن العذاب واقع ما له من دافع والعاقبة إذا جاءت تضاءل ما قبلها فغدت السنون الطوال كأنها دقائق وثوانٍ . وقد ذهبت المتعة وبقيت التَّبعة ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾(٥٠٣) .

ذاك حديث القرآن . فاعلم أخي المسلم أن حديث القرآن عن المعرضين عنه حديث إليك فتدبر ما يُتْلى عليك واعلم أن الغد قريب . فانظر ما قدَّمت

---

(٥٠٢) سورة هود : ١٧ .

(٥٠٣) سورة الشعراء : ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

له، وأن الدار هناك فلا تُشْغل بزائلٍ عن باقٍ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(٥٠٤)، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٥٠٥).

روى مسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «يُؤْتَى بأنْعَم أهل الدنيا يوم القيامة، فَيُصبَغُ في النار صَبْغَةً ثم يقال: هل رأيت خَيْرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟

فيقول: لا والله يا ربّ.

ويُؤْتَى بأشدِّ الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة. فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شِدَّة قط؟

فيقول: لا، والله ما مرَّ بي بؤسٌ قط ولا رأيتُ شِدَّة قط» اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

٨٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٥٠٦). عندما يذكر الإنسان نزول القرآن وكيف نزل ويتدبر ما تضمَّنه من آيات بينات يعجب كل العجب من أولئك الذين يمترون و يحاولون أن يَنْسُبُوا القرآن لغير ما نُسِبَ له.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ﴾.

إن هذا التأكيد على هذا النحو كافٍ في إقناع من رغب في الهداية وطلب الحق. فإن القرآن الكريم وما اشتمل عليه يدل دلالة قاطعة على أنه تنزيل رب

---

(٥٠٤) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٥٠٥) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٥٠٦) سورة الشعراء: ٢١٠ـ٢١٢.

العالمين، نزل به الـروح الأمين على قلب النبي الأميّ الذي لم يَتْلُ من قبله من كتاب ولم يخطَّه بيمينه فلا موضع فيه للشك ولا مجال لارتياب المبطلين.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(٥٠٧). ومع هذا الإثبات الجازم القاطع نـرى الذين يتبعون أهواءهم يتيهـون في الضلال فينسبـون تَنَـزُّل القـرآن إلى وحي الشياطيـن، على طريقـة الذين كانـوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب وبـالسمع الذي يتكهنون فيه بالأخبار. وغاب عن هؤلاء المبطلين أن القرآن الكريم يدعو إلى ما لا تدعو إليه الشيـاطين. فإن القرآن يدعـو إلى الهدى والصلاح والإيمـان. والشياطين تدعو إلى الضلال والكفر والفسوق والعصيان.

فما يليق هـذا القرآن بـالشياطين. ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾. فهم معزولـون عن سماع الوحي بـه من الله عز وجل ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ كمـا قال الله عـز وجل مُخْبِـرًا عن الجن ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(٥٠٨).

هكذا كانت حماية الوحي وحفظُه من تلبيس الشياطين.

فإن الله الـــذي نـزَّل الفـرقــان على عبـده لـــه كلُّ شيء. ﴿تبــارك الله رب العالمين﴾.

فمن حفظـه الله لا يُضَيَّع. ومن أهانـه لا يُكرَم. ﴿ومن يُهِنِ اللهُ فمـا لـه من مكرم﴾.

وهذا ملكـه وذاك أمره ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ

(٥٠٧) سورة العنكبوت: ٤٨.

(٥٠٨) سورة الجن: ٨ ـ ١٠.

مُّبِينٌ﴾(٥٠٩). وهذه الآيات من سورة الحجر وفيها قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. حفظ عامٌّ شامل في تنزيله وتنزيهه وعزته وبقائه. فلا يقترب من ساحته باطل. ولا يبغيه ولا يستطيعه الشياطين. ولكن أهل الضلال يأبون إلاَّ أن ينسبوا إلى الشياطين ما لا يقدرون عليه. ينسبون لهم شرفًا هم بعيدون عنه كائدون له حانقون عليه.

فهم أهل باطل وضلال. وهذا الكتاب كما أخبر الله عنه ﴿عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. فهو عزيز منيع لا يقترب منه الشياطين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. وكيف يتنزل شيطان بما يَلْعَنُه ويحذِّر من كيده؟ إن ذلك ممتنع من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ما ينبغي لهم أي ليس من بغيتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد. والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو نورٌ وهدى وبرهان، فبينه وبين الشياطين منافاة بعيدة، ولهذا قال الله سبحانه ﴿**وما ينبغي لهم**﴾.

الثاني: أنه لو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك لا هم ولا غيرهم من جن أو إنس ﴿**وما يستطيعون**﴾

الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا. في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف منه. وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه. وتأييده لكتابه ورسوله.

فكل احتمال لنسبته لغير ما نسب إليه من أنه تنزيل رب العالمين باطل وقد خسر المبطلون.

---

(٥٠٩) سورة الحجر: ١٦ـ١٨.

إن القرآن الكريم حين يتحدث عن ذلك وينفي ويثبت يخاطبُ الأجيال كلَّها بإعجازه. ويبطل كلَّ باطِلٍ. وهو يُتْلَى على الناس ويبلِّغهم في عزّة وثقة هذا البلاغ القاطع ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ليعلم الناس أن الحق مصون ومحفوظ، وأن الناس به مُمْتَحنون، وعليه محاسبون، وأن المعرضين عنه مأخوذون به، والكارهون له ـ وقد أبوا نوره ـ مخلَّدون في ناره وهم في عذاب جهنم خالدون، يُقَال لهم تَوْبيخًا وتقريعًا ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨ ﴾. وهؤلاء عندما يرون ما توعَّدهم به سيعلنون إيمانهم به وإخلاصهم له، حيث لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. فمن فاته الإيمان بالحق هنا فلن ينفعه إيمانُه به ساعة حساب وجزاء ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ ﴾(٥١٠).

٨٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النمل ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾(٥١١).

حديث القرآن عن القرآن هنا ينبئ عن بعد مكانته وعظم شأنه وحكمته. وتلك آياته تدل على ما له من شأن ﴿ **تلك آيات القرآن وكتابٍ مبينٍ** ﴾. ﴿ **مبين** ﴾: مظهر للحق من الباطل والحلال من الحرام. وفيه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وجنة ونار. حديث حق من

(٥١٠) سورة سبأ: ٥٢.
(٥١١) سورة النمل: ١ ـ ٦.

لدن حكيم عليم . يُخَاطَب به الخلق لهـدايتهم إلى الصراط المستقيم . فمن اهتدى بهداه فـاز ونجا ، ومن أعرض عنه خسـر وهلك ، والمنتفعون بهداه هم الفائزون .

وأولئك لهم صفاتُهم البـارة وأخلاقُهم الفاضلة وإيمـانهم الوثيق . هم أهل صلاة وزكاة ويقين ثابت بالآخرة يقترن بأعمالهم المتجددة فيجعلها بارة راشدة والقرآن الكريم لهؤلاء هدًى وبشرى لانتفاعهم بهداه وعملهم بمقتضاه .

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ .

يقينهم بـالآخـرة ثـابت راسخ وأداؤهم للفـرائض في صحبتـه متجـدد غيـر متوقف . والقـرآن الكريم يصف حالهم ليكون عـونًا لمن أراد أن يتبع سبيلهم . ومن اتبع سبيل المـؤمنين فهو معهم وسوف يـؤتي الله المؤمنين أجـرًا عظيما .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾[٥١٢] .

صفات أيُّ صفـات : أمانة وعفة وطهـر نفس واستقامة قصد ووفـاء يؤهلهم لإكرام الله لهم ورحمتـه بهم . وتلك بشرى القـرآن لهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

ومن تدبـر صفات هؤلاء الذين بشـرهم القرآن وكان لهم هـدى وبشرى أيقن أنها الصفات التي يتحقق بها أمن الناس وسلامهم .

---

(٥١٢) المؤمنون : ١ ـ ١١ .

فإن من أيقن بلقـاء الله والحساب بين يـديـه سابق إلى الخيـرات وكف عن السيئات وكان أمنا لمن حوله بصفاته وحسن معاملته وأخلاقه .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٥١٣) .

ومن حافظ على الصلاة وآتى الـزكاة طاب مسعاه ، وكانت لـه ضوابطه التي تحول بينه وبين المنكر والفحشاء .

والأمن في حقيقتــه كفٌّ وعَـدْل . والاستمســاك بمـا أوصى الله بــه حِمًى للإنسان من ظلم نفسه أو ظلم غيره .

إن العدل والحق والبر والصدق والأمانة والـرحمة صفات لا بد منها لتحقيق الأمن الصـادق والسلام البـار . وهذا مـا تُـوفى به صفـات أهل الإيمان الـذين بشَّـرهم القرآن وهـدوا بهداه ومن لا يقين لـه بـالآخرة مفتـون بدنيـاه . ومن فتن بالـدنيا أفسد ولم يصلح . وكـان بإيثاره العـاجلة ونسيانـه الآخرة ظالمـا لنفسه مسيئا لغيره . ودمَّر بذلك دنياه وخسر أخراه . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ .

إن اليقين بـالآخرة هـو الزمـام الذي يكبح الشهـوات والنزوات . والـذين لا يوقنون بـالآخرة ويرونها دنيا فحسب يسيئون ولا يصلحـون ويعيشون في دنياهم أسرى لأهوائهم ومنافعهم وزينة حيـاتهم . والله عز وجل يقول عن أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

هم لم يؤمنوا بمـا نزل من الحق ولم يعملوا به فكان هـذا عقابهم في دنياهم وأخراهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ .

إن للقرآن بشراه لمن آمـن به وعمل بمقتضاه ، وإنذاره لمن أعـرض عنه وآثر سواه . فطوبى لمن آمن به وويل لمن أعرض عنه .

---

(٥١٣) سورة المؤمنون : ٦٠ ـ ٦١ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النمل ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾(٥١٤).

في هذه الآيات بيان لمكانة القرآن وهيمنته وحفظه وشهادته على ما ادعاه بنو إسرائيل على أنبيائهم أو اختلفوا فيه .

فالقرآن هو المرجع الحق لرسالات الرسل جميعا وما بعثوا به وما دعوا إليه . ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾(٥١٥).

فمن أراد أن يعرف رسالة موسى عليه السلام فعليه بالقرآن . ومن أراد أن يعرف حقيقة عيسى عليه السلام وما أنزل عليه فعليه بالقرآن . فإنه المحفوظ بحفظ الله المؤتمن الذي يقرر أنهم جميعا ما طلبوا من أقوامهم إلا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له . ذاك ما بُعثوا به وما دَعوا إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(٥١٦) .

ولقد أنكر القرآن الكريم على الذين مَالُوا عن هذا الأصل ونسبوا مَيلَهم وانحرافهم ظُلْمًا وزورًا ـ إلى ما جاء به أنبياؤهم .

أنكر على اليهود أن يقولوا «عزير ابن الله» وعلى النصارى أن يقولوا تارة «المسيح ابن الله» وطورًا «إن الله هو المسيح ابن مريم» .

---

(٥١٤) سورة النمل : ٧٦ ـ ٨١

(٥١٥) سورة المائدة : ٤٨ .

(٥١٦) سورة الأنبياء : ٢٥ .

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٥١٧).

هكذا يبين القرآن ويَذود عن رسالة الرسل جميعا.

والإسلام في إثباته لرسالات السابقين ـ على هذا النحو ـ إنما يقدم للإنسانية الحقيقة كما جاءت من عند الله. الحقيقة التي ظلمتها أهواء الناس وانحرفت بها شهواتهم. واستحفظوا عليها فلم يحفظوها.

يقدم الحقيقة في كتاب محفوظ بحفظ الله. كتاب معجز في ذاته وفي إخباره بما أنزل على الرسل من قبل. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٥١٨).

يخاطب الناس جميعا بهذا البيان الساطع. وهو بهذا يقول لأتباع موسى إن كنتم صادقين في اتباع نبيكم فهذا دينه الإسلام فاتبعوه وأطيعوه. ولأتباع عيسى إن كنتم تحبون رسولكم فهذا دينه وسبيله فاتبعوه ولا تظلموه. وللإنسانية جميعا ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٥١٩).

هذا ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الهدى والبيان. إنه يقصُّ على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ كاختلافهم في عيسى عليه السلام وتباينهم فيه. إنه قد جاء بالقول الحق العدل أن عيسى عبد من عباد الله ورسولٌ من رسله الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام. ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾(٥٢٠).

---

(٥١٧) سورة التوبة: ٣٠.

(٥١٨) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

(٥١٩) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٥٢٠) سورة مريم: ٣٤، ٣٥.

إن العبودية لله شرف لا يدانيه شرف. ومن غالى وأساء عُوقِبَ على مغالاته وإساءته وحشر يوم القيامة يحمل وزره وأوزار الذين أضلهم. والمسيح بريء مما نُسِبَ إليه، شريف، يرى شرفه في أنه عبد الله يَشْرُف بذلك ولا يستنكف ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾(٥٢١).

وسيسمع الخلق جميعا براءة عيسى عليه السلام مما قيل فيه أو نسب إليه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾(٥٢٢).

هذا ممَّا قصَّه القرآن على بني إسرائيل ونبيه. فمن أبى إلا الإصرار والإعراض عن الحق فإن يوم الفصل آتٍ لا ريب فيه. وعلى الداعين إلى الحق أن يستمسكوا به ولا يحيدوا عنه.

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويوم القضاء آت لا ريب فيه. ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(٥٢١) سورة النساء: ١٧٢.

(٥٢٢) سورة المائدة: ١١٦، ١١٧.

ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قولـه تعالى في سورة النمل ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٥٢٣).

في هذه الآيات بيان لما أُمِـرَ الرسول ﷺ بتبليغه والقيام به ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ .

وفي ذلك تنبيه على كفـاية القـرآن في الهداية والإرشـاد من غير حـاجة إلى إظهار معجزة أخرى .

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي من اهتدى بالإيمـان به والعمل بما فيه من الشـرائع والأحكام فإنما يهتـدي لنفسه . ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

فالرسول ﷺ شأنه شأن الرسل من قبل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من تبليغ الرسـالة وأداء الأمـانة وحساب أممهـم على الله تعالى ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾
الحمد لله الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه والإنذار له .

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾ أي سيريكم آياته في الدنيا . الآيات الباهرة التي نطق القـرآن بها ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾(٥٢٤) . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ بل هو شهيـد على كل شيء سبحانه ذاك بلاغ القرآن للناس يُتْلى عليهم ليكونوا على بينة من أمرهم .

---

(٥٢٣) سورة النمل : ٩١ ـ ٩٣ .
(٥٢٤) سورة فصلت : ٥٣ .

وفي بـلاغ القـرآن كفـاية لمن طلب الهـدايـة وآثـر الحق ولم يتبع الهـوى .
وبالقـرآن يكون الجهاد جهـاد النفوس التي تبغي الحياة عِـوَجًا لمآرب عـاجلة وشهوةٍ آسرة .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾(٥٢٥) .

إن في هـذا القـرآن من سلطـان الحجـة وعميـق التأثيـر مـا يـزلـزل الأرواح ويخضع النفوس . وكم هزم المقاتلون وانتصر هذا الكتاب بعزته وحجته .

وكم نال العدو من ديار المسلمين ولم يستطع مغالبة حرفٍ منه .

ترى الغالب مغلوبًا أمام سطوته والمنتصر منهزما إزاء حجته .

لقد كان ولا يزال مبعث حياة لمن اعتصم به واهتدى بهداه .

ومن رحمة الله أن بقي القرآن محفوظـا بحفظ الله . بقي للحياة بقاء النور في الكون لا يتوقف مَدُّه ولا يطفأ نوره .

ذاك هو القرآن الذي أمر الرسول ﷺ بتلاوته . ونحن مأمورون بما أمر به نبينا ﷺ متبعين له غير مبتدعين . مأمورون أن نتلـوه وأن نعمل به وأن ندعو إليه وأن نكون من المسلمين ولا نجاة إلا لمن أطـاعه واتبعه . ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

اللهم اجعله لنا إمامًا ونورًا وهدى ورحمة ، وذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنـا وارزقنـا تـلاوتـه آنـاء الليل وأطراف النهـار، واجعلـه لنـا حجـة يـا رب العالمين .

٩١

ومن حـديث القرآن عن القـرآن مـا تضمنه قـولـه تعالى في سـورة القصص ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ ،

(٥٢٥) سورة الفرقان : ٥٢ .

طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾(٥٢٦).

تبدأ السورة بهذه الأحرف : طا ـ سين ـ ميم . للتنبيه على أن مِنْ مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ذي الرتبة العالية ، وهذه الأحرف هي التي يتألف منها ومن مثلها الكلام العربي ولا يخرج القرآن عنها ولا يزيد عليها وهي في متناول المكذبين بالوحي . وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب . وفي ذلك ما فيه من لفت الأنظار والدعوة إلى اتباعه والاعتصام به . إذ هو من عند الله ، ولا مقدرة للخلق من إنسٍ وجن على أن يأتوا بمثله ﴿**ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾ .

إنه معجز في ذاته ومعجز فيما تضمنه واشتمل عليه واختُصَّ به من هداية وتأثير . ومن أجل أولئك الذين يهتدون بهداية القرآن تُتْلَى الآيات ﴿**نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ .

إن الله يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ولهم بِصِفَتِهم هذه صفة الإيمان الذي يؤهلهم للاهتداء بهذا النور.

ومن آيات هذا الكتاب تُعرف السنن ، سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول . ويُهدَى من يهتدي بها إلى الصراط المستقيم . ﴿**صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض**﴾ .

﴿**نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ .

إن المؤمنين وحدهم هم الذين ينتفعون بما في هذا القصص من عبر وعظات ، وقصة موسى مع فرعون تنفذ بعبرتها إلى أعماق النفوس فتئد الشر قبل أن يولد وهي ترى عاقبته ومصرع أهله . وتنفذ إلى قلوب المستضعفين

---

(٥٢٦) سورة القصص : ١ ـ ٦ .

فتُعلمهم كيف يتمسكون بمرضاة ربهم وهي تريهم منَّة الله على المستضعفين في الأرض فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

وتنفذ إلى قلب الأم المفَزَّعة بالبغي والظلم والتسلط فتعلمها كيف تلجأ إلى الله وتعتصم به وهي ترى أمَّ موسى تحاط بحماية ربانية في أشد لحظات الفزع والظلم والتسلط ـ تُطَمْئِنُ قلبها وتحفظ وليدها وتُعيدُه إليها لترضعه مكرَّمة معزَّزة ـ ترضعه وتأخذ أجرًا .

قصة تنفذ إلى قلوب الناس حيث كانوا فتعلمهم أن ما في أيديهم يُهدِّده طغيانُهم وتدمرُه معاصيهم وتعصف به ذنوبهم . وهم بذلك يؤخذون ويَهْلِكُون . يؤخذون بذنوبهم لا بكيد أعدائهم . فما كان لعدو أن يحقِّق كيده فيمن حفظ الله واهتدى بهداه ومن حَفِظَ الله حَفِظَهُ الله وجعل العاقبة له «احفظ الله يحفظك» .

قصة تنفذ إلى قلوب الأتباع فتعلمهم أن الطاعة في معصية الله دمارٌ وبوار، وأن الذين يستخفهم الباطل فيركنون إليه ويطيعونه يُزْهَقُون به ويُدَمَّرون . ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[٥٢٧] .

قصة تعلم كل إنسان ـ أحب أن يعلم ـ أن ينظر إلى العواقب فيحسن المقدمات ولا يسيء ؛ لأن من يسيء ولا يتذكر تسوء عاقبته .

قصة تعلم جميع الخلق أن بساط دنياهم سيُطوى . وأنهم قادمون على دار البقاء ولا أمن لهم فيها إلا بصدق الإيمان وصالح الأعمال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٥٢٨] .

---

(٥٢٧) سورة الزخرف : ٥٤ ـ ٥٦ .

(٥٢٨) سورة الأنعام : ٨٢ .

من أجل ذلك حفظ القرآن ليعلِّم ويبصر ويهدي للتي هي أقوم.

فكن أخي المسلم ممن يتعظ بـه ويهتدي بهداه. فقـد حُفِظَ القرآن لتُحفَظَ بهداه من الضلال وتُنْقَذَ من النار.

فاستمسك به واعتصم ليكون حجة لك لا عليك.

وجاهد نفسك ـ ما استطعت ـ أن تكون مع القرآن حيث كان ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾.

٩٢

ومن حـديث القرآن عن القـرآن ما تضمنته هـذه الآيات في سـورة القصص ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (٥٢٩).

حديث القـرآن ـ عمـا اشتمـل عليه من أنبـاء الغيب نسمع منه هـذه الآيات البينات من سورة القصص، وفيه دلالة مـن دلالات النبوة فما كان النبي ﷺ قد شهد هذه الأحـداث في زمان أو مكان. ولكنه الوحي يأتيه من عنـد الله بآيات

(٥٢٩) سورة القصص: ٤٣ ـ ٥٠.

تُتْلى نرى من خلالها وقائع الماضي ماثلة أمام أعيننا ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٥٣٠).

والقرآن الكريم وهو يحدثنا بهذه الأحداث الماضية يبصرنا من خلالها بسنن الله الباقية ويجعلنا نحيا مع الزمن كلِّه ماضيه وحاضره ومستقبله.

فهو ينقل لنا عبرة الماضي لصلاح الحاضر، ويجعلنا نبصر بنوره ما نحن قادمون له وصائرون إليه بآيات أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

يخبرنا عما أُعِدَّ للناس من جنَّة أو نار.

جنَّةٍ يصف القرآن ما فيها من نعيم يجعلك وأنت تقرأ أو تسمع كأنك تراه.

ونارٍ تكاد ترى غضبها على الكفرة الفجرة وهم يُلقون فيها وقد سمعوا لها شهيقا وهي تفور ﴿**تكاد تميَّزُ من الغيظ**﴾.

إن إخْبَارَ القرآن عن الماضي بعبره وعظاته، وإخبارَه عن المستقبل بوقائعه ومشاهده وما ينتهي إليه الخلق من مصير.

إن هذا وذاك تستقبله النفوس المطمئنة فيحقق لها الحياة، حياة التبصرة والذكرى، حياة الاستقامة والتقوى، ويحثها على حسن الاستجابة للحق لتنعم بحياة طيبة وتُجازى بنعيم مُقيم. وذاك وعْد الله يُتْلى في كتابه وخَبَرُه يُبلَّغ إلى عباده. ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٥٣١).

ذاك هو الفرقان نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا. به انقطعت الحجة والمعذرة. ولم يَعُد هناك مجالٌ أن يقول أحَدٌ ما قاله أهل الجحود قبل أن يأتيهم بيانه أو يُبْعَثَ رسولُه ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(٥٣٠) سورة هود: ٤٩.

(٥٣١) سورة النحل: ٩٧.

فقد أرسل الله الرسول إلى الناس كافة ليقيم الحجة ويقطع المعذرة وحُفِظَ الذكر للخلق جميعا . فمن أعرض عنه واتبع هواه أُخذ بذنبه، ومن أصر على الظلم دمِّر بظلمه . وهذا بلاغ القرآن وذاك حديثه من اتبعه فقد اتبع الحق من ربه، ومن لم يستجب للحق تنازعته الأهواء واقتاده الباطل . والباطل ـ لا محالة ـ زاهق وأهله خاسرون ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٥٣٢) .

٩٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة القصص ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ ﴾(٥٣٣) .

حديث القرآن هنا فيه بيان لمصدره وغايته، وموقف بعض أهل الكتاب منه .

ولئن خوطب به أهل مكة عند نزوله فإنه بلاغ للناس وبيان لهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿**ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون**﴾ . بلَّغنا لهم القرآن على التتابع منجما ليكون أبلغ في تحقيق التبصرة والتذكرة .

والذين آتاهم الكتاب من قبل إنزال القرآن منهم مؤمن بما جاء في الكتاب مستمسك به وهؤلاء يؤمنون بما نزل على محمد ﷺ؛ لأنهم يرون فيه تحقيقًا لما جاء في كتبهم . فكانوا حين يسمعون القرآن يُتْلَى عليهم يقولون صدقنا بهذا القرآن وبما جاء به فهو منزل من عند ربنا ، ويؤكدون أنهم كانوا مسلمين قبل نزول القرآن؛ لإيمانهم بما جاء في كتبهم من نعت النبي ﷺ. وإيمانهم

(٥٣٢) سورة القصص : ٥٠ ـ ٥١ .

(٥٣٣) سورة القصص : ٥١ ـ ٥٤ .

بكتابهم يستلزم الإيمان بما نـزل على محمد وهو الحق من ربهم . وهو معلوم لهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾(٥٣٤) .

إن هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل رسالته لمـا عرفوه في كتابهم ، وآمنوا به بعد رسالته . هـؤلاء يضاعف لهم الأجر ـ يؤتون أجرهم مـرتين ـ لثباتهم على ما جاء في الكتاب الأول وإيمـانهم به مخالفين بذلك كثيـرا من قومهم . وثباتهم على الإيمـان بمحمـد وتحملهم أذى مَنْ خـالفهم . هـؤلاء قد آثـروا رضـا الله فانتصر الحق في نفوسهم وحقَّق فيهم من الصفات ما يميزهم من غيرهم .

فمن صفـاتهم أنهم يقابلـون السيئة بـالحسنة ، وينفقون ممـا رزقهم الله ولا يَضنُّون . وحين يطرق آذانَهم لغـوُ الكلام وباطل القول ممن عـاداهم ينصرفون عنه ولا يأبهون به ، ولا ينطقون بالقـول الفاحش ردا على الناطقين بلغو القول ، بل يقـولون صـادقين ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وهو منطق سديد وخلق رفيـع يستمسك به دعاة الحق ولا يحيدون عنه . وتلك ثمرة الإيمان بالحق واليقين به والبراءة من الباطل وأهله .

٩٤

ومن حديث القـرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيـات من سورة القصص :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

---

(٥٣٤) سورة القصص : ٥٢ ـ ٥٥ .

إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٨﴾(٥٣٥).

إن حديث القرآن هنا له دلالته في حسن تدبره والاستمساك به والدعوة إليه والعمل بمقتضاه. وذاك ما فرضه الله على نبيه ﷺ وأمره بتبليغه وجعل الاعتصام به سببا في طلب نصره وتأييده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يؤكد الله لنبيه ﷺ أنه كما أنزل عليه القرآن وأوجب عليه قراءته وتبليغه والعمل بكل ما جاء به فهو كذلك سيرُدُّه إلى مكة بعد أن يقهر الكافرين من قريش وينتصر عليهم.

وهذا إخبار من الله بما سيكون.

وفيه دلالة على أن من فرض القرآن لايتخلى عمن فرض عليه. وهي دلالة تدعو في مضمونها إلى حسن تدبره والاعتصام به.

فإن ما عند الله لا يُطْلَبُ إلا باتباع ما نزل من الحق وتغليب أمر الله على هوى النفس. وما فرضه الله وأوجبه من تدبر القرآن والعمل به هو السبيل لهداية الخلق في كل شأن للتي هي أقوم. وذلكم هو الحق. ومن أباه أقام على ضلال. ولا خفاء في ذلك ولا التباس. ومن بعد البلاغ حساب وجزاء، ولا عذر بعد بيان، ولا حجة بعد إعذار و إنذار.

﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

هكذا يُتلى القرآن في ثقة وثبات ويتحقق ما يخبر به في واقع الحياة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إن الذي فرض القرآن على نبيه هو الله. والذي أخبر برده إلى مكة فاتحا منتصرا هو الله. أخبره بذلك أثناء هجرته، وأتباعه آنذاك قليلون، مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطَّفهم الناس، فآواهم الله وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات؛ لأنهم أحسنوا

---

(٥٣٥) سورة القصص: ٨٥ ـ ٨٨

الاستجابة وصدقوا في التمسك بما فرض الله عليهم، ولم يصرفهم عن التمسك به مَا لاَقوه من صدٍّ وكيد، وتعذيب وتشريد. بل كانوا كما وصفهم الله وأخبر عنهم ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(٥٣٦).

هـذا الصدق والوفاء في التمسك بما فرض الله هو السبيل لطلب النصر والتأييد.

ومن هنا كان التوجيه لنبيِّه والبيان له بيانًا للخلق ودعوة لهم أن يقتدوا به وأن يتبعوه فيما استمسك به ودعا إليه. ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وثمرة ذلك كله تراه في توحيد الألوهية التي لا نجاة لأحد من عذاب الله إلاَّ به، والذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب. ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذه الحقيقة الكبرى من أجلها أنزل القرآن وحفظ، ومن أجلها خلق الخلق وأمروا بالحق والعدل ونهوا عن الفساد في الأرض؛ فإن كلَّ فساد في الأرض منشؤه نسيان هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الغاية التي خلق الإنسان من أجلها وسخر الله له ما في السموات وما في الأرض عونًا منه على تحقيق هـذه الغاية وحسن إدراكها.

وهذه الغاية ـــ من توحيد الله والإيمان بالرجوع إليه ـــ هي وحدها التي تصان بها كرامة الإنسان، ويطلب أمنه وسلامه.

---

(٥٣٦) سورة الحشر: ٨.

هي وحدها التي تُعين الخلق على أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين .

ومن أجل ذلك أنزل الله الكتاب على نبيِّه وأوجب تبليغه للناس ، وأمرهم أن يتبعوا هداه ، لتصان كرامة الإنسان بمعرفة ربِّه وتقواه ، ويقام العدل ، ويسود البر والحق ، ولا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله . ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أمر عظيم وخطير، ولخطورته وعظم شأنه خوطب الرسول ﷺ به ليكون أبلغ في نهي الناس عنه . فإنهم إن لم ينتهوا عما نهوا عنه ساءت حياتهم ، وفسدت مودتهم ، ووجد الطغاة المفسدون مجالا لطغيانهم وفسادهم . من هنا ـ ولمصلحة الناس ـ جاء النداء في كتاب الله بأمر من الله لنبيه ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥٣٧) ،ذاك هو السبيل لأمن الناس وسلامهم . وذاك ما نزل القرآن من أجله ، وما يرشد إليه قوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٥٣٨) .

٩٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(٥٣٩) .

(٥٣٧) سورة آل عمران : ٦٤ .
(٥٣٨) سورة القصص : ٨٨ .
(٥٣٩) سورة العنكبوت : ٤٥ ، ٤٦ .

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ . أمرٌ من الله لنبيه بتلاوة القرآن بلاغًا للناس وعملاً بمقتضاه. والناس مأمورون باتباعه وحسن الاستجابة له .

فليقبل الناس على مأدبة القرآن طُهرا لدنياهم وشفاء لما في صدورهم .

فليقبلوا محبين راغبين فإن القرآن وفي لأصحابه لا يتخلى عنهم في موت أو نشور. وما يشغلهم عنه وما يحرصون عليه من متاع وما يجمعون لا يبارح دورهم ولا ينفعهم إذا نزل الموت بساحتهم .

أما القرآن ـ الذي يقبلون عليه في دنياهم ويعملون به ـ فهو معهم لا يتخلى عن أصحابه ولا يغيب عنهم في لحظة حساب أو جزاء .

ومما يلفت النظر أن الأمر بالتلاوة في قوله ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قد اقترن بالأمر بإقامة الصلاة دلالة على أن التلاوة ليست مجردة عن العمل بل هي حاثَّة عليه داعية إليه ، والقراءة عمل من أعمال الصلاة .

والصلاة ـ وهي خير ما يتلى فيه القرآن وما يعبر عن إسلامٍ وإيمان ـ هي في الوقت نفسه واسطة بين ما يُتلى من آيات وما يقع في الحياة .

إنها عمل طهور ذو صلة وثيقة بوحي الله وآياته .

فهي ذكر لله دائم لا ينقطع يقيمها من يقيمها فتثمر ثمر خير وطهر وبر ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ .

ومع ما تحققه من طهر في حياة الناس فإنها خير زادٍ لصاحبها ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(٥٤٠) .

---

(٥٤٠) سورة فاطر: ٢٩، ٣٠ .

ألا إن ذكر الله في الصلاة وفي تلاوة القرآن عمل ذو شأن عند الله . ومن داوم على ذكر الله لزم طاعته وآثر رضاه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ .

ومما يدعونا إليه هذا القرآن ـ ونحن نتلوه ـ أن نعلن لأهل الكتاب ما أمرنا أن نعلنه بعد أن نهانا عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن ﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ . نؤمن بإله واحد هو إلهنا و إلهكم ونؤمن بالكتاب كلّه ولا نفرق بين أحد من رسله . فهم جميعا دعاة إلى دين واحد وقد أمروا أن يعبدوا إلها واحدا لا شريك له .

وما أُمرنا أن نقوله وأن نعلنه بارٌّ كريم يوحِّد ولا يفرق يجمع الناس على كلمة سواء .

ومن تدبر ذلك عرف ما للإسلام من فضل في تحقيق العدل والمساواة بين جميع الخلق بلا تفاوت أو تفاضل بسبب جنس أو لون، أو حسب أو نسب .

من تدبر مضمون هذا القول عرف ما يقدمه الإسلام لأمن الناس وسلامهم . وما يفرضه لتعاونهم وبرهم وما يحقق من دفع الشر عنهم و إقامة العدل في ربوعهم . من تدبر وأنصف أيقن أن الإسلام ـ وهو يخاطب الناس بما يخاطبهم به ـ يدعوهم إلى التراحم والتعاون بدافع من يقين راشدٍ في نفوسهم أنهم محاسبون عند الله على نياتهم وأعمالهم ليكون تواصلهم برًّا خالصا من المن والأذى وتعاونهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ ﴾[٥٤١] .

٩٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ

(٥٤١) سورة المؤمنون : ٦٠ ، ٦١ .

مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٥٤٢).

في حديث القرآن هنا بيان لسنة الله في إرسال الرسل و إنزال الكتاب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ . فالسنة واحدة لا تتبدل . فعلى الطريقة التي يوحي الله بها إلى رسله أنزل إليك هذا الكتاب، وهو يدعو إلى ما دعا إليه الرسل من قبل .

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾ .

إن القرآن الكريم قد جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب فلا خفاء فيما تضمنه ودعا إليه فالذين آتيناهم الكتاب من قبله منهم من يؤمن بما جاء فيه ومنهم من يجحد فينكر الشيء بعد معرفته. وكذلك هؤلاء المشركون، منهم من يؤمن بالحق ومنهم من يجحده بعد معرفته. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي المتوغلون في الكفر المصمِّمون عليه بعد بيان الحق وظهوره. وهؤلاء وأولئك قد انقطعت حجتهم بعدما تبين لهم الرشد من الغي. إن الحق لا تخفى دلالته، والكارِهُ له لا تنفعه موعظته.

إن إنزال الكتاب على النبي الأمي لايدع مجالاً لشبهة منكر أو ارتياب مرتاب.

فرسول الله ﷺ قد عاش بين القوم فترة طويلة من حياته وهم يعرفونه. ويعرفون أنه لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يُعجز الكاتبين القارئين فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٥٤٣).

---

(٥٤٢) سورة العنكبوت: ٤٧ـ ٤٩.

(٥٤٣) سورة يونس: ١٦.

إنه الوحي وإنه الرسول، كل شيء من أمره يقدم الدليل على صدقه وحقيقة رسالته: الكتب المنزلة من قبله، وما اختصه الله به من صفات وأخلاق، وما جاء به من الحق، كل ذلك فيه دلالة بيّنة على الرسالة والرسول ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

إن الحديث عن الرسول ﷺ قد سبق بعثته، وحملته الكتب المنزلة من قبل وبشّرت به، وانتقلت البشرى من جيل إلى جيل إلى أن أشرقت شمس هدايته فآمن به من آمن من أهل الكتاب، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. والقرآن الكريم - وهو يتلى على العالمين - يخاطبهم بهذه الحقيقة ويبين لهم حقيقة الرسالة والرسول ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥٤٤).

---

(٥٤٤) سورة الأعراف: ١٥٧، ١٥٨.

ذاك هو النداء وما جاء فيه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ . يصدع القرآن به ويسمع الوجود كله وذاك هو الحق الذي لا خفاء ولا إبهام فيه .

ومن جحد الحق خسر وضل ، ولا مفر له من حساب وجزاء ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[٥٤٥]. الحق بيّن واضح . وهو معلوم ومحفوظ . آيات بينات ، ودلائل واضحات في صدور الذين وهب الله لهم العلم ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ . ليس مما يرتاب فيه لكونه في الصدور وكونه محفوظا لا يقدر أحد على تحريفه أو تغييره .

فمن جحده فقد ظلم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومن ظَلَم أُخذ بظلمه .

وترى هؤلاء في حسرتهم وندمهم يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا بعد مفارقتها ليؤمنوا بالحق الذي أنكروه وجحدوه قائلين وقد رأوا العذاب : ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ولن يعودوا إلى الدنيا ، ولن ينفعهم إيمان بعد فوات الأوان .

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[٥٤٦].

---

(٥٤٥) سورة يونس : ٣٢ .
(٥٤٦) سورة الأنعام : ١٥٨ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة العنكبوت ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٥٤٧).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. قال ذلك كفار مكة للرسول ﷺ لولا أنزل على محمد آية كناقة صالح وعصا موسى. يعنون الخوارق المادية التي صاحبت الرسالات من قبل، والتي لا تقوم حجة إلا على من شاهدها أو عاش في عصرها. ولم يكن الدافع لهم ــ فيما طلبوا ــ الرغبة في الإيمان أو طلب اليقين. ولو كان ذلك لكفاهم ما نزل من القرآن الكريم على النبي الأمي.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

إن الذين يقترحون على الرسول أن يأتيهم من عنده بآيات هم أعرف الناس بسلطان هذا الكتاب ولكنه العناد والجحود يعمي صاحبه عن الحق. وهم كذلك أعلم الناس بصدق النبي المبلغ عن الله. ولكن الجحود يحملهم على العناد والظلم والافتراء. ومن العناد والجحود ما اقترحوه أو طلبوه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهم لم يطلبوا الآيات رغبة في الإيمان ولو رغبوا في الإيمان لكفاهم القرآن. ومثل هؤلاء لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، بل سيراوغون و يكذبون.

ولن تكون الآيات ـ وهم على هذا الحال ـ هداية لهم، بل ستكون وبالاً عليهم مدعاة لهلاكهم. وهذا ما جرى مع من كان قبلهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا

---

(٥٤٧) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢.

جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾(٥٤٨).

إن حديث القرآن عن قوم لا يؤ منون، فيه موعظة وذكرى للمؤمنين.

موعظة تذكرهم بما يجب أن يكـونوا عليه، وتدعوهم إلى الثبات على الحق الذي آمنوا بـه. وما وقع من أهل العناد والجحود ومـا جرى لهم يتلى في آيات ليكون عبرة للأجيال كلها. وكلٌّ سيلقى جزاء عمله.

ولا مساواة في الجزاء بين مفسـد ومصلح وبين تقي وفـاجـر ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٥٤٩).

٩٨

ومن حديث القـرآن عن القرآن ما تضمنـه قوله تعالى في سـورة الروم ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾(٥٥٠).

من رحمة الله بالخلـق أن بين لهم ما يجب أن يكونوا عليـه، وماهم صائرون إليه **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾**.

---

(٥٤٨) سورة الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١.
(٥٤٩) سورة ص: ٢٧ ـ ٢٩.
(٥٥٠) سورة الروم: ٥٨ ـ ٦٠.

لقد أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ وحفظه للأجيال كلّها بلاغا للناس و إنذارًا لهم .

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ .

بيَّنا لهم كلَّ مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول لإيقاظ قلوبهم وعقولهم حتى لا يضلوا الطريق . ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ .

لقد خوطبوا بالبعث ـ وهو حق ـ فاستبعدوه وأنكروه وضرب الله لهم الأمثال التي تريهم ما هم صائرون إليه وقادمون عليه .

بيَّن لهم صفة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم .

بيَّن لهم ذلك كلَّه فأصروا على الكفر والجحود ورمَوا غيرهم بالباطل وهم المبطلون . ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(٥٥١). إن ما أنكروه قد وجدوه . وتضاءل الزمن في حسِّهم حتى غدت السنون الطوال كأنها دقائق وثوان .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾(٥٥٢) إن إنكار البعث إنكارٌ لأمر واقع يرون دلالته في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(٥٥٣) .

---

(٥٥١) سورة الروم : ٥٥ ـ ٥٧ .

(٥٥٢) سورة المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٦ .

(٥٥٣) سورة مريم : ٦٦ ـ ٦٧ .

دليل البعث في خلقهم ولكنهم لا يعلمون.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾(٥٥٤).

لا مجال لاستبعاد البعث وآياته قائمة في الخلق متجددة فيهم ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩ ﴾(٥٥٥).

هكذا يضرب الله للناس الأمثال في هذا القرآن ليوقنوا بالحق الذي خوطبوا به. فلا تصرفهم الرغائب عن العواقب أو تلهيهم العاجلة عن الآخرة. فيخسرون دنياهم وأخراهم.

إن الدنيا المحبوبة المرغوبة لن تجد أمنها وسلامها إلا باليقين بالآخرة والعمل بها. وعمل الآخرة كلُّه برٌّ بدنيا الناس.

إنه الإيمان والعمل الصالح. إنه الصدق والعدل والوفاء والبر.

إن عمل الآخرة أمنٌ وسلام لدنيا الناس ورحمةٌ لهم.

ومن أيقن بالآخرة كف شره عن غيره وقَدَّم خيره.

ومن جحدها فقد التوازن في نفسه فدمَّرها وأفسد ولم يصلح.

إن التنافس المسعور على التكاثر هو نتاج الغفلة عن الآخرة.

وفقدان الأمن في حياة الناس هو نتاج فقدان الإيمان واليقين بالحساب والجزاء. ومن رأى الحياة دنيا فحسب غالَب عليها واتبع هواه.

---

(٥٥٤) سورة الإسراء: ٤٩ ـ ٥١.

(٥٥٥) سورة فصلت: ٣٩.

ومن أيقن بلقاء الله جعل هواه تبعا لما جاء من عند الله .

وشتان ما بين مُتَّبِعٍ لهواه ومتبع للحق الذي جاء من عند الله .

هذا عبدٌ لله . وذاك عبدٌ لشهوته وهواه .

ودنيا الناس ترى هذا وذاك .

ولا خير يُرجى إلا ممن وجل قلبه من الرجوع إلى الله .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٥٥٦) .

إن الله قد أنزل القرآن، وضرب فيه الأمثال للناس، وصرّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا .

والناس منهم الصالحون، ومنهم المفسدون . منهم المتقون ومنهم الفجار. وقد جعل الله بعضهم لبعض فتنة .

وعلى المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يدركوا أن دفعهم لباطل المبطلين لا يكون إلا بالثبات على الحق والاستمساك به والعمل بمقتضاه، والأخذ بكافة الأسباب لنصرته، موقنين أن النصر من الله لا من غيره . وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . وذاك توجيه الله لنبيه وفيه أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ .

٩٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة لقمان ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥٥٧) .

(٥٥٦) سورة المؤمنون : ٦٠ ـ ٦١ .

(٥٥٧) سورة لقمان : ١ ـ ٥ .

إن حديث القرآن هنا فيه بيان لصفات من ينتفع بالقرآن الكريم وهم المحسنون فإن القرآن لهم هدى ورحمة.

وهم يقيمونَ الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم بالآخرة هم يوقنون.

وهذه الصفات دلالة صدق على إيمانهم بما نزل من الحق وحسن صلتهم به. إنهم محسنون، يراقبون الله في السر والعلن ويخلصون القصد له.

ومن كان كذلك اتبع هدى الله في كل حال وراقب الله في جميع الأحوال.

والإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

هؤلاء المحسنون الذين يكون القرآن لهم هدى ورحمة، يجدون في صحبة القرآن راحة وطمأنينة، يطيعون أمره ويجتنبون نهيه، ويدركون أنهم مخاطبون به ومسئولون عنه، وأن نجاتهم في حسن اتباعه.

يؤمنون أن من اهتدى بهداه أفلح وفاز، ومن أعرض عنه ضل في دنياه وخسر في أخراه إنه النور الذي يضيء جوانب حياتهم، ويريهم الأشياء على حقيقتها، ويبصِّرهم بما يجب أن يكونوا عليه.

يرون فيه خلق نبيهم ﷺ، فيقتدون به على علم وبصيرة، وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

إنهم محسنون، وللإحسان منهجه. وللمحسنين صفاتُهم.

فهم أصحاب منهج مستقيم وخلق قويم ويقين راسخ إنهم إلى ربهم راجعون. إن الكتاب الحكيم أفاض عليهم بحكمته، فعلموا وعملوا.

والقرآن نور يهدي به الله من يشاء من عباده.

وله علامة ظاهرة تُعرف في هؤلاء المحسنين. التجافي عن دار الغرور. والإنابة إلى دار الخلود. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾.

ويقينهم بالآخرة يجعلهم يبصرون العاقبة ويعملون لها.

ومن أبصر العواقب لم تلهه الرغائب.

ومن أيقن بما عند الله لم تشغله دنياه عن مرضاة الله، ولم تصرفه العاجلة عن الآخرة، وهم يهتدون بهدى القرآن يحدِّدون موقفهم من كل ما يعرض لهم.

فما أحله القرآن أحلوه لأنفسهم، وما حرّمه اجتنبوه ولم يقتربوا منه. يقول أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ:

«إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمت. فلا تبقى آيةٌ من كتاب الله آمرةٌ أو زاجرةٌ إلا جاءتني تسألني فريضتها. فتسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟ «فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع».

ذاك هو المنهج الذي يُتَّبع في الوقوف عند أمره ونهيه. ولا قبول لعمل يخالفه. فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صوابا. ومن صوابها إلا ما كان خالصا ومن خالصها إلا ما وافق السنَّة.

حسن اتباع وصدق إخلاص. ذاك سبيل المحسنين. الذين يكون القرآن لهم هدى ورحمة: وتلك بشرى القرآن لهم، وإنذاره لمن اتبع غير سبيلهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٥٥٨)

فريقان من الناس. فريق مهتد بالكتاب وآياته، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويوقن بالآخرة. وأولئك هم المفلحون. وفريق يخضع لهواه، ويفني عمره في سُبُلٍ ضالة ولهو عابث، يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله غير آبه بتبديد ماله وضياع وقته وتدمير حياته. وهو مسئول عن عمره: فيم أفناه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ يبذل الثمن الغالي في اللهو الرخيص وأولئك لهم عذاب مهين وأليم.

---

(٥٥٨) سورة الإسراء: ٩ ـ ١٠.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٥٥٩).

صنف جاهل محجوب لا يتصرف عن علم أو حكمة ويضل غيره بلهو عابث ينفق فيه عمره. هذا الفريق لا يسمع آيات الله سماع تدبر، بل يعرض عنها وتشمئز نفسه إذا ذكر الله و إذا ذُكِّر بآيات الله اتخذها هزوا. يستبعد ما هو صائر إليه، ويلهيه الأمل عما يجب أن يكون عليه، مع أن الأجل قريب، ولا يدري أحدٌ من الخلق متى يُدعى فيجيب.

فمن طلب النجاة فذاك هو الطريق.

بيَّنَهُ القرآن، ودعا إليه. ورغّب فيه وهدى إليه.

والسعيد من اهتدى بهداه، والشقي من أعرض عنه واتبع هواه.

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

١٠٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة السجدة ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٥٦٠).

حديث القرآن هنا فيه بيان لحقيقته وأنه ــ لا ريب فيه ـ تنزيل من رب العالمين. فليس أهلا لأن يُرتاب فيه. وكلُّ ما فيه يدل دلالة قاطعة على أنه ليس من كلام البشر. وتقدير الأمر على هذا النحو يلفت النظر إلى ما يجب

---

(٥٥٩) سورة لقمان: ٦ ـ ٧.

(٥٦٠) سورة السجدة: ١ ـ ٣.

على الخلق من صدق التوجه إليه، والاستمساك به، والعمل بما فيه، لأنه خطاب من ربِّ العالمين إلى الناس أجمعين، هداية ورحمة وحجة ومعذرة. فالله عز وجل هو الذي خلق الخلق وأمدهم برزقه وهدايته.

ومن علَّم القرآن هو الذي خلق الإنسان، وهو يعلم من خلق.

وهداية الله للإنسان قد لازمته من بدايته.

فمنذ هبط الإنسان إلى الأرض قد خوطب بآيات الله في نفسه وفي الآفاق. كما خوطب بآياته المنزلة على رسله.

وفاءً بهدايته وتحقيقا لخلافته، وعونا لهُ على استقامته، وبيانًا لما يجب أن يكون عليه في ذات نفسه وفي معاملته لغيره.

ومن تدبر هداية الله رب العالمين للناس أجمعين في أنفسهم وفيما يحتاجون إليه في حياتهم، وعرف نعمته السابغة في كل شيء طابت نفسه بهداية الله فيما أنزل من كتاب وأرسل من رسول، وعلم أن لا صلاح للنفس البشرية إلا بما هدى الله به. فهو الذي خلقها وهو أعلم بما يصلحها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وقد يعجب الإنسان من أولئك الذين تقوم حياتهم على ما سخر الله لهم، وما أنزل من رزقه ثم تُغْلَقُ عقولهم عما أنزل وتعمى أبصارهم عما هدى به وبصّر.

أي شيء في شئون الخلق يَنِدُّ عن تسخير الله له؟ بل أي نعمة يمكن إرجاعها لغير فضله ورحمته؟

أليْسَ من النَّشاز أن يُرى في الخلق من يجادل في آيات الله وهو محاط بها وهي قائمة وسابغة عليه ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾(٥٦١).

ذاك حديث القرآن. وهذا بيان فيما يئول إليه حال أولئك الذين تضيق نفوسهم بما نزل من الحق، ويأبون إلا معارضته ومخاصمته، وفي البيان إعذار وإنذار.

لقد قال الكفار في شأن القرآن ما قالوا وزعموا ما زعموا متعنتين مكابرين. وهم يعلمون بطلان ما زعموا. قالوا قولا باطلا عما يعلمون أنه الحق. قالوا عن القرآن مفترى وهو يهديهم. وعن الرسول قد افتراه، وهو يدعوهم ويحرص على هدايتهم. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿بل هو الحق من ربك﴾.

هذا الحق الذي يجحدونه - وقد تفجرت به ينابيع المعرفة - قد أنزل على النبي الأمي الذي لم يكتب يوما ولم يقرأ. وهم يعلمون ذلك.

وكانت هذه وحدها كافيةً في الإذعان للحق والاهتداء به.

فليس للأمر من تفسير إلا أن هذا الكتاب تنزيل من رب العالمين.

إنه القرآن المعجز في حقيقته، المعجز في إنزاله على النبي الأمي ﷺ ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥٦٢).

---

(٥٦١) سورة لقمان: ٢٠ - ٢٤.

(٥٦٢) سورة يونس: ٣٧.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة السجدة ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥٦٣) وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (٥٦٤).

موقفان متباينان لفريقين من الناس.

فريق آمن بآيات ربه، وفريق أعرض ونأى بجانبه. ولا يستويان في عمل أو جزاء. ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ (٥٦٥).

فريقان يمران بدنيا الناس.

فريق ترى الدنيا منه طُهرًا وبرًّا واستقامة وخيرا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وفريق ترى الدنيا منه صَلَفًا وكبرا وعتوًّا وظلما، يطلب الاستعلاء في الأرض فيفسد فيها وينسى أنه مفارقها. وأن الأرض التي مشى مَرحًا على ظهرها ستطويه يوما في بطنها وديعةً تخرجه للحساب حين يؤذن لها، وتحدث بما عمل عليها وأساء فيها ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (٥٦٦).

(٥٦٣) سورة السجدة: ١٥.

(٥٦٤) سورة السجدة: ٢٢.

(٥٦٥) سورة السجدة: ١٨ ـ ٢٠.

(٥٦٦) سورة الزلزلة.

فريقان يخبر القرآن عنهما ويرينا صفات كلٍّ منهما. بل يرينا العاقبة لمن عمل خيرا ومن عمل شرًّا، يرينا الشرفاء الكرماء من أهل الإيمان وقد أفلحوا وسعدوا، ويرينا المتكبرين من المجرمين وقد خسِرُوا وشقُوا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(٥٦٧).

ومن قبل قد أنكروا ما صاروا إليه وكذبوا بما أخبروا به ونسوا لقاء ربهم فأجرموا وأفسدوا وضلوا ﴿**فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون**﴾(٥٦٨) ومن هنا يُعْلم أن القرآن الذي يخاطب به الناس في دنياهم ليس أعزل من قوة تحميه وتحقق وعده ووعيده. إنه الحق، والحق من ربك، وربك سميع بصير وهو على كل شيء قدير ﴿**ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون**﴾.

وقد يستبعد ذلك من يستبعد، ممن يلهيهم الأمل، وتصرفهم الرغائب عن العواقب.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾(٥٦٩).

وما فوّت إنسان الإيمان بالحق في دنياه إلا وتمناه في عاقبته وأخراه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٥٧٠).

والعاقل من أحسن التدبر واتبع سبيل المؤمنين.

---

(٥٦٧) سورة السجدة: ١٢.

(٥٦٨) سورة السجدة: ١٤.

(٥٦٩) سورة السجدة: ٢٨ ـ ٣٠.

(٥٧٠) سورة غافر: ٨٤ ـ ٨٥.

والقرآن يذكر ويبصر ويبين ما ينتهي إليـه أمر هؤلاء وأولئك من كذب بالحق وصدف عنـه، ومن آمن به وعمل صـالحا. ليعرف النـاس ما هم صـائرون إليه ومحاسبون به. فليتـدبر من شاء أن يتدبر. وأجل الله إذا جاء لا يـؤخر. ويومئذ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾.

١٠٢

ومن حديث القـرآن عن القرآن ما تضمنـه قوله تعـالى في سورة سبأ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(٥٧١) إن لعلماء التفسير تدبرًا في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

فيرى بعضهم أن قولـه تعالى ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ معطوف على قوله ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

فالرؤية في قوله ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ بمعنى العلم. وهي في مـوضع نصب عطفا على ليجزي. أي ليجزي وليرى.

فالآية على هذا القول مرتبطة بما قبلها من الآيات وليست مستأنفة.

وممن يرى هذا الرأي الإمام الحافظ ابـن كثير في تفسيره حيث يقول: وقوله تعالى ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ هذه حِكْمَةٌ أخرى معطوفةٌ على التى قبلهـا. وهي أن المؤمنين بما أنْزل على الرسل إذا شاهدوا قيامَ الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الـدنيا رأوه حينئذ عينَ اليقين يقولـون يومئذ: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾(٥٧٢). وقال أيضا ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾(٥٧٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٥٧٤).

---

(٥٧١) سورة سبأ: ٦.

(٥٧٢) سورة الأعراف: ٤٣.

(٥٧٣) سورة يس: ٥٢.

(٥٧٤) سورة الروم: ٥٦.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾.

العزيز: هو المنيع الجانب. الذي لا يُغالَبُ ولا يُمَانع. بل قد قهر كلَّ شيء وغلبه. الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعهِ وقَدَرِه. وهو المحمود في ذلك كلِّه جل وعلا. واتصال هذه الآية بما قبلها يدعونا أن نتدبر هذه الآيات لندرك حديث القرآن عن القرآن في هذا المقام ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾(٥٧٥).

فقول الإمام ابن كثير: هذه حكمةٌ أخرى معطوفة على التي قبلها يعني به بيان حكمةِ الله في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾. وقوله ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾. فجمع في الآيات بين حكمتين. حكمة الجزاء وحكمة تحقيق ما أخبر القرآن به وهدى الخلق إليه.

وقول من قال: إن المراد من الآية ثبوت العلم لهم في الدنيا، والعطفُ يقتضي ثبوته لهم في الآخرة وليس مرادًا فالحق هو الاستئناف. يمكن أن يجاب عنه بأن ثبوت العلم لهم في الدنيا قد تحقق والمقام هنا مقام تحقيق ما آمنوا به وعملوا بمقتضاه حيث يُجازى الخلق بمقتضى ما أخبر القرآن به وهدى الناس إليه.

والجزاء في الآخرة يتصل به سرور فريق برؤية الحق الذي آمنوا به.

---

(٥٧٥) سورة سبا: ٣ ـ ٦.

وحسرة فريق برؤيتهم للحق الذي كذبوه وأعرضوا عنه .

ولن يُحجَبَ هؤلاء عن أولئك . بل يطلع كلُّ فريق على ما صار إليه غيره وانتهى إليه ، ويتذاكرون ما كان بينهم في الدنيا ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾(٥٧٦).

أخي المسلم : إن حديث القرآن عن تحقيق ما وعد به ودعا إليه له دلالته في حسن اتباعه والعمل بمقتضاه .

إنه الحق الذي يرى تحقيق خبره في دنيا الناس وآخرتهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾(٥٧٧).

فطوبى لمن أيقن وعمل ، وويل لمن كذب وأعرض .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾(٥٧٨).

١٠٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

(٥٧٦) سورة الصافات : ٥٠ ـ ٦١ .

(٥٧٧) سورة الحاقة : ٤٨ ـ ٥٢ .

(٥٧٨) سورة الجاثية : ٢٧ .

أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٥٧٩).

في حديث القرآن هنا فيه بيان لموقف الكفار من القرآن وما أخبروا به من قيام الساعة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٥٨٠).

أي لكم ميعادٌ مؤجل معدود لا يزاد فيه ولا يُنْقَصُ منه، وإذا جاء لا يؤخَّر ولا يقدَّم. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(٥٨١) إن موقف الكفار من القرآن وما أخبر به من قيام الساعة يقوم على الجحود والاستبعاد. جحود ما نزل من الحق واستبعاد ما أخبر به من قيام الساعة وبَعْثِ الناس من مرقدهم. ولو تدبر هؤلاء في أنفسهم وفي آيات الله من حولهم لما جحدوا أو استبعدوا.

فإن ما أخبر به القرآن يرون صدق دلالته في آيات الله في أنفسهم وفيما خلق في السموات والأرض. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٥٨٢). ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾(٥٨٣).

لو تدبر هؤلاء في خلقهم، وفي آيات الله من حولهم، لما استبعدوا أو عجبوا من إعادة خلقهم إن مَنْ عَجِبَ فلْيعْجب من البداية لا من الإعادة.

---

(٥٧٩) سورة سبأ: ٣١ـ٣٣.
(٥٨٠) سورة سبأ: ٢٩.
(٥٨١) سورة هود: ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٥٨٢) سورة فصلت: ٣٩.
(٥٨٣) سورة مريم: ٦٦ ـ ٦٧.

والبداية يرونها في أنفسهم. وقد أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا شيئا مذكورًا.

وقد جاءوا إلى الدنيا بأمر من الله وسيخرجون منها، ويُعادون ليوم لا ريب فيه بأمره سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٥٨٤).

إن جحود هؤلاء واستبعادهم أمرَ البعث يؤدي إلى اعتقاد باطل وسلوك ضال، إذ يرون الحياة دنيا فحسب فيركنون إليها ويطمئنون بها ويغالبون عليها، ويلهيهم التكاثر فيها. ومن ذلك ما فيه من تدمير للروابط والتراحم وإشاعةٍ للتنازع والتشاحن.

ولا سلام يُرجى لدنيا الناس إلا باليقين بالآخرة والإيمان بما يقع فيها من حساب وجزاء. ولو استبعد الناس ذلك لعاشوا في دنياهم أسرى اعتقادهم أن الخلق عبث وباطل. ومن ظن ذلك عوقب بظنه وأخذ باعتقاده ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٥٨٥).

والسنون الطوال تمضي مسرعة وكأنها دقائق وثوان. ويواجه الجاحدون الحق الذي أنكروه ويبعثون ويحاسبون. وقد مضى ما فيه يؤملون، وبه يتعلقون. مضى وانقضى وكأن لم يَلْبَثُوا في الأرض إلاَّ يوما أو بعض يوم. وهذا ما يقولونه بأنفسهم عندما يجابهون بما كانوا له منكرين ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ﴾(٥٨٦).

---

(٥٨٤) سورة الروم: ٢٧.

(٥٨٥) سورة ص: ٢٧.

(٥٨٦) سورة المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٦.

من هنا يعلم أن الحق الذي خوطب به النـاس في دنياهم ـ وفيه بيان ما يقع في أخراهم ـ رحمة بهم ليسارعوا فى عمل الخيـرات وليعلموا أن ما يعملونه هنا سيجـدونـه حاضـرا هنـاك . ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٥٨٧).

وبنور هذا الكتاب وهداه نستطيع أن نرى ما يصير إليه أولئك السادة والأتباع من المستكبـرين والمستضعفين الذي قـالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

تراهم حين يرون العذاب يتخاصمـون ويتلاومون. حيث لا ينفعهم ندم ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

١٠٤

ومن حديث القـرآن عن القرآن مـا تضمنه قـوله تعالى فـي سورة سبأ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾(٥٨٨).

في هـذه الآيات يخبـر الله تعـالى عن الكفار أنهم يستحقـون منـه العقوبـة والأليم من العـذاب، لأنهم كانـوا إذا تُتْلى عليهم آياتـه بيِّناتٍ يسمعونهـا من لسان رسـول الله ﷺ **﴿قالـوا ما هـذا إلا رجلٌ يريد أن يصـدكم عما كـان يعبد آباؤكم﴾** يَعْنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول ـ في زعمهم ـ باطل **﴿وقالـوا ما هـذا إلا إفك مُفْترًى﴾** يعنون القـرآن الكريم . **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** .

---

(٥٨٧) سورة الكهف : ٤٩ .

(٥٨٨) سورة سبأ : ٤٣ ـ ٤٥ .

قال الله تعالى ﴿**وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير**﴾.

أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن. وما أرسل إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ وقد كانوا يَوَدُّون ذلك ويقولون **لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورًا**.

جاءهم الحق فجحدوا واستكبروا. ومن جحد الحق سيلقى جزاءه. وتلك سنة الله في الأولين وهي ماضية في الآخرين ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(589).

﴿**وكذب الذين من قبلهم**﴾ أي من الأمم الماضية ﴿**وما بلغوا معشار ما آتيناهم**﴾ أي من القوة في الدنيا. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿**فكذبوا رسلي فكيف كان نكير**﴾ كان الدمار والهلاك لكل من كذَّبوا الرسل وجحدوا بآيات الله.

﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾(590).

ذاك حديث القرآن عمن كذب بالحق وأصرَّ واستكبر، وهو حديث يخبر عن السابقين ويحذر اللاحقين ويقدّم الموعظة والذكرى للمؤمنين.

حديث حق وصدق عمن كانوا من قبل. لم تغن عنهم قوتهم شيئًا، ولم تدفع عنهم ما وقع بهم من عذاب، بل دمَّر الله عليهم لمَّا كذبوا رسله ﴿**فكلًّا أخذنا بذنبه**﴾.

حديث حق وصدق يُتْلى على الناس إنذارًا وتحذيرًا من سوء العاقبة والمصير.

---

(589) سورة فاطر: 43.

(590) سورة الاحقاف: 26.

وهو حديث له دلالته في تبصرة النـاس وتذكرتهم. ليعلموا أن هذا الحديث وإن كان عن أمم مـاضية لكنَّـه يحمل إلى الأجيال كلِّهـا سُننًا باقيـة مضت في الأولين وتمضي في اللاحقين المكذبين.

ومن أجل ذلك حفظ القرآن وبقي محفـوظا يقدم العبرة والمـوعظة والتبصرة والذكرى فمن اتبع هداه فاز ونجا، ومن أعرض خسر وهلك.

وسيبقى القرآن بعزته نورًا للحياة وهدى للأحياء.

فمن أبى النور فإلى النار مصيره. ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾.

١٠٥

ومن حديـث القرآن عن القرآن مـا تضمنه قـوله تعـالى في سورة فـاطر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾(٥٩١)

إن من أعظم نعم الله على الخلق أن حفظ هـذا الـذكر وصـانه من التبـديل والتحـريف لتبقى كلمة الحق لـلأجيال كلهـا تُـرشد وتـذكر وتهـدي للتي هي أقوم.

وللقرآن بُشراه وله إنذاره وتحذيره.

ومن بشراه ما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾.

يخبر الله عباده المـؤمنين ـ الذين يتلـون كتاب الله ويؤمنون بـه ويعملون بما فيه من إقـامِ الصلاة، والإنفـاق مما رزقهم الله سرًّا وعـلانية ــ بأن تجارتهم لن تبور.

﴿**يرجون تجارة لن تبور**﴾ أي يرجون ثوابا عنـد الله لا بُدَّ من حصوله. ولهذا قال: ﴿**ليوفيهم أجـورهم ويزيـدهم من فضله**﴾ أي ليوفيهـم ثواب مـا عملوا

(٥٩١) سورة فاطر: ٢٩ ـ ٣٠.

ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر على بالهم. ﴿**إنه غفور**﴾ لذنوبهم ﴿**شكور**﴾ للقليل من أعمالهم. تلك بشرى القرآن لمن يتلوه ويعمل بمقتضاه. ﴿**يرجون تجارة لن تبور**﴾.

إنها أربح تجارة مؤدية إلى أفضل عاقبةٍ وأكرم مصير.

الله سبحانه يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكر العبادُ لِلَّهِ حسنَ العطاء. ذاك حديث القرآن عمن يتلونه وما يرجونه من تلاوته وما ينتظرهم من جزاء وعطاء. ﴿**يرجون تجارة لن تبور**﴾.

تجارة تبقى ولا تزول. وتنمو ولا يتوقف نماؤها. تجارة مضمونة الربح، مصونة من الهلاك والكساد.

تجارة يعاملون فيها الله وحده، ويتاجرون بها في الآخرة.

إنها تجارة منجية مربحة. يدل القرآن عليها. ويدعو الناسَ إليها. ويرشدهم إلى صفات أهلها. ﴿**يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية**﴾ تجارة لا عسر فيها ولا حرج. رأس مالها صفاتُ أهلها.

وهي صفات بارة راشدة. وكم من تاجرٍ رابح بصفاته وأخلاقه.

يحسن عمله ويرجو رحمة ربه. وتاجرٍ له بضاعةٌ تهلك وتبور. تلك تجارة الذين لا يرجون لقاء الله وقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وشُغِلوا عن الآخرة والإعداد لها. وأعرضوا عن ذكر الله، فلم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة.

وأولئك في بوار ودمار وخسران وهلاك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٥٩٢] ومن تدبر أمر هؤلاء وأولئك ـ أولئك الذين يرجون

---

(٥٩٢) سورة يونس: ٧، ٨.

تجارة لن تبور. والذين يؤخذون بتجارة تهلـك وتبور ـ ونظر إلى العواقب آثر ما لا يبـور على ما يهلك ويبـور. وكل تجارة لا تقـوم على الإيمان بـالله ورسولـه والجهاد بالأموال والأنفس في سبيله تجارة تهلك وتبور.

ولن يَنْجُوَ من بوارٍ إلا من عرف للآخرة قدرها وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

وسعي الآخرة زكاة لأنفسنا وأمن لدنيانا وتوثيق لروابطنا.

ومن تدبر صفات الـذين يرجون تجارة لن تبور عرف ما تـؤديه هذه الصفات في دنيـا الناس من خيـرٍ وبـر. تلاوة قـرآن، وإقامـة صـلاة، وإنفاق في سـرٍّ وعلن. إن ما لا يبـور جديـر أن تتعلق به النفـوس وأن تحرص عليـه. ومن بارَ عملُـه بطل ولم يُقْبل. ومن بـدَّل نعمـة الله كفرًا أحـلَّ نفسه مع من مَـاثَلَـهُ دار البوار.

﴿جهنم يصلونها وبئس القرار﴾.

فلنتـدبر حـديث القـرآن عمن يرجـون تجـارة لن تبـور، ولنعرف صفـاتهم، ولنعمل على أن نكون منهم. ولنحذر أن يشغلنا عاجل عن آجل، أو يفتننا فانٍ عن باق، أو تلهينا رغائب عن عواقب. فإن ما بأيدينا ذاهب وما عند الله باق.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٥٩٣).

١٠٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فاطر ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(٥٩٤).

---

(٥٩٣) سورة النحل: ٩٧.

(٥٩٤) سورة فاطر: ٣١ـ٣٢.

لقد اصطفى الله الأمة الإسلامية ليورثّها هذا الكتاب. وهو شرف لا يدانيه شرف، يقابله مسئولية وتبعة. ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون﴾. إن الله قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء. ثم أكرمها بفضله في حسن الجزاء.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٥٩٥].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: «هم أمة محمد ﷺ ورثّهم الله تعالى كلّ كتاب أنزله. فظالمهم يُغْفَرُ له، ومُقْتَصِدهم يحاسب حسابا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب».

والظالم لنفسه: هو المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد: هو المؤدي الواجبات التارك المحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات والسابق بالخيرات بإذن الله: هو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات. وهذه الأنواع هم من هذه الأمة التى اصطفاها الله فورثّها هذا الكتاب الذي أنزله بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

كما قال الله عز وجل ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. فقد ورثّها الله بهذا الكتاب المهيمن كلّ كتاب.

فهي أمة الرسل جميعا تؤمن بهم ولا تفرق وتقتدي بهداهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ

(٥٩٥) سورة فاطر: ٣٢ - ٣٥.

﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[596] روى الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾** فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا. وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته. فهم الذين يقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

إن هؤلاء الذين اصطفاهم الله من عباده، وأورثُوا الكتاب المنزَّل على نبيِّه مأواهم يوم القيامة جناتُ عدن يدخلونها.

نعمة اصطفاء ونعمة جزاء لأمة أورثت الكتاب الذي أنزل بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب. فآمنت بما نزل من الحق على أيِّ رسول من رسل الله ولم تفرق بين أحد من رسله. آمنت بالله وحده ولم تشرك به شيئا. وآمنت بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. إن هذه الأمة التى بيَّن معالمها هذا الكتاب جديرةٌ أن تعلِنَ إيمانَها ليكون أصلاً في وحدة الإنسانية وأمنها وسلامها.

إنها بدينها أمةُ عدل توحِّد في إيمانها بين رسل الله ولا تفرق. وتقوم بالقسط دون تفرقة بين عدو وصديق وقريب وبعيد.

تُلَبِّي نداء ربها فتنصف المظلوم ولو كان من غيرها، وتأخذ على يد الظالم ولو كان منها.

وهذا نداء الله للمؤمنين بما نزل من الحق وأمره لهم **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ**

(٥٩٦) سورة النساء: ١٥٢.

﴿ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾(٥٩٧) نداء للمؤمنين وأمرٌ لهم أن يكونوا مع الحق حيث كان وأن يلزموا العدل مع كافة الخلق دون تفرقة بين جنس وجنس أو لون ولون. ودون محاباة لقريب أو صديق. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٥٩٨).

إن الأمة التى ورّثها الله الكتاب هي أمة رسالة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. وهذه الأمة جديرةٌ أن تُعان على رسالتها من كل راغبٍ في الحق مؤثرٍ للعدل.

وفقدان هذه الأمة أو غيابها خسارة للعالم كلِّه.

وكل من لبّى نداء الله وآمن بما نزل من الحق هو منها في ماضي الحياة وحاضرها ومستقبلها. إنها ـ وفيها الحق ـ ليست زبدًا طافيا يذهب جفاءً، وإنما هي معدن أصيل ينفع الناس فيمكث في الأرض.

ومن حفظ لها هذا الكتاب حفظ لها أسباب البقاء إلى أن تقوم الساعة.

إن شمس دينها لن تغيب. إن بارحت رءوس قوم أنارت عند آخرين ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَـٰلَكُم﴾(٥٩٩).

---

(٥٩٧) سورة النساء: ١٣٥.

(٥٩٨) سورة المائدة: ٨.

(٥٩٩) سورة محمد: ٣٨.



حديث القرآن عن القرآن

في آيات من :

١ ـ سورة يس
٢ ـ سورة ص
٣ ـ سورة الزمر
٤ ـ سورة غافر
٥ ـ سورة فصلت
٦ ـ سورة الشورى
٧ ـ سورة الزخرف
٨ ـ سورة الدخان
٩ ـ سورة الجاثية
١٠ ـ سورة الأحقاف
١١ ـ سورة محمد
١٢ ـ سورة «ق»
١٣ ـ سورة الطور
١٤ ـ سورة القمر
١٥ ـ سورة الرحمن
١٦ ـ سورة الواقعة
١٧ ـ سورة الحديد



ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قولـه تعالى في سورة يس ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٦٠٠).

في هذه الآيـات جاء الحـديث عن القرآن في سياق مخـاطبة الـرسول ﷺ. جـاء مُقْسَمًا بـه على إثباتِ رسـالةِ من نـزِّل عليه. تنـويهًا بعظم شأن المنـزَّل والمنـزَّل عليه، وتنبيهـا إلى حسن الاتباع. اتبـاع المنزَّل والمنـزَّل عليه. وهـو القرآن الكريم والرسول ﷺ.

فالقرآن منزَّلٌ من عند الله ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

والرسول ﷺ مرسلٌ من الله ليبلغ ما نزِّل إليه من ربه.

فالقسم بـالقرآن أن محمـدًا ﷺ رسولُ الله يلفت النظر إلـى عِظَم المُقْسم به والمقسم عليـه، وأنه ذو مكانـةٍ وشأن يجب أن يُتَّبع وأن يستجَـاب لما يـدعو إليه. فإنه على صـراط مستقيم لا ميل فيه ولا عوج ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ ووصفُ القرآن بـالحكيم له دلالته في الأخـذ بحكمته واتبـاع هدايته. والقسم بـالقرآن الحكيم على حقيقـة الـوحي والـرسـالـة وأن محمـدًا رسـول الله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وتأكيـد الأمر على هـذا النحو ـ بـالقسم وإنَّ واللاَّم واسمية الجملة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ومخاطبة الرسول ﷺ بذلك دون تـوجيه الخطـاب إلى غيـره ـــ فيه مـا فيـه من التكريـم للمخاطب، وإشعـار المكذبين بما له عنـد الله من عناية وتكريم، وأن من كذَّبـه أو عاداه وجحد ما جاء به فقد عادى الله الذي اصطفاه واختاره ليكون رسولا للعالمين، ومن عاداه وجحد بما جاء به فقد مال عن الصراط المستقيم.

---

(٦٠٠) سورة يس: ١ ـ ٦.

ولا استقامة إلا في اتباعه. ولا نجاة من ضلال وخسران إلاَّ بطاعته والاعتصام بما جاء به. ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٦٠١).

والقرآن الكريم يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وحيثما اهتدى الإنسان به وجد هذه الاستقامة سواء في دعوته أو في تزكيته للنفس، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. وفي حكمه بين الخلق بالعدل دون تفرقة بين من عاداه أو آمن به. في كل شأن يهدي للتي هي أقوم. ذلك لأنه تنزيل من العزيز الرحيم. وهذا الوصفان يدُلَّان على أن ما نزل من الحق رحمةٌ بالخلق. وما أرسل الله الرسول إلاَّ رحمةً للعالمين. وأن هذا الحق ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده.

فإنه منزل من العزيز في ملكه، القوي الذي يفعل ما يريد، ولا يعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض. وهو غني عن العالمين. ولا تضره معصية من عصاه. ولا تنفعه طاعةُ من أطاع.

وإدراك الأمر على هذا النحو يجعل الإنسان يشعر بحاجته إليه وأن ما يأتيه من هداية ورحمة محض فضلٍ من الله ورحمة. وأن الرسول الذي أرسله لا يسأل الله أجرا على ما يهديهم إليه ويدعوهم إليه.

وما من رسول إلاَّ ويؤمر أن يقول لقومه ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

والرسول الخاتم ﷺ يخاطب الناس بما أمِرَ أن يخاطبهم به ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾(٦٠٢) من هنا يُعْلَم أن ما يُرْحَمُ الناسُ به من الحق ليس أعْزَلَ من قوة

---

(٦٠١) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٦٠٢) سورة ص: ٨٦ ـ ٨٨.

تحاسب عليه وتؤاخذ من كفر به وصدَّ عنه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

ذاك ما يوحي به وصْفُ مَنْ أنزله سبحانه في قوله ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾.

فالجمع بين الوصفين جمع بين الرحمة والعزة. فمن أبى الرحمة في حسن الاستجابة لهدايته فليعلم بأن الله ﴿الرحمن الرحيم﴾ قوى شديد العقاب، وأن الخلق جميعا عائدون إليه ومحاسبون بين يديه. وهو عليم بما يسرون وما يعلنون. ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦٠٣].

فليبشِّر القرآن ولينذر. وبشراه وعدٌ من الرحمن الرحيم، ولن يخلف الله وعده.

وإنذاره حق واقع ما له من دافع.

وليختر الناس لأنفسهم، وليعلموا أن لا شيء من أمرهم يخفى على خالقهم.

فليخلصوا القصد له، وليحسنوا، وليحذروا جحود آياته ونكران نعمته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥٩٤] فلنتدبر حديث القرآن عن القرآن وما يدل عليه وما يدعو إليه.

ففي حديث القرآن عن القرآن بيان لهدايته ومقاصده، ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به. وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

---

(٦٠٣) سورة غافر: ١ ـ ٣.

(٦٠٤) سورة فصلت: ٤٠ ـ ٤٢.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يس ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾(٦٠٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه ردٌّ على أولئك الذين وصفوا الرسول ﷺ بأنه شاعر، ووصفوا القرآن الذي أنزل عليه بأنه شعر.

والذين قالوا ذلك يوقنون أن الأمر ليس كما قالوا وهم يفرقون بين القرآن والشعر، وما يخفى عليهم ذلك، بل هُمْ أعرف الناس بذلك.

ويعلمون أن ما جاءهم به محمد ﷺ غيْرُ معهود لديهم في شعرهم أو قولهم. والله عز وجل ينفي أنه علم الرسولَ الشعر، وإذا كان الله لم يعلِّمه فلن يَعْلم.

وينفي لِيَاقَةَ الشعر بالرسول ﷺ ﴿**وما ينبغي له**﴾.

فإن الله عز وجل إنما علَّمه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش.

وقد كانت سجِيَّتُه ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعا وشرعا ﴿**وما علمناه الشعر**﴾ يعني محمدا ﷺ ما علَّمه الله الشعر ﴿**وما ينبغي له**﴾ أي وما يصلح له.

﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿**إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ أي بين واضح جليّ لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال الله سبحانه ﴿**لينذر من كان حيًّا**﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كلَّ حيٍّ على وجه الأرض ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٦٠٦) وإنما ينتفع بالقرآن من هو حيٌّ القلب مستنير البصيرة.

---

(٦٠٥) سورة يس: ٦٩ ـ ٧٠.

(٦٠٦) سورة الأنعام: ١٩.

تلك وظيفة القرآن، والناس إزاءه فريقان:

فريق يسمع سماع تدبر ويستجيب لما يدعو إليه فهو حي.

وفريق لا يسمع سماع تدبر ولا يستجيب فهو ميت.

والكفر موت والإيمان حياة.

والذين يستجيبون لما نزل من الحق تتحقق لهم الحياة.

والذين لا يستجيبون لنداء الحق موتى وإن بدا في نظر الناس أنهم أحياء.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾(٦٠٧).

وهذا نداء الله لأهل الإيمان وفيه ما فيه من تبصرة وبيان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾(٦٠٨) ومن الواضح البيِّن أنَّ فِتْنَةً تعم لا تُتوقَّى إلا بحسن الاستجابة لله وللرسول والتعاون على ذلك، واعتصام الأمة بحبل الله دون تفرُّق كما أمر الله عز وجل ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾. وإن أبى الناس إلاَّ الإعراض واتباع الباطل وقعت الفتنةُ وعمَّ الفساد.

إن ما دعا القرآن إليه فيه حياةٌ أيُّ حياة، وما حذَّر منه دمارٌ لهم وهلاك وخسران ومن تدبر القرآن الكريم أيقن بذلك وطابت نفسه باتباعه وحسن الاستجابة له.

ومن الخطأ البيِّن أن يُظَنَّ أن دنيا الناس يمكن أن يستقيم فيها أمن أو يتحقق سلْم دون خضوع لمواثيق الحق والعدل، واستجابة لما يحقق ذلك في حياة الناس وروابطهم.

---

(٦٠٧) سورة الأنعام: ٣٦.

(٦٠٨) سورة الأنفال: ٢٤ ـ ٢٥.

والحق لا يخضع لشهوات النـاس ولا يتبع أهـواءهم ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(٦٠٩).

لا بـد أن يُستَجـاب للحق وأن يُسْمَعَ نـداؤه لتسلـم حيـاةُ النـاس من الظلم والبغي والفساد، وليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ودمائهم وأعراضهم.

إن الاستجابة لنداء الحق حياة للناس أي حيـاة. والقرآن ذِكْرٌ. يبصِّر ويذكر يتلوه اللسان ويذكره القلب ﴿ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ والرسول ﷺ يُذكِّر به وينذر ويبشر ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٦١٠).

وهو محفوظ بحفظ الله لا يطفأ نوره ولا يتوقف مدُّه، ولا يَنْفَدُ عطاؤه.

وقد أمر الرسول ﷺ بالاستمسـاك به والدعوة إليه ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(٦١١).

ومن رحمـة الله بالخلق أن جعل لهم فيـه ﷺ أسوة حسنـةً. يرون منـه كيف يكون القرآن وكيف يُتْلى قولا وعملا وسلوكا. وقد كان القرآن خُلقًا له. ولا أبلغ من ذلك ولا أكمل، أن يُحفَظَ القـرآن وأن يُـرى بيـانُـه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

١٠٩

ومن حديث القـرآن عن القرآن مـا تضمنته هذه الآيـات من سورة ص ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ

---

(٦٠٩) سورة المؤمنون: ٧١.

(٦١٠) سورة ق: ٤٥.

(٦١١) سورة الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤.

مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾(٦١٢).

لقد تحدثت هذه الآيات عن القرآن ذي الذكر. وبيَّنت موقف الكفار منه ومِمَّنْ أنزل عليه ﷺ. وجاء الحديث عن القرآن في أسلوب القسم به دلالة على عظم شأنه وعُلُوِّ مكانته وعظيم نفعه ﴿**والقرآن ذي الذكر**﴾. أي المشتمل على ما فيه ذكرٌ للعباد ونَفْعٌ لهم في المعاش والمعاد. أو ذي الشرف والشأن والمكانة. فهو كتاب شريف مشتمل على التذكير والهدى والبيان. فإعراض الكفار عنه ليس لعلَّة فيه بل لعلل في نفوسهم ﴿**بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ أي إن هذا القرآن لَذِكرٌ لمن يتذكر وهدًى لمن اهتدى به، وإنما لم ينتفع الكفار به لأنهم في ﴿**عِزَّةٍ**﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿**وشقاق**﴾ أي مخالفة له ومعاندةٍ ومفارقة. ومن عادى الحق حُرِم هدايته، ومن تكبَّر عنه وخالفه وعانده لقي ما يلقاه المعاندون المتكبرون. ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص**﴾ إن من الناس ناسًا لا يُذْعنون للحق إلاَّ إذا وافق ما تهواه نفوسهم دون نظر لما هم صائرون إليه ومحاسبون عليه.

إنهم أسرى ما وجدوا عليه آباءهم دون تدبر لحقيقة ما هم عليه.

وإذا خوطبوا بما يخالفه ودعوا إلى التفكير فيما يوعظون به لَوَّوْا رءوسهم وأصروا على باطلهم واستكبروا استكبارًا.

إنهم يعرفون الحق ولا يجهلونه، ويعرفون من يدعوهم إليه ويصدقونه في أنفسهم ولا يكذبونه. ولكنَّ حميَّة الجاهلية تحملهم على جحود ما

---

(٦١٢) سورة ص: ١ - ١١.

يستيقنـون، وتدعـوهم إلى مخالفـة من يوقنـون بأمانتـه وصدقـه ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ ﴾

إنهم قد أجمعوا من قبل على أن محمدًا ﷺ هو الصادق الأمين.

فلمـا دعاهم إلى قـول «لا إله إلا الله» نفضـوا ثيـابهم وولّوا مستكبـرين وهم يقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ ﴾ ﴿ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ يعنون النصرانية. قالوا لو كان هذا القرآن حقًّا أخبرتنا به النصارى ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ وقالـوا عن الصادق الأمين ﷺ ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ ﴾ يعنون أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن من بينهم. وفيهم من يرونه أحق بذلك منه في زعمهم.

والأحقية عندهم مقياسها في مقدار ما يملك الإنسان من شاةٍ وبعير ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾(٦١٣).

قـالـوا ذلك وكأن الأمـر مـردودٌ إليهم ومتـروك لهم. والله أعلم حيث يجعل رسالتـه. فإنه فضل يؤتيه من يشـاء. وقد جعلها سبحانـه في أزكى الخلق قلبا وأشرفهم بيتا وأحسنهم خلقا وأطهرهم نفسا.

والقوم لو رغبوا في الحق لما كابروا في الاستجابة لمن اختاره الله واصطفاه.

وهم يأتمنـونه فيمـا بينهم على مـا لا يأتمنون عليـه أنفسهم. اعترافـا منهم بكامل أمـانته وصدقـه. ويعلمون أن ما يُتْلى عليهـم لم يكن له فيه سـابق قول

---

(٦١٣) سورة الزخرف: ٣١ـ٣٢.

وقد لبث فيهم عمرا من قبله، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه. وليس هو ﷺ ممن يفتري الكذب على الناس فكيف يَتَقَوَّلُ على الله.

ما يتلى عليهم إن هو إلا وحي يوحى ولو شاء الله ما تلاه عليهم.

القوم يعرفون ذلك، ولا يكذبون الرسول ﷺ، ولكنهم بآيات الله يجحدون.

إن حديث القرآن عن هؤلاء ليس حديثا عن أمم غابرة وإنما هو تذكير بسنن عامّة باقية مضت في الأولين وتمضي في اللاحقين. من عادى الحق حرم هدايته، ومن كذب بالحق اضطرب أمره وساءت عاقبته. ولا نجاة إلاَّ بالإيمان بما نزل من الحق والاعتصام به.

والقرآن الكريم يخاطب الناس بهذه السنن ويريهم إيَّاها في أمم قد خلت وآيات في الأنفس وفي الآفاق. إن عذابًا قد وقع على المكذبين من قبل وحاق بهم ما أخبر القرآن به. وفي ذلك بيانٌ للناس أجمعين وهدى وموعظةٌ للمتقين.

١١٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة ص ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (٦١٤).

وهذه الآية قد سبقت بقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ (٦١٥).

ومن تدبر حكمة الخلق عرف ما للكتاب المنزَّل من فضل واستمسك به وعمل بمقتضاه. والإنسان يَمُرّ بمراحل ليس الموت خاتمتها وإنما هو خاتمة مرحلةٍ تتبعها أخرى. وأخطرُ مراحلهِ أولُها؛ لأن ما بعدها ثمرة لما كان فيها. ويجني الفتى من بعد ما هو غارس.

---

(٦١٤) سورة ص: ٢٩.

(٦١٥) سورة ص: ٢٧ـ٢٨.

مرحلة الحياة الدنيا هي أخطر المراحل.

ومرحلة الموت ينقطع بها العمل ويستقبل الجزاء ويرى الإنسان ما قدمت يداه فمن عمل في دنياه خيرًا لقي خيرا ومن عمل شرًّا رآه كما عمل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ومن رحمة الله بالخلق أن أنزل هذا الكتاب المبارك وحفظه. ليعرف الناس به الحق من الباطل، وليزنوا جميع أمورهم بميزان الله وليهتدوا بهداه.

والله عز وجل لم يخلق الخلق عبثا ولا باطلا. وإنما خلق الخلق لحكمة عالية وغاية باقية. خلقهم ليعبدوه ويوحِّدوه وفي ذلك مصلحتهم وسعادتهم. ولا يستوى عنده مفسد ومصلح ومتق وفاجر. لا يستوي من أحسن في دنياه ومن أساء. وكل ذلك مرتبط بما خُلِقُوا له وأنزل الكتاب من أجله.

فبه يعرف المحسنُ إحسانه، والمسيء إساءته ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ والذين يتصورون أنها دنيا فحسب يفسدون ولا يصلحون.

والذين لا يؤمنون بيوم الحساب يرون الحياة عبثا وباطلا.

والذين لا يخضعون هواهم لما نزل من الحق يضلون السبيل. وأولئك لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب.

والكتاب المبارك يرشد ويبصر ويهدي للتي هي أقوم. ويؤتى به يوم القيامة شفيعًا لفريق وحجة على آخرين. وبه يرفع الله أقواما ويضع آخرين.

﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ﴾.

والناس مدعوون لتدبره طلبًا لهداه، مأمورون بتذكره ليكون نورًا لهم في الحياة، يخرجون به من ظلمات الجهل والضلال والظلم والإفك إلى نور المعرفة والحق والعدل والصدق. إنه كتاب مبارك. يعرف بركته من تدبر آياته واهتدى بهداه.

ومن أجل ذلك أنزل وحُفظ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

هـذا الكتاب المبـارك انتقل بالإنسـان من حـدود الدنيـا وضيقها إلى سعـة الآخـرة ونعيمها فجعل من سعي الآخـرة برًّا بـالـدنيا، ومن العمل الصـالح في الدنيا نعيمًا في الآخرة.

فلم يَعُـد الإنسان بفقـه القـرآن حبيس غمٍّ وهمٍّ على فـوات دنياه. أو أسيـر تنافُسٍ مسعـورٍ على حطامهـا، بل غدا بنـورِ القرآن مُـدْركًا حقيقتهـا، مُبْصِرًا غايتها يرى بإيمـانه نعمة ربه فيشكر ولا يكفر. ويعـرف قضاءه وقدره في خلقه وأن لا شيء يقع إلا بإذنه فلا ييأس ولا يقنط. ولا يذل ولا يطغى. وهو يقرأ من آيات هذا الكتاب المبارك ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾[٦١٦].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[٦١٧] هذا الكتـاب المبارك هـو الذي فتح أبـواب التنافس علـى الخير الكثير والفوز العظيم.

فجعل الإنسان يرجو الفردوس الأعلى وهو يمشي بين الناس في الأرض.

ويقوم إلى جنة عرضها السموات والأرض وهو يجاهد لإعلاء كلمة الله.

هذا الكتاب المبـارك هو الذي يَئِدُ نيَّةَ السوء في نفس الإنسـان قبل أن تُولد بما عَلَّم الإنسان من صدقِ نيته وشرفِ غايته وخشيته من ربه وابتغاء مرضاته.

فحقق للإنسان أسباب الأمن والسلام بلا تكاليف.

وهل يُطلب الأمن إلاَّ بإيجاد الإنسان الصحيح في خلقـه وإيمانه. الإنسان الذي يكف شرَّه عن غيره ابتغاء مرضاة ربه.

---

(٦١٦) سورة الحديد: ٢٢ ـ ٢٣.

(٦١٧) سورة التغابن: ١١.

ذاك ما توحي بـه آيات هذا الكتاب المبـارك وما تدعو إليـه، فهو مبارك في إصلاح دنيـانا مبـارك في علاج جميـع قضايـانا وإصلاح نفـوسنا. مبـارك في إصلاح ذات بيننا وتحسين روابطنا مبارك في جعلنا نـؤثر العواقب ونؤمن باليوم الآخر، مبارك في تعليمنا ما لم نكن نعلـم ودعوتنا إلى العمل بما نعلم، مبارك في جعل الحق والعـدل أساسا في تعـاملنا، وجعل الإيمـان أصلا في تحقيق الأمن، مبـارك في هدايتنـا بنوره وإدراكنـا لحكمة الخلق وغـاية الـوجود ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٦١٨).

١١١

ومن حديث القرآن عن القرآن مـا تضمنته هذه الآيات من سورة ص ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾(٦١٩) يقـول الله تبارك وتعـالى لنبيـه ﷺ قل يا محمـد لهؤلاء المشـركين ما أسألكم على هـذا البلاغ وهـذا النُّصح أجرا ﴿وما أنـا من المتكلفين﴾ أي وما أزيد على ما أرسلني الله بـه، ولا أبتغي زيادة عليه. بل ما أمرت به أدَّيْته لا أزيد عليه ولا أنقص منـه. وإنما أبتغي بذلك وجه ربِّي والدار الآخرة.

وهذا ردّ القـرآن عليهم حينما طلبـوا من رسول الله أن يأتيهم بشيء مـن عند نفسه، وأن يبدِّل ما جاءهم به. وقد أمر الرسول ﷺ أن يبلِّغهم أن لا شيء يأتي به من تلقاء نفسـه، وإنما هو الوحي يأتيه من عند ربـه. وأنه ﷺ متَّبعٌ يُبَلِّغُ ما يوحى إليه ولا يخالف أو يفعلُ غير ما أمر الله به.

---

(٦١٨) سورة ص: ٢٧ـ٢٩.
(٦١٩) سورة ص: ٨٦ـ٨٨.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(٦٢٠).

وهذه الحقيقة لها دلالتها في طاعة الرسول ﷺ وحسن اتباعه.

ولها دلالتها أيضا في أن هـذا البلاغ منه ﷺ ليس مجـرد تذكيـر لا حساب عليه.

بل هو الحقُّ الـذي يُثاب عليه كلُّ من آمن بـه وعمل بمقتضاه. ويؤخـذ به كلُّ من كَرِهَهُ أوْ أعرض عنه.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾(٦٢١).

إن حـديث القـرآن ينبئ عن هـذه الحقيقـة ويبصِّـر بهـا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يعني القرآن الكريم فإنـه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن. فمن علم بـه ــ وقد تبين له الهدى ـ حُوسِبَ عليه إن هو تولَّى أو أعرض عنه ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي خبره وصدقه عن قريب. وكل ما هو آت قريب. والموت آتٍ لا محالة.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾(٦٢٢).

ومن مات دخل في حكم القيـامة، وعند المـوت يأتيه الخبر بما هـو صائر إليه.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ فكل ما أخبـر به القرآن فبشَّر به أو حـذَّر منه حقٌّ يَرى الناسُ تأويله. ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

---

(٦٢٠) سورة يونس: ١٥.
(٦٢١) سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٦.
(٦٢٢) سورة النحل: ٧٧.

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[٦٢٣] وما من شيء أخبر به القرآن إلا ورأى الناس صدقَ خبره.

أخبر في فترة نزوله أن الروم قد غلبت وأنهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلبون في بضع سنين. ورأى الناس صدق ما أخبر به.

أخبر عما يقع لهؤلاء الذين أصروا على كفرهم وصدوا عن سبيل الله ـ وهم عندما أخبر عنهم في قوة، والمؤمنون يومئذ قليلٌ مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ـ ورأى الناس صدق ما أخبر به فلم يعد لدى السامعين شك في صدق خبره ـ وهم يرون هزيمة من أعجبتهم قوتهم وقالوا ـ أو قال شيطانهم ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾. وقد أخبر القرآن بهزيمتهم قبل أن تقع.

هكذا في ثقة يُلْقَى خبرُه ويذكر وعيده وينفذ وعده لمن بشرهم بهزيمة عدوِّهم. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[٦٢٤].

ولو كان من بشر لتخلف الوعد وبطل الوعيد. ولكنه من الله والله بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير. فما يذكّر به القرآن ويبصّر يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأن لا يشكل في تحقيق وعده ووعيده. فلنتدبر حديث القرآن، ولنكن متبعين لهداه. فإنه تنزيل رب العالمين. والناس جميعا عائدون إليه ومنتهون عنده. ولنحذر أن نُشْغَلَ بعاجل عن آجل أو نُصرف بباطل عن حق واقع. أو ننسى ـ ونحن في دنيانا ـ ما نحن قادمون عليه وصائرون إليه.

فإن امتحاننا هنا ودارنا الباقية هناك.

---

(٦٢٣) سورة الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣.

(٦٢٤) سورة القمر: ٤٤ـ ٤٥.

فلنطهّر دنيانا بسعي أخرانا. وما سعي الآخرة في الدنيا إلاَّ أمن لها وبرٌّ بأهلها. فإن سعي الآخرة إيمان وعمل صالح ترجى به رحمة الله. وللدنيا من الإيمان أمنٌ وسلام ومن العمل الصالح ودٌّ وتعاون وصادق بر و إقامة عدل و إحقاق حق.

فلنعمل في دنيانا بذكر أخرانا ولنبتغ فيما آتانا الله الدار الآخرة ولا ننس نصيبنا من الدنيا. ولنَسْتَنِرْ بنور القرآن ولا نكن من الغافلين.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

١١٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾(٦٢٥).

يُخبر الله سبحانه أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عند الله العزيز الحكيم. وفي هذا بيان لحقينة هذا الكتاب وعزَّته ومكانته فهو من الله العزيز الحكيم.

وكفى بذلك تنبيها على علّو مكانته وتحذيرًا من الإعراض عنه أو مخالفته.

فإنه من «الله العزيز» فمن عاداه أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. «الحكيم» فهو جدير أن تتبع حكمته وألا تُهْمَل موعظته، جدير أن يستجاب له وأن تخشع النفوس لحكمته وتخضع لحكمه.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾.

أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه لا شريك ولا عديل.

---

(٦٢٥) سورة الزمر: ١ ـ ٢.

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ فلا يُقبَلُ من العمل إلاَّ ما أخلص منه العاملُ لله وحده لا شريك له . هذه الحقيقة قد أنزل القرآن لتقريرها وأرسل الرسل جميعا من أجلها . وهم جميعا دعاة إليها مؤمنون بها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ هذه الحقيقة هي موطن التكريم للإنسان وحمايته من أمراض النفاق والرياء والذلَّة والمهانة والصغار.

إن الإنسان يعز بعبادة ربّه ويسمو بصدق معرفته والإخلاص له ﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾[٦٢٦] ذاك ما كان الرسول ﷺ عليه وما أُمر بالدعوة إليه . وما صدع به وجاهد في سبيله . ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٦٢٧].

وذاك هو الإسلام الذي بعث الله الرسل جميعًا دعاةً إليه . وهو ملّة إبراهيم ، وما وصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٦٢٨].

ذاك هو الدين الذي أنزل به القرآن وحفظ ليعلم الناس جميعا حقيقة الدين وأن الرسل جميعا دعاةٌ إليه لا إلى غيره . وهو يبين حقيقة الدين كما جاء من

---

(٦٢٦) سورة الزمر: ١١ ـ ١٤ .

(٦٢٧) سورة الزمر: ٦٤ ـ ٦٦ .

(٦٢٨) سورة البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣ .

عند الله ـ تنزيل العزيز الحكيم . فلا مجال لأحد أن يفلت من عقابه أو يفر من لقائه إن هو مال عن هذا الدين أو ابتغى غيره ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٦٢٩) وهذه الحقيقة جديرة أن تبيَّن وأن يعلمها الناس جميعا .

فإن فيها أمنهم وسلامهم وخيرهم في دنياهم وأخراهم .

ذلك أنها ـ وهي تدعو إلى الإخلاص لله ـ لا تجعل لأحدٍ فضلا على أحدٍ إلا بتقواه ولا تقبل أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابًا من دون الله .

ذاك ما نزل الكتاب لتقريره وأرسل الرسول ﷺ لتبليغه : توحيد الله و إفراده بالعبادة و إخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك والبراءة منه في أية صورة من صوره ، والاتجاه إليه وحده دون الالتفات إلى غيره .

فالله وحده هو القوي ، وهو القاهر فوق عباده ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾(٦٣٠) .

و إدراك هذه الحقيقة والعمل بها هو السبيل إلى تكريم الإنسان وأمنه وسلامه . هو السبيل إلى تقرير حقوقه وبيان واجباته . هو السبيل إلى عمل الخير والكف عن الشر، بل هو السبيل إلى تراحم الناس ورجاء الرحمة من الله .

وهذا ما نزل القرآن من أجله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٦٣١) .

نسأل الله أن يرزقنا صدق الإخلاص له وحسن التوجه إليه .

ونعوذ به من أن نشرك به شيئًا نعلمه ونستغفره لما لا نعلمه .

---

(٦٢٩) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٦٣٠) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٦٣١) سورة الأنعام : ١٥٥ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٦٣٢).

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربِّه﴾ هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب مجافٍ الحقَّ؟

لا يستويان: ذاك له نورٌ يمشي به في الناس. وهذا متخبط في الظلمات ليس بخارج منها. كما قال الله عز وجل ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(٦٣٣).

ولهذا قال الله تعالى ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفقه ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

ومن تدبر المناسبة بين الآيات أدرك ما بينها من صلاتٍ وعرف ما بها من دلالات. وقد جاءت هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٦٣٤).

فكما يُنزِلُ الله من السماء ماء فيُنْبِت به زرعًا مختلفًا ألوانه.

كذلك قد نزَّل الله من السماء ذكرًا تتلقاه القلوب الحية، فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة حياة. وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا

---

(٦٣٢) سورة الزمر: ٢٢ ـ ٢٣.
(٦٣٣) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٦٣٤) سورة الزمر: ٢١.

لينَ فيهـا ولا حياة. والمنـاسبة بين إنـزال الماء من السمـاء وإنزال القـرآن بيِّنة واضحة. ففي الماء حياةٌ، وفي القرآن حياة.

ولكن شتان مـا بين حياة وحياة. حيـاةٍ تطرأ ولا تدوم. وحيـاةٍ تبقى وتدوم. والمنـاسبة بين الأرض التي تستقبل المـاء وبين القلـوب التي تتلقى هدى بيِّنـةٌ واضحة. فالأرض تتفاوت، والقلوب كذلك.

وقد بيَّن الـرسول ﷺ في الحـديث المتفق عليه عن أبي مـوسى ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: قال النبي ﷺ: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضا فكانت منها طـائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسَقُوْا وزرعـوا. وأصاب طـائفةً منهـا أخرى إنمـا هي قيعان لا تُمسك مـاء ولا تنبت كلأ. فـذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه مـا بعثني الله به فعلم وعلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هدى الله الذي أرسلت به».

وهذا البيـان من رسول الله ﷺ يَدُلُّنـا على ما للغيث من أثـرٍ في حياة الأرض التى قبلته وما لهُدى الله من أثرٍ في القلوب التى فقهته.

وكثيـرًا ما نـرى تجـاور الحـديث عن المـاء وعن القرآن في آيـات من هـذا الكتاب المبين. ليعلم الناس ما بينهما من تناسب وتشابه.

من ذلك مـا جاء في سـورة الزمر مـن قوله تعـالى ﴿**ألم تـر أن الله أنـزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض**﴾ يتجاور معه قوله تعالى ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها**﴾ وبينهما آيـة لها ارتبـاط وثيق بهذه وتلك، وهي قـوله تعالى ﴿**أفمن شرح الله صـدره للإسلام فهو على نـور من ربِّه**﴾. فلِلْماء أرض تتلقاه وللهدى قلوب.

والأرض منها طائفة طيبة تقبل وتنبت ومنها أجادب وقيعان.

والقلوب منها ما يقبل ويثمر ومنها قاسٍ لا يقبل ولا يثمر ومنها ما يعي فينفع غيره ولا ينفع نفسه ﴿**فَوَيْلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾.

وسيظل حديث القرآن يؤدي عمله في حياة النفوس كما يؤدي الماء عمله في حياة الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فلنتعهد بالقرآن قلوبنا ولنلزم به نفوسنا ولنكن معه حيث كان . ولنحذر أن نشغل عنه فإنه رحمةٌ من الله وفضل . وليكن لنا مع أهلنا وأولادنا وِرْدٌ يومي نُنير به بيوتنا ونحفظ أهلنا . فإن الجوف الذي ليس فيه قرآن كالبيت الخرب .

في الحديث المتفق عليه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة . والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» .

وروى الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» .

فاستمسكوا به واعتصموا رعاكم الله وسدَّد خطاكم .

١١٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الزمر ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٦٣٥) . ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بَيَّنَّا لهم بضرب الأمثال ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فإن المثل يُقرِّب المعنى إلى الأذهان كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم﴾ أي تعلمونه من أنفسكم . وقال جل وعلا ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ .

﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ولا لَبْس ولا غموض بل هو بيان ووضوح وبرهان . جعله الله

(٦٣٥) سورة الزمر: ٢٧ـ٢٨ .

كذلك وأنزله بذلك ﴿لعلهم يتقون﴾ أي يحذرون ما فيه مـن الوعيد، ويعلمون بما فيه ويتقون مُخالفته أو الإعراض عنه.

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾.

ومما ضربه الله من مثل في هذه السورة، سـورة الزمر هذه الآية ضُربت مثلا للمشرك والمخلص ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٦٣٦).

عبدٌ مشترك بين شركاء متنازعين. وآخـر سالمٌ لرجلٍ خالصٌ لا يملكه أحدٌ غيره هل يستويـان؟ لا يستوي هذا وذاك. فالذي يخضع لسيـد واحد ينعم بما لا ينعم بـه من يخضع لسـادة متشـاكسين، فهـو معـذَّب قلق لا يستقـر على حال، ولا يستطيع أن يرضي واحدًا منهم، فضلا عن أن يرضيهم جميعا.

وهذا المثل يصوِّر حقيقة التوحيد وحقيقـة الشرك كما يصور حقيقة الموحِّد وحقيقة المشرك. الموحّـد يتجه إلى إلهٍ واحد يعلم ما يطلبه منـه وينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين ولا يشرك بربه أحدًا.

إن المثل الـذي ضربـه القرآن الكـريم يـذكّر النـاس بهذه الحقيقـة التي لا يستقيم لهم شأن إلا بمعرفتها والإيمان بها. وأنه سبحانه واحد لا شريك له.

وهذه الحقيقة يشهد لها كلُّ شيء في آيات الكون وفطرة الخلق.

والناس وهم يُخاطبون ويُدْعـون إلى اليقين والإيمان يشاهدون من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم مـا يزيـدهم إيمانا وتسليمـا، ويدعـوهم إلى حَمْدِ الله

---

(٦٣٦) سورة الزمر: ٢٩.

وشكره وحسن الاستجابة لأمره.

والقرآن الكريم وهو يضرب المثل الذي يذكِّر ويبصِّر بهذه الحقيقة يقرِّبها إليهم ويريهم ما يدلُّ عليها فيما أسبغ الله عليهم من نعم ظاهرة وباطنة. لتكون دوافع التبصرة والذكرى قائمة فيهم لا تنفك عنهم ولا تبارحهم.

تساق لهم التبصرة والذكرى فيما سخر الله لهم من ليل ونهار، وشمس وقمر، وفيما أنزل من ماء، وأنبت من شجر. وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٦٣٧].

تلك آيات الله في الآفاق وفي الأنفس يخاطب بها الإنسان في كل زمان ومكان وهي مسخرةٌ لنفعه وتبصرته تَحُثُّهُ على معرفة خالقه وتدعوه إلى عبادته وصدق الإخلاص له، في غير عسرٍ أو تكلف. فهو يخاطَب بالماء، وللماء

---

(٦٣٧) سورة النمل: ٦٠ ـ ٦٤.

في حيـاتـه شأن أي شأن. يُخـاطب بالأرض وهـو يمشي عليهـا وهي تقلّـه، وبالسماء وهي تظلُّه. يخاطب بالليل وهو له لباس، وبالنهار وله فيه معاش.

يخاطب بآيات الله في نفسه وفيها يجد عِظَته وتبصرته.

فآيات الله التي تدعوه إلى عبادة إله واحد لا شريك له ليست بعيدةً عنه، أو منفصلة عن حاجته ومنفعته.

فمن جادل في الله دحضته نعمُه وأنكرته نفسه.

وغدا بجحوده منكرًا في كونٍ يُسبِّح كلُّه بحمد ربه.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٦٣٨] ولا نجاة إلا بالإخلاص لله وعدم الإشراك به.

ومن أشرك به دُمِّر بشركه. ومن أسلم وجهه لله فاز برحمة ربِّه.

وعاش في دنياه مستقيما بلا عوج.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ٤٣ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٤٤ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٦٣٩].

---

(٦٣٨) سورة آل عمران: ٨٣.

(٦٣٩) سورة الروم: ٤٣ ـ ٤٥.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الزمر ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٦٤٠).

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا رسوله ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني القرآن. ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي لجميع الخلق لتنذرهم به. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما يعود نَفْعُ ذلك إلى نفسه. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لست مأمورًا بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوَّضٌ إليهم. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

والله وحده هو الذي يعلم من يستحق الهداية وهو أهل لها. ومن لا يستحق.

﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾.

ومن اتخذ إلهه هواه لا تزيده الدعوة إلى الحق إلا نفورًا واستكبارًا.

والله يعلم هذا وذاك. فمن هداه ووفقه هداه على علم. ومن أضلَّه أضله على علم. إن الله قد أنزل الكتاب بالحق لأجل الناس جميعا. فإنه مناطُ مصالحهم في معاشهم ومعادهم به يهتدون، ويدركون حكمة وجودهم، وغاية حياتهم ومصيرهم. وعليه يحاسبون وسوف يُسألون ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾. إنما الوكيل عليهم هو الله. وهم في جميع أحوالهم في قبضته. وفي صحوهم ونومهم وحلهم وترحالهم، وحياتهم وموتهم وفي كل حالة من حالاتهم.

---

(٦٤٠) سورة الزمر: ٤١.

ومن أدرك هذه الحقيقة سارع إلى حسن الاستجابة إلى ما دُعي إليه. وكره أن يكون على غير ما يُرضي الله. وأحسن الاستعانة والتوكل عليه. إذ لا شيء من الأمر إلا وهو راجع إليه، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٦٤١).

هذه الحقيقة توقظ في الإنسان معرفته وخشيته. وهو يعلم أن الأمر له وحده ـ سبحانه ـ في بدايته ونشأته، وفي موته وبعثه، وفي العود إليه والحساب بين يديه. فكيف يَكْفر به أو يجْحد نِعَمَهُ وهو راجع إليه لا إلى غيره؟ ﴿وإليه النشور﴾ لا إلى أحدٍ سواه ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٦٤٢).

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾(٦٤٣).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾(٦٤٤).

هذه الحقيقة الكبرى جديرة أن تكون في حساب الإنسان وهو يختار لنفسه ما يختار من اتباعٍ ـ لما نزل من الحق ـ أو إعراض.

ومن تدبر التناسب بين الآيات أدرك قوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ بعد قوله ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل**﴾. فالوكيل عليهم هو الله، وهم في قبضته.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٦٤٥).

---

(٦٤١) سورة الأعراف: ٥٤.
(٦٤٢) سورة البقرة: ٢٨.
(٦٤٣) سورة طه: ٥٥.
(٦٤٤) سورة نوح: ١٧، ١٨.
(٦٤٥) سورة الزمر: ٤٢.

فمن تفكر وتدبر اختار سبيل الهداية واستجاب لنداء الحق واستمسك به واستعان بالله على الثبات عليه. فإن الله الذي أنزل الكتاب بالحق هو الذي سيحاسب عليه. والناس لا محالة عائدون إليه. فإن لهم جميعا أجلاً مسمى عند الله ينتهون إليه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾[٦٤٦].

من هذا ندرك أن الحق الذي دُعينا إلى اتباعه ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده. والناس جميعا عائدون إلى الله الذي أنزل الكتاب بالحق. وهو الذي يقضي بينهم بالحق ﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٦٧) ﴾[٦٤٧] فأين المفر لمن أبى الحق أو عانده؟ أين المفر لأولئك الذين شُغِلوا بعاجلٍ عن آجل وألْهتهم الرغائب عن العواقب؟ ﴿**إلى ربك يومئذ المستقر**﴾.

تلك هي الحقيقة التي يستقيم بها سعي الناس وتصْلح أعمالهم ﴿**إلى ربك يومئذ المستقر**﴾ فطوبى لمن آمن بالحق وعمل به ولقي ربَّه بالثبات عليه.

وويل لمن غَفَلَ ونسي. وصرفتْه دنياه عن أخراه. فكذب بالحق واتخذ إلهه هواه. ﴿ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[٦٤٨].

---

(٦٤٦) سورة الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢.

(٦٤٧) سورة الزمر: ٦٧.

(٦٤٨) سورة النور: ٦٤.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(٦٤٩)

﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم.

ولنتدبر مورد هذه الآية ودلالتها في دعوة الخلق إلى حسن الاستجابة والمسارعة إلى الإنابة والإسلام لله وحده. فإن للإسلام شريعةً ومنهاجا. وللإنابة سبيلها وصراطها المستقيم واتباعُ ما نزل من الحقِّ ومن أنزل عليه هو السبيل لتحقيق الإسلام والإنابة إلى الله، والرجاء في رحمته ورضوانه. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٦٥٠).

ولذا فإن التكذيب بما نزل من الحق والتفريط فيه وعدم الهداية به يفضي - لا محالة - إلى الحسرة والندامة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٦٥١). ويأتي الردُّ على من قال لو أن الله هداني لكنت من المتقين بقوله ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٦٥٢) جاءتك أسباب الهداية فكذبت بآيات الله وتكبرت عن الإيمان بها.

---

(٦٤٩) سورة الزمر: ٥٣ - ٥٥.

(٦٥٠) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٦٥١) سورة الزمر: ٥٦ - ٥٨.

(٦٥٢) سورة الزمر: ٥٩.

بلى قد جاءتك آياتي ـ القرآن الكريم ـ وهو سبب الهداية. وبُلِّغْتَ فكَذَّبت. وكانت نتيجة التكذيب والإعراض ـ بعد إعذارٍ وإنذار ـ ما وقع من العذاب.

وترى من جحد بآيات ربِّه يتحسَّر أولا، ثم يَتَعَلَّل ثانيا بعدم إرشاد الله له، ثم يتمنى الرجوع ليؤمن بما كذَّب به. فيقال له من قبل الله سبحانه ﴿**بلى قد جاءتك آياتي**﴾. فإن قوله ﴿**لو أن الله هداني لكنت من المتقين**﴾ متضمِّنٌ نفي الهداية كأنه قال: ما هداني الله. فيقال له: بل قد جاءتك آياتي مرشدة لك. فكذَّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين. فما صرت إليه هو ما اخترته لنفسك وسَعَيت إليه ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا**﴾(٦٥٣). ﴿**وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ**﴾(٦٥٤) وتلك دعوة الله لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة قبل أن يأتي الموت أو يقع العذاب. وإخبارٌ منه سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كثرت. ولا يَقْنَطُ عبد من رحمة الله وإن عظمتْ ذنوبه وكثرت. ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾(٦٥٥).

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ قال: «قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عُزَيْرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالثُ

---

(٦٥٣) سورة النساء: ١١٥.

(٦٥٤) سورة الزمر: ٦٠.

(٦٥٥) سورة النساء: ١١٠.

ثلاثـة؛ يقول الله تعـالى لهؤلاء ﴿**أفلا يتـوبون إلـى الله ويستغفرونـه والله غفور رحيم**﴾. ثم دعا إلى التوبة من هـو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ وقال: ﴿**مـا علمت لكم من إلهٍ غيـرى**﴾. قـال ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: «من آيس عبادَ الله من التوبة بعـد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل. ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه».

ألا فليبادر الناس جميعا بالإنابة والتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة.

وليتبعوا أحسن مـا أنزل إليهم من ربهم ـ القـرآنَ العظيم ـ من قبل أن يأتيهم العـذاب بغتـة وهم لا يشعـرون. فإنـه بـلاغ مـن الله لهم قبل أن يُقْضَى الأجل المسمَّى عند الله لا عندهم. ﴿**واتبعوا أحسن مـا أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتـة وأنتم لا تشعرون**﴾ وعندئذ يقع النـدم الذي لا محيص عنـه. ويـودُّ المجرم الـذي فـرَّط في التـوبـة والإنابـة لـو كـان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

يـودُّ ذلك بعد فـوات الأوان ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾.

أخبر الله سبحانـه ـ رحمة منه وفضلا ـــ ما العباد قائلـون قبل أن يقولوه ﴿**ولا ينبئك مثلُ خبير**﴾ إعذارًا منه و إنذارًا، ودعوة إلى معـرفته وخشيته، وبلاغًا لهم أن لا شيء من أمـــرهم ـــ في عاجـــلهم وآجلهم وسِـرهم وعلنهم ومـــا هم صـائـرون إليه ـ إلا والله محيط به، وهو معهم أينما كانوا ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٦٥٦).

فلنحذر أن نكون من الغافلين الذيـن لا يفيقون إلا إذا نزل الموت بساحتهم أو جاء العذاب. ولنبادر بالتوبة والاستغفار.

---

(٦٥٦) سورة المجادلة: ٧.

فإن نفسا تقول حين ترى العذاب ﴿لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ لم تفق إلا حين رأت تأويل ما فصَّله الكتاب ولن تُجاب . ولا عود إلى الدنيا بعد موت ، ولكنه الحساب والجزاء والجنة أو النار وهذا نداء الله للخلق جميعا . فلنحسن تدبره ولنعمل بما جاء فيه ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

١١٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة غافر ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٦٥٧).

﴿تنزيل الكتاب﴾ وهو القرآن الكريم ﴿من الله العزيز العليم﴾ ذي العزة والعلم سبحانه .

وهذا التقرير على هذا النحو لَهُ دَلَالَتُه في حسن تدبر القرآن والاعتصام به والعمل بمقتضاه ، فتنزيل هذا الكتاب من الله العزيز العليم .

وذلك وحده كافٍ في تهيؤ النفس له ، وحرصها عليه ، وإصغائها لدعوته ، وسكونها عند تلاوته . فهو من الله . واستحضار ذلك واستشعاره يعطي النفس ما يعطيه من طمأنينة وإيواءٍ إليه .

---

(٦٥٧) سورة غافر: ١ ـ ٥ .

من الله ﴿**العزيز العليم**﴾ صفتان دالّتان على أن من أنـزل هذا الكتاب عليم بموقف الناس منه، وقدير على مؤاخذة من جحده وأعرض عنه.

إن التعريف ببعض صفات مَنْ أنزل هذا الكتـاب ذو علاقة بتوجيه الإنسان وتبصرته وحَثّه على الاهتداء بهدايته.

فهذا الكتـاب تنزيل من الله العـزيز العليم، غافـر الذنب، وقـابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير.

إن الله عـز وجل يعرِّف نفسـه لعباده بصفـاته ذات الأثـر البالغ في حيـاتهم ومصيـرهم ليكون إقبـالهم على الكتاب المنـزَّل إقبالَ من يعـرف قدره ويـدرك شأنـه، ويعلم أن من أنـزلـه يملك تنفيـذ وعـده ووعيـده. وأن الخلق جميعـا عائدون إليه لا إلى غيره ﴿**لا إلَه إلا هو إليه المصير**﴾ فيجازي كلَّ عامل بعمله، ويحاسب كلَّ إنسـان على موقفـه من هذا الكتاب الـذي أبقاه وحفظـه ليكون حجة لهم أو عليهم.

غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول.

إنها صفات فيها وعْدٌ وتحذير.

وعد بالتوبة والمغفرة لمن تاب وأناب. وتحذير لمن أدبر وأعرض.

روى ابن أبي حـاتم عن يزيـد الأصمّ قـال: «**كان رجل من أهل الشـام ذو بأس وكان يَفِدُ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ففقده عمر فقال: ما فعل فلانُ بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب.**

قال: فـدعا عمرُ كاتبـه فقال: اكتب: من عمر بن الخطـاب إلى فلان ابن فـلان، سلام عليك. فإني أحمـد إليك الله الـذي لا إله إلا هـو غـافر الـذنب وقابل التـوب شديـد العقاب ذي الطـول لا إله إلا هـو إليه المصيـر، ثم قال:

لأصحابه، ادعوا الله لأخيكم أن يقبل ويتوبَ إلى الله. فلما بلغ الرجلَ كتابُ عمر ـ رضي الله عنه ـ جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب. قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع. فلما بلغ عُمَرَ خبرُه قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زَلَّ زَلَّةً فسدِّدُوه ووثِّقوه وادعوا الله له أن يتوب ولا تكونوا عَوْنًا للشيطان عليه».

ذاك هو الكتاب، وهذا فقه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في فهمه وتدبره وإرشاد الناس به. إنه القرآن الكريم، يذكّر الناس ويبصرهم. ويريهم ما يجب أن يكونوا عليه وما هم صائرون إليه ﴿**لا إله إلا هو إليه المصير**﴾. فكن أخي موحِّدًا مخلصا مؤمنا بيوم الحساب، ولا تكن من أولئك الذين يدفعون الحق ويجادلون فيه بعد بيانه وظهوره أو من أولئك الذين يتبعون أهواءهم بغير هدى من الله.

فذاك شأن المكذبين الجاحدين. والله يخبر عنهم وعما جرى منهم وما وقع عليهم ليبصِّر بذلك وينذر. ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد**﴾ فتدبر هذه الآيات واعلم أن من غَرس غرسًا جَنَى من بعدُ ما هو غارس. ومن عَمِل عملاً وجده عند الله حاضرا، ويوم الفصل آتٍ لا ريب فيه، وإلى الله لا إلى غيره المصير ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(٦٥٨).

---

(٦٥٨) سورة النبأ: ٣٨ـ٤٠.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فصلت ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾(٦٥٩).

يقول الله تعالى ﴿حم* تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزَّل من الرحمن الرحيم.

وقد خُصَّ هذان الوصفان بالذكر ﴿الرحمن الرحيم﴾ لما فيهما من دلالة على ما أنزل القرآن من أجله. إذ أنزل الله هذا الكتاب رحمةً منه وهدًى لخلقه.

فالمنزَّلُ من الرحمن الرحيم كتابٌ فُصِّلت آياته.

وفي ذلك ما فيه من حثٍّ على الإقبال وترغيب في الإفادة ودعوة إلى الاعتصام به؛ فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم. ومن رغب عن الرحمة فقد ظلم نفسه.

وأي رحمة أعظم من رحمة الهداية والتبصرة.

فمن أجل هداية الناس أنزل الذكر، ولمصلحتهم حُفِظَ وبقي لتظل أسبابُ الهداية قائمةً في حياة الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن تدبر هداية القرآن عرف رحمة الله بخلقه في إنزال هذا الكتاب وحفظه.

فأحسن اتباعه رجاء رحمة ربّه وطمعا في رضوان الله ومغفرته.

---

(٦٥٩) سورة فصلت: ١ ـ ٦.

ومن أبى ما دعا إليه وأعرض عنه فقد أبـى الرحمة وأفسد دنياه وضَيَّع آخرته.

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى. قيل ومن يأبى يارسول الله؟

قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

وطاعـة الرسول طاعـة لله، ومعصيته معصية لله. وما الـرسل إلا دعاة للحق الذي أنزله الله وأمرهم بتبليغه والاستمساك به.

ومع الرسـالة الخاتمـة قد حفظ البلاغ إلى يوم القيـامة، لأنه ليس بعـد هذا الكتاب المهيمن كتاب، ولا بعد الرسول الخاتم ﷺ رسول.

وسيظل القرآن الكريـم يبلِّغ الناس حقيقة ما أنزل الله علـى رسله دون تبديل أو تغيير ودون أن يقترب من سـاحته باطل. لتظل كلمة الحق مصونـة كما وعد الله ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ عِزَّةٌ أعزهـا الله به. وحفظٌ وعدَ الله به، والله لا يخلـف وعده ﴿**وإنه لكتاب عـزيز لا يأتيه الباطل من بيـن يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾.

فكان إنزاله رحمة، وحفظه للخلق وبقـاؤه يُتْلى عليهم كما أُنزل امتدادٌ لهذه الرحمة. وبه تبطل الحجة وتنقطع المعذرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾(٦٦٠).

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٦٦١). ألا إن الكتـاب في بـلاغـه وبيانـه وتفصيلـه لم يـدع سبيـلا لمعتذر أو حجةً لمبطل.

---

(٦٦٠) سورة طه: ١٣٤.

(٦٦١) سورة إبراهيم: ٥٢.

﴿كتاب فصلت آياته قرآنـا عربيا لقوم يعلمون﴾ فمن حرم هدايتـه فقد حَرَم نفسه وعوقب بصرف الهداية عنه لكفره وجحوده. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٦٦٢] وذلك جـزاء إصرارٍ وعنـادٍ وكفرٍ وصـد ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾.

فليكن في حـديث القرآن عن المكـذبين الجاحـدين وما صـاروا إليه عظـةٌ لأهل الإيمان في كل زمـان ومكان. والقرآن الكريم ينـذر ويبشر. وينادي أهل الإيمان أنِ لا يكـونوا كغيرهم ممن فتنتهم دنياهم، وطـال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

فلنستمع للقرآن ولنستجب له. ولنحذر الغفلة عنه وعما دعا إليه.

ولتكن لنا عبـرة فيما تلاه القـرآن علينا من موقف نفـرٍ من الجن حين سمعوا القرآن. كيف سمعوه وآمنوا به ودعُوا إليـه وحذروا من مخالفته أو الإعراض عنه فكان سماعهم سماع تدبر وبلاغهم بلاغ حكيمٍ مُبْصر وإنذارهم لقومهم إنذار صدوق يبشّر وينذر. وقد ذكر الله أمرهم في آياتٍ تتلى ليكونوا بما فعلوا موعظة لغيرهم.

ونحن البشـر جميعـا في حـاجة إلـى الرحمـة والتـراحم. في حـاجـة إلى الاستجابة لنداء الله لننعم بالحيـاة ولا سبيل للتراحم إلا بحسن الاتباع لما جاء من الرحمن الرحيم.

﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٦٦٣].

---

(٦٦٢) سورة الجاثية: ٢٣.
(٦٦٣) سورة الأنعام: ١٥٥.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فصلت ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٦٦٤)..

لقد تواصى الكفار فيما بينهم ألا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾.

أي إذا تُلِيَ لا تسمعوا لـه والغوا فيه بالمكـاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ؛ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن.

وقد أمـر الله عباده المؤمنين بخـلاف ذلك فقال سبحـانه ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٦٦٥).

وأهل الكفر حين يفعلون ما يفعلون يغيب عنهم أن الحق منتصر لا محالة.

ومن تدبر العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن العاقبة له ولن تكون لغيره.

هؤلاء قد قـالوا ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فلمن كانت الغلبة؟ ولمن كانت العاقبة في دنيا الناس قبل آخرتهم؟

لقد انتصـر القرآن في نفوس كثيـر منهم، ومن أصر على الباطل وجـادل به ليدحض الحق دُمِّر وأخذَ بذنبه.

ونرى القرآن الكريم يحذر تحذيرًا بالغا من معاداة الحق ومخالفته.

---

(٦٦٤) سورة فصلت: ٢٦ ـ ٢٨.

(٦٦٥) سورة الأعراف: ٢٠٤.

وفيـه يُتْلى قَوْلُ الله عـزِ وجل منتصرا للقـرآن ومنتقما ممن عـاداه وصدَّ عنـه ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ جـزاء موقفهم من القـرآن ولغوهم عنـد سماعه. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بِشَـرِّ أعمـالهم وسيئ أفعالهم.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ تلك هي النتيجة لمن كره الحق أو عاداه.

سرعان ما يلْقون جزاءهم، وسرعان ما نرى كيدهم يحيق بهم.

ونراهـم ـ بعد المـودة على الباطل ـ يلعن بعضهم بعضا ويبـرأ بعضهم من بعض.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾(٦٦٦). ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٦٦٧).

وقد يظن أولئك الجـاحدون أن العـذاب بعيدٌ عنهم وأنهم في مأمن منـه بما يستدْرجـون به من عطاء. ويغيب عنهم أن الأمر في يـد الله وليس في أيديهم، وأن الآجال إذا انقضت تضاءل الذي يرونه بعيدا، فتصبح السنون الطوال وكأنها دقائق وثوان.

إن من يكرهون الحق أو يضيقون به سيؤخذون بناره بعد أن عموا عن نوره.

وهم في جهنم خـالدون يطلبـون أن يُقْضى عليهم فيَجابـون: إنكم ماكثـون ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ذاك ما كـان سببًا في عذابهم وخلـودهم في نار

---

(٦٦٦) سورة فصلت: ٢٩.

(٦٦٧) سورة الزخرف: ٦٧.

جهنم ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ ومن هنا نعلم أن العاقبة للحق لا لشيء سواه، وأن من تدبر العاقبة أيقن بذلك. ومن غابت عنه هذه الحقيقة وقع فيما يقع فيه أهل الكفر والضلال من استخفافٍ ونزقٍ وإفسادٍ وظلم، وآثر العاجلة على الباقية.

والقرآن الكريم حين يخبرنا بما فعل أهل الكفر والجحود عند سماع القرآن إنما يبصرنا بهم ويحذرنا من أن نكون مثلهم. وحين يذكُرُ لنا الجزاء الذي يقع بهم يدعونا أن نكون مستمسكين بما يُنجِّينا منْ سوء العاقبة والمصير، وأن نحفظ الله في جميع أمورنا، وأنْ لا نُسْتخفَّ من أولئك الذين لا يوقنون.

فإننا نمُرُّ بدارٍ نُمْتحن فيها ولا نقيم. ونفتن بما نفتن به ليتميز الصادقون من الكاذبين. والقرآن الكريم ميزان عدل به يُعرفُ المفلحون من الخاسرين.

ومن استهان بذلك اليوم عرف تأويله في غده.

وعندئذ نرى الذين أعرضوا عنه يتمنون أن يردُّوا إلى الدنيا ليستمسكوا به.

ويخبر القرآن عن هؤلاء ليعتبر الناس ويستبصروا ويقبلوا على هدى الله ولا يُعرضوا. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(٦٦٨).

إن القرآن الكريم يخبر عن هؤلاء ليبصِّر ويحذّر ويهدي للتي هي أقوم:

ولن يفلت أحدٌ من لقاء. والكل مخلوق لله، والكل عائد إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ

---

(٦٦٨) سورة الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾(٦٦٩).

١٢٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فصلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾(٦٧٠) إن الذين كفروا بالذكر ـ وهو القرآن الكريم ـ هؤلاء معذبون أو مهلكون.

وأمر هؤلاء لا يخفى على الله ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾.

وكفرهم على أنفسهم، والقرآن عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولا يناله الكيد منهم أو من غيرهم. ولا يسلم من العذاب من أصر على عداوته والصد عنه. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ لا ترامُ ساحته، ولا يأتي أحدٌ بمثله، ولا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات. وكل ما فيه حق وصدق.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حكيم في أقواله وأفعاله حميد أي محمود في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه الجميع محمودةٌ عواقِبُهُ وغاياته، وهو سبحانه محمود على نعمه وفضله ورحمته.

ومن أعظم ما أنعم به ـ ولا تحصى نعمه ـ إنزاله هذا الذكر وحفظه ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. فليفرحوا بما أنزله الله من القرآن العظيم على رسوله ﷺ، فليفرحوا بما جاءهم من الهدى ودين الحق، فإنه أولى بما يفرحون به. هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

---

(٦٦٩) سورة الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢.

(٦٧٠) سورة فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

ومن إعزازِ الله لهذا الكتـاب حفظه وبقاؤه للأجيال كلِّها دون مغـالبة حرفٍ منه من كثرة الكائدين له العاملين على تدمير أهله .

وهذا من فضل الله ورحمته بخلقه .

وإن هـذا الكتاب لكتـاب عزيـز بإعزاز الله إيَّـاهُ وحفظِه من كل من أراد لـه تبديـلا أو تحريفا أو تغييرا من إنس وجن وشيطـان مارد . ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ فلا يستطيع ذو باطل أن يكيد لَهُ أو يبدِّل شيئا منه . ولا أن يُلحق به ما ليس منه . فالحق باقٍ محفوظٌ بحفظ الله لتبقى التبصرة والذكرى للأجيال كلهـا دون تقوُّل عليه أو تَدَخُّلٍ للأهواء فيـه . ومن حفظه الله لا يضيِّعه الناس ، والله غالبٌ على أمره .

ومن عرف ذلك لم يبتغ العزة في غير ما أعزَّه الله به ، ولم يسلك غير السبيل الموصل إلى طاعته ورضاه وهو سبيل المؤمنين .

وسبيل المؤمنين : إيمـانٌ بهذا الكتاب واتباع لمـا جاء به ودعَا إليـه ، ودعوة إلى الله على بصيرة اقتـداء برسول الله ﷺ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٦٧١] والاتباع يقتضي مع صـدق الإخلاص لله ، الأخـذ بالأسبـاب كمـا أمر الله ، وقـد جعل الله لكل شيء سببا .

ومن الأخذ بـالأسباب ـ في تفـوق الأمة وعزتهـا ـ وحدتُهـا على الحق وعدمُ تفرقها . ومن الأخذ بالأسباب التعاونُ فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ومن الأخـذ بالأسباب فقـه التدين ومعـرفة العصر. فإن فقـه التدين سبيل لإحسان العمل و إتقانه . ومعرفة العصـر سبيل لاختيار الوسائل الملائمة

---

(٦٧١) سورة يوسف : ١٠٨ .

لتحقيق الغايات والمقاصد. ومن جهل عصره تخلَّف وضيَّع. ومن جهل دينه ضلَّ وأفسد. وكل جيل مطالبٌ أن يستمسك بما جاء من الحق في عصره، وأن ينصر الله في جميع أمره فإذا جهل عصره قصُرت وسائله عن تحقيق النصر في زمنه، وعاش ـ بدينه ـ عالةً على غيره، وأضحى مغلوبًا يستخفُّه الغالب، ويخضعه لاتباع ملته ومذهبه والأمة الحيّة الناهضة تأبى أن تسكت على ضيم، أو تقعد عن تحقيق عزَّة ونصر. والمؤمنون بالذكر يستبصرون به ويستجيبون لندائه ويهتدون في جميع شئونهم بهديه. وسوف يسألون ـ إن هم ضعفوا واستكانوا ـ عن سبب ضعفهم أو استكانتهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

الذكر الذي أنزله الله وحفظه كما أنزل يتلى علينا ونحن مسئولون عما عملنا بمقتضاه، تسألنا كلُّ آيةٍ منه آمرةٌ أو زاجرة عن فريضتها: ولن يكون ضعف الأمة أو استكانتها إلا من ضياع ما أمرنا به أو من ارتكاب ما زجرنا عنه.

مقياس يجب أن يُعلم ويحفظ. وبه نزن ونعلم أسباب قوتنا وضعفنا، أسباب عزتنا ومهانتنا ولا مجاملة في سنن الله لنا أو لغيرنا.

وما قاله أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ ليس مقياسًا ذاتيا لشخصه فحسب. بل هو فقه الصحابة جميعا تعلّموه من كتاب ربِّهم وسنة نبيهم وأخذوا أنفسهم به، فعرفوا أن ما يصيبهم من مصيبة هو من عند أنفسهم لا من كيد عدوِّهم. واتهموا أنفسهم بالتقصير فيما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه. فماذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه؟

قال: «إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمتَ أم جهلتَ؟ فأقول: علمتُ. فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها. فتسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع».

لقد عرفوا سبيل عزِّهم فاستمسكوا بـه . وعلموا أن ما يأمرهم به هذا الكتاب فيه رفعة لهم وفوز ونجاة ، وأن ما ينهاهــم عنه فيه تدميرٌ لهم وخذلان وخسران . عرفوا ذلك عن تجربة ويقين فعرفوا لكل آيةٍ فيه قدرَها ولم يكونوا كأولئك الذين يؤمنـون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض تبعًا لمـا تمليه أهواؤهم لا بما يفـرضه الحق عليهم .

فلم يُفْتنوا عن شيء منه ، بل حكموه في كل شأن صغر أو كبر في حياتهم ، مستجيبين لنـداء ربهم ، مقتدين راشـدين بنبيهم ﷺ ـ وقـد خاطبـه ربُّه ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾(٦٧٢) .

لقـد عرفـوا قدر هـذا الكتاب فـاعتصموا بـه وتخلقوا كمـا تخلق نبيّهم ﷺ بخلقه . وقد كان خلقه القرآن ﷺ يــرضى برضـاه ويسخـط بسخطـه . فكانـوا ـ بحسن اتباعهم ـ أعزاء كرماء ينتسبون بعزِّهم إلى ما أعزَّهم الله به .

ومن تدبر حقيقة هذا الكتاب وغـايته استطاع أن يعرف كل نَبْتٍ ينتسب إليه وكلَّ عمل يرضاه أو ينهى عنه فيما يبديه الإنسان أو يخفيه .

فإذا تخلف المتتسبـون إليه فـي أي عصر فقـد تخلفـوا عن إدراك مقاصـده واتباع هدايته .

وإذا طوَّعوا لمآرب الباطل وشهواته . واستطاع الباطل أن يأخذهم بعيدا عن الاعتصام به والاهتداء بنوره . فاعلم أنهم قد جهلوا دلالة قوله :

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ .

دلالتـه في أنفسهم فـزلُّـوا حيـث يجب أن يعـزُّوا . وتخلَّفـوا حيث يجب أن يتقدموا ، وتفرقوا حيث يجب أن يتوحدوا ، وتنازعوا حيث يجب أن يعتصموا به

(٦٧٢) سورة المائدة : ٤٩ .

جميعا ولا يتفرقوا، وعاشوا عالةً على غيرهم حيث يجب أن يكونوا سادة الدنيا وقادتها، والواقفين على ذروة العز فيها، لا استعلاءً على الناس، بل هداية لهم وعملاً صادقا مخلصا على أمنهم وسلامهم، بإعلاء كلمة الله في جميع شئونهم. وفي إعلاء كلمة الله مصلحة للخلق جميعا. ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم**﴾.

١٢١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فصلت ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ**﴾(٦٧٣).

يقول الله تعالى ﴿**ولو جعلناه**﴾ هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد أعجميا لقال قومك من قريش: ﴿**لولا فصلت آياته**﴾ يعني هلاَّ بيِّنت أدلته وما فيه من آية، فَنَفْقَهُهُ ونعلم ما هو وما فيه. ﴿**أأعجمي وعربي**﴾ كانوا يقولون إنكارًا له: ﴿**أأعجمي**﴾ هذا القرآن ولسان الذي أنزل عليه عربي؟! نعم كانوا يقولون لو كان القرآن أعجميا: القرآن أعجمي ومحمد عربي. ونحن قوم عرب ما لنا وللعجمة؟

يقولون ذلك اعتذارًا لموقف الجحود والنكران. ولكن قطع حجتهم وحجة غيرهم بما فصَّل وبيَّن وهدى وأرشد. وجعل أدلَّة الحق فطرية المأخذ قريبة المنال، يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق من حوله. فلا عذر ولا اعتذار، ولا حجة لأحدٍ بعد إرسال الرسل و إنزال الآيات التى يخاطب بها الناس في غير لبس ولا إبهام.

وللقرآن فصاحته وبلاغته وله حجته وسلطانه و إحكامه في لفظه ومعناه. فمن كفر به كان كفره كفر عنادٍ وتعنت واستكبار.

---

(٦٧٣) سورة فصلت: ٤٤.

وكفار قريش ـ وهم يخاطبون بلسان عربي مبين ـ يقولون ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ ولو جعله الله قرآنا أعجميا لاعترضوا وقالوا لولا جاء عربيًا فصيحا مفصلا دقيقا.

فهو المراد، والجدل والكفر والعناد على أي حال.

فليست العلّة في القرآن، وإنما العلة في نفوسهم كما قال عز وجل ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾[٦٧٤].

فالصارف لهم عن الذكر في نفوسهم وليس لعلّة فيما يُتلى عليهم.

وكم صَرَفَ الكبرُ ناسًا عن الخضوع للحق والاستجابة له.

وكم قادتهم الأهواء لسبل الضلال والهلاك.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦٧٥].

والحق هو الحق بأي لسان كان. والحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء لما في الصدور.

يعرف ذلك كل من رغب في الحق وآمن به.

أما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشته ولا تلين لذكر الله. والقرآن على هؤلاء وقرٌ في آذانهم، وعمًى في قلوبهم ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٞ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾.

﴿قل هو﴾ أي القرآن للذين آمنوا بالله ورسله وصدقوا بما جاءهم به من عند ربهم ﴿هدًى﴾ أي بيان للحق ﴿وشفاء﴾ من الجهل.

---

(٦٧٤) سورة ص: ١، ٢.

(٦٧٥) سورة القصص: ٥٠.

والذين لا يؤمنون بالله ورسولـه وما جاءهم به من عند الله في آذانهم ثِقَلٌ عن استمـاع هذا القـرآن وصمم لا يستمعونـه ولكنهم يعرضـون عنه، وهـو عليهم عمًى.

هذا القـرآن على قلوب هؤلاء المكذبيـن به عمًى عنه. فلا يبصـرون حُجَجَه ومواعظه عموا وصمُّوا عن القرآن فلا ينتفعون به، ولا يرغبون فيه ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ لعمى قلوبهم عن فهم ما أنزل في القرآن.

والعـرب تقول للـرجل القليل الفهم «إنك لتنـادى من بعيـد» وللفَهِم: إنك لتأخذ الأمور من قريب.

فالقرآن بعيد من قلوب هؤلاء المنكـرين الجاحدين وهم قد ضيَّعوا أن يقبلوا الأمر من قريب. يتوبون ويؤمنـون فيقبل منهم. لقد أبوْا ذلك وأصروا واستكبروا استكبارا، فلم يعد القـرآن قريبا من نفوسهم. ويتمنون يوم القيـامة أن يحصِّلوا ما فاتهم. وهم يُعلنون إيمانهم حين يرون العذاب وأنَّى لهم ذلك وقد حيل بينه وبينهم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾[٦٧٦] ذاك موقف القوم وتلك عاقبتهم.

وفيما يتلوه القرآن عبرةٌ لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ.

فلا تطلب الأشياء فـي غير وقتها. ولا ينفع الإيمان نفوسًـا لـم تكن آمنت به من قبل أو كسبت في إيمـانهـا خيـرًا. لا ينفعهـا في أخراهـا وقـد ضيَّعتـه في دنياها.

---

(٦٧٦) سورة سبأ: ٥١ ـ ٥٤.

وأيـام العمـر لا بـد أن تُغتنم فيمـا جعلت لـه وهي محـدودة مغيبـة . فعلى العاقل أن يغتنمها قبل أن تقضى وأن يجعلها له لا عليه فكل يوم شاهد على ما وقع . ولا يـدري أحـد متى يُدعى فيجيـب ، فليسارع في عمل الخيـر وليبـادر ومعـه الهـدى والنور. وليحـذر أن يكـون كهـؤلاء الـذين لا يفيقون إلا عنـدمـا يهلكون . ولا بد أن يسأل كل إنسان عن عمره : فيم أفناه؟ كما يسأل عن ماله : من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

وليعلم كل إنسان أنه مخاطب بالقـرآن فليقرأه قراءة من يعلم أنه مسئول عما جاء فيـه وليحاسب نفسه وليـزن جميع أمره بميزان ربـه وليتدبر قـول ربِّه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ . فليكن مقسطا مع نفسه غير ظالم لها بالغفلة والإعراض عن الحق قبل أن يكون مقسطـا مع الناس كمـا أمر الله ؛ فإن مُعَلِّم نفسـه ومؤدبهـا أحق بالاحتـرام من معلِّم الناس ومؤدِّبهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

١٢٢

ومن حـديث القرآن عن القـرآن مـا تضمنه قـولـه تعالى في سـورة فصلت : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٦٧٧) .

﴿سنريهم آياتنـا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ أي سنظهـر لهم دلالتنا وحجتنـا على كـون القرآن حقًّا منـزلا من عند الله علـى رسول الله ﷺ بدلائل فـي الآفاق وفي أنفسهم . وهذه الدلائل قائمة في حياة الناس لا تنفك عنهم ، تقدم عبرتها في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

---

(٦٧٧) سورة فصلت : ٥٣ ـ ٥٤ .

وهذه الآيات كما خوطب بها من قبل عند نزول القرآن يخاطب بها مَنْ جاء مِنْ بعدُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالكل مُعانٌ على معرفة الحق بهذه الآيات في الأنفس وفي الآفاق. فإن فيها دلائل على الحق الذي نزل القرآن به وبه أنزل.

إن آيات الله في الأنفس تتسق مع آيات الله في الكون في الدلالة على الحق والدعوة إليه وتعمل عملها في تربية الإنسان وهدايته. وهو يتدبر آيات الوحى في خاصة نفسه وفي الكون من حوله. فيرى الحق الذي نزل به القرآن. يراه في كل شيء بلا انفصام بين ما يتلوه من القرآن ويراه بين ما يتمتع به وبه يستبصر.

والقرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق ويتلوها في آيات تُقرأ وتحفظ ـ يجعلك لا تنفصل بقراءتك عن نفسك أو عن الآفاق من حولك. بل يريك إياها ليبصرك بحكمتها وغايتها.

والقرآن يخاطب بها الإنسان خطابا يحيي فطرته ويحدد منهجه وغايته.

ويا لها من روعة أن يعلم الإنسان أن آية الحق قائمة في نفسه عليه أن يبصرها. وألا تصرفه الغفلة عن حسن إدراكها أو تأخذه الأهواء بعيدًا عن صادق دلالتها. إن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تدعوه أن يلوذ إلى القرآن الكريم وتدعوه في تأثير بالغ أن يوقن أنه الحق الذي يرى صدقه في ذات نفسه وفي الآفاق من حوله فيسبح بحمد ربِّه تسبيح موقن خاشع مصدِّق، يُسبِّح باختيار كما هو مسبح بفطرته. إن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق تتسق مع آياته المنزلة في الدلالة على الحق والدعوة إليه. وتتضامن جميعا في الدعوة إلى إلهٍ واحد لا شريكَ له، وتقرأ وتتلى في القرآن فتحقق الانسجام الكامل في تربية الإنسان بلا تناقض أو تضارب أو اختلاف.

إن هذا الاتساق يؤدي إلى غاية واحدة عبادة الله وحده وعدم الإشراك به. وهي غاية جامعة للفضائل محققةٌ للمنافع، دافعة مانعة، دافعة إلى الخير حاثّة عليه، مانعة من الشر محذِّرةٌ منه. ومن أجل هذه الغاية تقدم التبصرة

والذكرى فيما يراه الإنسان من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس وفيما يُتْلى عليه من آيات الذكر الحكيم حتى لا يضل الإنسان عن هذه الغاية أو يصرف عنها . وتظل هذه الآيات تعمل عملها في تفاعل مع الإنسان في يسر فلا يُعزَل عنها في مأكله ومشربه وفي صحوه ونومه وفي سمعه وبصره، فيما تراه العين وتدركه البصيرة .

ومن أجل ذلك خلق الكون وكانت آياته للتبصرة والذكرى مقترنة بالمنفعة والمتاع .

فالماء الذي نشربه فيه متاع وفيه تبصرة وذكرى .

والأرض التى تُقِلُّنا فيها معاش لنا وفيها تبصرة وذكرى .

والسماء التى تظلنا فيها عطاء لنا وفيها تبصرة وذكرى .

فمن أخذ منها المتاع وأهمل ما فيها من تبصرة وذكرى فقد غفل عن حقيقتها ورضي أن يكون كالأنعام بل أضل . فإن الأنعام تشارك الإنسان في المتاع ﴿**متاعا لكم ولأنعامكم**﴾ ولكن الإنسان ينفرد عنها حين يتميز بالتبصرة والذكرى .

وليس كلُّ إنسان يتميز بذلك . بل يتميز بها إنسان العبودية لله والإنابة إليه . وهو الذي أخذ منها دلالتها على الحق قبل أن يأخذ منها ما تأخذه الأنعام من متاع ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾(٦٧٨) .

وانظر إلى حديث القرآن كيف يرينا الماء وهو ينزل من السماء فيرينا آيته فيما ينبت به من جنات وحب الحصيد، والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد، ويرينا دلالته فيما نُدعى إليه من إيمان واعتقاد بقدرة الله على إحياء الموتى ووقوع البعث والنشور فلم يكن الماء في حديث القرآن مجرَّدًا عن حكمته

(٦٧٨) سورة ق : ٦ ـ ٨ .

وغايته، بل كـان كما أمر الله سببا للحياة وداعيًـا إلى الإيمان بمن وهب الحياة ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾(٦٧٩).

آيات دالـة على الحق داعيـة إليه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾(٦٨٠).

وكم لله من آيات في الأنفس وفي الآفاق تمدك بمنفعتها وتقدم لك تبصرتها وتذكرتهـا . فلا تكن ممن يأخذ منها المتاع ويهمل ما فيهـا من تبصرة وذكرى . لا تكن من الـذين يرون ظـاهرهـا ويهملـون حقيقتها ودعـوتها . فإن كثيـرا من النـاس لا يعلمـون ﴿**يعلمـون ظـاهـرًا من الحيـاة الـدنيـا وهم عن الآخـرة هم غافلون**﴾.

واجعل منها متاعا لدنياك وزادًا لأخراك بما تُبصِّرك به وتدعوك إليه . لا تأخذ منهـا مـا يـذهب ويفنى، وتـدع مـا يـدوم ويبقى . فإنهــا دلالتك إلى الحق فـاستمسك بـه، ولا تجعلهـا عـونك على البـاطل . فإن البـاطل زاهق ذاهب والحق دائم باق ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٦٨١).

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾(٦٨٢).

١٢٣

ومن حـديث القرآن عن القـرآن ما تضمنـه قوله تعـالى في سـورة الشورى : ﴿ حم (١) عسق (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) ﴾(٦٨٣).

---

(٦٧٩) سورة ق : ٩ ـ ١١ .

(٦٨٠) سورة فصلت : ٣٩.

(٦٨١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٦٨٢) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٦٨٣) سورة الشورى : ١ ـ ٤ .

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي كما أنزل الله إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك. أو كما أوحى إليك هذه السورة يُوحي إليك غيرها من القرآن ويُوحي إلى الذين من قبلك الكتب القديمة.

ووجه الشبه أن الموحَى به في الكل يرجع إلى أمور ثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث، فهذا القدر موجود في القرآن وفي غيره من الكتب.

وهذا أصل الدين الذي وصَّى الله به الأنبياء جميعا وأمرهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه.

ومن هنا يُعْلم معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتاب.

إنه أمين وشاهد وحافظ **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**. فما يقرره من أمر العقيدة هو ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل.

وكلُّ قول غير ذلك ادعاء باطل وافتراء. ومن افترى على الله الكذب ضلَّ وساءت عاقبتُه. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٦٨٤).

لقد أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان وختم الرسالات بإنزال القرآن الذي حفظه وجعله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه لتبقى الحقيقة بينه أمام الأجيال كلِّها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فليس بعد الرسول الخاتم ﷺ رسول ولا بعد الكتاب المنزل عليه كتاب. فالحق الذي جاء به الأنبياء جميعا قد حفظ بحفظ هذا الكتاب، وبه بطل كل افتراء على الأنبياء أو ادعاء وهو يُتْلى على الخلق جميعا بلا توقف، ويُعلن - في عزة وإباء - ما بعث به الأنبياء جميعا ويتلى على الناس صباح مساء. **﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾**(٦٨٥) **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾**(٦٨٦).

---

(٦٨٤) سورة النحل: ١١٦ - ١١٧.

(٦٨٥) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٦٨٦) سورة النحل: ٣٦.

ويخاطب الذين مالوا عن هذه الحقيقة، وقالوا بغير ما أنزل الله. يخاطبهم أن لا يغْلُوا في الدين أو يقولوا على الله إلا الحق، ويدعوهم إلى كلمة سواء.

يخاطبهم بنور وبرهان ويدعوهم أن يعودوا إلى الحق قبل فوات الأوان.

وهذا نداؤه إلى الناس بعامة وإلى أهل الكتاب بخاصة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٦٨٧).

ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم ـ وهو يدعو إلى كلمة سواء ـ ليس أعزل عن قوة تحقق وعده ووعيده، وإن بدا في عصرٍ ما أن أهله مستضعفون.

القرآن الكريم ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده، إنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) ﴾. وهذه الصفات لمن أنزل الكتاب كافية في تبليغ الناس أن القرآن ليس أعزل من قوة تحقق الوعد والوعيد.

---

(٦٨٧) سورة النساء: ١٧٠ ـ ١٧٥.

والقرآن الكريم وهو يـذكر الوعد والوعيد لمن آمن ومن كفر يـذكّر دائما بما يصير الخلق إليـه وينتهون عنده. يـذكرهم بأن من أنزل القـرآن سيجمع الناس جميعا ليـوم لا ريب فيه ليعلمـوا أن حديث القرآن إليهـم يجب أن يُصْغَى إليه وأن يستجـاب له، وألا يستهـان بتحذيـره وإنـذاره. وما يخبـر به من حسـابٍ وجزاء. فإن الخلـق جميعا ـ وقـد تبين لهم الهدى ــ سيسألون عنـه ويجازون على مـوقفهم منـه. أليس هـو إنــذارا وبـلاغـا من الله رب العـالمين للنـاس أجمعين؟

فالله الذي أنزله هو الذي خلقهم وإليه مرجعهم ومصيرهم. فلن يفلت أحدٌ من الـرجوع إليـه والحساب بين يـديه. فمن ذا الـذي يجادل فيمـا يدعـو إليه ويخبر به وكل شيء شاهد على صدقه؟ وكفى بالله شهيدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾﴾(٦٨٨).

فلنعلم دلالة هذه الصفات. صفات من أنزل القرآن وأوحى به إلى نبيه.

فإنها تـدعونـا جميعا أن نستمسك بـالقرآن وأن نعتصم بـه، وأن نتدبـر أمره وزجره. ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذيـن من قبلك الله العزيز الحكيم* له ما في السموات وما في الأرض وهو العلـي العظيم﴾ نسأل الله أن يجعله حجة لنا لا علينا وأن يرزقنا شفاعته يوم نلقاه.

---

(٦٨٨) سورة الشورى: ٦ ـ ٩.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(٦٨٩).

الله الذي أنزل القرآن أو جنس الكتاب مشتملا على الحق مقترنا به، وأنزل الميزان في كتبه المنزَّلة. أي العدل وسماه ميزانًا لأن به يتم الإنصاف والتسوية بين الناس في جميع شئونهم، كما قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾(٦٩٠).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان بيِّن واضح. فمع الساعة يأتي الحساب وتوضع الموازين بالقسط كما قال الله عز وجل ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٦٩١).

فالله عز وجل قد أمر بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع واتباع ما أنزل من الكتاب من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله.

فالحديث عن الساعة مقترنا بالحديث عما أُنزل من الكتاب يعطي من الدلالة أن من أنْزَلَ الكتاب بالحق سيحاسب عليه، وأن للجزاء يومًا يرى الناس فيه أعمالهم.

---

(٦٨٩) سورة الشورى: ١٧ - ٢٠.

(٦٩٠) سورة الحديد: ٢٥.

(٦٩١) سورة الأنبياء: ٤٧.

فالحق الذي أنـزله الله إليهم ليتحاكموا به وليقوم النـاس بالقسط ، هو الحق الذي سيحـاسبون عليـه ويؤاخـذون به . فمن اتبعـه وأخلص له فـلا يضل ولا يشقى ومن أعـرض عنه ضيع دنيـاه وخسر في أخـراه . فالحق الذي أنـزل ليس ضياعًا وليس مخالفوه بمتروكين .

إنـه الحق ومن كـره الحق أخـذ به ، ومـن عاداه وصـدَّ عنـه لقي جـزاءه مع المجرمين الظـالمين . وذاك وعيد القرآن لمـن عاداه وصد عنـه وكره ما جـاء به ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾(٦٩٢) .

إن الحق ليس ضياعًا ، وليس الكارهون له بمعجزين .

وحـديث القرآن عن السـاعـة مقترنـا بالحـديث عن إنـزال الكتاب بـالحق والميزان ، ليس بعيـدًا عن فطرة الناس وعمـا يرونـه في الآفاق وفي أنفسهم من آيات .

إن كل شيء يبرهن عليه ويدعو إلى اليقين به والإعداد له .

وسبيل الإعـداد ليـوم الحسـاب هـو العمل بمـا أنـزل من الكتـاب بـالحق والميزان .

---

(٦٩٢) سورة الزخرف : ٧٤ ـ ٨٠ .

ومن جحد يوم الحساب فرّط في العمل بما أنزل الله وضيّع ما خلق له فخسر دنياه وأخراه. ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٦٩٣).

إن الحديث عن قرب الساعة في مقام الحديث عن إنزال الكتاب بالحق والميزان له دلالته سواء في الربط بينهما أو فيما يترتب. فإن الرباط بينهما في الإيمان وثيق. فلا إيمان بالكتاب لمن لا يؤمن بالآخرة. ولا إيمان بالآخرة لمن أعرض عن العمل بما نزل من الحق وأصرَّ واستكبر «والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر».

إن الإيمان باليوم الآخر أصل أصيل في استقامة سعي الإنسان وتقديم خيره وكف شره ولا شيء يغني عنه في تحقيق الرقابة والخشية من الله في السر والعلن.

ووسائل البشر مهما عَظُمَتْ لا تستطيع أن تئد الجريمة المبيتة في نفس صاحبها قبل أن تولد، إنها قبل أن تقع نيَّةٌ وعزم في نفس صاحبها، ولا مقدرة للبشر على معرفة النيات وما تطويه الصدور. لكن الخشية من الله وحده هي التي تصرف خواطر السوء قبل أن تُصبح عملا واقعا في حياة الناس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٦٩٤) فكن أخي في عملك من أولئك الذين يشفقون من الساعة ويعلمون أنها الحق.

فإن ذلك يعينك على التمسك بالحق والعمل. يعينك على أن تكون مع القرآن حيث كان. ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ

---

(٦٩٣) سورة الأنعام: ١٢.

(٦٩٤) سورة المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

١٢٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾(٦٧٥) بدأت سورة الشورى بقوله سبحانه ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفي هذا البدء بيان لحقيقة القرآن وأن الله أوحى به إلى نبيه ﷺ وأن هذا القرآن ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده وهو من الله العزيز الحكيم. محفوظ بحفظه، ومن حفظه الله لا يضيعه الناس. ومع هذا البيان النيِّر ترى أهل الشرك والضلال ـ وهم يشهدون بصدق الرسول ﷺ وأمانته ولا يكذبونه ـ تراهم يخدعون أنفسهم فينسبون إليه ﷺ الافتراء. وأنه افترى على الله كذبا بدعوى النبوة ونزول القرآن عليه.

وهم يوقنون أن الافتراء لا ينسب إليه. ولذا ساق القرآن الكريم مقالتهم في أسلوب إنكار وتوبيخ لهم على مقالتهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ كبرت كلمة تخرج من أفواههم. وهل يسلم أحدٌ ممن يفتري الكذب على الله من ختْمٍ على قلبه وعلى سمعه كما وقع لأهل الكفر والضلال منهم؟

(٦٩٥) سورة الشورى : ٢٤ـ٢٦.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾(٦٩٦) أما أهل الإيمان والتقى فإنهم لا يكذبون.

وهؤلاء الذين يقولون افترى على الله كذبا لا يختلف أحدٌ منهم مع الآخر في تقرير صدقه وأمانته، ولكنه الكفر والجحود بآيات الله يدعوهم أن ينسبوا الكذب إلى من يوقنون بصدقه ويأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم، وما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٦٩٧) لقد لبث فيهم ﷺ عُمُرًا من قبل إنزال القرآن عليه، ولم يكونوا يلقبونه إلاّ بالصادق الأمين إذا أقبل عليهم أو غاب عنهم.

فما الذي جرى لهم وجعلهم يَكْذِبُون ويفترون هم على الله الكذب فيما ينسبونه إليه ويرمونه به؟ والقرآن يُتْلى عليه ﷺ وهو يبلِّغهم ما أنزل عليه ويتلوه عليهم في ثبات وثقة ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٦٩٨).

يستوي هذا وذاك من افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته. والرسول ﷺ بريءٌ من هذا وذاك، وهم بما يقولون ويفعلون موصومون بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته فهم المجرمون الذي لا يفلحون. ﴿**وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطون**﴾.

والقرآن الكريم يُتْلى عليهم ويسمعون منه ما يقولونه في سرِّهم وعلنهم ليعلموا أن لا مجال لأحد أن يأتي به من عند نفسه أو يزيد عليه أو ينتقص منه. ولا علم لأحدٍ إلاّ الله بما يُسِرُّون به في تدبير خفي أو يكيدون.

---

(٦٩٦) سورة النحل: ١٠٥.

(٦٩٧) سورة الأنعام: ٣٣.

(٦٩٨) سورة يونس: ١٦ ـ ١٧.

وهم يقترحون ما يقترحونه جحودًا وعنادًا، والقرآن الكريم يذكر ما قالوه أو اقترحوه ويرد عليهم بما يدفع جحودهم ويكسر عنادهم، ويبين لهم أن الرسول ﷺ لا يتبع إلاَّ ما يوحى إليه وهو يبلغ ما أنـزل إليه من ربِّه. ولا يملك أن يأتي بشيء من عند نفسه ينسبه إلى ربِّه أو يغيّر أو يبدِّل، وهو يخشى ربه ويرجو رحمته ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٦٩٩).

كل ذلك يذكره القرآن ليعرف الجاحدون المبطلون أن لا مجال لباطل في ساحة القرآن ولا سبيل لأحدٍ في التقول عليه، أو نسبة شيء من عنده إليه. لا مجال للمبطلين ولا إعفاء لأحدٍ من عقاب إن هو فعل ذلك أو أراد ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾(٧٠٠) القرآن يذكر هذا الافتراض أمام الخلق جميعا ليُعلم أن لا سبيل لأحدٍ أن يفتري على الله كذبا. ومن حاول ذلك مُنِع منه بالختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله شيء من معاني القرآن ولم ينطق بحرف من حروفه ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وهذا الأمر يقرره بالنسبة لمن أنزل عليه ﷺ وهو معصوم بعصمة ربِّه ليُعْلم أن لا مجال في القرآن لإبطال مبطل أو افتراء كاذب ﴿**وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾.

وتقرير هذه الحقيقة والتحدي بها يفتح المجال لتدبر المتدبرين وتوبة الجاحدين المكذبين وهو يُيْئِسُهم من كل باطل يلجأون إليه، ويفتح أمامهم

---

(٦٩٩) سورة يونس: ١٥.

(٧٠٠) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

باب الحق ليقبلوا عليه تائبين راغبين منصفين متدبرين. ويحذرهم بذلك أن يسلكوا أيَّ سبيل غير سبيل المؤمنين. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[701].

وليعلم أهل الإيمان واليقين أن حديث القرآن عن موقف الجاحدين حديثٌ إليهم يعينهم على الثبات وهم يؤمنون بما نزل من الحق ويعملون به. ويرون ما يصيب الجاحدين له والمتقولين عليه.

إن من نزَّل القرآن قد حفظه وردَّ سهام الجاحدين إلى نحورهم وحفظ الحق من تلبيس الباطل وهذه الحقيقة داعية إلى الإقبال عليه وحسن تدبره والاعتصام به. داعية إلى اليقين. إن من حفظ الذكر سيحاسب الناس على موقفهم منه.

فمن اهتدى بهداه أفلح وفاز، ومن جحده وأعرض عنه شقي وخسر.

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين.

١٢٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الشورى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[702] ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ أي كما كنَّا نوحي في سائر رسلنا كذلك أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن روحًا من أمرنا، وحيا ورحمةً من أمرنا.

---

(٧٠١) سورة الشورى: ٢٥ ـ ٢٦.

(٧٠٢) سورة الشورى: ٥٢ ـ ٥٣.

فالوحي إليك قد تم بالطريقة المعهودة ولم يكن أمرك بدعا من الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٧٠٣) ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ هو القرآن فيه حياة للقلوب أيُّ حياة.

ينعم بها من أحسن الاستجابة فرضي بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا. ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

وهل تقوم حياةٌ بلا روح؟ وهل تنعم بأمن وسلم بغير نورٍ وكتاب؟

إن من رحمة الله بالخلق أن أوحى الله إلى نبيِّه ﷺ روحا من أمره وحفظ ما أوحى به إليه رحمةً بخلقه ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي ما كنت تعرف قبل الوحي إليك ما القرآن ولا الإيمان أي شرائعه ومعالمه. ولكن بالوحي عُرِف القرآن وعُرفتْ شرائع الإيمان، واستنارت حياة الناس بنور هذا الكتاب. وهكذا جعله الله نورًا يهدي به من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٧٠٤) وكم هُدي بالقرآن ناسٌ، وضلَّ آخرون. هدي من استجاب له واتبع هدايته، وضل من أعرض عنه وكذب بآياته.

فانتفع بهدايته من اتقى ربَّه وجعل هواه تبعا لما جاء به.

وخسر وظلم نفسه من اتبع هواه فأعرض عن ذكر ربِّه ولم يرد إلا الحياة الدنيا. إن القرآن هدى ونور. فمن أبى الهدى عاش في ضلال الهوى واستهواء الشياطين. ومن أبى النور تخبط في الظلمات والتمس النور بعد فوات الأوان فحيل بينه وبينه ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ

---

(٧٠٣) سورة الشورى: ٥١.

(٧٠٤) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦.

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٧٠٥).

تلك لمن استجاب أو أعرض، لمن آمن أو نافق. عاقبة يُرى فيها أن القرآن حينما خاطب الناس لم يكن خطابُه إليهم خطابَ أعزل من قوة تحقق وعده ووعيد.

فهاهم يعودون إلى الله ويرون بأعينهم حاجتهم إلى النور الذي خوطبوا به ودُعُوا إليه يراه أهل الإيمان ـ وقد آمنوا من قبل وكسبوا في إيمانهم خيرا ـ يرونه نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. والبشرى بالفوز والنجاة تساق إليهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. فالفوز في الآخرة لا في غيرها **﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾**(٧٠٦).

ولا يرى أهل النفاق والضلال الذين أبَوا النور عندما دُعوا إليه، لا يرون نورًا لأنفسهم عندما احتاجوا إليه ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾. إن النور هنا لمن اهتدى بنور الله هناك.

أما من أباه وأعرض عنه، فإنه يُحْرَمُ منه وهو في أشد الحاجة إليه. وحرمانه منه هلاك وخسران. فإن الله ـ جل وعلا ـ يبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن

---

(٧٠٥) سورة الحديد: ١٢ ـ ١٥.

(٧٠٦) سورة آل عمران: ١٨٥.

ولا كافر يرى كفَّهُ حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدرِ أعمالهم. فيقول المنافقون انظرونا نقتبس من نوركم.

«عن ابن عباس رضي الله عنهما: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورًا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا. قال المؤمنون ﴿ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور» هكذا تكون النتيجة في اللحظة الحرجة. يجد الناس ما اختاروه لأنفسهم.

فمن اتبع النور وجده. ومن أبى النور في دنياه حرم منه عند الصراط.

فإن الله يعطي كل مؤمن نورًا، وكلَّ منافق نورا. فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ وقال المؤمنون: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾.

تلك هي العاقبة ومنها يُعلم ما للقرآن من شأن في حياة الناس وعاقبتهم. فمن أبى نوره وهدايته في دنياه حرم من النور في أخراه.

والكل عائد إلى الله وواجدٌ ما عمل. والنور الذي ينشده من ينشره هناك طلبا للنجاة يُطلبُ من هنا بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٧٠٧].

---

(٧٠٧) سورة التغابن: ٨ـ٩.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في ختام سورة الشورى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾(٧٠٨).

معك مرة أخرى في حديث القرآن عن القرآن في هاتين الآيتين من سورة الشورى.

فإن حديث القرآن جديرٌ أن يُتَدَبَّر، وأن تُعْرَف خصائصه وآثارُه.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ فهو حياة للقلوب، ولا حياة بلا روح. وإيثار هذه الكلمة في هذا المقام له دلالته في بيان ما يحققه القرآن من حياة.

﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً﴾. أي جعلنا القرآن نوراً، فهو روح ونور وهدى. ولكل كلمة من هذه الكلمات دلالتها في بيان حقيقة القرآن وغايته. والناس قد يرون أثر الروح في حياتهم، ويعرفون ما يكون عليه الإنسان إذا فارقته الروح. إنهم يسرعون بمواراة الجسد ودفنه في التراب لأن الإنسان لم يعد يصلح لعمل شيء وقد بعدت عنه الروح. بل لا تماسك لأجزاء الجسد ولا بقاء بغير روح.

الناس يعرفون ذلك ولا يترددون في الحكم على الإنسان بأنه حيٌّ أو ميت.

ولكنهم قد يغفلون عن أثر القرآن في حياتهم، ويغيب عنهم ما يؤديه القرآن الكريم في دنياهم وأخراهم.

---

(٧٠٨) سورة الشورى: ٥٢ـ ٥٣.

إنه روح وهدى ونـور. فمن أباه عاش في دنياه ميتا وإن بدا أمـام نظر الناس أنه حيٌّ. والميت ليس ميتَ القبـور. وإنما هو ذلك الذي تمـوت فيه المعاني التى فُضِّل وكرم من أجلها، معاني الإيمـان والبر والتقى، المعاني التي تجعله يعرف حكمـة خلقه وغـاية وجوده. فـلا يعيش في دنياه مفتونـا بها غـافلا عن عاقبته ومصيره.

كما تؤخذ الأنعام بكلأ وماء وتغفل عما هي صائرة إليه ومنتهية عنده.

ومن جحـد الحق الذي نـزل به القـرآن وبه أنزل فقـد رضي لنفسـه أن يكون كـالأنعام بل أضل. ولم تعُـدْ حـواسُّه عـاملةً لـه بل شـاهدةً عليـه، خاضبـةً وساخطة إذ أخضعها لهواه ولم يجعلها ـ كما ينبغي ـ شاكرةً لله ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٧٠٩).

فمن صرفهـا عن هذه الغاية فقـد أماتها وفقدها وإن ظـن أنه يملكها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(٧١٠).

هذا الموت لـلإنسان بذهاب قيمته وفقـدان مكانته. سببه مـا اختاره لنفسه من مفارقةٍ لنور القرآن وهدايته.

فقد فَقَـد بذلك معنـى الحياة وتخبط في ظلمـات الهوى ومغـريات الـزينة والمتاع.

ولم يعـد له من نـور يمشي به في النـاس ويبصر بـه ما هـو ساع إليـه ومنتهٍ عنده. ولا يستوي من فقد الحياة ـ حياة القرآن ـ ومن نَعِمَ بها.

---

(٧٠٩) سورة النحل: ٧٨.

(٧١٠) سورة الأعراف: ١٧٩.

لا يستويان في واقع الحياة كما لا يستويان في العاقبة والمصير.

هذا ينعم بصفات الخير من البر والصدق والأمانة والعدل، ينعم بتقوى الله والرضا عن الله في كل حال. وذاك يشقى ويظمأ وإن حيزت له الدنيا بحذافيرها ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(711).

القرآن روح وهدى ونور. وتلك أمور لا غنى لحيٍّ عنها، ولا مقصد يتحقق بدونها ولا سلم ولا أمن يُرْجى بغير صدق الولاء لها.

روح: وبالروح تتحقق الحياة. وهدى، ومن أعرض عن هدى الله فمن يهديه من بعد الله؟

ونور: وهل يُرجى للحياة نور من غير نور الله ﴿**ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور**﴾ ومن جحد ما جاء به القرآن وأعرض عنه، فقد الروح والنور والهدى.

فلا حياة ولا ضياء ولا استقامة. بل موت ودمار وخراب، وظلمات بعضها فوق بعض، وفتنٌ كقطع الليل المظلم. تموج بالأشلاء والدماء وصراخ المظلوم وسُعَارِ الظالم. ومن تدبر حال الإنسانية ـ وهي تُعرض عما جاءها من الحق وتركن لهواها ـ يراها كيف تتصارع لغير غاية، وكيف تُساقُ بإعراضها عن الحق إلى أسوأ حالٍ في دنياها وأسوأ مصير في عاقبتها وأخراها. وستمضي فيها سنن الله كما مضت في السابقين من قبلها ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾(712).

---

(711) سورة الأنعام: 122.

(712) سورة الطلاق: 8 ـ 11.

ذاك حديث القرآن عن القرآن. فليتدبره من شاء أن يتدبر، ولينظر ما هو عليه، وما هو صائر إليه. وطوبى لمن اتبع سبيل من أناب إلى الله وعمل بما جاء من الحق. طوبى لمن آمن بالله وعمل صالحًا واتبع النور الذي أنزل. طوبى لمن عُصم من طغيان نفسه وفتنة هواه، وويل لمن اتبع هواه فضلَّ عن سبيل الله.

١٢٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله في سورة الزخرف ﴿حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (٧١٣).

﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ بداية فيها إشارة بالقرآن وتعظيم لشأنه.

إذ يقسم الله به موصوفا بهذا الوصف الذي لا يدع عُذْرًا لمعرض عنه أو جاحد به. فهو بين واضح جلي في لفظه ومعناه. مبين طريق الهدى وكلَّ ما يحتاج الناس إليه في دنياهم وأخراهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٧١٤) ذاك بعض ما تضمنه القسم بالكتاب المبين.

وقد نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأبينها للتخاطب بين الناس.

ولهذا قال الله عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهذه الآية جواب القسم. وفي التناسب بين القسم والمقسم عليه ما يلفت النظر إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم. فهو المقسم به والمقسم عليه دون حاجة أن يُدَلَّل عليه بشيء خارج عنه، وهو قسم حسن بديع يحقق ما سيق له.

فالقرآن هو الدالُّ على نفسه، المبينُ لمكانته وعلو شأنه. وقد جعله الله بلسان عربي مبين جعله بلغة العرب فصيحا واضحا؛ ليفهموه وليتدبروا معانيه.

---

(٧١٣) سورة الزخرف: ١ ـ ٤.

(٧١٤) سورة النحل: ٨٩.

فلا عذر ولا حجة لمن نزل فيهم إن هم جحدوه أو أعرضوا عنه . ولا عذر كذلك لمن بَلَغَه وأُنذر به . فإن معناه وفحواه ليس بعيدًا عن فطرة الخلق أو دخيلا عليهم ، بل هو آيات بينات تُتْلى وتشاهد في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس .

فهو لا يخاطب الناس إلا بالصدق ولا يحدثهم إلا بالحق ولا يَنشُدُهم إلا قوامين بالقسط .

وفي خطاب القرآن وحديثه ما يدل على أنه حديث الخالق إلى المخلوق .

الذي أنعم بالخلق ورحم بالهداية . فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والناس مخاطبون بالقرآن وفيه إعجازه . مخاطبون بما صح عن رسول الله ﷺ وفيه دلالة نبوته وسماتُ خلقه .

يقول الجاحظ في البيان والتبيين وهو يصف كلام رسول الله ﷺ «لم يسمع الناسُ بكلام قطُّ أعمَّ نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ» وقد صدق الجاحظ فيما قال . فإن كلام الرسول ﷺ هو مادة البلاغة العربية بعد القرآن الكريم .

وهذا السمو معنًى ومبنًى في القرآن أولا ثم في حديث من نُزِّل عليه القرآن يلفت النظر إلى أن لغة العرب قد اكتسبت فضلا بنزول القرآن ، وسطعت نورًا تطوف به من الآفاق دون توقف . نور مبين يبقى في الناس بقاء الشمس في العالمين . وهذا النور هو الذي طوَّع النفوس ، فنطق اللسان الأعجمي في ديارٍ لم تكن تعرف من قبل لغة العرب . ولكنها نطقت لتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وهي تتلو كتاب الله تلاوة راغب محب ، وتحفظه حفظًا . وهي التي لم تكن من قبل تنطق من لغة العرب حرفا ولا لفظا .

ذلك لأنها وجدت فيه الاستقامة والعدل والهدى والتُّقى والتبصرة والذكرى، وعرفت به حكمة وجودها وغاية خلقها ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٧١٥).

وهكذا امتدت العربية مع امتداد هذا النور، وأصبح الناطقون بها لا يحدُّون بحدود الأوطان والأزمان، ولا يوصفون بوصف الجنس والقوم، وإنما يوصفون بلغة القرآن فمن نطق بالعربية فهو عربي حيث كان في أي زمان أو مكان.

وهذا شرف يجب أن ينتبه العرب إليه، وألا يشرذموا أنفسهم بمفاهيم بعيدةٍ عما فضَّلهم الله به من نزول القرآن بلغتهم وجعله نورًا وبرهانا للناس أجمعين. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾(٧١٦).

إنه شرف لا يدانيه شرف وهم مسئولون عما شرِّفوا به. هل قدروه حق قدره أو ابتغوا العزَّ في غيره ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾(٧١٧).

إن ما شرِّفوا به هو أرفع عند الله وأبقى وأعلى ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٧١٨) إنه عالي الشأن، عظيم القدر والشرف والمكانة، ذو حكمة بالغة ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٧١٩).

ألا وإن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين قد صان اللغة العربية وحفظها. ورفع قدرها وشرفها. فامتدت بنوره في مشارق الأرض ومغاربها.

فلنحرص على لغة القرآن ولنكن وثيقي الصلة بنوره وهدايته؛ لنرى كلَّ شيء على حقيقته، ونهدي في كل شأن للتي هي أقوم بنوره وهدايته.

(٧١٥) سورة الزمر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٧١٦) سورة النساء: ١٧٤.

(٧١٧) سورة الزخرف: ٤٤.

(٧١٨) سورة الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠.

(٧١٩) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٧٢٠].

عجيب أمر هؤلاء الكفار الذين يجحدون بآيات الله وهم يعلمون أنها الحق.

إذ لا تغيب عنهم دلالة القرآن ولا صفات منْ أنزل عليه ﷺ.

ومع هذا تراهم ــ وقد أمدَّهم الله بالنعم ــ ينسون أنفسهم ويصفون الحق الذي جاءهم وهو القرآن والرسول ـ الذي يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته ـ بأن ساحر وما جاء به سحرٌ وأباطيل ليس بوحي من الله، ويعلنون أنهم بما أرسل به جاحدون؛ عنادًا واستكبارًا أو حسدًا وبغيا. وهم يقولون هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، يعنون مكة والطائف. هلاَّ أنزل القرآن على أحد رجلين عظيمين وهما الوليد بن المغيرة في مكة ومسعود بن عروة الثقفي في الطائف. فكل منهما عظيم المال والجاه وسيِّد في قومه. وهؤلاء القائلون قد جَهِلُوا وعَمُوا وغاب عنهم أنهم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا. فكيف يعترضون على تخصيص النبوة والرسالة في بعض العباد وهم يرون أن الله يُقسِّم الأرزاق ويفضِّل بعضهم على بعض في الرزق، ويعلمون أن أحدًا من العباد لا يخلق شيئًا ولا يملك رزقا ؟!

فكيف بهم يقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، اعتراضا منهم وإنكارًا وجحودًا ؟ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾.

---

(٧٢٠) سورة الزخرف: ٣١ـ٣٢.

إن هؤلاء الذين غلب عليهم المتاع فرأوا العظمة في المال والضياع والشاة والبعير قد خلطوا بين موازينهم الباطلة وبين ميزان الله .

وكم من فقير تقي شريف النفس هو خير عند الله من ملء الأرض من مثل هؤلاء و ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ .

ولقد اختار سبحانه من يعلم أنه أهل لرسالته وشهد له بما يتميز به من قيمة تُعلي قدره . شهد له بسمو الخلق فقال جل شأنه ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ .

وقد عُرِف بذلك في بيئته قبل مبعثه .

اختار الله من هذا ميْزَته لِيُتَمِّمَ به مكارم الأخلاق .

ولكن النفوس إذا هبطت وأخلدت إلى الأرض أخذت بزينة الحياة وغَفَلت عن قيمتها والقيمة فيما يبقى لا فيما يذهب ويفنى .

وكم من أمور لها عند الناس شأن وليس لها عند الله قدرٌ ولا وزن .

في الصحيحين من حديث أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول ﷺ قال : «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرؤا إن شئتم ﴿**فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا**﴾» .

ومن تدبر أمر الحياة عرف أين تكون الباقيات فعمل بها وتخلَّق بأخلاقها .

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

أما أولئك الذين يخدعون بدنياهم فيحبون العاجلة ويذرون الآخرة فإن القيمة عندهم في المظهر لا في المخبر، وفي العرض لا في الجوهر. وأولئك لا يفيقون إلا عندما يُحاط بهم ويرون أنفسهم مجردين من زينتهم ومتاعهم ، مسئولين عن إيمانهم ويقينهم . عندئذ يدركون قيمة ما فرَّطوا فيه ، وضياع ما حرصوا عليه ورأوا أنفسهم به .

وكم نبّه القرآن الكريم على موطن القيمة ولم يجعلها إلا في إيمانٍ وتُقى وخشية. مبعدا ما يظنّه الناس منها، فقال جل شأنه ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾[721].

هنا تكون قيمة الإنسان: في خشية وتُقًى وإيمان لا في ضياع ومتاع.

والقيمة تبقى والزينة تذهب وتفنى.

وقد شاء الله سبحانه أن يفاوت بين أرزاق العباد لعمران الأرض ونمو الحياة ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾. إن التفاوت في الرزق هو الذي يسخّر هذا لذاك ويسخّر ذاك لهذا دون مَنٍّ أو استعلاء ولو كان الجميع على حال واحدة لاستحال أن تصلح الحياة.

والذين يجعلون من تفاوت الرزق إكراما أو إهانة، ويرون العظمة فيمن بُسِط له يجهلون أن من بُسِط له مسخَّر لغيره، وغيره مسخر له، في تفاعل تنتظم به شئون الحياة وتتحقق حكمتها في الابتلاء والامتحان، ويعرف قدرُ الناس في صبر وشكر أو جزع وكفر ثم تطوى الحياة بأرزاقها وتأتي العاقبة التي تنبئ عن الفوز والفلاح.

ولن تكون إلا لمن آمن وعمل صالحا ولا يُلقاها إلا الصابرون. **﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾** والله يختار لها من يشاء، ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا. فهذه يشترك فيها الأبرار والفجار. وينالها الصالحون

---

(٧٢١) سورة المؤمنون: ٥٥ ـ ٦١.

والطالحون، بينما يختص الله برحمته ويختار وهو بكلِّ شيء عليم. وهو أعلم حيث يجعل رسالته ومن ذا الذي يستحق رحمته.

وكل متاع في دنيانا لا يتجاوز حدودها. ﴿**والآخرة عند ربك للمتقين**﴾ وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم. لهم عند الله ما هو أكرم وأبقى.

وأولئك الذين يعترضون على اختيار الله لنبيه ﷺ لأنه لم يرث شيئًا من عرض الحياة الدنيا، ويقيسون الرجال بما يملكون من عرض الحياة قد أسَرَتْهم دنياهم فلم يدركوا زهادتها وأنها قد تُعْطَى لشرِّ الناس وأبغضهم عند الله. وأن ما يُعْطَاه الفجار لا يدل على قيمة لهم أو كرامة عند الله. بل الكرامة في موقف الإنسان مما يُمْتحن به وإجابته فيها إهانته أو كرامته. وكرامة المرء في تقوى الله ومعرفته وخشيته. وأكرم الناس عند الله أتقاهم ومحمد رسول الله ﷺ هو أتقى الناس لله وأخشاهم.

ولقد اختاره الله ليتمم به مكارم الأخلاق ويهدي إلى صراط مستقيم.

وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين.

١٣٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٧٢٢] إن من تدبر شئون الحياة أيقن أن لا قيمة ولا نجاة للإنسان إلا بالإيمان بالحق والثبات عليه والرضا بحكمه. فإن الإنسان إنما يَشْرُفُ بالعمل الباقي لا بالعرض الزائل.

ومن أيقن أن دنياه ذاهبة، وأن أخراه قادمة باقية لم يُعَمِّر دنياه على حساب أخراه. ولم ينس نصيبه من الدنيا وهو ينشد العاقبة ويرجو رحمة الله.

---

(٧٢٢) سورة الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤.

لأن نسيان الدنيا قد يعوِّق خطاه في تحصيل ما يرجو به الفوز والنجاة .

ومن يُرِد الدنيا غافِلاً عن الآخرة قد يفرِّط في الاستمساك بالحق والثبات عليه . وعندئذ يخسر دنياه وأخراه .

ولا يحقق التوازن والاعتدال في موقف الإنسان بين دنياه وأخراه إلا الاستمساك بما نزل من الحق والعملُ به .

فإن الاستمساك بما أوحى الله إلى نبيه وهو الحق خير لدنيانا وأخرانا ولا خير يُرجى للدارين بغيره . ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾(٧٢٣).

لذا وجب أن يُستمسك بالحق وأن يحرص عليه وأن تُحذر مخالفتُه أو الإعراض عنه .

وفي توجيه الرسول ﷺ على هذا النحو ﴿**فاستمسك بالذي أوحي إليك**﴾ عناية بالمأمور به وإرشادٌ للمؤمنين أن يقتدوا بنبيهم ﷺ وهو يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم . وقد يلقى الإنسان ما يلقاه في التمسك بالحق والدعوة إليه ، ولكن لا سبيل لفوزٍ أو نجاة إلا بالتمسك بالحق والثبات عليه والعمل به . وما يلقاه في دنياه في سبيل التمسك بالحق فوزٌ له في أخراه . ذاك ما نبَّه القرآن له ودعا إليه وجعله شرطًا في طلب النصر من الله ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾(٧٢٤) وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(٧٢٥) وسبيل ذلك هو إخضاع النفس لمرضاة الله وتغليب أمره على هواها ، حتى يتحقق فيها نصْرُ الله قبل أن يُطْلَبَ في حربٍ أو خصام . إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك ، إن تنصروا الله في أنفسكم ينصركم على أعدائكم ويثبت أقدامكم .

---

(٧٢٣) سورة محمد : ٢ .

(٧٢٤) سورة الأنفال : ١٠ .

(٧٢٥) سورة محمد : ٧ .

ومن خذله في الأولى كيف يطلب نصره في الثانية ؟ من خذله في نفسه كيف يطلب نصره على عدوّه ؟ فصلاح النفس أصل في طلب الفوز. وسنن الله لا تخضع لأماني الناس. والحق لا يتبع أهواءهم ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(٧٢٦) سننٌ عادلة بها يتحقق الإصلاح ويُدْرأُ الفساد. ويعلم الناس أن الخير الذي ينشدونه لأنفسهم والشر الذي يخافون مرتبط بعملهم وقصدهم. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

من هنا نستطيع أن نتدبر وأن نُفِيد من خطاب الله لنبيه بقوله **﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم﴾**. إنه أمرٌ بالثبات على ما هو عليه، والسير في طريق الحق وهو مطمئن القلب دون مبالاة بصدٍّ أو كيد **﴿إنك على صراط مستقيم﴾**. والله وحده هو الذي يتولى الأمر في الانتقام من المكذبين، وهم ليسوا بمعجزين ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾(٧٢٧).

والتناسب بين الآيات بيِّن واضح. ودلالة الخطاب لنبيه بقوله **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾** في مقام الحديث عن المكذبين وردِّ كيدهم والانتقام منهم لا تخفى. فقوله **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾** هو إجمال للأخذ بالأسباب التي لا بد منها لطلب النصر ورد الكيد. فخذوا بالأسباب معشر المسلمين مهتدين بما أجمله بقوله **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾**. خذوا

---

(٧٢٦) سورة النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٧٢٧) سورة الزخرف: ٤١ ـ ٤٤.

بالأسباب ولا تفرطوا فيها، فإن الأخذ بالأسباب ــ كما أمر الله ـ طاعة له، والتفريط فيها معصية. كما أن الركون إليها دون توكل على الله مفسدة ومضيعة.

إن الله سبحانه الذي أخبر عن الكفار بقوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ لم يترك مجالاً لاحتمال أن يركن المسلم لذلك دون أن يأخذ بما أوجب عليه من إعدادٍ واستعداد بل قال بعدها مباشرة **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** قال ذلك بعد قوله **﴿إنهم لا يعجزون﴾** والإعداد في جميع الأمور مرتبط بمنهج يجمعه قوله **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾** والقرآن الكريم ــ وهو محفوظ بحفظ الله ـ يذكر الأجيال كلها ويبصرها بما يجب أن تكون عليه من إعداد واستعداد يرتبط كل الارتباط بمفهوم قوله **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾** استمساكٌ بكل ما أوحى الله به إلى نبيه ﷺ وعملٌ بمقتضاه. ومن عاد عن ذلك ضل السبيل.

وهذا الذي أوحى الله به إلى نبيِّه ﷺ وأمره بالاستمساك به شرفٌ لمن تلقَّاه واستمسك به، ومن أباه وأعرض عنه دفع ثمنا غاليا، وعاش في دنياه مهينا بلا عز ولا شرف، وسئل يوم القيامة عما فرط فيه وضيع **﴿إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾**.

١٣١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ حديث القرآن عن القرآن هنا في هذه السورة فيه بيان لموقف الناس من القرآن وما يلقونه من جزاء لقد ذكر في هذه السورة سبب ما يلقاه هؤلاء وأولئك الذين آمنوا به والذين كرهوه وصدُّوا عنه. ولا أحد يفلت من لقاء أو يفر من حساب وجزاء ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾.

إن الحق الذي أنـزل هو الميزان الذي تـوزن به الأعمال وبه وعليـه يحاسب الناس. فمن اتبع هداه نجا وفاز ومن أعرض عنه خَسِر وهلك.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾(٧٢٨). تلك هي النتائج لمن اتبع الحق أو أعرض عنه. وتأتي الساعة ـ وقـد اقتربت ـ فتفـرق بين هؤلاء وأولئك.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾(٧٢٩).

ولنتدبر ما جاء في هذه السورة، سـورة الزخرف لنرى النتائج والعواقب ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٧٣٠).

تلك هي النتيجة لمن آمن بالحق وعمل به.

أما الذين كرهوا الحق وأعرضوا عنه فتلك عاقبتهم وهذا مصيرهم.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

(٧٢٨) سورة محمد: ١ ـ ٣.

(٧٢٩) سورة الروم: ١٤ ـ ١٦.

(٧٣٠) سورة الزخرف: ٦٦ ـ ٧٣.

مَٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ (٧٣١). ذاك هو القرآن وهذا بيانه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾.

وماذا بعد أن تعرف نتائج الأعمال وتذكر عواقبها؟ لا حجة لأحد بعد بيان ولا عذر بعد إنذار و إعذار. بيان للناس جميعا. وهدى وموعظة للمتقين.

ومن تدبر العاقبة في كل أمرٍ لم تلهه اللَّذة الذاهبة عما يكون لها من عاقبة. فإنَّ من أَلْهته الرغائب عن العواقب فنيت رغائبه وبقيت عواقبه. ومن كره الحق في دنياه لقيه نارًا في أخراه. ومن رغب فيه وعمل به وجَدهُ نورًا يمشي به في دنياه ويسعى في أخراه ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.

ومن ضيَّعه هنا سيفقده هناك.

فليتيقظ لذلك أهل الإيمان وليكن حديث القرآن إليهم حديث موعظة وذكرى، وليحذروا أن يكون كأولئك الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

فليحذروا قسوة القلب التي تحول بين الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق وتبعد عن سماع القرآن وتدبره والانقياد له. وليجعلوا أمام أنظارهم قول ربهم وليتدبروا ما يوحي به وما يحذِّر منه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٧٣٢).

فعلى الذين بعدوا عن الحق أن يئوبوا إليه وأن لا ييأسوا من صحوة نفس وإحياء قلب، فإن في هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض بعد موتها بالماء فتنبض بالحياة وتنبت من كل زوج بهيج.

---

(٧٣١) سورة الزخرف: ٧٤ـ٧٨.

(٧٣٢) سورة الحديد: ١٦ـ١٧.

ولنتدبر التناسب بين قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وقوله جل شأنه ﴿اعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الدخان ﴿حمٓ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾(٧٣٣).

أقسم الله في قوله والكتاب المبين على أنه سبحانه قد أنزل القرآن في ليلة مباركة وهي ليلة القدر. كما قال الله عز وجل **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** وكان ذلك في شهر رمضان كما قال الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ أنزل جملة واحدةٍ من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه. وتلك هي الليلة المباركة. **﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾** ثم نزل بعد ذلك مفصلا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ.

إنها لليْلةٌ مباركة تلك التى أنزل فيها القرآن وهي خير من ألف شهر.

وهكذا نرى بركة القرآن في كل شيء.

نرى بركته في ذاته، وفي الزمن الذي أنزل فيه. وفي آثاره ونتائجه.

ففي سورة الأنعام نقرأ في آيتين منها قوله تعالى **﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ**

---

(٧٣٣) سورة الدخان: ١ ـ ٨.

﴿بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٧٣٤] وقوله ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٧٣٥].

ونقرأ في سورة الأنبياء قوله تعالى ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[٧٣٦].

ونقرأ في سورة «ص» قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٧٣٧] فهو مبارك في ذاته، وفي آثاره ونتائجه، وفي الزمن الذي اقترن به.

والإخبار بذلك له دلالته في الحث على التزود منه، واتباع هدايته، والحذر من مجافاته أو مخالفته.

فالليلة التى أنزل فيها ليلةٌ مباركة هي خير من ألف شهر، مَنْ حُرِمَ خيرها فقد حرم. ليلة مباركة ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾ رحمة من الله بالعباد وإنذارًا لهم وتحذيرًا. والقسم بالكتاب المبين على تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة فيه ما فيه من إشادةٍ وتكريمٍ وتعظيم لشأن هذا الكتاب.

فَبِهِ حفظ الله للناس رسالة الأنبياء جميعا كما جاءت من عند الله.

وبقي القرآن للحياة بقاء النور في الكون، لا يَتَوقَّف مدُّه ولا يُطْفَأُ نوره، ولا ينفدُ عطاؤه. به تفجرَّت ينابيع الحكمة وامتدت أنهار المعرفة. وعرف الناس حكمة الخلق وحقيقة الوجود، ورأوا الأنبياء جميعا في موكبٍ واحد دعاةً إلى دين واحد مأمورين بأمر واحدٍ ﴿**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾.

فأقام بذلك أسس العدل والسلام بين العباد على أساسٍ من بيان حقيقة الدين وما جاء به الأنبياء، وأن بعضهم يصدِّق بعضا وينصر بعضهم بعضا دون

---

(٧٣٤) سورة الأنعام: ٩٢.
(٧٣٥) سورة الأنعام: ١٥٥.
(٧٣٦) سورة الأنبياء: ٥٠.
(٧٣٧) سورة ص: ٢٩.

تفرقة أو اختلاف فمن اختلف في شأنهم من البشر فاختلافه مصدره الهوى لا الدين .

ومن آمن ببعضٍ وكفر ببعض فقد كفر بهم جميعا ، لأنهم جميعا دعاة إلى دين واحد أقاموه ولم يتفرقوا فيه .

وهذا ميثاق الله الذي أخذه عليهم فعملوا به وبلغوه كما أمروا ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٧٣٨) .

هـذا ما جـاء به القـرآن وما أعلنـه وحفظه الله رحمـةً للعالمين وإنـذارًا لهم وتحذيرًا . فمن ابتغى غير ذلك فقـد ابتغى غير دين الله ، ونسب إلى الأنبياء ما لم يكونوا عليه .

ووقع فيما حـذَّر منه القـرآن وأنذر ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٧٣٩) ذاك إنذار هذا الكتـاب الذي أنـزله الله في ليلـة مباركـة ليضع به حـدًّا فاصـلاً بين الحق والبـاطل والهدى والضـلال ، في حقيقـة الاعتقاد وهـو أصل الـدين . وسيظل نداؤه مَوْصُولاً للعالمين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

---

(٧٣٨) سورة آل عمران : ٨١ ـ ٨٢ .

(٧٣٩) سورة آل عمران : ٨٣ ـ ٨٥ .

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[740] نداءٌ مُنْصِفٌ بارٌّ كريمٌ رحيم.

ينصف الحقيقة ويصون الخلائق من الفرقة والتنازع، والطغيان والفساد.

نداءٌ يدعو الجميع إلى كلمةٍ سواء لا يبغي معها أحدٌ على أحد.

إذ الناس جميعا من أصل واحد. الله ربُّهم وهم عباده كلهم لآدم وآدم من تراب. من هنا تنبع الشريعة التى تعدل بين الناس ولا تفرق ويكون الأمن والسلام ناشئًا من اعتقاد أن لا فرقَةَ في الدين بين نبي ونبي أو رسول ورسول.

وعندئذ يُمْحَى التعصب للباطل، ويكرّم التمسك بالحق بميزان اللقاء على كلمة سواء نزل بها كتاب مبارك في ليلة مباركة.

إنها لكلمة الحق التي لا يقر فيها طاغٍ على طغيانه ولا باغٍ على بغيه.

﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

كلمة جامعة لصفات الخير، مانعة من دواعي الطغيان والكبر والفساد والشر.

فإن أبى الناسُ إلا أن يتخذ بعضُهم بعضًا أربابًا من دون الله، إن أبوْا إلاَّ أن يتخذوا من دون الله أنْدَادًا. فليعلموا أن العـزَّة لله جميعا، وأن القوة لله جميعا. وأن الله شديد العذاب.

وليشهدوا جميعا أنا مسلمون.

١٣٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الدخان ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾[741].

(٧٤٠) سورة آل عمران: ٦٤.
(٧٤١) سورة الدخان: ٥٨ ـ ٥٩.

أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلا واضحا بينا جلِيًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأحلاها وأعلاها ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ أي يتفهمون ويعملون. ولما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند ـ قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسَلِّيًا له ومُسَرِّيًا عنه وواعدًا له بالنصر، ومُتَوَعِّدًا لمن كذَّبه بالخسران والهلاك قال سبحانه ﴿**فارتقب إنهم مرتقبون**﴾.

فسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة وعلوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة.

فذاك وعد الله لرسله ومن آمن معهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾(٧٤٢) إن التذكير بنعمة الله في تيسير القرآن الكريم وإدراك معانيه له دلالته في تحقيق الشكر واتباع الذكر والتخويف من سوء العاقبة والمصير في التكذيب به أو الإعراض عنه.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن الذى أنزلناه إليك بلسانك، ليتذكر هؤلاء المشركون بِعِبَرِه وحججه ويتعظون بعظاته ويتفكروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم، فينيبوا إلى طاعة ربِّهم ويذعنوا للحق الذي تبين لهم ويتبعوا سبيله؛ فإن الأمور بعواقبها.

ومن تدبر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبدًا فإن العاقبة له ولن تكون لشيء سواه. ﴿**فارتقب إنهم مرتقبون**﴾ يخاطب الله نبيه بما يئول إليه أمْرُه وأمْرُ أولئك المكذبين بالحق والصَّادِّينَ عنه. فانتظر الفتح من ربك والنصر على هؤلاء المشركين بالله من قومك إنهم منتظرون عند أنفسهم قهرك وغلبَتك بصدِّهم عمَّا أتيتهم به من الحق من أراد قبوله واتباعك عليه.

---

(٧٤٢) سورة غافر: ٥١ ـ ٥٢.

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾(٧٤٣) من هنـا يعلم أن الحق الذي يخـاطب به النـاس سيحاسبـون عليه من الله الذي لا يعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض. ولقد حفظ الله القرآن الكريم ليكون بلاغا للناس أجمعين.

وبحفظه قد حفظت الرسالات وبقيت أمام أعين الناس كما جاءت من عند الله مصونة من التلبيس والتدليس. حفظت في كتـاب عزيزٍ لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه، فمن خـالفه أو أعـرض عنه فلينتظـر ما سيئـول إليه. فسيعلم جميع الخلق تأويل ما أخبر به أو حذّر منه ﴿**فارتقب إنهم مرتقبون**﴾. وستكون الحسرة والندامة لأولئك الذين نسوه وأعرضوا عنه وكذَّبوا ما جاء به.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾(٧٤٤).

إن الحق ليس ضياعـا في حياة الناس ـ إن هم كـرهوه أو أعرضوا ـ فإنه من ربك وربُّك على كل شيء حفيظ إن ما أخبر به أو حذر منه واقعٌ لا محالة.

وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس تدعو إلى هـذا الحق وتشهد به وله. وسنَّةُ الله في حياة أو موت تبلِّغ الناس وتذكـرهم أن عمرهم المحدود في دنياهم فترة امتحان لا تعود. والله قد ﴿**خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً**﴾.

والموت يقدِّم عبرته وعظته للحياة.

والحياة تذكر بالبعث والنشور. وما من لحظة إلا ويُولد من يولد ويموت من يموت. فـإذا لم تَزُل غفلة الإنسـان بهذا التعـاقب بين موت وحيـاة فبأي شيء تزول؟ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٧٤٥).

(٧٤٣) سورة الزخرف: ٤١ ـ ٤٢.
(٧٤٤) سورة الأعراف: ٥٣.
(٧٤٥) سورة البقرة: ٢٨.

﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾(٧٤٦).

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾(٧٤٧).

وهكذا يبصر القرآن ويذكر ويُري النـاس نتائج أعمالهم وما هم صائرون إليه ومنتهون عنده ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

١٣٤

ومن حـديث القـرآن عن القرآن مـا جـاء في سـورة الجاثيـة ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾(٧٤٨).

حديث القرآن عن القرآن في هذه الآيات فيه بيان لمصدره وأنه تنزيل من الله العـزيـز الحكيم. وفي هـذا البيان مـا فيـه من حثٍّ على اتبـاعـه والحـذر من مخالفته؛ فإنه تنـزيل من الله العزيز الذي لا يغلب، فهو عزيـز في انتقامه من أعدائه حكيم في تدبيره أمْر خَلْقِه.

وتلك آيـاته في الآفـاق وفي الأنفس شاهـدة على قـدرته معبـرة عن تدبيـره وحكمته.

وهي ليست بعيدة عمن يخاطبون بهذا القرآن في أي زمان أو مكان.

إنها آيات ذات تأثير بالغ في حياتهم بإذن الله لا تبارحهم ولا تنفك عنهم.

---

(٧٤٦) سورة طه: ٥٥.

(٧٤٧) سورة نوح: ١٧ ـ ١٨.

(٧٤٨) سورة الجاثية: ١ ـ ٦.

ومن يقرأ الآية في كتاب الله يرى دلالتها في نفسه وفي الكون من حوله .

لتكون زادًا للإيمان وتبصرة لكل عبد منيب .

آيـات وآيـــات في الأنفس والآفـاق، في السمـــوات وفي الأرض تعلن عن نفسها وتدعو الناس إلى الإيمان بمبدعها وخالقها .

آيات وآيـات في الأنفس والآفـاق يشير إليها القـرآن الكريـم بآياتـه فلتمسّ القلب وتوقظ العقـل وتخاطب الفطرة التي لا يحتـاج إيقاظهـا إلاَّ إلى كلمات موحية كآيات القرآن العظيم . فمن لم يـؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواهـا . ومن لم تـوقظه هـذه الإشارات الموحيـة فلن يُوقظـه إلا ما يلقـاه من عذابٍ أليم ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن أي كلامٍ لن يبلغ كلام الله في القـرآن و إن أي عملٍ لن يبلغ إبداع الله في الكون والإنسانُ يسمع الآيات تُتْلى عليه ويرى الآيات تتحدث إليه .

يراهـا في ليل ونهـار، وشمس وقمر، وأرض سمـاء، وزرع وماء، يراهـا في نفسه وفي الآفـاق من حوله . دالَّـةً على وحدانيـة الله داعيةً إلى عبادتـه وصدق الإخلاص له . موحية بفضله ورحمته ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٧٤٩) .

فمن أخذ من هذه الآيـات زادًا لمعاشه ومتاعه . ولـم يأخذ منهـا زادًا لإيمانه وتبصرة ليقينه فقد ظلم نفسه .

---

(٧٤٩) سورة البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤ .

إن القرآن وهو يبصر الناس بـآيات الله في السموات وفي الأرض يدعوهم أن يأخـذوا منها لأنفسهم التبصـرة والذكـرى وأن تكون زادًا للتقوى قبـل أن تكون للمتــاع. فإن المتــاع قــدرٌ مشتــرك بين الإنســان والأنعــام ﴿متاعـا لكم ولأنعامكم﴾[٧٥٠] ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[٧٥١].

ولكن التبصرة والذكرى ينفرد بها الإنسان المخاطب بشرع الله وآياته.

فمن قَصَر الآيات على المتـاع دون غيره فقد رضي لنفسه أن يكـون كالأنعام بل أضل وأولئك هم وقود النار، فقد ضيعوا ما خلقوا وما كرموا من أجله وعطّلوا حواسَّهم وأبوا أن تكـون لشيء إلا لمتاعهم وشهواتهم ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٧٥٢].

إن آيات الله في السمـوات وفي الأرض توحي لـلإنسان بما لا تـوحي به إلى الدواب والأنعام. وحـديث القرآن تتسق فيه آياتـه مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس لتُسمع وتُـرى وتُقْرأ وتُشـاهد. وتشيـر إلى الغايـة التي من أجلها أنـزل القرآن وخلق الإنسـان وتلك هي الغاية التى تشيـر إليها وتدعـو لها: والتي من أجلها خلق الإنسان وعليها يحاسب ويجازى.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[٧٥٣].

---

(٧٥٠) سورة عبس: ٣٢.

(٧٥١) سورة السجدة: ٢٧.

(٧٥٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٧٥٣) سورة الأنعام: ١٠٢ ـ ١٠٤.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾(٧٥٤).

في هذه الآيات وعيد لمن كذب بآيات ربِّه وأعرض عنها و إنذار لأولئك الذين يتخذون آيات الله هزوا .

والآيات و إن ذكر لها سبب خاص لكن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والعموم هنا له دلالته في بيان أن كل إنسان مأخوذ بعمله ، وأن هذا العذاب واقع على كل من كان هذا شأنه في أي زمان أو مكان ؛ لأن سنن الله لا تجامل ولا تحابي ولا تتبدل ولا تتحول .

وسنة الله في المكذبين بالحق المعرضين عنه في أي زمان أو مكان أن يأخذهم بذنوبهم وأن يهلكهم بمعاصيهم ، فلا أمن ولا استقرار لهم في دنياهم ، ولا فرار من الجزاء في أخراهم .

إن التكذيب بالحق إيثار للباطل . والباطل زاهق والحق باق .

وللباطل سرابٌ يحسبه المبطلون ماء . وعندما يؤخذ المبطلون بذنوبهم لن يجدوا الباطل الذي تعلقوا به وأخذوا بسرابه .

والناس يمرون بدنياهم ممتحنين لا مقيمين ، وليس بأيديهم أجل امتحانهم ولا هو مسمًّى عندهم وما أمروا به أو نهوا عنه لمصلحتهم والله غني عن العالمين .

---

(٧٥٤) سورة الجاثية : ٧ ـ ١١ .

فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها .

وبيان النتائج للناس مع ما فيه من إعذارٍ وإنذارٍ فيه رحمةٌ بهم وتذكير لهم قبل أن تقع الواقعة، أو يأتي الأجل الذي لا مفر منه .

ولنتدبر هذه الآيات لنرى ما فيها من بيان وهدى للناس .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ والأفاك : الكذاب المارد على الكذب . والأثيم : كثير المقارفة للإثم . ودلالة إفكه وعلامة إثمه ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ لأنها لا توافق هواه، ولا تسير مع مألوفه ولا تعينه على باطله، ولا تقره على شره .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ يستهزئ بآيات الله التي يعلمها ويتخذها مادة للسخرية ويسخر من الذين يؤمنون بها .

إن هؤلاء النفر من الخلق ـ وهم يتبعون أهواءهم ـ يسخرون من كلِّ شيء لا يوافق أهواءهم . وهؤلاء الذين يسخرون من الحق وممَّن يؤمنون به ويستهزئون بآيات الله سيجدون المهانة جزاءً مناسبا لموقفهم ﴿ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وتلك عاقبة تكذيبهم وسخريتهم ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٧٥٥) .

---

(٧٥٥) سورة المؤمنون : ١٠٤ ـ ١١١ .

تلك هي العاقبة لمن كذب بالحق وسخر منه ولمن آمن به وثبت عليه عاقبة منذرة مبشِّره :

منذرة أولئك الذين يصرون على عداوة الحق ويتخذون آيات الله هزوا .

ومبشرة أولئك الذين آمنوا بالحق وعملوا به وطلبوا مغفرة الله ورحمته .

والقرآن وهو يبين ذلك للناس يدعوهم إلى إنقاذ أنفسهم باتباع الحق والعمل به ﴿**هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجزٍ أليم**﴾ .

تلك بشرى القرآن وهذا إنذاره .

فليحذر الذين يَسْتخفون ببيانه أو يخالفون عن أمره أو يُشْغَلون عن هديه، فليحذروا أن تأسرهم دنياهم فتنسيهم ما هم مقبلون عليه في أخراهم ﴿**يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد**﴾[756] .

١٣٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[757] .

﴿**هذا بصائر للناس**﴾ والإشارة إلى القرآن الكريم فهو بينات من الهدى والفرقان تبصر الناس بما يجب أن يكونوا عليه من صدق الإيمان وصالح الأعمال . وهو براهين ساطعة ونور يقود من اتبعه إلى الفوز برحمة الله ورضوانه .

---

(٧٥٦) سورة المجادلة : ٦ .

(٧٥٧) سورة الجاثية : ٢٠ ـ ٢٢ .

ومع بيانه وهداه لا يظن من عاداه ولم يعمل بمقتضاه، لا يظن أولئك الذين اجترحوا السيئات أنهم سيفلتون من عقاب أو يفرون من جزاء.

لا يظن أولئك أنهم سَيُسَوَّى بينهم وبين من آمنوا وعملوا صالحا.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إن الله قد خلق السموات والأرض بالحق، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وميزان العدل لا يسوِّي بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر.

ميزان العدل يُوَفِّي كلَّ نفس ما عملت فلا تظلم نفس شيئا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٧٥٨) ذاك مقتضى خلق السموات والأرض بالحق أن يُقْضى بين الناس بالحق وإلا كان الخلق عبثا وباطلا. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾(٧٥٩).

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٧٦٠).

إن الله عز وجل لم يخلق الخلق عبثا ولا باطلا حتى يسوي بين من يُفسدون ومن يصلحون وهم يؤمنون أنهم إلى ربهم راجعون.

شتان ما بين هؤلاء وأولئك في الأعمال والنتائج.

---

(٧٥٨) سورة الأنبياء: ٤٧.
(٧٥٩) سورة ص: ٢٧ ـ ٢٩.
(٧٦٠) سورة الجاثية: ٢٢.

والقرآن الكريم يبين ذلك ويُبَصِّر به رحمةً بالناس في دنياهم ليتراحموا فيما بينهم وليجتنبوا السيئات وهم إن تراحموا رحمهم الله ـ والراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. والذين يرون الحياة دنيا فحسب يقع التنافس بينهم على ما يفرق جمعهم ويدمِّر روابطهم. الذين يرونها دنيا فحسب لا يبالون بغدر ولا ظلم، بل يرجعون بكل ما يحقق لهم منفعة عاجلة، فمرحبا عندهم بالظلم والغدر إن حقق لذة أو أحرز غُنْمًا. واحسرتاه عند هؤلاء إن فات المطلوب أو بعد المرغوب. وبمثل هؤلاء تتحول دنيا الناس إلى غابة تتناثر فيها الأشلاء والدماء ولا تصان حقوق ولا تحفظ حرمات.

إن أمن الحياة في الإيمان بيوم الحساب.

والذين لا يؤمنون بيوم الحساب يَضِلُّون ويسيئون.

ووسائل الأمن مهما عظمت لا تحقق أمنا إذا فقد الناس إيمانهم بيوم الحساب ذلك أن وسائل الأمن لا تستطيع أن تئد الجريمة المبيتة في نفس صاحبها قبل أن تولد. إن وسائل الأمن عاجزة كعجز أهلها أن تعرف ما تكنّه الصدور وما تطويه النفوس.

والجريمة في بدايتها عزْمٌ ونية في داخل النفوس قبل أن تكون في خارجها.

فمن ذا الذي يعلم ما في النفوس فيعالج أمرها قبل أن تسوء أو تسيء إلى غيرها؟

إنه الإيمان واليقين بما أخبر الله به ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ هنا يوجد الأمن في حياة الناس بلا تكاليف، وتحقق الرقابة الذاتية في نفس الإنسان مع اليقين والخشية والإيمان، فيكفّ الإنسان شرَّه عن غيره في سرِّه وعلنه، ويكون في ذاته موطن أمنٍ لغيره يأمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم يأمنون لصدق إيمانه وصادق برِّه وعدله. ولا أمن يُرجى بغير صدق الإيمان ووجل القلوب بذكر الله.

وعندئد يكون الأمن والسلام أمنَ حق وعدل وسلامَ برٍّ وخير. ويسعد الناس بنعم الله فلا تساق أقوات الجياع إلى بطون المدافع ولا يحرز قوت أمة جائعة ظالمٌ أو مستبد. ذاك هو الحق: ﴿**وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ فإن أبى الناس إلا اتباع الهوى والإعراض عن الحق فليدفعوا الثمن غاليا في معيشتهم وعاقبتهم فليدفعوه في دنياهم فواجع ومصائب ومعيشة ضنكا، وليدفعوه كذلك في أخراهم عذابا وحسرة وندما.

وسيظل القرآن يذكر ويبصر ويحذر النتائج والعواقب دون أن يُسكت له صوتٌ أو يُطْفَأ له نور. وستبقى الإشارة إلى هداه ما بقيت الحياة.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

١٣٧

من حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(٧٦١).

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا وأصروا على عنادهم وكفرهم، ولم يكن لهم حجة إلا أن

(٧٦١) سورة الجاثية: ٢٥ ـ ٣١.

يقولـوا ردًّا على ما أخبـر به القـرآن الكريم من أمـر البعث والنشور ائتـوا بآبـائنا وابعثوهم من القبور إن كنتم صادقين فيما تقولون من أن هناك بعثا من القبور.

﴿**قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يـوم القيامـة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعملون**﴾ والناس لو تدبروا أمـر الحياة والموت لعرفوا أن البعث قائم فيهم. فإنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا قبل خلقهم.

والقرآن الكـريم يلفت نظرهم إلى ذلك ليعينهم على اليقين بمـا هم مقبلون إليـه وصائرون عنـده ﴿**هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا**﴾.

لقد جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا.

وتلك أعمق الدلالات على النشور. فإن المـوت بعد حياة قد يذكـر صاحبه ولا يُنسى. أما هذا الموت قبل الإحياء، فأي شيء هو حتى يكون مذكورا؟

ومن العجب أن يُنْسى ذلك وأن يكْفـر بـالله وتجحد نعمتـه ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم**﴾ ذاك هو الإحياء القائم في جميع الخلق.

ومنهم من ينسـاه ويجادل في الله ويجحـد بآياتـه، وينكر بعث النـاس من قبورهم وهو أهون مما وقع من قبل فيهم ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾.

والذين يقولون ـ جاحدين ـ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين لا يبصرون أنفسهم فيرون ما صاروا إليه بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ**﴾[٧٦٢]. ﴿**وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ**

(٧٦٢) سورة يس: ٧٨ـ٧٩.

لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(٧٦٣).

آيات بينات واضحات يخاطب بهـا الناس ويرون دلالتها في أنفسهم لعلهم يتفكرون. فسبحان من خلق الموت والحياة وجعلهما ماضيين لا ينقطعان فما من لحظة إلا ومولود يُولد على الأرض وميتٌ يُقْبر فيها.

والموت يقدم للحياة عظته وعبرته، والمولود يقدم للناس دلالة القدرة، قدرة الله على البعث والنشور. فهل تسلم ساحـة الحياة من الكفر والجحود، وينعم الناس بأمن الإيمـان ورشد اليقين؟ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولا خير يرجى للحياة بعد اعتقاد ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾.

البعث حق وبه يصان الحق ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(٧٦٤).

والـذين يستبعـدون بعثهم ينسـون خلقهم. ويجـزون بـالنسيـان نسيـانـا. ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ ومن أنسـاه الله نفسه، فسق وضل وأفسـد في الأرض ولم يصلح وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

فإذا جاء الأجل المحتوم ووجد تأويل ما أخبره به القرآن أعلن إيمانه بما كان قد استبعده وأنكره، والتمس العَوْدَ فلم يجد، وطلب الشفعاء فلم يُجَبْ. وهنا ينقطع زعمهم ويأتي اليقين ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(٧٦٣) سورة مريم: ٦٦ـ٦٧.

(٧٦٤) سورة يونس: ٥٣.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾(٧٦٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه ما فيه من توجيه النظر إليه والعمل بمقتضاه فهو تنزيل من الله العزيز الحكيم. وكفى أن يعلم أن هذا الكتاب قد جاء ممن يستحق أن يعبد ولا يُجْحد. العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، الحكيم الذي دبَّر كلَّ شيء وقدّره بحكمته. فلا سبيل إلى جحود ما جاء منه ودعا إليه.

فإن كل شيء مرجعه إليه لا إلى غيره ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٧٦٦) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

كتاب من الله العزيز الحكيم جدير أن يستمسك به وأن يستجاب لندائه، وأن تحذر مخالفته أو الإعراض عنه. فإن من أنزله له القوة جميعا والعزة جميعا. من أنزله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ومن أنزله سبحانه جعله محفوظا لا يُنْسَخُ، عزيزا لا يغلب مهما غُلِبَ الناس من حوله. فليحذر الذي يخالفون عن أمره، وليُفِقْ الذي يَغْفُلون عن ذكره؛ فإن الله الذي أنزل الكتاب هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وأقام هذا الكون على نظام دقيق، وجعله قائما أمام أعين الناس؛ ليجدوا في دلالته عونا على طاعة خالقه وعدم مخالفته. وما خلق الله ذلك إلا بالحق ليُعان الناس في كل زمان ومكان على اتباع ما نزل من الحق. ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ فقد جعل الله أجلاً مسمى لما خلق، إذا جاء الأجل لا يؤخر.

---

(٧٦٥) سورة الأحقاف: ١ـ٣.

(٧٦٦) سورة الأعراف: ٥٤.

وسيأتي اليوم الذي تبدل الأرض فيه غير الأرض والسموات. وهو اليوم الذي يحاسب فيه كلٌّ بما عمل. ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾.

ومع هذا البيان ترى أهل الكفر سادرين في غيهم، معرضين عما أنذروا به لاهين. ولا يفيقون إلا عندما يحاط بهم، ويرون أنفسهم في غمرات الموت لا ينفعهم ما شُغِلوا به وما حرصوا عليه من مالٍ أو متاع.

إنّ في الإخبار بقوله ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ بعد الحديث عن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم له دلالته فيما يُدعى الناس إليه من اتباع هذا الكتاب. فإنه الحق، والله عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق. فلا شيء يقوم أو يبقى إلا بالحق. ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

ومن أيقن بذلك استمسك بالحق وعمل به واعتصم بالله ولم يركن لظالم أو يستدرج لباطل. فإن العاقبة تنذر الناس جميعا أن يجعلوها نصب أعينهم وأن لا تشغلهم رغائبهم عن عواقبهم أو تخدعهم دنياهم عن آخرتهم إن الإيمان بالحق يستلزم التمسك به والحرص عليه والرضا بحكمه و إلا اضطربت الأمور وساءت الأحوال.

فالحق سمة الحياة كلِّها، وبه ومن أجله خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتاب، ومن أجله يكون الحساب والجزاء والجنة والنار.

وترى الخلائق جميعا يعلنون إيمانهم بالحق وركونهم إليه عندما لا يرون أمام أعينهم شيئا سواه في جنة أو نار وحساب أو جزاء.

لا بقاء إلا للحق ولا نجاة إلا به، ولا أمن ولا سلام إلا بإقامة فرائضه واتباع شرائعه، ومن ابتغى شيئًا بغير الحق لقي ما يلقاه المبطلون الخاسرون.

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين.

فهل يعي الناس دلالة الآيات ويستمسكون بما تدل عليه وتدعو إليه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٧٦٧).

١٣٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٧٦٨).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لحقيقته وأنه الحق وبيان لموقف أهل الكفر والجحود منه ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا القول لا يقولونه في القرآن لخفاء فيه أو لبس في معرفته.

إنه آيات بينات واضحات لا اختلاف فيه ولا التباس ولا غموض.

ولكن الجحود يحمل صاحبه على إنكار ما يعرفه وجحود ما يستيقن أنه الحق، والجحود يقود إلى الإيغال في الضلال والمبالغة في الإنكار.

---

(٧٦٧) سورة يونس: ٥ ـ ٦.

(٧٦٨) سورة الأحقاف: ٧ ـ ٩.

ومهما حاول الكفار أن يسمُّوا الأشياء بغير اسمها أو يحجبوا ضوء الشمس بقول أو فعل. فإن الشمس تنبئ عن نفسها وتقدم للناس خصائصها. ولا يمكن لدعيّ أن يحجب ضوْأها أو يوقف مدها.

والسحر الذي وصفوا به القرآن لا يُفْلح أهله ولا يبقى أثره، والله يبطله ويهلك أهله. والقوم الذين يتقولون بما يتقوّلون يعرفون السحر. ويؤمنون أن القرآن ليس بسحر والرسول ليس بساحرٍ.

ولذا نراهم لا يَثْبتونَ على قول ــ وهم يكذّبون بالحق ـ بل يضطرب قولهم كما يضطرب فِعْلُهم ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾.

ولا ثبات لباطل ولا أمن ولا استقرار مع جحود الحق والإعراض عنه.

ولو تدبر هؤلاء ما يتلى عليهم، وصدقُوا مع أنفسهم لوجدوا أن ما قالوه يُدينهم ويسيء إليهم لا إلى غيرهم. ومثلهم فيما يقولون كمثل من رمى الشمس بحجر فإذا الحجر يسقط على وجهه.

ومثلهم فيما يكيدون ويمكرون كمثل من يتوهمون أنهم يستطيعون أن يحبسوا ضوء الشمس في زجاجة أو يطفئوا نورها بأفواههم. فلا بقيت زجاجتهم ولا سلمت أفواههم وبقي نور الحق بقاءَ الشمس في الكون، إن بارحت رءوس قوم أنارت عند آخرين وأعطت ما أعطت راغبيها أو جاحديها بتقدير من العزيز الحكيم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾.

اضطراب في أقوال القوم. وثبات في كلمة الحق. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾[٧٦٩].

---

(٧٦٩) سورة الطور: ٣٣ ـ ٣٤.

هكذا نرى باطل القوم أمام سلطان القرآن لا يبدئ ولا يعيد ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ حجة لا تدع مجالا لمبطل أو ادعاء لكذوب. ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(٧٧٠).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

ما أبرَّ هـذا القول وما أكرمه ومـا أعظم أثره عند من يتدبـر ويتذكر. ﴿قل إن افتريتـه﴾ لن تُغْنُوا ولن تدفعـوا عني عقابـه ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾(٧٧١).

﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ وما تندفعون فيه من التكـذيب وتخوضون فيه من وصف القرآن بـالسحر. وحسبي أن الله يعلم ما أعمل ويعلم مـا تعملون. ﴿كفى بـه شهيـدا بيني وبينكم﴾ وهـو الذي يشهـد لي بـالصدق، ويعلم مـا تخوضون فيه من تكذيبي ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ فتوبوا إليه يرحمكم واستغفروه يغفر لكم. وهـو إن تبتم وانتهيتم عما أنتم عليه من تكذيب وصـدٍّ وكيد وآمنتم بمـا جاءكم من الحق يغفـر لكم ما قـد سلف، وإن أبيتم إلاّ الإصرار على مـا أنتم عليه فإن سنن الله التي خلت في الأولين ستمضي في الآخـرين دون تبديل أو تحويل ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٧٧٢). ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ وقـد أرسل الله الـرسـل من قبل، وكلٌّ من

---

(٧٧٠) سورة سبأ: ٤٨ ـ ٥٠.

(٧٧١) سورة الحاقة: ٤٤ـ٤٧.

(٧٧٢) سورة الأنفال: ٣٨.

كذب الرسل قد حقَّ عليه وعيدُ الله . ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعذار و إنذار.

﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(773) .

١٤٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾(774) .

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لما خوطب به الجاحدون الكافرون بالقرآن من أن القرآن إذا ثبت عندكم أنه من عند الله ثم كفرتم به بعد ذلك فأنتم ظالمون لأنفسكم ، محرومون من الهداية والتوفيق بسبب ظلمكم .

وقد ثبت عندكم أنه من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من الدعوة إلى التوحيد وهو ما جاء به النبي ﷺ ودعا إليه . فليس بدعا من الرسل وهو يدعو إلى ما دعا إليه الرسل جميعا . فمن كذبه فقد كذب الرسل جميعا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾(775) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ

---

(773) سورة إبراهيم : ٥٢ .

(774) سورة الأحقاف : ١٠ .

(775) سورة النساء : ١٥٠ ـ ١٥١ .

ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وأي ظلم أكبر من ظلم من ينكر الحق وهو يعلم أنه الحق .

وتلك شهادة شاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام . لما أراد أن يسلم قال : يارسول الله ، قد علمتْ اليهودُ أنِّي من علمائهم ، وأن أبي كان من علمائهم .

و إني أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوراة .

فأرسِل إلى فلان وفلان ـ ومن سماه من اليهود ـ وأخبئْني في بيتك . وسَلْهُم عنِّي وعن أبي . فإنهم سيحدثونك أني أعلمهم . وأن أبي من أعلمهم . و إني سأخرج إليهم فأشهد أنك رسول الله وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوارة وأنك بعثت بالهدى ودين الحق .

ففعل رسول الله ﷺ ذلك .

فخبَّأه في بيته ، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما عبد الله بن سلام فيكم؟

قالوا : خيرنا وابن خَيْرِنا وسيِّدنا وابن سيِّدنا ، وأعْلَمُنا وابن أعْلَمِنَا .

فقال رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أسلم تُسْلِمُوا؟

قالوا : أعاذه الله من ذلك .

فدعاه النبي ﷺ فخرج . ثم قال : أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوراة . وأنك تُبْعَث بالهدى ودين الحق .

فقالت اليهود : إنه شَرُّنا وابن شَرِّنا ، وأخذوا ينتقصونه . وخرجوا كُفَّاراً .

فأنزل الله في ذلك ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وهذه الآية وإن خوطب بها من خوطب بها من قبل عند نزولها فإن الخطاب بها لاتنقطع دلالته في الدعوة إلى الإيمان بما نزل من الحق .

وأولى الناس بأن يخاطب بها هم أهل الكتب الذي يجدون الرسول ﷺ مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

وعلى الأجيال من أهل الكتاب أن يعلموا ما كان من شهادة هذا الشاهد من بني إسرائيل .

وستظل هذه الآيات البينات تُتْلى وتذكِّر بما هو موجود حقًّا في التوراة والإنجيل وتدعو إلى اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل - وإن أنكروا ذلك أو أخفوه .

فإن اتباع هذ الرسول ﷺ اتباعٌ لما جاء به موسى وما جاء به عيسى عليهما السلام . وتكذيبه تكذيبٌ لجميع المرسلين .

وذاك حديث القرآن عمَّن استجاب لنداء الله فآمن ولم يفرق بين أحدٍ من رسل الله . ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٧٧٦) .

هذا بلاغه وذاك نداؤه .

---

(٧٧٦) سورة الأعراف : ١٥٧ .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(٧٧٧).

نداء بارٌّ منصف كريم، يدعو الناس جميعًا إلى كلمة سواء بها يعدلون ويفلحون ﴿ **فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ** ﴾(٧٧٨).

١٤١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾(٧٧٩).

في حديث القرآن هنا بيانٌ لما قاله الذين كفروا واللذين آمنوا في شأن القرآن الكريم وما دعا إليه الرسول ﷺ: قالوا: لو كان ما جاء في القرآن وما جاء به محمد ﷺ من الدعوة إلى الإسلام فيه خير لكنا أسبق إلى التصديق والإيمان به من الذين أسرعوا وأسلموا.

قولٌ يقولونه: ينبئ عن استكبارٍ وعناد واستهزاء بمن آمن واستخفافٍ بهم يُبَرِّرُونَ به كفرهم وجحودهم.

وحيث لم يؤمنوا فإنهم يسيئون ويُضلُّون. وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم. فليس هذا ـ في زعمهم ـ من عند الله بل هو أساطير قديمة كتبها المتقدمون. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(٧٨٠).

---

(٧٧٧) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٧٧٨) سورة آل عمران: ٨٢.
(٧٧٩) سورة الأحقاف: ١١ ـ ١٢.
(٧٨٠) سورة الفرقان: ٤ ـ ٥.

والذين يقولون بأفواههم ما يقولون يخدعون أنفسهم بما يقولون لأنهم أعرف الناس أن الخلق جميعا من قبل ومن بعد عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه. وأن القرآن بما اشتمل عليه خطاب متميز بحقائقه التي لو كانت من عند غير الله لوجدت مع الـزمن الممتد ما يخالفها أو ينتقص منها أو يزيد عليه. وهم يرون تأويلهـا في أنفسهم وفي حقائق الحياة من حولهم ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ . ولم يكن القرآن الكريم بمعزل عما يصدِّقه من كتاب جاء إمامًا ورحمة لمن نزل فيهم ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة**﴾ .

لقد جاء القرآن بعـد كتاب موسى مصدقا لما جـاء في التوراة من أن محمدا رسول الله شاهدا أمينا على ما جاء فيها من عند الله.

جاء هـذا الكتاب بلسـان عربي لينذر الـذين ظلموا أنفسهم بـالإصرار على الكفر والشرك بـالله ويبشر المحسنين الذين أخلصوا دينهم لله وآمنـوا برسل الله جميعا بـلا تفرقـة بين رسول ورسول. وفي هـذا الكتاب بيـانٌ لجزاء من أحسن ومن أساء ولا يستوي في الجزاء محسن ومسيء كما لا يستوي تقي وفاجر.

فالذين آمنـوا واستقاموا على الحق جزاؤهم عنـد ربهم أمنٌ وخلود في رحمة ربهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾(٧٨١).

والله عز وجل يخبـر عن الجزاء ليعلم الناس نتيجة أعمـالهم. وفي ذلك ما فيه من دعوة إلى الاستقامة والإحسان وتحـذير من الإساءة والعوج. فمن أبصر فلنفسه ومن أسـاء فعليها. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٧٨٢).

---

(٧٨١) سورة الأحقاف: ١٣ ـ ١٤.

(٧٨٢) سورة غافر: ٥٨ ـ ٥٩.

تلك ثمرة إنذار القرآن للظالمين وبشراه للمحسنين. فليحذر أولئك الذين يستهينون بإنذاره أو يستخفون ببشراه. فإنه وعدٌ صادق وحق واقع، ما له من رادٍّ ولا دافع، ولن يخلف الله وعده **﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**(٧٨٣).

ومن رحمته ـ سبحانه ـ أن جعل جزاءه منوطا بعملهم لتنعم دنياهم بالبر والإحسان فيما بينهم، وليتنافسوا على عمل الخير والمسارعة إليه والإمساك عن الشر والكف عنه. وسيظل القرآن يقدم إنذاره لهؤلاء وبشراه لأولئك. وفيما يقع من تأويله عبر وعظات، ويوم القيامة يأتيهم تأويل ما بشَّر به وأنذر.

﴿ويوم يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾(٧٨٤).

١٤٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٧٨٥).

في هذه الآيات بيان لموقف نفر من الجن قد استمعوا إلى هذا القرآن فتنادوا بالإنصات واطمأنت قلوبهم مع سماعه إلى الإيمان به، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالمغفرة ويحذرونهم من الإعراض.

---

(٧٨٣) سورة الزمر: ٦٧.
(٧٨٤) سورة النور: ٦٤.
(٧٨٥) سورة الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢.

وفي حديث القرآن عنهم والتذكير بما كان منهم إيقاظ لقلوب البشر الذين هم أولى بذلك من الجن، والرسول ﷺ منهم وفيهم، والقرآن يُتْلى عليهم.

وهذه الآيات تشير إلى حادث قد وقع ـ كما تشير إلى سورة الجن . وقد وردت فيه روايات متعددة أصَحُّها ما أخرجه البخاري ومسلم ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم» انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟

فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب.

قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث.

فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها. يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذي توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ. وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر.

فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم. وقالوا: «ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا» وأنزل الله على نبيه ﷺ **﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾** وإنما أوحي إليه قول الجن.

وفيما قصه الله علينا ـ من خبر هذا النفر من الجن ـ عبر وعظات:

فقد كان هذا النفر من الجن أهْلاً لأن يذكروا وأن يكونوا دعاةً لغيرهم وهداة لقومهم وحديثا يتلى على الجن والإنس، ومثلا لكل طالب علم لا يفوته أدبُ الطلب ولا يقعد عن تبليغ ما عَلِمَ من الحق.

وما أحرى دعاة الحق أن يتدبروا ما قـاله هذا النفر من الجن ـ وهم يستمعون القرآن ويستجيبون لداعي الحق ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾. وقالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. فما أحرى دعاة الحق من الإنس أن تكون لهم مع القرآن خلوة.

ومن تـلاوته زيـادة إيمان وخشية، ومـن هدايته سبيـل إخلاص لمقـاصده وتبليغ لدعـوته ويكـونون به راشـدين موحِّدين مخلصيـن مطمئنين ثابتين على طريق مستقيم.

هكذا كان هذا النفر من الجن وقد استمعوا إلى القرآن وعملوا به.

لقد سمعـوا ما أنـزل إلى الرسـول ﷺ فكانـوا بما سمعوا معلِّميـن راشدين، وكان للحق تأثيره في نفوسهم.

أحسنوا الأدب في التلقي وسماع القرآن **﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾**.

عادوا إلى قومهم فبلَّغُوا ما سمعوا دون إبطاء أو قعود أو تخاذل **﴿فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾**.

وَعُوا وفقُهُوا فكان بيانهم بيان حفيظ أمين.

عرفوا الحق فلزمـوه ودعوا إليه وبينوا نتائج الإيمان به والاستجـابة له وحذروا من مخـالفته أو الإعـراض عنـه. فجمعوا بيـن الترغيب والتـرهيب. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

هكذا قـد بلَّغوا رسالـة ربِّهم، وصدقوا في نصح قـومهم وخاطبوهم بـالقول الذي لا يجْحـد ولا يُردُّ ولا ينقض **﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجـز في الأرض﴾**.

فكم من جبّار قصمه الله. وكم من مفسد دمَّر الله عليه. وباغ خسف الله به وظالم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

وفي الحياة عبر أي عبر، وعظات لمن اتعظ.

ومن لا توقظه مواعظ الحق صبَّحَتْه قوارعه.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

١٤٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾(٧٨٦) في هذه الآيات بيان لحقيقة القرآن وما يدعو إليه، وموقف الناس منه.

ومن رحمة الله بالخلق وهم في دار الامتحان والاختبار أن يبين لهم نتائج الإيمان بالحق والعمل به وعاقبة الكفر به والصد عنه.

الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق من ربهم.

والذين اتبعوه كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

وما خالفه هو الباطل، والذين اتبعوه أضل أعمالهم.

والباطل ذاهب هالك. والحق ماكث باق.

والحق من ربك فمن اتبعه هُدي إلى صراط مستقيم. ومن تعمد مخالفته استحوذت عليه الشياطين. والحق دعوة الله إلى جميع الخلق. وفي الحق صلاحهم وفلاحهم والله ـ سبحانه ـ لم يطلب من عباده إلا ما يصلح حالهم

---

(٧٨٦) سورة محمد: ١ ـ ٣.

ويقوي روابطهم ويحقق التعاون الصادق بينهم على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

أليس الكفر به جحودًا؟ ومن جحد حقَّ الله في أن يُعبد ولا يشرك به شيئا هل يرجى منه أن يكون وفيا لغيره؟ وهل يتحقق أمن أو سلام ممن لا وفاء له ولا إيمان.

إلامَ يدعونا الحق الذي أنزل على محمد ﷺ؟ يدعونا إلى العدل فيما بيننا.

فمن أبى العدل فماذا يريد؟

ومن أبى الصدق فماذا يريد؟

ومن أبى التعاون على البر والتقوى فماذا يريد؟

ماذا بعد فضائل الحق إلا رذائل الضَّلال والباطل؟

ماذا بعد الصدق والعدل والأمانه والبر إلا الكذب والظلم والخيانة والإثم؟

وهل يقام سلام بين الناس بهذه الرذائل وأخواتها.

إن للحق شريعته ومنهجه، فمن أباه دفع الثمن من أمنه وراحته ومعيشته وشرب من أنواع الذل والهوان ما تصبح به معيشته ضنكا وعاقبته خسرا ومن أخضع هواه لما نزل من الحق سَعِدَ به وأصلح ولم يُفْسد. وسنن الله تعطي كلَّ عامل عمله. والميزان هو ما نَزَلَ من الحقِّ وبُلِّغ به الخلق. ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم**﴾.

﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم* ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾(٧٨٧).

إن من تدبر القرآن الكريم وجد قضيَّة الشرط والجزاء متضمَّنةً في آياته حتى فيما يجيء منها في صيغة الجمل الخبرية. ليُعلم أن لكل عمل جزاءه، وأن لكل سعي عاقبته **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾**.

هنا شرط لا بد أن يتحقق، شرط يحققه أهل الإيمان لينالوا جزاءه، أن ينصروا الله في أنفسهم بأن يخلصوا له، وألا يشركوا به، وأن يكون الله أحب إليهم من ذواتهم ومن كل ما تهوى نفوسهم، وهم لن يستطيعوا أن ينتصروا على غيرهم إلا إذا انتصر الحق في نفوسهم بتغليب أمر الله على أهوائهم، وتحكيم شرع الله ومنهاجه في واقع حياتهم، عندئذ يكون الجزاء **﴿ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** شرط لا بد منه لطلب النصر والتأييد من الله أن يكون عمل المؤمن كله لله وفي سبيل الله وابتغاء مرضاته، وأن يكون الهدفُ دائما إعلاء كلمة الله، وأن يهيمن دين الله على ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم وأنظمتهم ومعاملتهم وعلاقتهم بغيرهم، وينتفي من حياتهم ما يخالف دينه ويبعدهم عن الإخلاص له؛ ذلك أن النصر من عند الله وحده وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته، إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك. والذي يطلب نصر الله عن غير هذا الطريق يخسر نفسه، ويُحْبِطُ عمله فقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّةً

---

(٧٨٧) سورة محمد: ٧ـ٩.

ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فذاك هو شرط الله على الذين آمنوا «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» وجزاؤهم إن هم صدقوا في ذلك النصرُ وتثبيتُ الأقدام لأنهم يقاتلون في سبيله، ومن قاتل في سبيله نُصرَ بإذنه وفاز بجنته.

﴿ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

وفي تثبيت الأقدام معنى يجب أن يُلْتَفَت إليه وقد جاء بعد قوله ينصركم، وتأخير ذكره يُوحي بأن معناه أوسع مما يُتَصَوَّر من تثبيت الأقدام لتحقيق النصر فحسب؛ فالنصر ليس نهاية المعركة بين الحق والباطل والكفر والإيمان؛ فإن للنصر تكاليفه، وتلك تحتاج إلى ثبات في القصد، وبُعْد عن البطر والزهو والتراخي والتهاون. فكم من ناس قد يثبّتون في معارك القتال، ويُهزمون أمام زهرة الحياة الدنيا. وتكاليف النصر قد نبَّه القرآن إليها، وأرشد إلى التمسك بها وعدم التفريط فيها وإلا كان النصر وبالاً على أهله.

ومن الناس ناسٌ إذا انتصروا ازدادوا جرأة على حرمات الله. لذا فإن للتمكين الذي يَعْقُب النصر فرائض يجب أن تقام وإلا فقد النصر ثمرته، ولقي الممتحَنون بالنصر ما يلقاه المضيعون، والله قد نصرهم واستخلفهم لينظر ماذا يعملون، وهو سبحانه إن يشأ يذهبهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء.

وتلك فرائض النصر وتكاليفه: **﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**(٧٨٨) لله لا إلى غيره عاقبة الأمور، وعندئذ يكون النصر نصرا بحسن عاقبته ودوام مسرته وبقاء نعمته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق الذي أمر به، ودعا إليه.

---

(٧٨٨) سورة الحج: ٤١.

وإذا علم أن الأمور بعاقبتها سلمت المقدمات مما تسوء به العاقبة من كفرٍ وفسوق وكره للحق.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

ومن تدبر العواقب مع الزمن الممتد أيقن أنها سُنَّةٌ باقية لا تتبدل ولا تتحول ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾.

وقد يخدع ناس بما يرون لأهل الكفر والكارهين للحق إملاء واستدراجا وينسون ماهم صائرون إليه ومنتهون عنده.

إن الذين كرهوا ما أنزل الله قد أخبر الله عنهم خبرًا له دلالته.

إنهم يَبْدُون أمام نظر الناس منتفخين، كبطون الأنعام عندما تأكل نوعًا سامًّا من المرعى ينتهي بها إلى الهلاك ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾ وأصل الحَبْط من الحَبَط، وهو أن تُكثرَ الدابةُ أكْلاً حتى ينتفخ بَطْنُها ثمّ تُقْتَل بما فعلت، وهؤلاء يهلكون بأعمالهم كما تهلك الدابة بما أكلت من مرعى سام. تلك هي العاقبة لمن كفر بالله، وكره ما أنزل من الحق ﴿**والذين كفروا فتعسًا لهم**﴾ خزيا وشقاء وبلاء ﴿**وأضلَّ أعمالهم**﴾ لأنها عُملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن، ذلك الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسَخَطُوه وكذبوا به فأحبط أعمالهم وأبطلها وأصلاهم سعيرا.

وهذا حكم الله جل وعلا في جميع من كفر به من أجناس الأمم أن من كذب بالحق وأبى نوره دُمِّر كما دُمِّر المكذبون من قبله ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٧٨٩).

من سنن الله في خلقه ألا يدع الناس أو يتركهم أن يقولوا آمنا دون كشفٍ لحقيقتهم وإظهار لمعادنهم وتمييز بين صادقهم وكاذبهم، وتلك سنته في خلقه ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٧٩٠).

ولا شيء يكشف عن حقيقة الناس كالشدائد تَمُر بهم والأخطار تقع في حياتهم، إنها بلاء يميز الصفوف، ويمحص النفوس، ويظهر الصادق من الكاذب.

وعجيب أمر الناس، في أوقات السلم لهم حال، وفي ساعة العُسْرة تتبدل الأحوال، ويسبق ناسٌ بإيمانهم وأعمالهم، ويتخلف آخرون.

والله عز وجل لا يذر أهل الإيمان على ماهم عليه دون تمييز لصفوفهم وتمحيص لنفوسهم، وإبعاد للخبيث الذي يحاول أن يمتزج بهم ليبقى ما ينفع الناس خالصا نقيا لا يَلْتبسُ بزبد أو باطل ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾. ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾.

---

(٧٨٩) سورة محمد: ٢٠ ـ ٢٤.

(٧٩٠) العنكبوت: ١ ـ ٣.

ولنتـدبر هـذه الآيات ومـا تضمنته من حـديث القرآن عن نـاسٍ يُظهرون مـا يُظهرون من غيرةٍ على المقـدرات وحسن الاستجابة لما يرون فيـه برِيق منفعة، فإذا ما وقعت الشدائد وجاء الجد رأيت منهم غير ما كانوا يظهرون.

وهذا الصنف من النـاس لا يثبت على حال يدور مع المنفعة حيث يـراها، إن أقبل الخطر فزعت نفوسهم وابتعدوا لا يـريدون إلا فرارا. وإن بدت المنفعة أقبلوا معتذرين عمـا كان منهم طالبين للمنفعة راغبين فيهـا. هذا الصنف من الناس مخـادع يبدي الشجـاعة في السلم، ولا ينصـر أخًا لـه في ساعـة بأسٍ وحزم، إنهم أهل النفاق، في كل زمن هم أهل إضلال وإفساد.

ينشـد أهل الصـدق والإيمـان جهـادًا في سبيل الله يـردون بـه كيـد البـاطل وينصرون الحق، فإذا ما فرض الجهاد وأنزلت آياته رأيت أهل النفاق على حال كمـا أخبر القـرآن عنهم ﴿ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾، جبن وهلع وخـوف وفـزع يسيطـر على نفـوسهم ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ والناس من خـوف الموت في موت.

والحياة بمعناها الحق لا تُوهب إلا لمـن صَدَق وصبر «احرص على الموت تُوهب لك الحياة».

كلمـةٌ للصديق ــ رضي الله عنه ــ تنبئ عن فقهٍ في الـدين وإيمان وصـدق يقين؛ فما الحيـاة التى يحرص الناس عليهـا إلا متَاع ذاهب وما المـوت الذي يفرون منـه إلا قضاء واقع، يلقاه كلُّ النـاس، من أقبل عليه ومن فـرَّ منه، ومن أقبل عليه في إعـلاء حقٍّ نَعِمَ بالحيـاة، ومن فرَّ منـه طلبًا للبـاطل أفسد وضلَّ ولقي ما يلقاه المفسدون المضلون.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

فلنتدبر معاني القرآن ومقاصده حتى لا نقع فيما حُذِّر منه أولئك المنافقون من إفساد في الأرض وقطعٍ للأرحام وإعراض عن مقتضيات الإيمان، ولنتبع هداه حتى لا نضل عن سبيل الله فنؤثر ما يفنى على ما يبقى ونفتن بزينة الحياة فتلهينا الذاهبات عن الباقيات، وتصرفنا العاجلة عن الآخرة، ومَا استحق مَن استحقوا لعنة الله إلا بإعراضهم عن تدبر القرآن، وما يُوحي إليه فحيل بين قلوبهم وبين نوره وهدايته.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

١٤٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٧٩١].

---

(٧٩١) سورة محمد: ٢٤ ـ ٣١.

إن الله قد حفظ القرآن لتبقى معالم الحق بينة للأجيال كلها، ولينتهي الناس إلى هذه المعالم دون تَعَدٍّ أو تجاوز، ولكن مواقف الناس تختلف بالنسبة لهدى الله، فمنهم مؤمن متبع، وأكثرهم معرض مخالف. منهم من يقوده إيمانه ويقينه ومنهم من يتبع هواه ويكون عبدا لما يشتهي ويرغب، والله عز وجل لا يدع الناس دون حساب وجزاء. كلٌّ يُجَازى بما عمل، ولا يستوي في ميزان الحق محسن ومسيء ومتق وفاجر، وقد حفظ الله هذا الكتاب لتبقى التبصرة والذكرى قائمة في حياتهم جميعا لا تغيب عنهم ولا تبتعد عن أي شأن من شئونهم.

ومن أبى إلا أن يُغلق قلبه عن هداية القرآن، وأن يقضي عمره غافلاً عن يوم حساب وجزاء ضل وأفسد، وعاش في دنياه متلوِّنا مذبذبا لا يعرف ثباتا أو استقرارًا.

كلما بدا سراب منفعة عند هؤلاء سعى إليهم وأظهر لهم طاعة وإخلاصا فإذا رأى المنفعة عند عدوِّهم سعى إليها وراءى من أجلها.

يقول لكل فئة ما يُرضيها، يرائي الناس ولا يذكر الله إلا قليلا، وقد وصف القرآن الكريم حال هؤلاء ليكون الناس على بينة من أمرهم ليحذروا فسادهم وإفسادهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ

وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾[٧٩٢].

هذا بيان القرآن الكريم.

وهو يرينا هذا الصنف الذي يُفسد في الأرض، ولا يبالى بما يقول أو يفعل فلنتدبر ولنعتبر.

ولتكن ثقتنا فيمن يتقي ربه ويخشاه.

لتكن ثقتنا في أهل الصدق والأمان والوفاء، ومع التجارب والشدائد تعرف معادن الناس.

ولنجعل من صفوف أهل الإيمان قوة بالحق كما أمر الله، قوة يستجير بها المظلوم ويُرْدع الظالم.

فتلك رسالتنا وبها تتميز الصفوف وتُعرف خبايا النفوس، ويصفو المعدن الأصيل، ويتخلص من كل زبد يلتصق به، والله لن يدع أمور الناس لدعاواهم وأمانيهم، وهو يحيط علما بسعيهم ومقاصدهم فلابد من ابتلاء يكشف أمرهم للناس ولأنفسهم فيبقى ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ويذهب جُفَاءً ما لَصقَ به، ومع الماء موج يَقْذفُ ما حَمَل من زبد، وللمعدن نارٌ تُوقد يصفو بها معَدنه ويُقْذف زبَدُه. ولن يصفو للحياة ماؤها ومعدنها إلا بامتحان واختبار ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾.

---

(٧٩٢) سورة النساء: ١٤١ ـ ١٤٤.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة ق ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(٧٩٣) أقسم الله بالقرآن موصوفا بهذه الصفة (المجيد) الدالة على ما له من نفع وشرف عظيم، ليلفت النظر إليه ويدعو الناس للإقبال عليه والإفادة من كرمه وعطائه وتبصرته وهداه. ﴿والقرآن المجيد﴾.

ومن كرم القرآن وعظم شأنه وكريم عطائه وسمو منزلته أن لا شيء إلاَّ وللقرآن فيه هداية وبيان وموعظة. وتبصرته لا تقف عند حدود الدنيا فحسب بل يمتد نوره إلى ما وراء ذلك فيُري الناس ما يجب أن يكونوا عليه وما هم صائرون إليه من بعث وحساب وجزاء وجنة أو نار يريهم كل ذلك وهم في دنياهم يمشون في الأرض يبتغون من فضل الله ليحقق لهم من الخشية ما يصون دنياهم من الظلم والفساد؛ فإن من خشي ربه كف شرَّه عن غيره وقدَّم خيره، ومن نسي الله خضع لهواه وآثر دنياه.

وحديث القرآن عن البعث له دلالته في حياة الناس، وفيهم أدلته، فمن أنكره فقد أنكر آية الله في خلقه، ومن استبعده فقد استبعد ما هو حتم واقع وكان استبعاده سوءَ ظنٍّ يفضي إلى أن الخلق عبث وباطل. وتعالى الله الملك الحق أن يخلق عبثا أو باطلا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٧٩٤) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾(٧٩٥).

(٧٩٣) سورة «ق»: ١ ـ ٥.

(٧٩٤) سورة ص: ٢٧.

(٧٩٥) سورة المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦.

الدنيا امتحان واختبار، والامتحان له آثاره ونتائجه، وعليه يكون الجزاء وبه تتحدد درجات الناس ومكانتهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾(٧٩٦).

أيُّ عجبٍ إذن في أمر البعث إذا أسند لقدرة الله وعلمه؟

والإنسانُ يرى أدلته في نفسه وفي الآفاق من حوله.

إن آية البعث قائمة فيهم وهم عنها عمون.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾(٧٩٧).

إن من رحمة الله بالخلق أن أرسل فيهم رسولاً منهم يبلغهم ما أنزل إليه من ربِّه ويبشرهم وينذرهم ويخبرهم بما هم صائرون إليه ومحاسبون عليه.

لكن ناسًا من الناس يأبون الرحمة ويظهرون العجب من أن يبعثوا أو يحاسبوا، ويستبعدون أن يعودوا خلقا جديدا بعد أن ماتوا وصاروا ترابا.

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾(٧٩٨). أليس الاستبعاد عمًى وإنكارًا وجحودًا؟

---

(٧٩٦) سورة سبأ: ٣ ـ ٥.

(٧٩٧) سورة مريم: ٦٦ ـ ٦٧.

(٧٩٨) سورة الإسراء: ٤٩ ـ ٥١.

إن كان الاستبعاد عند القوم لاستبعاد القدرة على الإعادة فذاك أثر القدرة أمام أعينهم في خلق السموات والأرض ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٧٩٩)، وإن كان الاستبعاد عند هؤلاء لاستبعاد العلم الذي يحيط بالأجساد ويميز بعضها من بعض فالله قد أحاط بكل شيء علما. ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٨٠٠).

لا مجال لاستبعاد والخلق والبعث مسندان إلى الله لا إلى غيره ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ علينا لا على غيرنا.

ولكن الذين استبعدوا نظروا إلى قدرة المخلوق ولم ينظروا إلى قدرة الخالق، وإلى جهل المخلوق لا إلى علم الخالق، فكان استبعادهم إنكاراً لأنفسهم وظلماً لحقيقة وجودهم.

لا استبعاد والأمر كله مسند إلى قدرة الله وعلمه، لا إلى عجز المخلوق وجهله ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾.

فأيهما أشدُّ خفاءً: وسوسة في الصدور أو ميت في القبور؟

القرآن حق وما أخبر به هو الحق، ومن كذب بالحق اضطرب أمره وضل سعيه ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ وللحق آياته في الآفاق وفي الأنفس تخاطب الناس بقدرة الله وحكمته حيث كانوا، وتتسق مع آيات القرآن في تبصرة الإنسان وتذكرته.

---

(٧٩٩) سورة غافر: ٥٧.

(٨٠٠) سورة يس: ٧٨ ـ ٧٩.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(٨٠١).

١٤٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة ق ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٨٠٢).

يخاطب الناس بالحياة كما يخاطبون بالموت، والله قد خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا.

فالموت يقدم للناس عظته وعبرته. والحياة تبصر الناس بقدرة الله على إحيائهم من بعد موت، ولا عذر لأحد ـ من بعد بيان ـ في كفر أو جحود.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٨٠٣) ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(٨٠٤).

هكذا يُخْبرُ القرآن بما هو واقع مشاهد من حياة وموت ليعرف الناس غاية وجودهم وحكمة خلقهم وعاقبة أمرهم، ومن أيقن بذلك سارع إلى الخيرات وكف عن السيئات، وفي ذلك ما فيه من أمن لدنياهم وتحقيق التراحم فيما بينهم.

---

(٨٠١) سورة ق : ٦ ـ ٨.

(٨٠٢) سورة ق : ٤٣ ـ ٤٥.

(٨٠٣) سورة البقرة: ٢٨.

(٨٠٤) سورة طه: ٥٥.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾.

هكذا بكل تأكيد ﴿إنا نحن نحيي ونميت﴾ فالله الحق هو الذي يحيي الخلائق وهو الذي يميتها، وإليه لا إلى غيره عاقبتها ومصيرها.

والقرآن وهو يتلى على الناس ويذكرهم بهذه الحقائق الواقعة فيهم يعينهم على صدق الإيمان واليقين، وهم يرون صدق حديثه في أنفسهم ويشاهدونه في الآفاق من حولهم.

ولا أبلغ من حديث ترى صدق دلالته في نفسك وتشاهده في موت وحياة والله حيٌّ لا يموت فتحسن التوكل عليه وتصدق في الفرار إليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (٨٠٥) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وإذا أيقن الإنسان أنه يمر بهذه المراحل، يمر بالدنيا ولا يقيم، وهو لا يدري متى يُدعى فيجيب ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ إذا أيقن الإنسان بذلك عرف أين يكون الخير له؟ وفيم يكمن الشر ؟ فجعل استباقه إلى الخيرات قربى لربه وزاداً لغده.

وهو يعلم أنه من خيره في خير أبداً، ومن شره في شر أبداً.

يمر الإنسان بدنياه ويأتيه الموت فيقبر في الأرض التى أخرج منها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾، ويأتي أمر الله فتخرج الأرض أثقالها.

والعبرة قائمة أمام أعين الناس في الأرض التي يمشون عليها، وهي تجمع بين الأحياء والأموات، هؤلاء في بطنها وأولئك على ظهرها ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾.

فمن ذا الذي يكذب بالبعث وهو يرى حقيقته في موت وحياة ويمشي على أرض تجمع بين أموات وأحياء ؟ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

---

(٨٠٥) سورة الفرقان : ٥٨ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ إنه حشر يسير على الله لا على غيره.

فلا استبعاد ولا إنكار.

لو كان البعث متعلقا بقدرة الناس لساغ لهم أن ينكروا وأن يجحدوا، أما والأمر مرتبط بقدرة الله فإن اليقين به ميسور لمن طلب اليقين ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾(٨٠٦).

ذاك حديث القرآن وبيانه، وتلك أدلته وذاك سلطانه فماذا يقول الجاحدون؟ وماذا يعملون؟ يكفي أن يُخبر القرآن المجيد بأن الله يعلم ما يقولون ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فسيؤخذ هؤلاء بما يقولون ويفعلون.

وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وسيظل القرآن ــ في عزته ــ يذكر ويبصر، ويحذر وينذر فمن خاف وعيده نجا وسلم، ومن أصر على الجحود خسر وندم ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

١٤٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الطور ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾(٨٠٧).

---

(٨٠٦) سورة الأحقاف: ٣٣.

(٨٠٧) سورة الطور: ٢٩ ــ ٣٤.

إن الله قد أنعم على نبيه بما أنعم عليه من كمال الخلق ورجاحة العقل وكريم الخصال، وأتمَّ نعمته عليه بما أوحى إليه وأمره أن يذكر بالقرآن وما جاء به وما يدعو إليه من هدًى وطريق مستقيم ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾.

إن من أنعم الله عليه بكمال الخلق ورجاحة العقل وكريم الخصال، من أنعم عليه بهذه النعم واختاره واصطفاه من بين خلقه ليبلغ ما أنزل إليه من ربه وشهد له بأخصِّ الخصائص التي تميزه من غيره ــ جدير أن يذكّر ويبلِّغ ويبشر وينذر، ولا يجد الناس في فعله ما يناقض قوله، فلا يأمر بشيء ويأتي ضده، ولا ينهى عن شيء ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، ولا شيء من أمره إلا وفيه دلالة على صدقه وأمانته وصدق ما يدعو إليه ويبشر به أو يحذر منه.

فقوله دالٌّ على رجاحة عقل وسمو نفس. وفعله يتسق مع قوله ويقرِّب الناس منه ولا يجعلهم ينفضون من حوله.

والناس يشهدون بذلك وهم يسمعون منه ويتعاملون معه وشهادة الله أعظم وأكبر ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾.

إن كل قول يخالف الواقع ساقط يسيء إلى قائله، وكل باطل زاهق مهما سانده أهله أو كثر حزبه وجنده.

والزمن يعطى العبرة ويحكي العاقبة، فليتربص من يتربص بمُحقٍّ فلن يرى في العاقبة إلا النصر للحق، والله يحق الحق ويبطل الباطل بإرادته وقدرته وإن استدرج مبطل ـ بما يفتح عليه من أبواب كلِّ شيء ـ فإلى حين، وإن أملي له فإن كيد الله متين.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٨٠٨).

ومن تدبر العاقبة منذ خلق الله الخلق أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يُهزَم أبدًا، وأن الباطل زَبَدٌ يطفو ويـذهب فلا يمكث ولا يبقى، ومن عرف ذلك لزم الصدق فيما يقول أو يفعل.

لقد قـال الكفار في رسول الله ﷺ مـا قالوا، قالـوا كاهن أو مجنون، وقـالوا شاعر نتربص به ريب المنون.

قول باطل ضاق به قائلوه وأنكره سامعوه.

والكل يـوقن يقينـا لا شك فيـه أن رسول الله ﷺ ليس بكـاهن ولا مجنـون، وإنما هو رسولٌ صدوق رحيم أمين.

وكم من حرٍّ كريم يُدَّعى عليه، وكم من فاضل تقي يسيء الظالمون إليه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾(٨٠٩).

وتوجيه الله نبيَّه فيه تبصرة لمن اتبعه واقتدى بهداه واعتصم بحبل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾(٨١٠).

هكذا يُشغَلُ الكريم بما يناسب كَرَمَه وفضْله ويُرضي ربَّه.

والله يكفيه سفـاهة السفهـاء، ويَرُدُّ عنـه كيد الجُهـلاء ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(٨١١).

(٨٠٨) سورة الأنعام: ٤٤ـ٤٥.

(٨٠٩) سورة الفرقان: ٣١.

(٨١٠) سورة الحجر: ٩٧ـ٩٩.

(٨١١) سورة الحجر: ٩٤ـ٩٦.

وكم من قول قيل من السفهاء ثم سقط .

وكم من كيد دبّروه ثم بطل ، وانتصر الحق مع قلّة أهله وتكاثر عدده ، وستبقى آية الله لنصر الحق وإزهاق الباطل عظة لمن يتعظ وعبرة لمن يعتبر. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

وكم في الأنفس والآفاق من آيات وعبر وعظات يبصر الإنسان فيها آية الحق ويرى دلالته .

فلنتدبر كتاب ربنا ، ولنلزم طريق الحق والصدق ولا نَقُل إلا ما يرضي الله ، ولنعلم أن كل باطل مآله الزوال ، وأن الحق باق لا يزول .

فمن آثره فاز بالعاقبة ، ومن كذب بالحق أو عادى مُحقًّا لقي ما يلقاه المبطلون .

وقد نزل الله الكتاب على نبيه تبيانا لكل شيء وما فرَّط فيه من شيء فلنكن مع القرآن حيث كان ، ولنحذر مخالفته أو الإعراض عنه ، ولنستمسك به ، ونذكِّر مقتدين بمن كان خُلقه القرآن ﷺ معتصمين بالله متوكلين عليه ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ .

١٥٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القمر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٨١٢).

إن القرآن الكريم قد سهله الله للحفظ والفهم لكي يتدبره من أراد أن يهتدي به ويتعظ بما جاء فيه ، **فهل من متعظ ومتذكر ؟**

إن هذه الآية قد كُرِّرت في سورة القمر. وقد جاء تكرارها بعد آيات ، وبعد ألوان من العبر والعظات ، وأنباء عن الرسل وما جرى معهم ، وما وقع للمكذبين من أقوامهم لنرى من خلال هذه الأنباء الماضية سنن الله الباقية .

---

(٨١٢) سورة القمر: ١٧ .

جاءت الآية الأولى بعد حديث القرآن عن قوم نوح وما وقع منهم وما جرى لهم، وتحققت سنة الله في هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، وقص القرآن الكريم علينا ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين، وتحذيرا و إنذارًا للمكذبين المعرضين.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾(٨١٣).

إن القرآن الكريم قد قص علينا ما كان من قوم نوح وهو يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا ويحذرهم عاقبة ما هم عليه من تكذيب و إعراض و إصرار واستكبار.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾(٨١٤).

هكذا فعل نوحٌ عليه السلام مع قومه وأعذر وأنذر، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فما استجابوا له ولا ارتدعوا عن الإساءة إليه والسخرية منه.

استمر يدعوهم زمنا طويلا وهم يكيدون له ويضيقون به ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فدعا ربَّه ـ وهم يبالغون في الإساءة إليه والسخرية منه ـ ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ فاستجاب الله له، وفتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء النازل من السماء والنابع من الأرض على أمرٍ قد قدَّره وقضاه بأن يهلك قوم نوحٍ بالماء الطاغي لأنهم كانوا هم أظلم وأطغى.

---

(٨١٣) سورة القمر: ٩ ـ ١٧.

(٨١٤) سورة نوح: ٥ ـ ١٠.

أهلكهم الله وجعل هلاكهم حديثا يُتلى على الناس ليعتبروا وهم ينظرون عاقبة المكذبين، وليكون الحديث موعظة وذكرى للمؤمنين وهم يرون نجاة أهل الإيمان واليقين والماء مأمورٌ بأمر ربه ينزل غَدَقًا أو غَرَقًا.

فمع الطوفان الغامر ترى سفينة نوح تجري بمن حملت في موج كالجبال وهي في أمن وسلام، وترى الماء الغاضب يمتد ويعلو ـ بإذن ربه ـ ليأتي بمن كفر ولو اعتصم برءوس الجبال، ولو كان من أوى إليها ابن نبي ورسول، ويؤدي الماء المؤتمر بأُمرَ ربِّه ما أمر به وما قُدِّر له.

ثم تُؤمر الأرض وتؤمر السماء بأمر من له الخلق والأمر سبحانه، فتقلعُ السماء، وتبتلع الأرض الماء بعد تحقيق أمر وتنفيذ قصد وكأن الماء جيش مجاهد في سبيل الله عاد منتصرا من أخذ عدوِّ الله ليكون حيث يؤمر من تقديم غوث ونجاة أو إحداث إغراق و إهلاك.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٨١٥).

ويتلى ذلك على الناس ليكون تذكرة للأجيال كلِّها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾.

ليعلم الناس أن لكل شيء عاقبته ولكل عمل جزاءه.

وأن الكفر مهما بغى وتجبَّر فإن العاقبة دمارٌ وهلاكٌ وبوارٌ وخسران ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

وما على الذين يريدون النجاة لأنفسهم والفوز في عاقبتهم إلا أن يتدبروا ما يُتْلى عليهم، وأن يعرفوا سنن الله في خلقه، وأن يأخذوا بأسباب النجاة من

---

(٨١٥) سورة هود: ٤٤.

عذابه وسخطه موقنين أن لا شيء من أمرهم بخاف على ربهم، وأن لا شيء من عملهم يغيب عن ميزانهم. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٨١٦)

١٥١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾(٨١٧). وهذه الآية من سورة القمر قد تكررت في السورة وجاء ذكرها أولا بعد قصة قوم نوح وإهلاكهم ـ وقد تحدثنا عن ذلك في حديث سابق ـ ثم أعيد ذكرها بعد الحديث عن عادٍ قوم هود وما وقع منهم وما جرى لهم.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٨١٨).

ذاك لون آخر من ألوان العذاب، أخذت به عاد ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾.

هلك قوم نوح بالطوفان، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية.

أخذ هؤلاء بذنوبهم كما أهلك أولئك بمعاصيهم.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٨١٩).

---

(٨١٦) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٨١٧) سورة القمر: ٢٢.

(٨١٨) سورة القمر: ١٨ ـ ٢٢.

(٨١٩) سورة العنكبوت: ٤٠.

والقرآن الكريم وهو يذكّر الناس بذلك يبصرهم بعاقبة أعمالهم إن هم أحسنوا أو أساءوا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾(٨٢٠).

لله ما في السموات وما في الأرض لا لغيره. فكل شيء خاضع لأمره، مسبح بحمده، لا ينبغي له أن يخالف أو يحيد، يؤمر الماء فيؤدي ما يؤمر به غرقًا أو غدقًا، وتؤمر الريح فتأتي كما أمرت طيبةً أو عاصفة فتحقق فرحًا أو تسوق دمارًا وهلاكا، وكل ذلك بأمره سبحانه وله وحده الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٨٢١).

والله عز وجل هو الذي يُسَخِّر الريح في الحالين، وموقف الناس يختلف من حال إلى حال ولو تدبروا ما يُتْلى عليهم لعرفوا السبيل لأمنهم ونجاتهم وتمسكواً بما ينجيهم وابتعدوا عمّا يسوق إليهم الدمار والهلاك.

الناس يدمَّرون بذنوبهم ويهلكون بمعاصيهم، والله غني عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم، إنما هي أعمالهم تحصى عليهم وبها يفوزون أو يهلكون. **﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾. وسيظل القرآن الكريم تُتْلى آياته وتقدَّم هدايته.

---

(٨٢٠) سورة النجم: ٣١.

(٨٢١) سورة يونس: ٢٢ ـ ٢٣.

وستظل العبر التى يشير إليها ويذكّر بها قائمة في حياة الناس لا تغيب دلالتها ولا تخفى عظتها.

وستظل التبصرة والذكرى محفوفة بحياة الناس لا تنفك عنهم يرونها في ليل ونهار وشمس وقمر وزرع وثمر وأرض وسماء، يرونها في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم، مقروءةً مسموعةً مرئية، تُتْلى في كلمات وتُرى في آيات.

والقرآن مُيسَّرٌ في حفظه وفهمه، والآيات التى يخاطبهم بها قائمة فيهم ومرتطبة بحياتهم، فلا عُسْر ولا حرج في تبصرة وتذكرة، ولا تكلف في فقه ومعرفة، وآيات القرآن الكريم تتسق مع آيات الله في الأنفس والآفاق في مخاطبة الإنسان وهدايته وتبصرته ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾(٨٢٢).

فهل من معتبر ومتذكر بما يرى وبما يسمع؟ ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾.

١٥٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾(٨٢٣).

وقد تكررت هذه الآية بعد الحديث عن قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوط.

وها نحن الآن مع الحديث عن ثمود قوم صالح وما وقع منهم وما جرى لهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ

---

(٨٢٢) سورة ق: ٦ ـ ٨.

(٨٢٣) سورة القمر: ٣٢.

﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾(٨٢٤).

ذاك ما أجمله القرآن في قصة صالح مع قومه وما وقع منهم وما جرى لهم، لقد أرسل الله صالحا ـ عليه السلام ـ إلى قبيلة ثمود فدعاهم إلى عبادته وعدم الإشراك به وأنذرهم عذاب الله إن هم ظلوا على الشرك والضلال، وقد ختمت القصة هنا كما خُتم القصص من قبل بقوله تعالى **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾** ليتعظ بالقرآن من يتعظ ويعتبر من يعتبر بما أصاب المكذبين من قبل مع اختلاف زمانهم ومكانهم.

فإن القرآن وهو يتحدث عن أخبار ماضية إنما يخاطب من خلالها بسنن الله الباقية وماذا بعد التبليغ والإنذار، لقدَ كذبت ثمود بالنذر، واستكبروا أن يطيعوا صالحا، وأبوا أن يتبعوه وقالوا ـ مستهزئين به ـ **﴿أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسُعُر﴾**. إصرار أيُّ إصرار، يقولون إنا لو اتبعنا صالحا على دينه لكنا إذا في ضلال وجنون مطبق هل اختصه الله بالوحي من دوننا، وأنزل عليه من بيننا وفينا من هو أكثر منه مالاً.

قول يقوله كلُّ من جحد أو كذب المرسلين، قاله هؤلاء وقاله كفار مكة عندما بعث فيهم سيد المرسلين ﷺ. **﴿وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** نزعه واحدة تراها من المكذبين مع من بُعث فيهم من المرسلين، وقول واحدٌ يقولونه مع تباعد الزمان واختلاف المكان.

﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾. هل لقي قوم صالح كفار قريش فتواصوا فيما بينهم أن يقولوا ما قالوه لنبيهم؟

---

(٨٢٤) سورة القمر: ٢٣ ـ ٣٢.

أو هـو الطغيـان والجحـود يجمعهم ويلقي مـا يلقيـه من كبـر في أقـوالهم واتفاق في سلـوكهم وأعمالهم؟ إنه الطـاغوت وهم عبدتـه فلا غرابـة أن يوالي بعضهم بعضا، وأن يُـرَى جمعهم حيث كانوا في ظلْم وظلمـات، وهم جميعا قد حقت عليهم الضلالة. والقرآن الكريم يرينـا ما قالَه هؤلاء وأولئك وما فعلوه فتنسبه إلى من شئت منهم فـلا تكون قد جـاوزت أو أسندت قولا لغير قـائله، وانظر إلى مـا قاله كفـار قريش لخاتم الـرسل ﷺ عندما دعـاهم إلى عبادة الله وحده لا شـريك له، فلن تجد فـرقا بين قولهم وبين مـا قيل لأي نبي أو رسول ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾(٨٢٥).

ولا يفيد عند هؤلاء وأولئك أن يـروا بأعينهم دلائل الصدق واليقين لقد طلب قوم صالح من نبيهم آيةً دالَّة على صدقه.

فجاءت الآية دالَّـة على صدقه ومنبئة عن مصيرهـم؛ فإنهم بعد تكذيبهم لا ينظرون ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالناقة لها شرب يوم، ولثمود شرْب يوم.

ويوم ثمود هو لثمود لا تأتي الناقة إليه.

ويوم الناقة هو للناقة لا يجوز لثمود أن تَردَهُ.

فلم يصبر القوم على ذلك، وعزموا على عَقْـر الناقة وقتلها والتخلص منها. ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾.

---

(٨٢٥) سورة ص: ٤ ـ ٨.

صيحة واحدة انخلعت لها قلوبهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿كهشيم المحتظر﴾ كالهشيم المتفتت من الشجر والعشب اليابس الذي يجمعه صاحبُ الغنم ليتخذ منه حظيرةً لها.

صيحة واحدة أودت بهم وجعلتهم هكذا كهشيم المحتظر.

قصص يقصه القرآن الكريم على الناس في كل زمان وفي كل مكان ليعتبر من يعتبر ويتذكر من يتذكر.

وسيبقى القرآن مع الأجيال يقدم هدايته وتبصرته.

سيبقى الذكر ما بقيت الحياة نورا وهدى للناس فهل يعي الناس ما يدعو إليه وما يذكِّر به. فينقذون أنفسهم قبل فوات الأوان؟ ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذَّكَّر أولو الألباب﴾.

١٥٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾(٨٢٦).

جاءت هذه الآية بعد الحديث عن قوم لوط وما وقع منهم وما جرى لهم، والقرآن يذكِّر بذلك ليُعْلَم أن لا شيء في ماض أو حاضر أو مستقبل إلا والإحاطة به كاملة ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٨٢٧).

وحديث القرآن عما وقع من المكذبين في الماضي وما جرى لهم فيه عبرة وعظة لحاضر الناس ومستقبلهم ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا

(٨١٦) سورة القمر: ٤٠.

(٨٢٧) سورة يونس: ٦١.

فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٨٢٨).

إن قوم لوط من الأمم التي كذبت رسولها واستهزأت به وبما أنذرهم به من نقمة وعذاب ﴿**ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر**﴾.

وهذا حال الأمم عندما تأسرها المعاصي وتأكلها الشهوات.

إذا أنذروا تماروْا بما أنذروا به وتمادوا في الفجور وجاهروا بالفحش دون خوف من رادعٍ أو زاجر.

وهذا ما كان من قوم لوط تمادوا في الفجور وبلغ بهم الأمر أن راودوا لوطا عن ضيفه من الملائكة واقتحموا عليهم الباب، فأعماهم الله وطمس على أعينهم وحجب عنهم رؤيتهم، فدخلوا المنزل ولم يروا شيئا.

وفي الصباح الباكر نزل بهم العذاب والهلاك الذي أفضى بهم إلى جهنم وبئس المصير ﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر**﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ. قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٨٢٩).

قصص يُتلى، فيه موعظة وذكرى للمؤمنين. وإنذار ووعيد للمكذبين الضالين وقد حلَّ بقوم لوط ما يحيق بالظالمين ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

---

(٨٢٧) سورة القمر: ٣٣ ـ ٤٠.

(٨٢٩) سورة هود: ٧٧ ـ ٨١.

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٨٣٠) تلك عاقبة الإصرار على الذنوب والآثام، عاقبة مهلكة مدمرة تُوعظ بها الأمم وتؤخذ ـ إن هي أصرت ـ بذنوبها وآثامها.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

والقرآن الكريم وقد ضمنه الله أنواع المواعظ والعبر وصرف فيه من الوعيد، ويسَّر حفظه وفهمه سيظل يُتْلى على الناس ويريهم مصائر المكذبين ومصارع الجبارين والمفسدين ليتعظ من يتعظ ويعتبر من يعتبر.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٨٣١).

وما من أحد يَفْلتُ من لقاء أو يفر من جزاء، والخلق جميعا عائدون إلى الله ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ له ملك السموات والأرض لا لغيره، وإليه المصير لا إلى غيره.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(٨٣٢).

ذاك هو القرآن في يسره وهدايته وفضله، فهل من متعظ ومعتبر؟ **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾** .

---

(٨٣٠) سورة هود: ٨٢ ـ ٨٣.

(٨٣١) سورة ق: ٣٦ ـ ٣٧.

(٨٣٢) سورة الأنعام: ١٣٣ ـ ١٣٤.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

لقد تضمنت هذه السورة من ذكر نعم الله وآلائه ما تضمنت.

وبدئت باسم من أسماء الله لا يُسمَّى به غيره دالٌّ على سعة فضله وشمول نعمته وبالغ رحمته (الرحمن) وجاء به مُبْتَدَأً يُشْعِرُ بالخبر ويدلُّ عليه، وعدَّد من صنوف نعمائه وضروب آلائه ما لا يجد أَحَدٌ من الجن والإنس مجالاً لإنكارها أو التكذيب بها، وقد جاء بعد بيان كل نعمة من هذه النعم قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

آلاء الرحمن يخاطب بها الجنُّ والإنس.

وفي الخطاب بلاغ وتبشير وإنذار وتسبق الرحمة، ويشعر بها البدء باسم الرحمن، وفي تعداد النعم دعوة إلى الإقبال على الرحمن والمبادرة بالأعمال الصالحة طلبا لمرضاته وابتغاء رحمته.

وفي تعداد النعم بعد ذكر الرحمن يبدأ بأعلاها وأغلاها وأبقاها، يبدأ بتعليم القرآن قبل الحديث عن خلق الإنسان. **﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾** فإن النعمة التي تمتد وتبقى وتدفع وتشفع هي نعمة القرآن.

«اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه».

نعمة تنزيل القرآن وتعليمه تأتي في الذكر بعد الرحمن، وقبل الحديث عن خلق الإنسان، ليُعلم أن خلق الإنسان من أجل الدين وبه يكون ولن يكون بغيره.

فقدم ما خلق الإنسان من أجله على خلقه ليكون على بصيرة وعلم بما يميِّزه من غيره، وما يجب أن يكون عليه في جميع أمره، وألا يصرف عن غايته

بأي صارف من رغبات نفسه وزينة حياته.

وقد رأينا الفاروق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ـ ينبه على هذه الحقيقة في موقف قد يختلط الأمر فيه على كثير من الناس.

رأيناه لمَّا قدم إليه خراجُ العراق يخرج ومعه مولًى له.

فجعل عمر ـ رضي الله عنه ـ يَعُدّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى. ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته.

كلمة يقولها الناس كلَّما سيقت إليهم نعمة أو ظفروا بمتاع.

قالها مولًى لعمر ـ وقد رأى الخراج أكثر من أن يعد.

فلم يقبلها عمر. وقال له كذبت. ليس هذا

بل هو الذي يقول الله تعالى ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ وهذا مما يجمعون. يشير إلى ما جاء من الخراج وقال عنه مولاه: هذا من فضل الله ورحمته، فقال عمر: هذا مما يجمعون، أما فضل الله ورحمته فقد امتن الله على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسول الله ﷺ في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[٨٣٣] خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

هكذا يحدِّد الفاروق ـ رضي الله عنه ـ قيم الأشياء بفقه وبصيرة، وينبه إلى أمرٍ قد يغيب على كثير من الناس في زحمة الحياة والتعلقِ بزينتها ومتاعها.

ينبه إلى أن القيمة فيما يبقى لا فيما يذهب ويفنى.

وما يجمعه الناس ذاهب فانٍ وما عند الله باق.

---

(٨٣٣) سورة يونس: ٥٧ ـ ٥٨.

والقرآن الكريم ـ وهو يدعو إلى الله ويعين على طاعته ورضاه ويبصر ويذكر ويهدي للتي هي أقوم ـ هو السبيل للفوز والنجاة فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا، والإنسان بلا هداه تائه ضال.

من هنا كان تقديمُه في الذكر على خلق الإنسان إيذانًا بمكانته وإعلامًا بشأنه وهدايته، والإنسان على هدى من نوره يعرف حكمة خلقه وغاية وجوده ولولا فضل الله ورحمته بتعليم القرآن لعاش الإنسان أسيرًا لضياع أو عبدًا لمتاع، فتعس في دنياه وهلك في أخراه.

فليكن القرآن مقدما في حياتنا كلِّها لنبصر على هداه جميع أمرنا فنصون روابطنا، ونحسن تعَامُلنا فلا يشغلنا فانٍ عن باق، ولا تصرفنا رغائب عاجلة عن عواقب قادمة.

إن القرآن بما اشتمل عليه قد قدَّم الميزان الصحيح لقيمة الإنسان وكرامة الإنسان، وحدد الطريق لنجاته وفوزه.

فجدير أن يقدم تعليمُ القرآن في الذكر على خلق الإنسان لأنه السبب في خلقه ووجوده؛ فالإنسان خلق لغاية يحددها ويهدي لَهَا ويدعو إليها تعليم القرآن. خلق الإنسان لعبادة ربه، والقرآن يريه منهج العبادة وسبيلها في آيات تتلى، وبها يُتَعَبَّد، وفي دعوته لاتباع من أنزل عليه القرآن، وبه يُتَأَسَّى ويتَّبع، وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ.

١٥٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٨٣٤).

---

(٨٣٤) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠.

ولله أن يُقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. وفي القسم بما خلق تذكرة وتبصرة، وقد أقسم هنا سبحانه بمواقع النجوم.

وجاء القسم على هذا النحو مسبوقا بلا النافية كما ورد كثيرا في القرآن الكريم في مثل قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾[835]. وقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[836] وقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[837].

ومن ذلك ما جاء في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾[838]، وقوله ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[839].

وقد جاء القسم في كل ذلك مسبوقا بلا النافية قبل فعل القسم فأفاد التأكيد ببيان أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسمٍ ما فضلاً عن هذا القسم.

ويرى بعض المفسرين أن «لا» التى سبقت الفعل «أقسم» يؤتَى بها في أول القسم إذا كان مُقسماً بـه على منفي كقول عائشة ـ رضي الله عنهـا ـ «لا والله ما لمست يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قط».

والمنفي هنـا في قولـه ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ محذوف، وهو كلام الكافر الجاحد تقديره: فلا صحّةَ لما يقول الكافر الجاحد من أن القرآن قول

---

(835) سورة التكوير: ١٥ ـ ١٩.

(836) سورة الانشقاق: ١٦ ـ ١٩.

(837) سورة الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣.

(838) سورة المعارج: ٤٠ ـ ٤٢.

(839) سورة القيامة: ١ ـ ٢.

شاعر أو قول كاهن ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

ومواقع النجوم: مساقطها ومغاربها.

ولله أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله وصفاته.

والقسم بمواقع النجوم ــ والقول بعد ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ـ فيه ما فيه من تعظيم للقسم وللمقسم عليه. أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عَظَمته لعظَّمتم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾.

أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لكتاب عظيم ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: معظم في كتاب محفوظ موقر ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾. وفي هذا النفي ما فيه من حفظ القرآن مما زعم الكفار من أن القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسُّه إلا المطهرون؛ فالقرآن مصون من ذلك ومن نزل عليه مصون، والشياطين إنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾(٨٤٠).

أما القرآن فمصونٌ في ذاته، مصونٌ من نزل به ومنْ أنزل عليه ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾.

فالقسم عظيم، والمقسم عليه كريم، أي: عزيز مكرم، لأنه كلام الله ووحيه إلى نبيه ﷺ، والكريم من شأنه أن يُعطي الكثير، والقرآن لا ينقطع عطاؤه لما فيه من الهدى والنور والبيان والعلم، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه،

---

(٨٤٠) سورة الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

والحكيم يستمد منه ويحتج بـه، والأديب يستفيد منه ويتقوى بـه، فكل عالم يطلب أصل علمه منه.

ولا ينقطع عطاء القرآن ولا تنقضي عجائبه.

ذاك حديث القرآن عن القرآن.

فيه هدى ونور. ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

١٥٦

ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قوله تعالى في سـورة الحديد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾[٨٤١]. ففي هـذه الآية ذكـر من نزَّل القـرآن ومن نُزِّل عليـه وبيـان الغايـة من إنزال الكتـاب و إرسال الـرسول ﷺ، فقـد أنزل الله الكتـاب وأرسل الرسول لهداية الناس و إزاحة العلل و إزالة الشبه.

فقد أنزل الله الآيات البينات الواضحـات التي هي آيات القرآن ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الهدى والإيمان ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وفي ذلك مـا فيـه من رحمة بـالعبـاد، حيث أنـزل الكتاب وأرسـل الرسـول لهدايتهم و إزالة الشبـه من حياتهم، وليكونوا على علم بحكمـة خلقهم وغاية وجودهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن تـدبـر ذلك، وأيقن أن من أنـزل الكتـاب وأرسل الـرسول غنـي عن العالمين استمسـك بالكتـاب واعتصم بـه واهتدى بهـداه. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والسورة التي نزلـت فيها هذه الآية هي سورة الحـديد وهي تذكر من بدايتها من أسماء الله وصفاتـه ما يعين على معرفة الله وخشيته ويدعو

---

(٨٤١) سورة الحديد: ٩.

إلى محبته وصدق عبادته فكل شيء منه وإليه، فهذه الآيات من الله الذي يسبِّح كل شيء بحمده ويخضع كل شيء لمشيئته وقدرته، والخلق جميعا فقراء إليه والله هو الغني الحميد.

وقد سُبقت هذه الآية بقوله جل شأنه ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٨٤٢).

والله عز وجل ما طالبهم بالإنفاق مما أعطاهم ودعاهم إلى الإيمان به إلاَّ لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم. ومن رحمته بهم أن يخاطبهم بآياته ويذكرهم بقدرته وصفاته؛ ليعلموا أن ما دعاهم إليه هو محض فضلٍ منه عليهم، وقد كتب على نفسه الرحمة، ودعاهم أن يتراحموا فيما بينهم بما أنعم عليهم ليرحمهم.

فإن أبوا إلا الكفر والجحود والظلم والفسوق فليعلموا أن لا مفر لهم من الرجوع إليه والحساب بين يديه.

وتلك آياته وهذه صفاته ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾(٨٤٣).

فلندقق النظر في هذه الآيات ولنعش بقلوبنا في هذه الآيات البينات ولنسأل أنفسنا لماذا أمرنا الله بالإنفاق ودعانا إلى الإيمان، وقدَّم لهذا الطلب تعريفا

---

(٨٤٢) سورة الحديد: ٧ ـ ٨.

(٨٤٣) سورة الحديد: ١ ـ ٦.

بنفسه وذكرًا لعظمته ودلالة قدرته في آياته التي تعود على الإنسان بالنفع؟ أليس كل ذلك تبصرة لخلقه وعونا لهم على معرفته وطاعته وخشيته؟ لمن هذه الآيات البينات؟

أليست للناس علما وحكمة وهداية وتبصرة وبلاغًا و إنذارًا؟

إن الذي يخاطبهم بآياته تلك صفاته.

هو العزيز الحكيم.

له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم.

والله بما تعملون بصير.

له ملك السموات والأرض.

وإلى الله ترجع الأمور.

يولج الليل في النهار. ويولج النهار في الليل.

وهو عليم بذات الصدور.

ألا يدعو كل ذلك إلى الخشية ويثير في النفس رغبة ورهبة؟

إن كل حقيقة من هذه الحقائق لا يخاطب الإنسان بها وهي بعيدة عنه، بل يراها بينة واضحة عاملة مؤثرة في نفسه وفي الآفاق من حوله.

فآيات الله وهو يخاطب بها ويرى صدق دلالتها تعينه على معرفة الحق والاستمساك به، وتصرفه عن الباطل والركون إليه، وتجعله يبصر كل شيء على حقيقته وهو يهتدي بنورها ويذكر ربَّه بها. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ذاك هو القرآن وتلك آياته عون للإنسان على الخروج من ظلمات الهوى والشرك إلى نور الهدى والعلم، عون له حتى لا يميل أو يحيد عن الصراط المستقيم، عون له على صدق نيته واستقامة سعيه وكلمته.

عون على التمسك بالفضائل والبعد عن الرذائل.

عون أيٌّ عون على الإيمان وصالح الأعمال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

عونٌ على الاعتصام بالله والتحرر من أسر الهوى ونزغات الشياطين.

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٥٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحديد ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٨٤٤).

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعُ سنين.

وقال الزجاج: نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حُثُّوا على الرِّقَّة والخشوع. فأما من كان موصوفًا بالخشوع والرقة، فطبقة من المؤمنين فوقَ هؤلاء.

ويقول الفخر الرازي في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: «يحتمل أن يكون المراد بالحق هو القرآن لأنه جامع للوصفين، الذكر والموعظة، وأنه حقٌ نازل من السماء، ويحتملُ أن يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقا».

---

(٨٤٤) سورة الحديد: ١٦.

والمراد بما نزل من الحق هو القرآن وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله، فأما حصولها عند سماع القرآن فذاك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «وما نزل من الحق» يعني القرآن.

وواضح أن الآية نزلت في المؤمنين.

وهي للمؤمنين حيث كانوا في أي زمان أو مكان.

فلهم فيها عظةٌ وتذكرة، ولهم فيمن مضى من أهل الكتاب قبلهم درس يجب أن يتذكروه دائما وهم يسمعون هذه الآية ويتلون كتاب الله؛ حتى لا تقسو منهم القلوب، فلا تفيدهم عظة ولا تنفعهم تذكرة. وقد آن لهم أن يستجيبوا وأن يعودوا إلى هداية القرآن وأن يعتصموا به.

والآية تعطي كلَّ جيل عظتَها وعتابها بما يتناسب مع موقف الجيل، وتفاوت الناس في درجات الإيمان.

وإذا كان أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ وهو من هو في خشيته وخشوعه، وقد قرئت هذه الآية بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكُوا بكاء شديداً، فنظر إليهم فقال: «هكذا كنا حتى قست منا القلوب».

إذا كان أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ يقول ذلك فماذا تقول الأجيال من بعد وليس فيهم من يخشع خشوع الصحابة أو يبلغ مكانتهم؟

الآية تعظ المؤمنين حيث كانوا، ويسمعها أقوى المؤمنين إيمانا فتعظه، ويسمعها أدناهم فيرى فيها عتابًا وتحذيراً من غفلة نفسٍ أو قسوة قلب. والقرآن الكريم قد كمل نزوله وحفظ بحفظ الله له.

فآن لكل من سمع أن يثوب وأن يعود وأن يحذر الغفلة وقسوة القلب. ومن رحمة الله أن حفظ الذكر ليكون باعثا على الخشية وداعيا إلى تقوى النفس وصلاحها. وهو يدعو إلى الحق ويهدي إلى صراط مستقيم.

والأمة التي أقام فيها التنـزيل قيام الشمس في فلك السماء آن لها أن تُصغي لهذه الآية وأن تَعي دلالتها ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلـوبهم لذكر الله﴾ إن هذه الأمة يتصَل تـاريخها بالقرآن الكريم ولا ينفـك عنه، فهي في مدٍّ حين تقبل عليه وتعمل به.

وهي في جزْرٍ وضعْفٍ حين تُشغَلُ عنه.

وهو في منعتـه وعزَّته يظل يذكـر ويبشر ويهدي للتي هي أقوم، يظل يـوجِّه نـداءه للقلوب لتخشع، وإلى مـن شغل عنه أن يعـود إليـه، وأن يتبع صراطـه المستقيم حتى لا تتفـرق بهم السبل، أو ينتهي بهم البعد والإعـراض إلى سوء عاقبة ومصير.

وهذا التذكير من جانب القرآن الكريم يخاطب به من نزل فيهم.

وتخاطب به الأجيال كلها من بعد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكأنه نزل لساعته.

وسيظل القرآن الكريم في عزته ومنعته يُصْـدرُ نداءه ويعلن عتابه ويدعو من آمنـوا بـه أن يهتدوا بهـداه وأن يعتصمـوا بحمـاَه، وأن يكـونوا معـه حيث كـان موحَّدين مُوَحِّـدين معتصمين به غير متفرقين ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ ولعلَّ تجربة الواقع المعاصر تَحُث أبناء الإسلام حيث كانوا أن يتوحَّدُوا ولا يتفـرقـوا وأن يعتصمـوا بحبل الله ويهتـدوا بمـا هـداهم الله بـه في روابطهم ومعاملاتهم ورد كيـد العدو عنهم؛ لعلَّهم ـ وهم يرون ـ ما يحـوط بهم وما يراد لهم أن يعلموا موقنين أن كلَّ آية في كتاب ربهـم ستسألهم فريضتها آمرة كانت أو زاجرة، فليسألـوا هم أنفسهم قبل أن يسألوا، هل ائتمروا بما أمـروا به؟ وهل ازدجروا عما نهوا عنه؟

أو أن صلتهم بالإسلام صلة نسب؟ وأعمالهم تكذِّب نسبتهم إليه.

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٨٤٥).

إن للناس حقوقا ولهم حرمات. ولن تحفظ حقوقهم وتصان حرماتهم إلا بإحقاق الحق و إقامة العدل.

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وقد طلب الله منهم أن ينصروه ـ وهو القوي العزيز ـ ليكونوا جنود حق وحماة عدل، وسيحاسبهم إن هم فرَّطوا أو قصروا فيما دعاهم إليه وأمرهم به وأعانهم عليه بما أنزل من كتاب وأرسل من رسول ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ونصرة الله لا تكون إلا في إحقاق حق و إقامة عدل.

نصرة الله في إعلاء كلمته والله هو الحق وقوله الحق وقد أنزل الكتاب بالحق.

وما فرضه عليهم من فرائض يؤدونها تقربا إليه هي لهم طهارة وتزكية وبرٌّ وتراحم وألفة وتعاون وأمن ومغفرة، ولا تزيد طاعتهم في ملك الله شيئا ولا تُنْقِصُ معصيتهم من ملك الله شيئًا.

ومن تدبر ما أمر الخلق به وما نهوا عنه وجد ذلك لمصلحة الخلق، لإحقاق الحق و إقامة العدل و إشاعة البر والكف عن الإفساد والشر. وقد جعل امتحانهم بأوامره ونواهيه في مصلحتهم، وجعل جزاءه على أعمالهم تحريضا لهم على فعل الخير وردعًا عن ارتكاب الشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(٨٤٥) سورة الحديد: ٢٥.

خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . وأنزل الكتاب والميزان ليكون عونا لهم على معرفة الحق وإقامة العدل ولم يكلْهُمْ إلى أنفسهم ـ في بيان الحق وتحديد معالمه ـ حتى لا تكون أهواؤهم حكما فيما بينهم ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فالقول بأن هذا حق أو باطل ليس قَوْلهم .

بل هو قول من خلقهم وهو غني عنهم ، ولو تُرِكَ القولُ لهم دون هدى وبيان لأفسدوا وأضلوا ورأوا الحق لأنفسهم دون غيرهم ، وبغى بعضهم على بعض كما يحدث عند اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق .

الحق من الله ، وبه تصان الدماء والأموال والأعراض ويحفظ العقل والدين وتلك مقاصد الشريعة وما تؤدي إليه .

ومن استخف بدم غيره فقد أباح دم نفسه .

ومن استحل مال أو عرضَ غيره لم يسلم من استباحة ماله وعرضه . ومن تناول المفسدات لعقله لم تُعْقَلْ نفسه من الإساءة لغيره ، ومن هان عليه دينه هانت عليه حرمات الناس .

ومن لم يفِ لله الذي خلقه ورزقه فلن يكون وفيًّا للناس ولا عدلا مع نفسه ، وإن بدا للناسَ منه غيرُ ذلك فلمصلحة طارئة لا تلبث أن تزول فيزول ما بدا من وفاءٍ ويظهر ما خفي من غَدْرٍ وجفاء .

إن ثبات الفضائل وشمولها لا يستمد إلا من عصمة الإنسان بدينه وصدق خشيته من ربه ، فتلك هي الرقابة التي لا تبارح الإنسان في سرٍّ أو علن ، ولا تنفك عنه في عسر أو يسر ، ولا يكيل الإنسان معها بمكيالين ، ولا يزن بميزانين ، وإنما هو ميزان واحد مع العدو والصديق والقريب والبعيد ؛ استجابة لأمر الله وعملا بما أنزل من ميزان وأرسل من رسول .

وقد حفظ الله ما أنزل لتبقى معالم الحق والعدل كما جاءت من عند الله حتى لا يتقول متقول على الله فينسب إلى الحق ما ليس منه ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لقد حفظ الكتاب المهيمن ليعلن ما جاء به الرسل جميعا من عند الله دون تفرقة أو اختلاف ، وهذا ما جاءوا به ـ كما أخبر الله ـ وما أرسلوا له ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ آية جامعة للغاية من إرسال الرسل جميعا وما أنزل معهم من الكتاب والميزان ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ .

ومن استخدم ما في الحديد من بأس شديد لغير ما أنزِلَ من أجله الكتاب والميزان حوسب وعوقب .

فإن ما في الحديد من بأس شديد إذا استعمل لغير إحقاق حق وإقامة عدل ، إذا استعمل لغير إعلاء كلّمة الله كما جاء في الكتاب فقد استعمل لغير ما أنْزِلَ له وما جعل فيه .

وتلك قضية الامتحان للإنسان وعليها يكون الحساب والجزاء ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ومن المعلوم أن الوسائل صالحة لأن تستعمل في خير أو شر.

ومنها حواسُّ الإنسان وجوارحه ، ليُعلم موقف الإنسان بإرادته واختياره وقد جاء إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان مصاحبا لإنزال الحديد في حديث القرآن لتبقى هذه المصاحبة قائمة في سلوك الإنسان فلا ينفرد الحديد ببأسه وشدته ومنفعته أو ينفك عن نور الكتاب وهدايته وخضوعه لسلطان كلمته ، وإلا كان الحديد دماراً في يد من لا يخْضعُ لمواثيق الحقِّ والعدل التي أرسل الله بها الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان .

والإنسان بإيمـانه وفقهه وهداية ربِّـه هو الجامع لهما علـى بصيرة، وهو إن أعرض عن هداية ربِّه فرَّق بينهما فاستعمـل الحديد بغير اتباع للكتاب وهدايته وأخذ بعهوده ومواثيقه.

منً هنا تُعْرفُ مكانةُ الإنسان فيما خُوطب به وما أنزل من أجله، فإذا اهتدى بهداية ربـه أصلح ولم يفسد، وإن أعرض دمَّر ولم يصلـح. والناس ممتحنون ومختبـرون ومحاسبـون. والأسباب مـوفورة لإظهـار النتائج والعـواقب ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.



حديث القرآن عن القرآن
في آيات من:

١ ـ سورة الحشر
٢ ـ سورة الصف
٣ ـ سورة الجمعـة
٤ ـ سورة التغابن
٥ ـ سورة الطلاق
٦ ـ سورة الملك
٧ ـ سورة القلـم
٨ ـ سورة الحاقة
٩ ـ سورة الجن
١٠ ـ سورة المزمل
١١ ـ سورة المدثر
١٢ ـ سورة القيامة
١٣ ـ سورة الإنسان
١٤ ـ سورة التكوير
١٥ ـ سورة الانشقاق
١٦ ـ سورة البروج
١٧ ـ سورة العلق
١٨ ـ سورة القدر
١٩ ـ سورة البينة

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٨٤٦).

هذه الآية التي تتحدث عن القرآن قد سُبقت بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٨٤٧).

وجاء بعدها قوله تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٨٤٨).

والتناسب بين الآيات بَيِّنٌ واضح ودلالتها على عظم شأن القرآن الكريم لا تخفى؛ فمنزِّل القرآن هو الله ذو الأسماء الحسنى الذي انقادت له السموات والأرض، وهو خالق الجبال، ومنزِّل القرآن. وقال ــ وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

لقد بلغ من شأن القرآن وعظمته وشدة تأثيره أنه لو أنزل على جبل من الجبال لرأيت الجبل ـ مع كونه في غاية القسوة والصلابة ـ لرأيته خاشعًا متصدعا من خشية الله.

---

(٨٤٦) سورة الحشر: ٢١.

(٨٤٧) سورة الحشر: ١٨ ـ ٢٠.

(٨٤٨) سورة الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

فإذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وعقلته لخشعت وتصدعت من خشية الله فكيف تكون صفة أولئك الذين يُعرضون وتقسو قلوبهم عند سماعه وهم مخاطبون به؟ !

إن في الآية ما فيها من توبيخ وتقريع للإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن .

إن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا أيَّ أثرٍ فيمن يتلقاه حاضر القلب مدركا لحقيقته وغايته .

لقد وجَدَ عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما سمع قارئا يقرأ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾(٨٤٩) فارتكن إلى الجدار، ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرًا مما ألَمَّ به .

والذين يُحسُّون شيئًا من أثر القرآن في حياتهم يتذوقون هذه الحقيقة ويعرفون دلالة قوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أثر القرآن فيمن يخشون ربهم ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٨٥٠) وإذا كانت هذه الآية ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل . . .﴾ قد سُبقت بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ .

---

(٨٤٩) سورة الطور: ١ـ٨ .

(٨٥٠) سورة الزمر: ٢٣ .

فإن الحديث عن القرآن في هذا المقام فيه ما فيه من تنبيه على ما يجب أن يتّبع لتحقيق ما تضمّنه قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

إن القرآن قائد يقود من اتبعه إلى الجنة، ولا عذر لأحد في ترك تدبره والعمل به. فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مع تركيب العقَل لها لانقادت لمواعظه ولرأيتها مع صلابتها ذليلة متصدعة من خشية الله.

وهذا مثل ضرب للناس لكي يعلموا مدى ما في القرآن من تأثير لمن تفكر فيه وتدبر ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فما لك والآيات تأتي من بعد هذه الآية ذاكرة أسماء الله وصفاته تاركة للنفس أن تتدبر أن من هذه صفاته هو الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ؟ ويكفي من تدبر هذه الصفات أن يدرك ما للقرآن من ثقل وسلطان.

إن هذه الأسماء التى ختمت بها سورة الحشر حين يتدبرها المؤمن توحي إليه بما يجب أن يكون عليه فإن لكلٍّ اسم من هذه الأسماء الحسنى أثرًا في حياة البشر، وهي تلفت النظر إلى ما للقرآن من فضل وأثر وقد أنزله من هذه أسماؤه وصفاته.

فالقرآن كلام من له هذه الأسماء الحسنى سبحان الله عما يشركون، فلتخشع القلوب له، ولتفرح النفس به، ولتحسن تدبره، ولتسبح بحمد الله الذي أنزله متجاوبةً مع الوجود كلّه، وكلُّ ما فيه مسبِّحٌ بحمد ربِّه.

﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الصف ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(٨٥١).

محاولة يائسة من أهل الكفر والجحود أن يعمدوا إلى إطفاء نور الله بأفواههم وهم يقولون: ﴿هذا سحر مبين﴾، ويكيدون له محاولين القضاء عليه، ويتواصون فيما بينهم ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

محاولة يائسة يقوم بها أهل الكفر وهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق كمن يحاول أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، والشمس لا يحبس ضوؤها ولا يوقف مدُّها.

والحق لا يدحض ولا يُهزم وإنما الباطل هو الذي يزهق ويهلك.

والله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾. فمن ذا الذي يحجب ما يظهر الله أو يطفئ نوره.

لقد أتم الله نعمته وأكمل دينه وحفظ كتابه، ولم يفلح في صد الناس عن هذا الدين ما قام به الأعداء من حرب وكيد وتنكيل وتشريد، لم يفلح ما قاموا به من كيد وصدٍّ في إطفاء نوره أو صرف الناس عن فدائه وحبِّه؛ لأن نور الله لا يمكن أن يطفأ، والحق الذي أنزله لا يمكن أن يُدْحَض. وكل محاولة لإطفاء هذا النور في ماض أو حاضر مهما تنوعت الأساليب أو تعددت الإساءات ستبوء بما يبوء به الباطل حين يُقْذَف بالحق. والمؤمنون بالحق يؤثرونه على

---

(٨٥١) سورة الصف: ٨ـ٩.

أنفسهم - بل لا يرون أنفسهم من دونه - فلا يصرفهم عنه وعيد أو إغراء، ومن عرف الحق وآمن به يرضَ أن يلقى في النار ولا يعود إلى ظلمات الشرك والجحود؛ لأن الحق الذي آمنوا به له نوره الذي يمشون به في الناس، وله انتصاره في النفوس التى تحبه فتؤثره وتفتديه.

ومن تدبر كيف بدأ دينُ الحقِّ، وكيف ظهر أيقن أن الحق لا يهزم أبدا وإن قلَّ جنده، وأن الباطل زاهق ولو كان له من العُدد والعَدد ما في الأرض جميعا ومثله معه، وهو ظلام لا بقاء له إذا سطع النور ولا حراك له إذا جاء الحق ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

وقد صدق الله وعده، وأعز جنده، وأظهر دينه، ونصر عبده وأقامه وأبقاه وحفظه هدًى للناس وحجةً لهم أو عليهم.

والقرآن الكريم وهو يتلى على الناس جميعا لا تهزم له حجة، ولا يطفأ له نور، ترى الغالب مغلوبا أمام عزَّته والمنتصر منهزما إزاء حجته وسلطان كلمته، وكم هزم المسلمون وانتصر هذا الكتاب فطوَّع الكائدين له إلى مؤمنين به ومجاهدين لنصرته. وكم نال العدو من ديار المسلمين ولم يستطع مغالبة حرف واحد منه.

﴿وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

إن الله الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى الكامل ودين الحق المبين الواضح قد حفظَ ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق في آيات تُتْلى وسنّة تتَّبع، وفي إظهار هذا الدين بالحجة وحفظه وبقائه بقاء الشمس في الكون ما

يقطع الحجة ويبطل المعذرة فلا حجة ولا عذر لجاحد به أو معرض عنه، ولا مجال لتبديل فيه أو تغيير وقد تكفل الله بحفظه فحفظ بحفظه وعزَّ بعزَّته.

هـذه الحقيقة تجعل كلَّ من كَـادَ له أو طمـع في إبعاده عن سـاحة الحيـاة تجعلهم جميعا يـائسين من إطفاء نـوره أو إبطال عملـه، وهو ثـابت لا يتغير محفوظ بحفظ الله لا يتبدل، ومن يتول عنه يستبدل الله غيره به.

وأمتنـا بخير دائمـا إن هي أحسنت كيف تسعى بثبـات القرآن في متغيـرات الحيـاة، الثابت يحفظ شخصيتهـا، ويبقي عليهـا ممتـدةً مع الزمن كلِّـه، لا يضرها من خالفها، ويجعلها تصمد أمام المخاطر والمغريات.

لأن ثبات القرآن متميز ذو خصائص تتجدد به حياة النفوس.

والذي جعله سببا في الحياة هو الذي جعل من الماء كل شيء حيٍّ.

والمـاء يحيي به الله الأرض بعـد مـوتهـا، فتهتز وتـربـو وتنبت من كل زوج بهيج.

والقرآن الكـريم قد أنـزله الله لتحيـا به النفوس وتـؤتي ثمارهـا أمانـة وعدلا وصدقا وبرا وإيثارًا ورحمة.

وهذا أمر ظاهر بين لا يجحده إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

وإذا كـان من الأرض قيعـان لا تمسك مـاء ولا تنبت كـلأ فإن من النفـوس نفوسا لا تقبل ما جاء من الهدى والحق.

وخصائص الحياة لا تخفى فيما جعل الله من المـاء وفيما أنزل من الكتاب وقد حفظ الله هذا وذاك.

ولـم تتغيـر خصـائص المـاء في فطـرتـه من زمن إلى زمن وإن تغيـر الـزرع والثمر، ولـم يعرف التاريخ في ماض أو حاضر أن أي حياة قامت أو بقيت بغير الماء. وكل أرض صالحة قبلته اهتزت وربت وأنبتت بإذن الله.

ومثل ما بعث الرسول ﷺ به كمثل غيث أصاب أرضا .

وسيبقى الماء ما بقيت الحياة .

وسيبقى الذكر ظاهرا مهيمنا محفوظا بحفظ الله ولو كره أعداء الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

١٦١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجمعة ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٨٥٢).

في هذه الآيات بيان للغاية من بعثة الرسول ﷺ وقد أجملتها الآيات في ثلاثة أمور هي :

تلاوة القرآن ، وجعل المبعوث فيهم مطهرين من دنس الشرك والمعاصي ، وتعليم القرآن والسنة وما فيهما من شرائع وحكم .

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ .

وقد كانت أمة العرب قبل بعثته ﷺ في شتات وضياع وبعد عن الحق ، فمن الله عليهم وأرسل فيهم رسولا منهم ، فرفع بذلك شأنهم وأعلى ذكرهم ، ولم تكن رسالة الرسول ﷺ خاصة بالعرب وحدهم ، وإنما هي عامة للناس جميعا في زمنه وفي الأزمان اللاحقة من بعده ﷺ .

---

(٨٥٢) سورة الجمعة : ٢ ـ ٤ .

وتخصيص العرب الأميين بالذكر، لأنه ﷺ مبعوث إليهم خاصة وإلى الناس عامة وهذا أمر الله لنبيه، ونداؤه للناس لتبليغ ما أنزل إليه من ربه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[853].

لقد بعث الرسول ﷺ للأجيال كلها سواء من العرب أو من غيرهم، من الصحابة أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هؤلاء جميعا مخاطبون بما بعث به ﷺ، مطالبون باتباعه والعمل بما جاء به، وقد حفظت رسالته ﷺ كما جاءت من عند الله لتكون بلاغا للناس جميعا إلى يوم الدين.

وآيات الله تتلى على الناس جميعا بلا توقف أو انقطاع أو تغيير أو تبديل، تُتْلى عليهم وكأنما نزلت لساعتها داعية إلى ما يحتاج إليه كلُّ جيلٍ وكلُّ قبيل لصلاح أمره واستقامة سعيه.

فمن ذا الذي لا يحتاج إلى نور الإيمان ومحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق؟ لا استغناء عن ذلك في أي زمان أو مكان.

ولقد أدرك الجيل الأول ضرورة ذلك فاستمسك بما أوحى الله به. وخاطب الناس بما بلّغ به في صدق ورشد وأمانة وحكمة.

ومن تدبر آيات القرآن الكريم وعرف أثره في نفوس من آمنوا به وصدقوا الله في الإخلاص له رأى ما يُحققه من أثر وما يثمره من استقامة وخير. وصف جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ما كانوا عليه قبل بعثة الرسول ﷺ وما صاروا إليه، وصف ذلك لنجاشي الحبشة حين بعثت إليه قريش عمرو

---

(853) سورة الأعراف: 158.

ابن العاص ليردَّ المهاجرين، وقد سمع النجـاشي من مُوفَد قريش ومن معه ما سمع، فأحبَّ أن يسمع من المهـاجـرين أنفسهم، ويعلمَ حقيقـة أمْرهم ومـا بعث به الرسول ﷺ فيهم :

فقال جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ هذه الكلمات المعبرة عمَّا كانوا عليه وما صاروا إليه. قال: «أيها الملك. كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتـي الفواحش، ونقطع الأرحـام. ونسيء الجوار ويأكل القـويُّ منَّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعـث الله إلينا رسولا منـا نعرف نسبه وصـدقه وأمانته.

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبـده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من قبل من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

ونهانـا عن الفواحش، وقول الـزور، وأكل مال اليتيم، وقـذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا.

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

هكذا زكت النفوس وطَهُرت وعُلِّمتْ ما لم تكن تعلم، وصارت كما وصف جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد استجـابتها لمن بعث فيها توحِّد الله وتعبده، وتصـدق في الحديث وتؤدي الأمـانة وتصل الـرحم، وتحسن الجوار وتكف عن المحارم والدماء.

رسولٌ بعث فيهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة تحولت به حياتهم من الظلمات إلى النور، وصاروا به خير أمة أخرجت للناس ولم يكن ذلك وقْفًا على الجيل الذي بعث فيه، بل امْتد مع الزمان والمكان، وبقي تأثيره في حياة الإنسان حيث كان لا يتوقف أثره ولا يُطفأ نوره.

والكتاب تُتْلى آياته والرسول ﷺ تُعْرَفُ سنته وتدرك حكمته، وقد حُفِظ ذلك بحفظ الله وبقي بقاء النور في الكون لتنعم الأجيال كلُّها ـ وهي تستجيب لله وللرسول ـ بنعمة الحياة، حياة الطهر والعفاف والإيمان والصدق، حياة العدل والبر والرحمة، حياة أي حياة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

١٦٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة التغابن ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٨٥٤).

حديث القرآن هنا عن أصل من أصول الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

وقد كذب بـه الكافرون وزعموا أن لن يبعثوا، وهو زعم يـدل على ما هم فيه من غفلة وعمًى وجحود.

ذلك أن البعث قائم فيهم وأدلته في أنفسهم ولكنهم لا يبصرون، ولو ذكروا بداية أمرهم لما غابت عنهم قدرة خالقهم في بعثهم وحسابهم. ﴿وَيَقُولُ

(٨٥٤) سورة التغابن: ٧ـ١٠.

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ .

إن إنكار البعث فيه إنكار لحقيقة وجودهم وحكمة خلقهم .

واستبعـــاد البعث يُفضي إلى الظن بـأن الخلق عبث وبــاطل ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾.

تعالــى الله عن أن يخلق عبثا أو بـاطلا ، إنه الحــق وقوله الحق ووعــده حق ولقاؤه حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق .

وللحق آيــاته وبينــاته ، ولــه نوره ونــاره ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾

ومن آمن بالله ورسوله وآمن بــالقرآن ـ وهو الــنور الذي أنــزله الله ـ هــداه إلى الحق ودعــاه إلى العمل به ، وعــرف به حكمــة وجوده وغــاية خلقــه ، وحكمة الخلق تأبى أن تكـــون الحيــاة دنيــا فحسب ، وفيهــا ظـــالم ومظلــوم ومحسن ومسيء . حكمة الله تأبى أن تسوِّي بين هذا وذاك ، فلا بد من الحساب ولا بد من الجزاء ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٨٥٥) . وما أنــزل الكتاب وأرسل الرسول ﷺ إلا ليبين للنــاس ما يجب أن يكونوا عليه ويـذكرهم بما هم صائرون إليه .

---

(٨٥٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ .

ليست الحياة دنيا فحسب ، وإنما الدنيا مقدمة للحياة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الناس يمرون بالدنيا ولا يقيمون وما أسرع ما تمر الأيام وتنقضي الآجال .

إنها دار امتحان واختبار ومن أرادها لغير ذلك أهلك نفسه في الجري وراء سراب وخسر دنياه وآخرته ، ومن أجل الامتحان والاختيار خلق الله الموت والحياة .

الموت يقدم للحياة موعظته ، والحياة تُعْلمُ الناس أنهم بعد موتهم صائرون إلى بعث ونشور، وقد رأوا قدرة الله فيهم فلا مجال لكفر أو جحود ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

فكيف يزعم من يزعم أن لا بعث ولا نشور والبعث قائم فيه ، وكان ميتا فأحياه الله؟! ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ .

وفي المقسم به دلالة على المُقْسَم عليه ﴿وربِّي لتبعثن﴾ .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يُقسم بربه عز وجل على وقوع البعث ووجوده ؛ لأن في الربوبية دلالةً أيَّ دلالة على البعث الذي أنكروه وزعموا أن لا يكون ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ذاك هو نور القرآن في دحض الشبهات و إزالة الظلمات والأخذ بيد الإنسان إلى الطمأنينة واليقين .

ولو أبصر هؤلاء أنفسهم ورأوا آيات الله فيها وفي الآفاق من حولهم لأيقنوا بالحق الذي خوطبوا به ودعوا إليه وعرفوا عن يقين أن أمر البعث على الله يسير، وأن الإيمان به مصلح لدنياهم، مبعد للظلم والفساد من حياتهم، معينٌ على التراحم فيما بينهم. إن الاستقامة في الحياة منوطة باليقين بالدار الآخرة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(٨٥٦) ذاك حديث القرآن فيه هدى ونور ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾.

وفيه موعظة وذكرى فلنتمسك به ولنتبع هداه ولنحذر مخالفته أو الإعراض عنه، ولنذكر ما نحن صائرون إليه ومحاسبون عليه **﴿إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾** ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١٦٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الطلاق ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾(٨٥٧).

---

(٨٥٦) سورة المؤمنون: ٧٣ ـ ٧٤.

(٨٥٧) سورة الطلاق: ٨ ـ ١١.

إن القرآن الكريم وهو يذكر بما وقع من أحداث ماضية يقدم لنا من خلال ذكرها سنن الله الباقية، فكل أمة من قبل قد عصت ربها وأعرضت عن رسله نالها من عقاب الله ما نالها، فذهبت وبقيت للناس عبرتها تخاطب الأجيال من بعد.

والله عز وجل وهو يبين ما حلَّ بالأمم الماضية حين عتت عن أمر ربها ورسله يحذِّر من جاء بعدهم من أن يتبعوا سُبُلَهم ويتوعد كل من خالف أمره وكذَّب رسله. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾.

خسران وهلاك ونكال في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة. كل ذلك بسبب كفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الحق الذي أمروا باتباعه وما يتلى على الناس من قرآن يريهم نتائج الأعمال والأقوال والنيات، يريهم ذلك في مصائر الأمم وعاقبتها.

يريهم نتائج الفسوق والعصيان، ويريهم مصائر الظالمين المفسدين ليحث أهل الإيمان واليقين على الثبات على الحق في جميع أمرهم وأن يحذروا أن يستدرجوا إلى ما وقع فيه غيرهم من دمار وخسران ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فلا تكونوا كهؤلاء فيصيبكم ما أصابهم.

ولا تنقطع التبصرة والتذكرة. والذكر محفوظ والسنة باقية؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

ذكر محفوظ لا يطفأ نوره ولا يوقف مدَّه.

ذكر يتلى ويُسمع ويراه الناس خلقا لرسول الله ﷺ، وقد جعله الله نورًا يهدي به من يشاء ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨٥٨).

وهكذا قد تمت النعمة وكَمُلت بإرسال الرسول و إنزال الكتاب، وحفظت النعمة لتكون تبصرة وذكرى للمؤمنين، و إعذارًا و إنذارًا للعالمين.

حفظ الذكر في آيات مبينات تلاها الرسول ﷺ ورآها الناس في سيرته منهجا وخلقا فاكتملت البينة وتحقَّقت الأسوة بنورين: كتاب ورسول. فلا حجة لأحد بعد بيان ولا عذر بعد بلاغ و إنذار.

فمن آثر الحياة الدنيا وبغى وطغى لقي ما يلقاه الطغاة الظالمون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فهدى بالحق وعدل حسنت عاقبته وطاب نزله، وفي بيان القرآن وآياته بلاغ للناس و إنذار لهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾(٨٥٩).

﴿**إنَّا من المجرمين منتقمون**﴾ وعيدٌ يلقاه كل من كذب بالحق وأعرض عنه، يلقاه كل من بغى وطغى وأفسد في الأرض بعد إصلاحها، وكم في الأرض من طغاة يظنون بطغيانهم أنهم فائزون.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

١٦٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الملك ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

(٨٥٨) سورة المائدة: ١٥ـ١٦.

(٨٥٩) سورة السجدة: ٢٢.

نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٨٦٠).

تلك عاقبة الذين كذبوا بالحق وقالوا ـ مُنكرِين ـ : ما نزَّل الله من شيء . مبالغة منهم في الكفر والجحود .

قالوا في حقٍّ ما تُلي عليهم من الآيات : ما نـزَّل الله على أحدٍ من شيء من الأشياء ، فضلا عن تنزيل الآيات . جحود للحق أيُّ جحود .

والنفوس إذا جحدت الحق المبين عميت وضلَّت وكان عاقبة أمرها خسرا ، ومن فرَّط في حقٍّ دُعيَ إليه ندم على التفريط حيث لا ينفع الندم ، ولن ينفع بعد فوات الأوان ندمٌ ولا حسرة ؛ فإن للامتحان وقتا لا يتجاوزه ، وأجلا إذا جاء لا يؤخر .

فإذا ما انقضى الأجل ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ . عندئذ لا ينفع ندم ولا حسرة ولا تقبل شفاعة ولا معذرة .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ إن الحق الذي أنزله الله على نبيه وأمره أن يبلغه وينذر به قومه هذا الحق ليس بخاف ، والنذير ليس بعيداً عنهم . إنه منهم يأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم ، ويشهدون جميعاً بصدقه وأمانته . ولكن الجحود يقود صاحبه إلى إنكار ما لا ينكر .

والنفوس التي تكفر بربها ، ودواعي الإيمان مودعة في فطرتها ، ودليله قائم فيها ، هذه النفوس تعادي بكفرها كلَّ شيء ، وتناقض بجحودها الوجود كلَّه وهو يسبح بحمد ربه ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ .

---

(٨٦٠) سورة الملك : ٦ ـ ١١ .

فلا غرابة أن تُـرى جهنم في هذا الغيظ والمقت على من ألقي فيها من أهل الكفر والجحود. ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ ﴾.

إنها تتغيظ لهذا الجحـود الذي تنكره فطرتها وتنفـر منه وتنطوي على بغض وكره لأهله، وإسنـادُ الغيظ إليها تنبيه إلى أن الأشياء ليست بمعـزل عن سلوك الإنسان وما يوحيه إليها، إن الأرض قد تبكي لفراق ناس ولا تبكي على آخرين وتحمد ربَّها حين يُقطع من على ظهرهـا دابر الظالمين. الأشياء التي قد يظن أنها بمعـزل عن الإنسان ومـوقفه من كفـر أو إيمان، هذه الأشيـاء لها تأثيـرها وتأثرها بما يتسق مع فطـرة الخلق أو ينافيها، ولها شعورها وتعبيـرها عما تحبه أو تجافيه. فما اتسق مع فطرة الخلق تسبيحـا وإيمانا مالت إليه ورغبت فيه، وما خالفه وشذ عنه نفرت منه وتحفزت للانقضاض عليه. ولو أحسن الإنسان التـدبر لعـرف أنـه يعيش في كون حسَّـاس شفَّـاف مسجِّل بما أودع الله فيـه، يحس بما يقع ويذكر ويحدث حين يـؤذن له، ويحَبُّ ويكره، ويفرح ويجزع بفطرة لا تبديل فيها ولا تغير في حقيقتها.

كل شيء في هـذا الكون مسبحٌ بحمـد ربه **﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾** فمن كفر بـربِّه فقـد شذَّ عن هذا الكـون كلِّه ولقي مـا يلقاه من سخط وبغض وتَحفُّز عليه وتوثُّب، وذاك حال جهنم ـ وهي من خلق الله.

تستقبل من كفر بربه وجحد آياته، تستقبله حين يُساق إليها في غيظ وحَنَق شديد ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ ﴾ ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴾[٨٦١].

---

(٨٦١) سورة الفرقان: ١٢.

والأرض التي مشى الإنسان في مناكبها وأكل من رزق ربه، هذه الأرض تسجل على الإنسان ما جرى عليها وما وقع فيها، وتأتي يوم القيامة حافظة شاهدة مُخْبِرَةً صادقة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٨٦٢) فلا يظن ظان أنه قد خلص بنفسه دون شهيد أو رقيب.

إن الشاهد عليه سيكون من نفسه ومن الأشياء من حوله.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

فأعداء الله ليسوا بمعجزين والأشياء تحيط بهم، وإن بدا أنها مسخرة لنفعهم، فإنها ستكون في العاقبة حين يؤذن لها شاهدةً عليهم، ولن يكون لهم سلطان عليها حين تنطق وتشهد.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٨٦٣).

ذاك حديث القرآن عن أولئك الذين يجحدون ما نزل من الحق ويعرضون عنه. حديث يبصّر ويذكر ويحذر أولئك الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا ما نزل من الحق.

---

(٨٦٢) سورة الزلزلة.

(٨٦٣) سورة فصلت: ١٩ ـ ٢٣.

إنهم هنالك يُسألون ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾. هاهم يلومون أنفسهم ويتحسرون على التفريط والتكذيب.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وهذه جهنم التى أنكروها فيما كانوا ينكرون. هَاهم يرونها تكاد تميز من الغيظ من كُفر هؤلاء وجحودهم.

﴿هذه جهنم التى كنتم توعدون* اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون* اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾(٨٦٤).

١٦٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة القلم ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾(٨٦٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لموقف أهل الكفر والجحود من الرسالة والرسول، لقد قالوا في الرسول ما قالوا، وقالوا في الكتاب المنزَّل عليه ـ إذا تليت عليهم آياته ـ قالوا أساطير الأولين. وما يقوله واحد منهم هو قولٌ

---

(٨٦٤) سورة يس: ٦٣ ـ ٦٥.

(٨٦٥) سورة القلم: ١ ـ ١٦.

لهم جميعا يؤاخذون عليه، ويؤخذون به؛ لأن الكفر يجمعهم والجحود بآيات الله يدفعهم إلى الرضا بالصدِّ والكذب والافتراء.

ومن تدبر القرآن ورأى ما صار إليه أمر هؤلاء علم أن القرآن وهو يُتْلى على الناس ليس أعزل من قوة غالبة تحقق وعده ووعيده، وقد كان من وعيده لهؤلاء وأمثالهم: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(٨٦٦).

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٨٦٧). وقد بقي الحق منتصرا وهلك هؤلاء وأخذوا بما فعلوا.

إن المسلم الحق لا تنطفئ شعلة أمله وهو يحيا مع كتاب ربه، ويعرف سنن الله في خلقه، ومداولة الأيام بين الناس.

والكتاب العزيز يثير في نفسه دوافع العزة ويعرفه مكانة أمته وهي تعتصم بكتاب ربها، وما يجب أن تكون عليه في عسرها ويسرها وما تلاقيه من شدة ورخاء. إنها مطالبة أن تستمسك به في كل حال، وأن تهتدي بهداه **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾**.

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ وهم لا يعجزون فاجعل تمسكك بالحق واتباعك له سبيلا إلى مرضاة ربك وطلب النصر منه.

إن الذين قالوا عن القرآن الكريم ما قالوا، وقالوا في الرسول ﷺ ما قالوا لم يمض على أقوالهم ومواقفهم زمن طويل حتى رأينا هؤلاء منهم من خضع

---

(٨٦٦) سورة القلم: ٤٤ ـ ٤٥.

(٨٦٧) سورة المعارج: ٤٢ ـ ٤٤.

للحق فانتفع بنوره، ومنهم من استكبر وأعرض فاحترق بناره. وستظل العبرة قائمة أمام أعين الناس لا تغيب.

والقرآن الكريم يُتْلى على الناس فيرون الواقع شاخصا أمام أعينهم، يرون من كذب بالحق ماذا كان مصيره؟ ومن آمن به وجاهد في سبيله كيف تمَّ نصره وعلا ذكره؟

وسيظل الناس ما بين مؤمن به ومعرض عنه إلى أن تأتي الساعة الفاصلة التي يقول فيها جميع الخلق: لقد جاءت رسل ربّنا بالحق، ويعلنون إسلامهم لما جاء به. وعندئذ يودُّ من عاداه أن لو كان مُسْلمًا له متبعا ما جاء به.

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين* ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين* ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾(٨٦٨).

نعم سيودُّ ذلك كلُّ من كفر أو ابتغى غير الإسلام.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٦٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القلم ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(٨٦٩).

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ يعني القرآن.

خطاب من الله لرسوله ﷺ فيه ما فيه من تسرية وتأييد للرسول ﷺ. ومن تهديد ووعيد شديد لأعدائه.

---

(٨٦٨) سورة الحجر: ١ ـ ٣.

(٨٦٩) سورة القلم: ٤٤ ـ ٤٥.

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث : هولٌ مزلزل للمكذبين، وطمأنينة للمؤمنين المستضعفين. دعني ومن يكذب بهذا الحديث، وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيِّه ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ .

أي: وهم لا يشعرون أنهم مستدرجون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامةٌ وهو في الأمر نفسه إهانة. كما قال الله عز وجل **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** .

تلك سنة الله في خلقه أن يملي للظالم وأن يؤخره وأن يَمُدَّه، وذلك من كيد الله به **﴿إن كيدي متين﴾** أي: عظيمٌ لمن خالف أمري وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي.

في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلته، ثم قرأ: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** .

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي: دعني وإياه فترى ما أصنع.

وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه، وكره أن يُشْفَعَ لمن غضبَ عليه. فمعنى الكلام: لا شفاعة في هذا الكافر.

عليك أن تكل أمرهم إليَّ؛ فأنا أعلم كيف أنتصف منهم، فلا تشغل نفسك بهم وتوكل عَلَيَّ **﴿سنستدرجهم﴾** والاستدراج والإملاء يعقبهما الانتقام المحقق. والتأخير لحكمة تقتضيه **﴿إن كيدي متين﴾** .

إن مدَّ الكافرين بنعم الله إنما هو استدراج وإملاء يعقبه دمارٌ وانتقام **﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾**(٨٧٠) .

---

(٨٧٠) سورة آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧ .

والاستدراج : استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السُّلَّم، وقد شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيء إلى أن يحين عقابه .

ومعنى ﴿**من حيث لا يعلمون**﴾ أي من حيث لا يعلمون أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يدركون أنها مُفْضِيَةٌ بهم إلى الدمار والهلاك، وذلك أجْلَبُ لَقوة حسرتهم عند حلول المصَائب بهم .

فإن الدمار بعد اقتدار فيه ما فيه من أليم الحسرة وبالغ العبرة والموعظة . وتلك سنة ماضية في الأفراد والأمم . فهل يعي ذلك كلٌ من خالف الحق أو كذب به ؟

هل يعي ذلك من يتآمرون على دين الحق ويكيدون له ويكذبون بآيات الله ويجحدون؟ هل يعي هؤلاء أن الحق ـ وإن ضعف أهله ـ ليس أعزل من قوة غالبة كما يتصورون؟ إنهم بما أوتوا ـ وهم يكذبون بالحق ـ مستدرجون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

فليتق الله أولئك في أنفسهم وليعرفوا السبيل لأمنهم وسلامهم وتراحمهم . إن ضياع الأمن من حياتهم وفقدان التراحم فيما بينهم نذير لكي يعرفوا طريق التراحم وسبيل الهداية إلى الأمن والسلام . ذاك سبيل التراحم وطلب الرحمة من الرحمة ولا سبيل غيره :

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٨٧١) . وهذا طريق الهداية لما يطلب من أمن وسلام :

﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾(٨٧٢) فهل يدرك المسلمون ـ وفيهم نوران : كتابٌ وسنة ـ أنهم

---

(٨٧١) سورة الأنعام : ١٥٥ .

(٨٧٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

أصحاب رسالة عالمية، وأنهم مأمورون أن يكونوا دُعَاةً إلى ما أمروا به من تبليغ رسالة الله بأفعالهم وقوة ترابطهم، وحسن أخلاقهم، وصالح أعمالهم، وصادق اعتصامهم بحبل ربِّهم؟ هل يدرك المسلمون أن سلام العالم كلِّه متوقف عليهم لا على غيرهم ـ وفيهم نوران: كتاب وسنة؟ ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾ فهل يتبع المسلمون في كل مكان نور كتابهم، ويجعلونه منهج حياتهم ليكون ميزان عدل ـ كما أمر الله ـ بينهم وبين غيرهم؟

وقد أنزل الله الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، فإذا فرَّط المسلمون في ذلك فإن سنن الله لن تجاملهم، ولن يجدوا من دون الله ـ إن هم فرَّطوا ـ وليًّا ولا نصيرا.

إن القرآن الكريم بلاغ من الله للعالمين، وإنه الحق الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإن الحق ليس أعزل من قوة تنصره وهو من الله رب العالمين. وإن ضيَّع جيلٌ أو فرَّط فإن الحق لن يَضيعَ وهو باق، ويختار الله لنصره من يشاء ﴿**وإن تتولَّوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾(٨٧٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٨٧٤).

١٦٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القلم ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾

---

(٨٧٣) سورة محمد: ٣٨.

(٨٧٤) سورة المائدة: ٥٤.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٨٧٥] ذاك حال أهل الجحود وهم يسمعون القرآن **﴿ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾** والزَّلق، والإزلاق: مصدر زَلَقَه وأزلقه يُقال: زلقت الرِّجْلُ إذا اضطربت، وزلَّت على الأرض فلم تستقر، والزَّلق يُفْضي إلى السقوط.

﴿ليزلقونك﴾ أي: يسقطونك ويضرعونك.

إن الإزلاق بالأبصار فيه دلالة واضحة على ما تحمله هذه النفوس من كيد وغيظ وشرٍّ وحسد وضغْن. نظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتَفْقد توَازنها وثَباتَها. أيّ نظرات هذه؟ وأيّ حقدٍ تحمله هذه النفوس؟

ذاك حالهم عند سماع القرآن **﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾**.

وهم يقرنون نظراتهم المسمومة بسبٍّ قبيح، وشتم وافتراء ويقولون: إنه لمجنون. عمن يقولون؟! يقولون عن المصطفى ﷺ.

وهم يريدون بهذا القول إبطال ما جاء به؛ لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن، ومن هنا جاء قوله **﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾** فهذا فيه إبطال لقولهم **﴿إنه لمجنون﴾**.

فإذا ثبت أن القرآن ذكرٌ بطل أن يكون مبلِّغه مجنونا.

هم يريدون أن يقولوا: **﴿إنه لمجنون﴾** وإن القرآن كلام مجنون.

﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما القرآن إلا ذكر، وما أنت إلا مذكر. **﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾**.

---

(٨٧٥) سورة القلم: ٥١ ـ ٥٢.

وهم قد قالوا هذا القول اعتلالاً لأنفسهم؛ إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدْخلاً للطعن فيه، فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به، ليصرفوا دهماءهم عن سماعه؛ فلذلك أبطل الله قولهم إنه مجنون بقوله: **﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾**.

أي: ما القرآن الكريم إلا ذكر للناس كلِّهم، وليس بكلام المجانين، وينتقل إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء؛ فإن الذكر الذي أنزل عليه هو أشرف الكلام وأكرمه، وفيه صلاح الناس وفلاحهم، فهو نعمة أي نعمة ورحمة بالناس أيُّ رحمة، ولن يكون من جاء به إلا أكرم الناس وأرفعهم وأحسنهم خُلقا وأرجحهم عقلا. **﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون* وإن لك لأجراً غير ممنون* وإنك لعلى خلق عظيم﴾** تلك شهادة الله له وثناؤه عليه. وهم يوقنون بذلك ويعلمون عظمة خُلُقه. يعلمون ذلك من سيرته، ويعترفون بصدقه وأمانته.

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب أن يبلغ الغيظ بالناس هذا المبلغ وأن يدفع الحقد أهل الكفر أن يقولوا عمن عرفوه وأيقنوا برجاحة عقله وسمو خُلقه وكامل صدقه وأمانته أن يقولوا عنه إنه لمجنون.

وهم الذين حكَّمُوه بينهم، ورضوا بحكمه ولقبوه بالأمين قبل أن يبعث، واستودعوه أماناتهم مع عدائهم له، وهم الذين لم يعرفوا عنه كذْبةً واحدةً، حتى قال أبو سفيان حين سأله هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟

قال: لا.

فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

إن القرآن وهو يُتلى علينا يرينا كيف يجحد الناس النعمة، ويدفعهم هواهم إلى مجافاة الرحمة.

فما النبي ﷺ إلا رحمة مهداة، وما جاء به نعمة من الله فكيف يوصف من هذا شأنه بأنه مجنون؟ ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾.

هكذا في آية قصيرة يثبت الله وينفي، يثبت نعمته على عبده ورسوله في كلمات توحي بالقرب والمودة حيث يُضيفُه إلى ذاته ﴿**ما أنت بنعمة ربك**﴾.

وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله على عبد نسبه إليه وقرَّبه واصطفاه. وهذه النعمة ممتدةٌ إلى خلقه. فمن أجل هدايتهم بعثه، ومن أجل الرحمة بهم أرسله ﷺ. فمن عاداه عادى الهداية والرحمة، واستحب العمى على الهدى.

وتأتي العواقب في كل شأن لتري الناس أن الحق لا يعادى، وأن النعمة لا تجحد، والعبرة قائمة في الأولين ممتدة في الخلق إلى يوم الدين.

والقرآن وهو يذكر ما وقع مع الجاحدين وما جرى لهم يبصرنا بما يجب أن نكون عليه، فما وقع للجاحدين السابقين واقع لا محالة بمن كان مثلهم من اللاحقين ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ والعاقل من اعتبر بغيره، ولم يسلك سبيل من أخذ بظلمه.

والأرض تحكي للناس ما جرى فيها وما مرَّ عليها. والقرآن الكريم يُري الناس ما هم صائرون إليه ومنتهون عنده.

وهو بذلك يعينهم على إنقاذ أنفسهم من سوء عاقبة ومصير. يعينهم بآيات بينات تتلى عليهم، وآيات مرئية في الأنفس والآفاق أمام أعينهم، والله هو الغني وهم الفقراء إليه، فما يعينهم به محض فضل منه عليهم، وهم مهما امتدت آمالهم في دنياهم فإنهم راجعون إليه، ومحاسبون بين يديه، وإن غداً لناظره قريب.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾(٨٧٦).

١٦٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾.

لقد جمع الله في هذا القسم كلَّ ما الشأن أن يُقْسم الله به من الأمور العظيمة من صفات الله ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصِّلتان.

﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾

فمما يبصرون الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسموات والكواكب، وما لا يبصرون الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.

وضمير (إنه) في قوله **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** عائد إلى القرآن، وقد جاء مؤكداً بإن واللام للرد على الذين كذبوا أنْ يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك.

والمراد بالرسول الكريم في قوله **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** المراد به: محمد ﷺ، وإضافة قول إلى «رسول» لأنه هو الذي بلَّغه فهو قائله؛ فالقرآن جعله الله وأجراه على لسان النبي ﷺ. كما صدر من جبريل عليه السلام بإيحائه بواسطته كما قال الله عز وجل: **﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾** وفي لفظ «رسول» إيذان بأن القول قولُ مرسله: أي الله تعالى، وقد أكَّد هذا المعنى بقوله **﴿تنزيل من رب العالمين﴾**.

(٨٧٦) سورة الأنعام: ١٣٣، ١٣٤.

ووصف الرسول بـ«كريم» لأنه الكريم في صفته أي: النفيس الأفضل، وقد أثبت للرسول ﷺ الفضل على غيره، ونفى أن يكون شاعرًا أو كاهنا بنفي أن يكون القرآن قول شاعر أو قول كاهن. والنبي ﷺ منزه عن أن يكون شاعرًا أو كاهنًا.

وإنما خُصَّ هذان الوصفان بالذكر دون قولهم: افتراه، أو مجنون؛ لأن الوصف بقوله ﴿رسول كريم﴾ كاف في نفي أن يكون مجنونا أو كاذبا إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريمين، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف. والمعنى: ما هو بقول شاعر ولا قول كاهن تلقَّاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى، فادّعاؤهم أنه قولُ شاعر أو قولُ كاهن بهتانٌ متعمَّد، وهم يعلمون الشعر والكهانة، وقد قال مُوفدُهم عُتْبَةُ بن ربيعة بعد أن قرأ النبي ﷺ: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ قال عندما عاد إلى قريش: «يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده؛ فوالله لقد سمعتُ من هذا الرجل كلامًا ما سمعت أذني قطُّ كلامًا مثله» هم يعرفون الشعر ويعرفون الكهانة، ويوقنون أن القرآن لم يكن قول شاعر ولا قول كاهن، ولم يقله قبل محمد ﷺ قائل.

وقد لبث النبي ﷺ فيهم عمرًا من قبله لم يَقُلْ من ذلك شيئًا قبل أن يوحى إليه، ولكن ما دلالة أن يبيِّن القرآن الكريم ذلك كلَّه، وأن يذكر أقوال المبطلين الجاحدين؟ ويجعل الأجيال كلَّها على علم بما لقيه المرسلون؟

دلالة ذلك أن تُعرف سنن الله في خلقه وحكمته في امتحان عباده، فمع وضوح الحق وبيانه اقتضت حكمة الله أن تُبْتَلى عفَّة المحقين بسفاهة المبطلين ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾، وأن تُمْتحن استقامة المستقيمين بكيد الكائدين.

والكـاذبـون يضيقـون بصـدق الصادق، والسـارقـون لا يـرحبـون بقطع يـد السارق، والـذين تتمرغ أنـوفهم عند رجس أوثـان وأصنام يضيقون بمـن ترتفع هـاماتهم بـذكر الـرحمن. وقد جعل الله هـؤلاء فتنة لهـؤلاء ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويُعلَم الصادق من الكـاذب، لا خفاء في بيان الحق ولا خلاف في طهـارة الصدق، ولكن النفوس إذا عبدت هواها فلن تجد من بعد الله هداها.

والقرآن سيظل يتلى على الناس، ويجد فيه المستقيم سلوته وتثبيته، ويجد الضـالُّ إنذاره وتحـذيره، وفي كل ذلك يقـدِّم هدايتـه وتبصرتـه، دون ضَنٍّ أو توقف وتُمتَحن الأجيال وتذهب، ويفنى مـا تعلقت به من دون الله وما حرصت عليه، ويبقى الذكـر في جميع الأحوال عزيزا لا يقترب من سـاحته باطل، ولا ينال من عزَّته جمعٌ متآمر أو تتكاثر. يبقى مع الزمن كلِّه إنذارًا للعالمين وبلاغًا للناس أجمعين.

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقـول رسول كريم* وما هو بقول شـاعر قليـلا ما تـؤمنـون* ولا بقول كـاهن قليلا مـا تـذكرون* تنـزيل من رب العالمين﴾.

١٦٩

ومن حديث القرآن عن القـرآن ما تضمنه قوله تعالى في سـورة الحاقة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾(٨٧٧).

القرآن منـزل من عند الله، والله الـذي أنزلـه على كل شيء قديـر، وهو بكل شيء عليم؛ فـلا يُقِرُّ أحـدًا على أن يقـول عنه كـلامًـا لم يَقُلْه؛ إذ لـو لم يكن

(٨٧٧) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

القرآن منزلا من عند الله، ومحمد ﷺ ادَّعى أنه منزل منه، لما أقره على ذلك ولعجل بإهلاكه، فعدم إهلاكه ﷺ دالٌّ على أنه لم يتقوَّله على الله.

فإن «لو» تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها، فقد انتفى تقوُّله على الله لانتفاء أخذه باليمين.

بل ما تحقق هو الفوز والنصر المبين.

﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾.

والتقول: نسبة قول لمن لم يقله.

وهو تَفَعُّل من القول، صيغة دالَّةٌ على التكلف، لأن الذي ينسب إلى غيره قولا لم يَقُله يتكلَّف ويختلق ذلك الكلام.

والمعنى: لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولا لم نقله **﴿لأخذنا منه باليمين﴾** أي: لأخذناه بقوة دون إمهال، أخذناه عاجلا فقطعنا وتينه.

والوتين: عِرْقٌ مُعَلَّق به القلب، وهو إذا قطع مات صاحبه. وفي هذه الحالة من أحوال التقول لو أخذنا منه باليمين فقطعنا منه الوتين لا يستطيع أحدٌ منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب.

وفي الآية دليل على أن الله تعالى لا يبقي أحدًا يدَّعي أنْ الله أوحى إليه كلامًا يبلِّغه إلى الناس، وأنَّه يُعَجِّلُ بهلاكه؛ فالحق من عند الله مصون بالحفظ والتأييد، عزيز لا يقترب من ساحته باطل. وكلمات الحق لها قدرها. ومن استقام مع الحق استضاء بنوره، ومن كذب عليه أخذ بناره.

والفطرة التى فطر الله الناس عليها، وإن صُرِف الناس عنها بصارف فإنها مُسْتَيْقَنَةٌ في النفوس، وبها يستطيعون أن يميزوا بين صَدُوقٍ وكذوب وبين قول

فيه نور الحق وكلام يدفعه الهوى وفي ظلام التكلف . وقد يعادي الإنسان من يُعادي ولكن فطرته قد تنصف من يعاديه ، لأن الحق له سلطانه وبرهانه ونفعه الذي لا يُنكر ولا يجحد .

وللباطل زبده وغثاؤه وهو لا يلبث أن يُقذف ويذهب ، ولا يستطيع أحدٌ أن يجعل من الباطل حقًّا يدوم ويبقى ، ولا أن يُطفئ نور حقٍّ منسوب إلى من يدوم ويبقى ، ومن تدبر أمر الحق أيقن أنه غني عن التكلف منزّهٌ عن التقول .

والقرآن يتسق بحقائقه ومقاصده مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها في يسر دون حرج أو عسر ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾** .

مؤدَّى هذا أن القرآن منزل من الله لا من أحد سواه **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** ، ولكن ما دلالة النفي والإثبات ، إثباتً أنه من عند الله ونفي أن يكون من عند غيره؟ دلالته أن لا سبيل لهدايتهم إلا بحسن اتباعه ؛ لأنه من عند الله ، وما التوفيق إلا بالله ، ولا نجاة لهم من سوء عاقبة ومصير إلا بالاعتصام به .

هذه الحقيقة يرى الناسُ تأويلها ويجدون صدقها في أنفسهم وفيما يقع من حولهم ، وقد يخطئ الناس في تعليل ما يقع ، ويُرجعون الأمر لغير ما ذكر الله من مخالفة للحق الذي أنزل وإعراضٍ عن الهدى الذي بُيِّن .

قد يخطئون زمنا ثم لا تلبث الحياة أن تريهم أن ما هم عليه من فواجع ومصائب وفساد وقلق واضطراب مصدره معاداتُهم للحق وبعدهم عنه ؛ فإن من عادى الحق وقع في الباطل ، ومن أبى العدل آثر الظلم .

إن القرآن الكريم تنزيل رب العالمين والله بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير. والله الذي رحم الناس بإرسال رسوله ، وهداهم بحفظ كتابه ،

وأمرهم بحسن تـدبره والاعتصام به، هو الـذي خلقهم ورزقهم وهو غني عنهم وإليه يُرجعون؛ وما رضيه لهم فيـه أمنهم وسلامهم في دنياهم وأخراهم، وما لا يرضاه لهم فيـه شقاؤهم وضلالهم، وهم يحملون وزر مـا عملوا ولا حجة لهم بعد إرسال رسول وحفظ كتاب ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولا أحـد يدفع عن أحـد شيئا، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا.

إن لهذا الحق الذي أنزل من عند الله وحُفظ بحفظه سلطـانا ونوراً وبرهانا لا يلتبس بشيء سواه، فمن أبى إلا أن ينسبـه إلى تقوّل متقـول على الله فلن يجد ملجأ يعصمه من عذاب الخزي في الحياة الـدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

١٧٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾(٨٧٨).

وإنه لتذكرة للمتقين، والضمير عائد إلى القـرآن الكريم. فإنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله، ومـا يليق بجلاله لينتشلهم من هوَّة التمادي في الغفلة؛ فـالقرآن الكريم في ذاتـه تذكرة لمـن يريد أن يتـذكر سواء تـذكر أو لم يتذكر.

وقد سُمِّيَ القرآن بـالذكر في آياتٍ عـديدة لأنه في ذاته مذكـر ومبصر، وهو تذكرة لمن يخشى.

وإنه لتذكرة للمتقين ـ وهم المؤمنون المتصفون بتقوى الله.

---

(٨٧٨) سورة الحاقة: ٤٨ ـ ٤٩.

القرآن تذكرة لهم في كل الأحوال فقد كان هاديا إياهم للإيمان، كما قال الله عز وجل: ﴿هدى للمتقين﴾ وكلما تلوا منه شيئا ذكَّرهم بما علموا لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان. فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل؛ فإن الإخبار عنه بالمصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة؛ إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.

وإنما كان تذكرة للمتقين لأنهم هم الذين أدركوا مزيته وسكنت نفوسهم لموعظته واهتدت بهدايته. وهذا حالهم عند سماعه أو تلاوته ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

القرآن الكريم يذكر قلوب أهل التقى فتذَّكر، وتُهدى بنور الله في كل شأن للتي هي أقوم، ويجد أهل التقى في القرآن الحياة والنور والتبصرة والذكرى، يجدون فيه ما يبصرهم بحكمه الحياة وغاية الوجود فلا تلتبس عليهم السبل ولا يضلون السبيل. يجدون فيه بشراهم بحسن العاقبة في سرائهم وضرائهم، وحياتهم وموتهم فلا تلهيهم الرغائب عن العواقب، ولا تصرفهم الدنيا عن الإعداد للآخرة.

يذكرهم بما هم صائرون إليه ومنتهون عنده، ويريهم نتائج أعمالهم حاضرة أمام أعينهم فلا تنعطف نفوسهم إلى شر، ولا تركن إلى ظلم. والقرآن يتلى عليهم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقالَ ذرة شرًّا يره﴾ ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

يُذكِّر بذلك وهم في دنياهم فلا يَشْغلهم عاجل عن آجل أو تصرفهم دنياهم وما فيها من زينة ومتاع عن أخراهم وما فيها من حساب وجزاء.

القرآن يذكِّر أن عاقبة الظلم ظلمات، وأن الموازين لن تدع مثقال حبة من خردل من عَمَل عُمل أو فعْل وقع.

القرآن يذكِّر بكلِّ ذلك وغيره، فينشد أهل التقى الحقَّ في كل شيء، ويقيمون العدل في كلِّ شأن؛ لأنهم يوقنون أن موازين الحق لا تجامل أحدًا وأن الناس جميعا مجزيون بأعمالهم مؤاخذون بما قدمت أيديهم.

وأهل التقى والقرآنُ يذكرهم لا تراهم يركنون إلى ظالم وقد عرفوا من هداية القرآن أن من ركن إلى ظالم مُسَّ بناره، وفقد العون الذي ينشده، ولم يجد من دون الله وليا ولا نصيرا ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٨٧٩).

القرآن تذكرة للمتقين ليكونوا حيث أمرهم الله ودعاهم إليه مستجيبين لأمره مجتنبين نهيه، متَّبعين غير مبتدعين، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.

القرآن تذكره للمتقين: يبصرهم بأنهم يمرون بدنياهم ولا يقيمون، ويريهم مثلَ الحياة الدنيا في آيات تجعلهم لا يُضَيِّعُون أعمارهم فيما لا خير فيه، ولا يتعلقون بسراب خادع يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. والقرآن وهو يذكِّر المتقين بمثل الحياة الدنيا لا يُزهِّدهم فيها ولا يصرفهم عن طيباتها، وإنما يجعلهم يزنون كل شيء في عدل واعتدال، ويبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، وهذا العدل والاعتدال في سلوك المتقين هو السبيل لتحقيق الأمن والسلام في حياة الناس. فإن السلم في حقيقته يرتبط بصفات النفس، والأمن في جوهره يرتكن إلى القيم والأخلاق. ولا يمكن أن يغني في الأمر شيء من زخْرِ مالٍ أو متاع إذا لم تكن من ورائه نفسٌ قانعة وضمير متذكر يقظ.

إن العدل والحق، والبر والصدق، والأمانة والرحمة صفات لا بد منها لتحقيق الأمن الصادق والسلم البار.

---

(٨٧٩) سورة هود: ١١٣.

والقرآن الكريم ـ وهو تذكرة للمتقين ـ يُعَلِّمهم ألا يفرقوا في إقامة العدل بين جنس وجنس ولون ولـون، فهم لا يفرقـون في إقامـة العدل بين عـدو وصديق وقريب وبعيد.

فالـدنيا كلُّها في حـاجة إلى التقوى، في حـاجة إلى دين يكون العـالـم كله أمام عدلـه سواء، في حاجة إلى ديـن يحترم قيمة الإنسان ويقدر كـرامته، في حاجة إلى ديـن يبدد ظلام الخوف ويحقق أسباب السلـم ويقيم دعائم الثقة. دين يقيم العـدل في ذات الإنسان بين مطـالب جسده وفضائل روحـه ليتحقق العدل في الخارج، وتقوم عليه حراسة ذاتية من قلب الإنسان وضميره.

دين يبقي على الإنسان مكرَّما فـي الأرض وأمينا على شرائع الحق والعدل. الإنسانية كلها في حاجة إلى هذا الدين الذي يصل الأرض بالسماء ويأخذ بيد الإنسان إلى مدارج الكمال ليحيا منفعلا بحقائق الكون وحكمة الوجود.

وقد أرسل الله الـرسل جميعا بهذا الدين وأنـزل على خاتمهم كتابا محفـوظا تبيانـا لكل شيء، وجعله نـوراً يهدي به من يشـاء من عباده، ليبقى الـدين ما بقيت الحياة فمن اهتدى به وتذكر اتقـى ربه وبرَّ بخلقه، ومن أعرض عنه ضل وأفسد وشقي وخسر وإنه لتذكرة للمتقين، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين.

١٧١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٨٨٠] **تحدثنا من قبل عن قوله تعالى ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ وقلنا إن الضمير في قوله ﴿وإنه لتذكرة﴾ عائد إلى القرآن الكـريم، وإن الإخبار بأنه تذكرة للمتقين فيه بيان لما يحققه القرآن في حياة الناس من تذكرة وتبصرة.**

---

(٨٨٠) سورة الحاقة: ٤٨ ـ ٥٠.

والمتقون هم الذين أدركوا مزيته، وسكنت قلوبهم لموعظته واهتدت بهدايته.

وأما الذين كفروا وكذبوا فقد جاء الحديث عنهم في قوله **﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين* وإنه لحسرة على الكافرين﴾**.

والمعنى إنا بعثنا إليكم الرسول الكريم بهذا القرآن، ونحن نعلم أن سيكون منكم مكذبون له، وعِلْمُنا ذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم.

فمن انتفع به اتَّقى ربه وأخلص قصده وأحسن عمله. ومن كذب وأعرض عنه أضر نفسه ونَدِمَ على ما فرط فيه وأعرض عنه.

وكان القرآن ـ بما آل إليه ـ حسرةً عليه بما يجده من عذاب بسبب مخالفته، وما يقف عليه من يقين بأن ما كان يدعو إليه القرآن الكريم هو الحق الذي ما كان يصح أن يُخالف أو يُعرضَ عنه. وتزداد الحسرةُ عندما يرى الكافرون حسن عاقبة من كانوا يسخرون منهم ويسيئون إليهم لأنهم اتبعوه وآمنوا به **﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾**.

والحسرة: الندم الشديد المتكرر على شيء فَائت مَرْغُوب فيه.

مُشْتَقَّةٌ من الحَسْر وهو الكشف؛ لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده؛ فالقرآن حسرة على الكافرين وهم يرون النتائج والعواقب التي أخبر القرآن عنها، وهم قد أهملوا خبره وأعرضوا عنه وصدُّوا عن سبيله.

القرآن حسرةٌ عليهم أيُّ حسرة.

وكم من قائل من هؤلاء يقول عندما يرى العواقب ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله. وقد ناداهم الله وأمر نبيه ﷺ أن يبلغهم، وأن يَتْلو ما أنزل إليه قبل أن تقع الحسرة ويفوت الأوان.

وتلك دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم .

دعوة لهم إلى الإنابة والتوبة ، وإخبارٌ بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾(٨٨١) .

لا شيء يدمِّر صاحبه كالإصرار والاستكبار عن اتباع ما نزل من الحق والموت عليه ؛ فإن ذلك يودي بصاحبه ويوقعه في الحسرة والندامة عندما يرى العواقب والنتائج ، ومن ذكر ربَّه فاستغفر لذنبه غُفِرَ له وأنعم عليه .

والقرآن الكريم ـ وهو يذكّر بالعواقب ـ يعين الناس على أن يتداركوا ما فات قبل أن يأتي الأجل ، والأجل إذا جاء لا يؤخر ، ومن مات لا يرجع ، والواجبات تقترن بالأوقات . فمن ضيّع عملا في وقته ندم حيث لا ينفع الندم وتحسَّر على ما ضيَّع حيث لا تُفيد الحسرة .

ومن عمل السيئات وجدها في غده حسرات . ومن اتبع أحدًا على ضلالة تبرأ منه حين يرى العذاب . ومن فرط في الإعداد للآخرة ، وغفل حتى جاء أجله تحسَّر حين يراها ، وندم على التفريط فيها والإعداد لها .

---

(٨٨١) سورة الزمر : ٥٣ ـ ٥٩ .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٨٨٢).

القرآن الكريم ينذر ويحذر قبل أن يأتي يوم الحسرة ويفوت وقتُ العمل ويقع الجزاء، ولن يفلتَ أحدٌ من موت أو يفر من لقاء ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(٨٨٣).

ذاك حديث القرآن عمَّن كذب به وأعرض عنه. فيه موعظة وذكرى لأهل الإيمان واليقين وإعذار للمكذبين الضالين.

إنه موعظة وذكرى للمتقين ليستمسكوا بالقرآن ويعملوا بمقتضاه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ولا يركنوا إلى من جُعلَ القرآن حسرة عليهم بما فرطوا فيه وأعرضوا عنه. ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ومن ركن إلى ظالم مُسَّ بناره.

والسعيد من كان القرآن تذكرة له ولم يكن حسرة عليه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

١٧٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في ختام سورة الحاقة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٨٨٤).

وسواء كان الضمير في قوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ عائدًا إلى القرآن ـ لأن هذه من صفاته ـ أو كان مُرادًا به ما ذكر من قبل وهو كون القرآن حسرةً على الكافرين فإنه في الحالين حديث عن القرآن له دلالته في الدعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به.

---

(٨٨٢) سورة الأنعام: ٣١ ـ ٣٢.

(٨٨٣) سورة مريم: ٣٩ ـ ٤٠.

(٨٨٤) سورة الحاقة: ٥١ ـ ٥٢.

فالحق جدير بأن يُتَّبع وأن يستمسك به .

والقرآن كما وصف الله ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي إنـه لَلْيقينُ الحق ، أو لَلْحَقُّ اليقين الذي لا شك أنـه من عند الله فلا يَشُكُّ في كونـه حقًّا إلا مَنْ غُشيَ على بصيرته . فلا هـو بقول شاعر ولا هو بقول كـاهن ، ولا هو تقول على الله ، إنما هو التنـزيل من ربِّ العالمين ، وهـو التذكرة للمتقيـن ، وهو حقُّ اليقين ﴿وإنه لحق اليقين﴾ .

إن الإخبار بذلك من الله فيه توجيه للناس وبيان لهم أن يتبعوا ما أنزل الله وأن يتحاكموا به ، وأن يحذروا الميل عنه .

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾(٨٨٥) .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾(٨٨٦) إن الإيمان بـالحق داع إلى الأخذ به والاستقامـة معه على فهم وبصيرة ، وإدراكٍ لإحاطة علم الله بما في النفوس .

فليحذر الإنسـان نية السوء في مخـالفته ، وليبتعد عن القصـد السيئ فضلا عن عمله أو الأخذ بسببه ، وليتبع الحق من ربه ولا يتبع هوى نفسه ؛ فالقول ما قاله الله عز وجل وبينه رسوله ﷺ .

وبهذا تسلم عقيدة المؤمن من الإلحاد في أسمـاء الله وآياته . وتسلم شرعته ومنهاجه من الضرب في التيه المضل أو الهوى المتبع .

---

(٨٨٥) سورة المائدة : ٤٩ .

(٨٨٦) سورة النساء : ١٠٥ .

ويسلم قلبه من النفاق فلا يُرى منه إلا التسليم للحق في ظاهره وباطنه وسرِّه وعلنه، لا يُبدي شيئًا ويُخفي غيره، وهو يؤمن أن الله يعلم ما في نفسه، ولا يَقول ما يقوله ناسٌ مرضت قلوبهم وارتابت نفوسهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٨٨٧).

إن المؤمن لا يكون الحق عنده هو الذي يقبله هواه، بل الحق عنده ما قاله الله سواء كان له أو عليه.

ويكون قوله عندما يُدعى إلى الله ورسوله قولَ أهل الحق الذين يسمعون ويطيعون ويخشون الله ويتقون ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٨٨٨) والحق الذي أنزله الله منه فرائض تزكي النفس وتطهرها. ومنه شرائع تحدد ما يحل وما لا يحل، ولا غنى بهذا عن ذاك، وتأتي الأحداث المتجددة لساحة الحياة. وفيها فرائض الحق وشرائعه قد أنزلها الله ليقوم الناس بالقسط، فلا يكون اجتهاد الإنسان في تحرِّي العدل مطلقا بلا ضوابط مُنْسَابًا بلا حدود. بل هو محكوم بحدود لها منارات وبينات تمنع من التجاوز وتقي من العثرات ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ ومع البينات والكتاب والميزان يجدالناس هدايتهم إلى إقامة العدل.

---

(٨٨٧) سورة النور: ٤٧ ـ ٥٠.

(٨٨٨) سورة النور: ٥١ ـ ٥٢.

وإن هبطت بهم شهواتهم وإيثارهم العاجلة في فترة ما رفعتهم عقيدتهم، فخافوا مقام ربهم وسَعَوْا سعي الآخرة ؛ فطابت نفوسهم باتباع الحق ونعمت بإقامة العدل .

وكان اجتهادهم محكوما بضوابط الشرع وقواعد الحق معصوما من اتباع الهوى مأجورًا وإن أخطأوا .

ومما يعين الناس على القيام بالحق وتحري العدل في معاملاتهم تطبيق ما جاء من الحق في الاعتقاد، والتربية والتعليم، وإقامة الفرائض التعبدية والفضائل والأخلاق؛ فإن الإنسان هو محور الإصلاح، وهو المخاطب بتطبيق ما نزل من الحق فلا بد من صلاحه واستقامته .

وإذا كنا نملك من الأسس الثابتة والقواعد الكلية ما يغنينا عن القوانين الوضعية، فإن المسلمين مطالبون دائما أن يعالجوا الأحداث المتجددة بفطرة الدين مستغنين بقواعده وأصوله .

فإنه من الخطأ بل من الخطيئة أن تُثار قضايا الدين بعيدًا عن الواقع أو يعالج الواقع بغير فطرة الدين . إن الناس إذا لم تُسْعِفهم المؤسسات المنسوبة إلى دين الحق بالبيان في الأحداث المتجددة والقضايا الملاحقة تخطَّفَتْهم أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتذليل شئون دنياهم، ولأن يخطئ المسلمون في الاجتهاد السليم الصحيح خير من التبعية والمطاوعة لغيرهم .

ولأن يعيشوا بأجر الخطأ في الاجتهاد خير لهم من العيش بوزر القصد في اتباع من يردهم عن دينهم ويبعدهم عن أصوله .

تلك دلالة الحديث عن القرآن ـ وإنه الحق ـ أن يعمل الناس به وأن يهتدوا بهداه، وبذلك تكون صلتهم بالحق الذي أنزله الله دائمة ومتجددة راشدة ومثمرة، وتكون نفوسهم مسبحة وحامدة .

ويستمد كل جديد في دنياهم أسباب حياته من شمس دينهم ونور كتابهم، فلا تنفصل قضايا عصرهم عن الحق الذي أنزله الله وأمر أن يحكم به، بل تتصل اتصال النبت المتجدد بأسباب الحياة، واتصال الحياة بمصدرها فلا تحكم إلا بما أراها الله.

وإنه لحق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم.

١٧٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الجن ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ (٨٨٩).

إن حادث استماع نفر من الجن للقرآن قد ورد فيما رواه البخاري ومسلم، وذلك أن رسول الله ﷺ قد انطلق في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم. فقالوا: ما لكم؟

فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب.

قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ شيء حدث؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؛ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها. يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامةَ إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا

(٨٨٩) سورة الجن: ١ ـ ٢.

القرآن استمعوا إليه، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء؛ فهنالك رجعوا إلى قومهم، قالوا: «يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا»، وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾.

فلنتدبر مقالة الجن ولنر أثر القرآن فيهم، ودلالة هذا الأثر فيمن يقرأ القرآن أو يستمع إليه.

فمن البين الواضح أن معرفة الرسول ﷺ بأمر استماع الجن له، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه كانت بوحي من الله، وإخبارًا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ﷺ ولكن الله أطلعه.

وقد تكون هذه هي المرة الأولى، ثم كانت هناك مرة ومرات أخرى قرأ النبي ﷺ فيها على الجن عن علم وقصد.

فماذا كان موقفهم بعد أن سمعوا؟

لقد كان لذلك تأثيرٌ بالغ في نفوسهم، وكان له أثره فيما خاطبوا به قومهم. لقد سمعوا القرآن فآمنوا وبلّغوا ما سمعوا.

فكانوا بما سمعوا معلِّمين راشدين، وكان للحق تأثيره في جميع أمرهم. رجعوا إلى قومهم فبلّغوا ما سمعوا دون تخاذل أو إبطاء ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ صدقوا في النصح وخاطبوا قومهم بالقول الذي لا يجحد والحجة التي لا تنقض، وذكروهم بالنتائج إن هم استجابوا أو أعرضوا.

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾.

تلك هي النتائج لمن أجاب داعي الحق ومن لم يجب.

ومن لا يجب داعي الحق فليس بمعجز في الأرض.

من ذا الذي يجادل في ذلك أو يكابر وهو يرى عجز المخلوق وقدرة الخالق؟

وأنى له أن ينجو أو يفر، ومن المقدور لا ينجو الحذر؟ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ . ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

كم من جبار قصمه الله، ومفسدٍ دمَّر الله عليه، وباغ خسف به وظالم مستبد أخذه أخذ عزيز مقتدر؟

﴿**وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا**﴾ ومن فاتته نصرة الله فليس له من أحد بعد الله يجيره وينصره، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي لا يجيرهم منه أحدٌ.

فالسبيل إلى النجاة إجابة داعي الله وإخلاص القصد له، وحسن التوجه إليه وذلك ما أمر الرسول ﷺ أن يبلغه ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[890]. هكذا يهدي القرآن إلى الرشد ويرشد إلى الخير.

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ . والرشد: خلاف الغي.

والغيُّ: جهلٌ من اعتقاد فاسد.

وبالقرآن وبيانه قد تبين الرشد من الغي. والرشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية. والقرآن يهدي إلى الرشد فيهما، فمن اتبعه رشد ونجا، ومن أعرض عنه غَوَى وهلك، ودنيا الناس بلا رشد فسادٌ وإفسادٌ ودمار وهلاك. ومن لا رشد عنده يدمر نفسه قبل أن يسيء إلى غيره.

---

(٨٩٠) سورة الجن: ٢٢ ـ ٢٣.

والأمـة الراشـدة هي التي تتخـذ القرآن منهـج حياة، وتلك أمـة لا تضل ولا تشقى. والفائزون الراشدون هم أولئك الذين حَبَّبَ الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون.

والقرآن ـ وهـو يهدي إلى الرشد ـ نعمـة محفوظة باقية تـدعو الناس إلى أن يرشدوا وأن يتعلموا منه ما يحفظهم من الضلالة والغي.

القرآن الكـريم يهدي إلى الرشـد. وفي دنيا الناس دعـاة لئامٌ يدعـون الناس إلى الغي، وهم مع مـن استجـاب لهم في العـذاب مشتـركـون. وهـذا عمل الشيطان فيهم، وذاك مصيرهُ ومصيرهم.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٨٩١].

فطوبى لمن هُدي بالقرآن إلى الرشد في جميع أمره، وويل لمن أعرض عنه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

١٧٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[٨٩٢].

والهدى الـذي سمعوه فـآمنوا بـه هو القـرآن الكريم، إذ هـو المسموع لهم ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنه هادٍ، وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم،

---

(٨٩١) سورة الحجر: ٣٩ـ٤٣.

(٨٩٢) سورة الجن: ١٣.

وجملة ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا﴾ يجوز أن تكون من القول المحكي عن الجن، ويجوز أن تكون كلاما من الله دعوةً إلى الخلق أن يؤمنوا كما آمن هؤلاء، وبيانًا لنتائج الإيمان بما أنزل الله. فمن آمن بربه لا يخشى أن يُبْخَسَ في الجزاء على إيمانه، ولا أن يُهان. ويفهم منه أن من لا يؤمن يلق ما يلقاه من عذاب وهوان، والأمور بعواقبها.

فقد يصيب المؤمن من البلاء والأذى ما يصيبُه، لكنه بلاءٌ يرفع الله به من قدره ويزيد في أجره، وهو ينظر إلى العاقبة في جميع أمره فيصبر بالله ويشكر، وهو في الحالين من السراء والضراء لم يَخَفْ بخسًا ولا رهقا. فالضراء عنده ابتلاء من الله يصبر له فيؤجر، والسراء بلاءٌ حسن يشكر معه ولا يكفر.

فهو رابحٌ في الحالين، أمْره كلُّه خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له.

ولا يكون ذلك إلا لمن آمن بربه ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾. ومن تدبر أمر الإيمان في حياة الإنسان علم ما يؤديه من طمأنينة قلب وراحة نفس وما يحققه في معاملة الناس وروابطهم؛ فالمؤمن بربِّه يخشاه فيكف شره عن غيره ويقدم خيره، وهو رجلٌ يخشى الله ويرجو رحمته، وقد عبَّر نفر من الجن عن إيمانهم بكتاب الله بعد سماعه. وهكذا شأن القرآن لمن أقبل عليه وأحسن الاستماع إليه.

فكم من ناسٍ حوَّلهم من حال إلى حال، ونقلهم - بفضل الله - من سوء إلى أكرم حال، وهداهم - بإذن الله - إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

لا يحتاج الأمر مع سماع القرآن إلى مزيد من حجة أو برهان فإن للقرآن حجته وبرهانه، وله نوره وسلطانه.

يُلقى لـه السمع ويلين القلب فيحول بينـه وبين المكـابرة أو الإصـرار على خطأ أو إثم صغـر أو كبـر؛ فالقـرآن الكـريم مصون من أن يقتـرب البـاطل من ساحته، ويصون صاحبه من الرضا بالباطل أو الركون إليه، فلا غرابة أن يسمعه السامع فيؤمن به، ويجـد نفسه في ساحته عزيزا كريمـا لا يعبد حجرًا ولا بشرًا ولا شمسـا ولا قمـرًا ولا يشـرك بـالله أحدًا. هـذه النتيجـة في صـدق الإيمـان بـالهدى تلفت النظـر في الدعـوة إليه والإقبـال عليه، وحسن اتبـاعه، وعـدم الميل أو الإعراض عنه.

ومن رحمة الله بـالإنسانية جميعـا أن حفظ لها هُـدَاها لتجد دائمـا ـ إن هي رغبت ـ مـا تزن بـه أمرها وتصحح خطأهـا، وتعالج واقعهـا، من رحمة الله أن حفظ الذكر والهـدى والنور لتعرف به القيم وتوزن الأعمال، وتـؤدَّى الواجبات وتصان الحقوق ولا يترك الناس لحكم أهوائهم وشهوات أنفسهم.

من رحمـة الله بخلقه أن حفظ الهـدى وأبقاه حجة لمـن آمن به ودعـا إليه، وحجة على من خالفه وأعرض عنه.

ومن رحمته أن جعل الإيمان به فطريا لا عسر فيه ولا حرج ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

وهل يكـون ذلك إلا للحق الـذي لا يلتبس به بـاطل؟ وهل يكـون ذلك إلا للنور الذي تستنير به النفوس وتستضيء به البصائر؟ آمنا به لأنه الحق، وللحق نور تدركه البصائر، وتنشده الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وكم من ناس آمنـوا به عندما سمعـوه، كما آمن نفر من الجن، وقـالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

لقد كان إيمانهم بالهدى مُبْصرًا راشدًا يتحركون بمقتضاه ويعملون، عُرِف ذلك مما حكاه القرآن عنهم، وهم يعلنون اعتقادهم ويحددون موقفهم في قضايا ذات شأن، ويبلغون غيرهم في ثقةٍ وثبات ويقين.

لم يَنْطَوُوا بإيمانهم على أنفسهم، ولم يكونوا في معزل عن كل ما يتصل بهم.

فإن حديثهم عما كان واقعا في قومهم وعن الجزاء في آخرتهم يعطي دلالة على أن إيمانهم بالهدى كان شاملاً للحياة كلِّها، وكان الإيمان راشدًا في القصد والعمل، يصلحون به في كل شأن من شئون الحياة، ولا يفسدون، طهروا بإيمانهم دنياهم وأرادوا آخرتهم.

وكانوا بما عملوا أهلاً لأن يذكروا في الذكر المحفوظ، وأن يكونوا دعاة لغيرهم، وحديثا يُتْلى على الإنس والجن، ومثلا لكل طالب علم لا يفوته أدب الطلب ولا يقعد عن تبليغ ما علم. فليتدبر دعاة الحق ما قالوه وهم يجيبون داعي الله.

وقد حكى القرآن ما قالوا وبين موقفهم، كما أثنى الرسول ﷺ عليهم وقد سمعوا من القرآن ما سمعوا، فقد أخرج الترمذي بإسناده عن جابرٍ - رضي الله عنه - قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا. فقال: لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المزمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾(٨٩٣).

افتُتحت سورة المزمل بهذا النداء، وهو يشعر بملاطفة الله تعالى رسوله بوصفه بصفة تزمُّله، إذ الأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى العلم إذا كان معروفا عند المتكلِّم، فلا يعدل عن الاسم العلم إلى غيره إلا لغرض.

فإذا نُودي المنادى بوصف هيئته من لبسةٍ أو جلسةٍ أو ضجْعَةٍ كان المقصود في الغالبَ التلطُّف به والتحبب إليه.

ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه «قم أبا تراب». وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق «قم يا نومان»، وقوله لعبد الرحمن بن صخر وقد رآه حاملاً هرة صغيرة في كمِّه «يا أبا هريرة».

فنداء النبي ﷺ **﴿يا أيها المزمل﴾** نداءُ تلطُّف، ومثله قوله تعالى **﴿يا أيها المدثر﴾**. والمزمِّل: اسم فاعل من تزمَّل إذا تلفَّف بثوبه، وأصل المزَّمل: المتزمل، وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية هو التزمل الذي جرى في قول النبي ﷺ «زملوني زملوني» حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ كما ذكر جمهور المفسرين؛ فنداء النبي ﷺ بوصف «المزمِّل» باعتبار حالته وقت ندائه. وقد أمرَ الله رسوله ﷺ بقيام الليل أمر إيجاب، وهو خاص به؛ لأن الخطاب موجه إليه وحده.

---

(٨٩٣) سورة المزمل: ١ ـ ٦.

وقد استمر وجوبُ قيام الليل على رسول الله ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس؛ تعظيمًا لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شئون المسلمين، وهو وقت الليل كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾(٨٩٤) أي: زيادة قرب لك.

فكان هذا حكما خاصًّا بالنبي ﷺ، ولم يكن واجبا على غيره. ولم تفْرض على المسلمين صلاةٌ قبل الصلوات الخمس، وإنما كان المسلمون يقتدون بفعل نبيِّهم وهو يُقرُّهم على ذلك فكانوا يرونه لزامًا عليهم، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة كقوله ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾.

وتخصيص الليل بالصلاة فيه، لأنه وقت النوم عادة، فَأَمرَ الرسولَ ﷺ بالقيام فيه زيادةً في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة ربِّه، ولأن الليل وقت سكون فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادًا.

والرسول ﷺ يُعَدُّ إعدادًا إلَـٰهيًّا لتحمل عبء ثقيل، فليقم ليله للصلاة وترتيل القرآن ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: اقرأ على تمهلٍ مع تبيين الحروف فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره.

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يقرأ السورة فيرتلها حتى أطول من أطولَ منها».

وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدًّا. ثم قرأ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ يمد ﴿**باسم الله**﴾ ويمد ﴿**الرحمن**﴾ ويمد ﴿**الرحيم**﴾.

---

(٨٩٤) سورة الإسراء: ٧٩.

وقد وصفت عائشة ــ رضي الله عنها ـ الترتيل فقالت: «لو أراد السامع أن يَعُدَّ حروفه لعدَّها، لا كسردكم هذا».

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة؛ فإن الترنم بالقرآن من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء، وهو أوقع في النفس وأبلغ في التأثير، على ألا يكون تكلُّفًا أو تصنُّعًا لا يؤدي إلى اتعاظ القارئ أو تأثره بمعاني القرآن.

وحكمة تخصيص الليل بالقيام أن ناشئة الليل أشدُّ وطْأ وأقوم قيلا، ووصف الصلاة بالناشئة لأن المصلي أنشأها فنشأت بعد هدأة الليل.

فإن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من النسيان، وأحفظ للقراءة وأقوم لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها وللمناجاة أثرها، وإنها لتسكب في القلب أنْسًا ونُورًا قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره.

والله سبحانه وهو يُعِدُّ عبده ورسوله محمدا ﷺ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم اختار له قيام الليل؛ لأن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأ وأقوم قيلا، ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾. هو هذا القرآن العظيم وما وراءه من التكليف، ثقيل في ميزان الحق، عظيم الأثر والتأثير ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

ومن تدبر كيف كان الرسول ﷺ يتلقى الوحي عرف دلالة هذا الوصف ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾، وهو النبي الأمي الذي لم يكن من قبل يقرأ كتابا، ولا يخطه بيمينه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جلدُه. أي: تغير بمثل القشعريرة». وقالت عائشة رضي الله عنها: «لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فَيُفْصَمُ عنه، وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا».

ذاك حال رسول الله ﷺ وهو يُلقى عليه القرآن، وهـذا ما أمر به وحافظ عليه حتى استطاع أن يُبلِّغ مـا أمر به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾.

ومن تدبـر سورة المزمل عـرف كيف كانت تهيئـة الدعاة و إعـدادهم للقيام بـالدعـوة إلى الله، كانت كمـا أُمرَ الـرسول ﷺ بقيـام الليل والصلاة، وتـرتيل القـرآن، والذكـر الخـاشع، والاتكال علـى الله وحده، والصبـر على الأذى، والهجر الجميل للمكذبين، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار.

أمـور وأمور لا بـد منهـا لإعداد دعـاة صـادقين مقتدين بـالـرسول ﷺ غيـر مبتدعين. ذاك هو السبيل الذي أُعدَّ بـه الرسول ﷺ ولا سبيل غيره لمن أراد أن يكون من الدعاة الصادقين.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١٧٦

ومن حديث القـرآن عن القرآن ما تضمنه قـوله تعالى في سـورة المزمل ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٨٩٥).

إن هذه الآيات التي ذكر الله فيها أمر القيامة وأهوالها وما هو فاعلٌ فيها بأهل الكفر بذكـره عبرةٌ وعظة لمن اعتبر بها واتعظ. فمـن شاء من الخلق اتخذ إلى ربِّه طريقا بالإيمان به والعمل بطاعته.

---

(٨٩٥) سورة المزمل ١٥ ـ ١٩.

ومن تدبر هذه الآيات علم أن القرآن ـ وهو يذكر ويُبصِّر ـ ليس أعزل من قوة قادرة غالبة تحقق وعده ووعيده. والعبر والعظات قائمة أمام أعين الناس تخاطب الناس وتحذرهم من سوء العاقبة والمصير.

إن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين نـزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا، وهذه الحقيقة وحدها كافية في إدراك ما للقرآن من قدر ومنزلة، وما له من قوة قادرة تحقق ما بشَّر به وأنذر. ويا له من فضل ورحمة أن ينذر من يُنْذَر لكي يستقيم ويُرْحم. والله غني عن العالمين.

ومن عرف ما للقرآن من أثر في تربية الفرد وروابط المجتمع حمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، ولم يستهن بوعده ووعيده.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(٨٩٦).

والقرآن الكريم عندما يذكر لنا ما وقع في الأمم الماضية إنما يقدم لنا تذكرة وتبصرة بسنن الله الباقية ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

روى ابن جرير في تفسيره عن قتادة في قوله ﴿إن هذه تذكرة﴾ قال: «يعني القرآن، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا بطاعة الله».

وما أشير إليه بقوله ﴿إن هذه تذكرة﴾ جدير أن يتدبر، وأن يكون تبصرة وتذكرة، سواء ما أصاب فرعون وقومه أو ما يكون من أمر القيامة وأهوالها وما يقع فيها.

---

(٨٩٦) سورة الكهف: ١ ـ ٥.

فإن ما ذكر من هذا وذاك يَهُزُّ النفس ويخلعها خلعا. ومن ذا الذي يجهل ما حل بفرعون وقومه وما وقع بهم؟ من ذا الذي يجادل في أن للحق قوةً غالبة آمرة وهو يقرأ ما آل إليه أمر فرعون في هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا؟

لقد استبد فرعون وطغى، وامتد طغيانه إلى اللحظة التي تم فيها هلاكه، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾.

عبرة وأي عبرة، وكم من عبر وعظات يخاطب بها القرآن الكريم ويذكر ويبصر. والأرض أمام أعين الناس تحكي لهم ما جرى عليها، وتحدِّث بما وقع فيها، وآثار المكذبين بالحق من قبل تخاطب الأجيال من بعد وهم يرونها أطلالا لا تُحسُّ فيها من أحد أو تسمع لهم ركزا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ تحذير أي تحذير، وإنذار أيُّ إنذار لأولئك الذين يخاطَبون بالذكر فيجحدون ويكذبون ويلهيهم الأمل فيُعرضون.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾. ﴿كان وعده مفعولا﴾ واقعا لا خلف فيه.

﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾.

السبيل إلى الله ميسور، فمن أباه واتَّبع السُّبُل فهو إلى هذا الهول العصيب.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(٨٩٧).

إن المهلة لأهل الباطل قصيرة إلى أجل معلوم، ثم يقضى الأمر حينما يجيء الأجل، ويأخذ الله أعداءه بالنكال والجحيم والعذاب الأليم.

---

(٨٩٧) سورة النساء: ١١٥.

ولن يدع الله أولياءه لأعدائه، ولو أمهل أعداءه إلى حين.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(٨٩٨).

ذاك حديث القرآن وتلك دلالته للأجيال كلها، تذكرة للأجيال كلها وبلاغ وإنذار ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

تذكرة لمن يتذكر، فمن كان في غفلة استفاق وعمل على إنقاذ نفسه من سوء العواقب، ومن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل بهذه التذكرة، فلم تبق للمتغافل معذرة. فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السبيل. فليبادر من شاء إلى صادق الإيمان وصالح العمل قبل أن يحول بينه وبين الإنقاذ حائل.

روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعًا. هل تنتظرون إلا فقرًا مُنْسيًا، أو غنًى مُطْغيا، أو مرضًا مفسدًا، أو هَرَمًا مُفنِدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدَجَّال فشرٌّ غائبٍ يُنتظر، أو الساعة فالسَّاعة أدهَى وأمرُّ؟».

١٧٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المزمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ

(٨٩٨) سورة الفجر: ٦ ـ ١٤.

أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٨٩٩).

واضح من صريح هـذه الآية أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل قبل نـزول هذه الآية، وأن طـائفة من أصحابـه كانوا يقـومون مقتـدين بفعل النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآيـة للتخفيف عنهم لقوله تعالى في هـذه الآية ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ فهي ناسخة للأمر في أول السورة ﴿**قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾.

وافتتاح الآية بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ يُشْعِرُ بالثناء عليه لوفائه بحق القيام الـذي أمر بـه. وقد جـاء في الحديث «أن النبي ﷺ كان يقـوم من الليل حتى تورَّمت قدماه». وتأكيد الخبر بـ«إنَّ» في قوله ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم**﴾ للاهتمام به وأن النبي ﷺ قد أرضى ربه بذلك.

فإن صدر هذه الآية إيمـاءٌ إلى الثناء على النبي ﷺ في وفائه بقيام الليل حق

الوفاء وعلى الطائفة الذين تـابعوه في ذلك؛ فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم يراد

فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقًا في أحاديث التهجد في صحيح البخاري رضي الله عنه .

ومعنى ﴿**فاقرءوا ما تيسر من القرآن**﴾ أي : صلوا ما تيسر لكم ، كقوله تعالى ﴿**وقرآن الفجر**﴾ أي : صلاة الفجر.

وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن بطريقة الإيجاز. وقوله ﴿**ما تيسر من القرآن**﴾ أي : ماتيسر لكم من الليل .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وتلك حكمة أخرى في التخفيف عنهم والتيسير لهم في أن يقوموا من الليل ما تيسر.

أي : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم من حقهم من الغزو في سبيل الله .

وعلى القول بأن هذه السورة كلّها مكية ، ولم يكن القتال قد شرع بعدُ تكون من أكبر دلائل النبوة؛ لأنها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة ، وفيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى قوة ومنعة وهم يُقاتلون في سبيل الله . وقد كان بعض الصحابة يتأولون من هذه الآية فضيلة التجارة حيث سوّى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال .

رُويَ عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ـ قال : «أيُّما رجل جلب شيئًا إلى مدينةَ من مدائن المسلمين محتسبا فباعه بسعر يومه كان لَه عند الله منزلةُ الشهداء» ، وقرأ ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : «ما خلق الله مَوْتَةً بعد الموت في سبيل الله أحبَّ إليَّ من أن أموت بين شُعْبَتَي رحْلي أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض» .

هكذا تكون حياة المسلم مقترنة بواجبات .

فقد جاء التخفيف والتيسير فيما فرض الله من قيام الليل ببيان الحكمة في ذلك ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

قالت عائشة رضي الله عنها : « إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابُه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خَاتمتَها في السماء اثني عشر شهرًا ، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة» .

ومن البيِّن الواضح أن هذه الأعمال التي من أجلها تمَّ التخفيف هي من الطاعات التى يتقرب بها إلى الله . والله عز وجل قد وسَّع أمر الطاعة ، وجعلها شاملة كاملة .

والحديث عن القرآن وترتيله وقراءة ما تيسر منه في الصلاة أو غيرها يُرادُ به أن يكون القرآن رائدًا للحياة كلِّها ليْلها ونهارها ، موجِّها للقيام بواجباتها ، يعمل في حياة الأمة عمل الروح في الجسَد ، فمن يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله يضرب بمقتضاه ويسعى بنوره وهداه ، ومن يجاهد في سبيل الله يجاهد به مؤتمرا بأمره ، مزدجرًا بنهيه ، وفي خاطره أن كلَّ آية في كتاب الله آمرة أو زاجرة ستسأله فريضتها . فهو يحقق فريضتها في دنياه قبل أن يصل إلى أخراه ، وعندئذ يكون جهاده في جميع شئون الحياة ليعطي كل ذي حق حقَّه .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾(٩٠٠).

يعني جل ثناؤه بقوله ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ ليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، ولكنه تذكرة من الله لخلقه ذكَّرهم به، فضمير (إنه) راجع للقرآن وهو معلوم من المقام.

وتنكير ﴿تذكرة﴾ للتعظيم ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: فمن شاء من عباد الله الذين ذكَّرهم الله بهذا القرآن ذكره، فاتَّعظ به وعمل بما فيه.

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: وما يذكرون هذا القرآن فيتعظون به ويستعملون ما فيه إلاَّ أن يشاء الله أن يذكروه؛ لأنه لا أحد يقدر على شيء إلا بأن يشاء الله أن يقدره له ويعطيه القدرة عليه.

﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي: الله أهلٌ أن يَتَّقِي عبادُه عِقَابَه على معصيتهم إيَّاه، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته.

﴿وأهل المغفرة﴾ أي: هو أهلٌ أن يغفر ذنوبهم إذا فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها. هذا ما ذكره ابن جرير في تفسيره، واستشهد بما قاله أهل التأويل على طريقته. وجملة ﴿إنه تذكرةٌ﴾ تعليل للردع عن سؤالهم أن تنزل عليهم صحف منشرة بأن هذا القرآن تذكرة عظيمة ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾(٩٠١).

وهذا كقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

---

(٩٠٠) سورة المدثر: ٥٤ـ٥٦.

(٩٠١) سورة المدثر: ٥٢.

وهو إنذار للناس بأن التذكر بالقرآن يحصل إذا شاءوا التذكر به .

والمشيئة تستدعي التأمل فيما يخلصهم من المؤاخذة على التقصير وهم لا عذر لهم في إهمال ذلك . فوقع التذكر بمشيئتهم ، ونفى أن يذكروا إلا أن يشاء الله حيث قال : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وذلك هو الحق المبين ، فإن القول بأن الخلق مجبورون ينافي الحساب والجزاء .

والقول بأن الخلق خالقون لأفعالهم خروج عن دائرة العدل في الاعتقاد ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ . فالله عز وجل لم يُكره العبد ، ولم يجبره ، ولم تكن للعبد مشيئة مطلقةٌ وهو المخلوق الذي يحتاج دائما لمن يُيَسِّر له جميع أمره؟

فكيف بنا في قضيةٍ كهذه نُطلق مشيئته وهو العاجز عن تحقيق أملٍ أو تأخير أجل ؟

وهذا نداء المهتدين بهدى الله وهم يأخذون بالأسباب ولا يقصرون ، وهم يقولون صادقين : «اللهم لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا» .

إنهم يحاسبون أنفسهم إن هم قصَّروا أو أخطأوا ، ويسندون الفضل لربهم إن هم وفقوا وأحسنوا .

والتربية الإسلامية التي تُرجى ، والعبودية التي بها يَشْرُف الإنسان ويحقق أبرَّ الصفات وأكرم الخصال لا تتحقق إلا بهذا الاعتقاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٩٠٢) .

لأن الإنسان بهذا الاعتقاد يُدفع إلى العمل ويدعى إليه ويُؤمر به .

---

(٩٠٢) سورة الإنسان : ٢٩ ـ ٣١ .

ثم تُعصمُ النتائج من الإحباط والإبطال الذي يأتي نتيجة ركون الإنسان لعمله ونسيان من تغمده برحمته. والله عز وجل ينهى المؤمنين عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى أو إحباط أعمالهم بشرك ظاهرٍ أو خفيٍّ. وهذا وذاك قد يقع إذا ركن الإنسان إلى عمله ونسي فضل ربِّه.

إن هذه العقيدة تجعل الإنسان دائما في توسط واعتدال. إن أحسن أسند الفضل إلى ربه، وإن أخطأ أو قصر حاسب نفسه وتاب واستغفر ولم يقنط من رحمة ربِّه، فيبقى الإنسان مع هذا الاعتقاد بين دافع إلى العمل ومانع من الأسى والبطر وهو يؤمن بمشيئة ربِّه ويوقن بقدره. وبين الدافع الذي يدفعه والمانع الذي يرده ويحفظه يبقى الإنسان مَصُونًا من الأسى المدمِّر لفوات ما يرغب، والبطر المهلك بحصول ما يطلب، والاعتدال المحقق للنجاة لا يتم إلا بهذا الاعتقاد.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٩٠٣).

بهذا نستطيع أن ندرك دلالة قوله تعالى ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ بعد قوله ﴿كلا إنه تذكرة﴾ ودلالة قوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ بعد قوله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

ونعلم أن الله عز وجل لم يشأ أن يُكره نفسا على الهدى أو يؤتيها من التقوى ما لا تستحق.

---

(٩٠٣) سورة الحديد: ٢٢ ـ ٢٣.

وبذا نعرف قدْر أنفسنا وأننا في حاجـة دائمة إلى الاستعانة بخالقنا، ونصون أنفسنا من الإفـراط والتفريط في جميع أموًرنـا، ونمسك بالعدل ونحـذر الغلو الذي أهلك من كان قبلنا.

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٧٩

ومن حديث القـرآن عن القرآن ما تضمنـه قولـه تعالى في سورة القيـامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(٩٠٤).

روى البخـاري ومسلم عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهمـا ـ أنه قـال: «كان رسول الله ﷺ إذا نـزل عليه القـرآن يحرِّك به لسـانه يريـد أن يحفظه مخـافة أن يتفلت منه أو من شـدة رغبته في حفظه فكان يلاقي من ذلـك شدة. فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾. قال: فاستمع له وأنصت، ثم إن علينا أن نبيِّنه بلسانك، أي: تقرؤه، فضمير به في قوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ عائد إلى القرآن وقوله ﴿إذا قرأناه﴾ أي: قرأه جبريل عنَّا. ومعنى ﴿فاتبع قرآنه﴾ أي: أنصت إلى قراءتنا.

ولفظ علينا في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وقوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ للتكفل والتعهد. وفيه من العنايـة والرعاية والدلالة على الـرسالة ما لا يخفى. ذلك أن الله هو الذي تكفَّل بشأن هذا القرآن وحيًا وحفظا وجمعا وبيانا. وليس للرسول ﷺ من أمره إلا حمله وتبليغه.

وتسجيل هذا الحادث في القرآن له قيمته في تعميق هذه الإيحاءات.

---

(٩٠٤) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

فإن حفظ القرآن وجمعه وبيان مقاصده كل ذلك موكول إلى الله .

والرسول ﷺ يتلقى ويبلغ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي ؛ فإنه ﷺ كان يبادر إلى أخذه ويُسابق المَلَك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويُفَسِّره ويوضحه ، فالحالة الأولى : جمعه في صدره .

والثانية : تلاوته .

والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ أي : بالقرآن ، كما قال الله تعالى في سورة طه :﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٩٠٥] . ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أي : في صدرك ﴿وقرآنه﴾ أي : أن تقرأه .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي : فاستمع له ، ثم اقرأ كما أقْرَأَكَ .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

ومن تدبر الأمر من بدايته أيقن يقينا لا شك فيه أن هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

---

(٩٠٥) سورة طه : ١١٤ .

وأن الرسول ﷺ الذي أوحي إليه لم يكن يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه. فالأمر كلُّه لله ومن الله. والرسول ﷺ متبع ما أوحي إليه من ربه.

ومن تدبر ذلك أيقن يقينا لا شك فيه - وهو يرى كيف كان يأتي الوحي، والرسول ﷺ يتلو ما يوحى إليه دون إبطاء أو إرجاء لمعاودة وحفظ ما يلقى عليه - من تدبر أيقن أن الأمر خارج عن مألوف البشر، وأن محمداً ﷺ رسولُ الله لا يرتاب في ذلك إلا جاحد أو كفور.

لقد أمر الله نبيه ﷺ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره. فكان الرسول ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل.

إن حديث القرآن وهو يخبر عن حال الرسول ﷺ وهو يتلقى القرآن له دلالته في تبصرة الناس ودعوتهم إلى أن يؤمنوا جميعا بالرسول النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

والدلالة هنا لا تخفى على من شرح الله صدره ووفقه وهداه لمعرفة الحق والعمل به. إن الذي نزل الفرقان على عبده هو وحده الذي يقدر على جمعه في صدره دون حاجة منه ﷺ إلى تكراره في صحف أو قراءته في كتاب.

إعجازٌ يلفت النظر في شخص الرسول ﷺ وما جاء به. ولكي تبقى صورة التَّلَقِّي وما صاحبه حيَّةً في نفس المتدبر أنزل الله هذه الآيات: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾.

وبقيت الآيات في الذكر الحكيم محفوظة للأجيال ليستحضر من شاء أن يستحضر هذه الصورة المعبرة أكمل تعبير عن الرسالة والرسول، ويَتَّعظ من يتعظ ويوقن أن الأمر كلَّه لله، والرسول ﷺ مبلِّغٌ عَن ربه يبلِّغ ما يوحَى إليه ويصدع بما يؤمر به.

والله الذي أرسله هو الذي عصمه من كل مكـر وكيد كما حفظ ما أنزل عليه وأبقاه ذكرًا ونـذيرًا للعالمين، فما أخبـر به ودعا إليه كلُّـه صدق وحق. فطوبى لمن صدق به وأيقن، وويل لمن كذب به وأعِرض.

١٨٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الإنسان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٩٠٦).

حديـث القرآن عن القـرآن هنا مقترن بمـا يجب أن يكـون عليه الدعـاة وهم يقتدون بمن كان خلقه القرآن ﷺ.

يقـول الله تعالـى ممتنا على رسـولـه ﷺ بمـا أنزلَ عليـه من القـرآن العظيم تنزيلا. ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي: كما أكـرمك بما أنزل عليك فـاصبر على قضـائه وقدره، واعلم أنـه سيدبـرك بحسن تدبيـره، ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكـافرين والمنافقيـن إن أرادوا صدَّك عما أنـزل إليك بل بلِّغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله والله يعصمك من الناس.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي: أول النهـار وآخـره. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

هكذا أمر الرسول ﷺ ليبلغ ما أنزل إليه من ربه.

---

(٩٠٦) سورة الإنسان: ٢٣ ـ ٣١.

أمر بالصبر على ما كلِّف به، وما يقتضيه من جهد وبلاء، وما يُلاقيه في سبيل ذلك من فتنة وأذى وصدٍّ وكيد. ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: اصبر ولو طال الأمد، واشتدت الفتنة وقوي الإغراء، اصبر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك، ولا تستمع لما يعرضونه عليك، فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى خير، إنهم آثمون كفار؛ فهم لا يدعونك إلا إلى شيء من الإثم والكفر.

أُمر الرسول ﷺ بالصبر كما أمر بالذكر ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

اذكر اسم ربك في الصباح وفي المساء، واسجد له بالليل وسبحه طويلا.

ذاك هو الزاد الذي يتزوّد به الدعاة إلى الله. وذاك ما خوطب به الرسول ﷺ واستعان به على القيام بما يكلف به، والسبيل هو السبيل، والقدوة به ﷺ في الوسائل والغايات: طُهْرٌ في الوسائل، وصدق في الغايات.

إن القدوة به ﷺ هي التي تحقق للدعاة ما يرجونه من تأييد الله ونصره. والقرآن الكريم ـ بما اشتمل عليه ـ فيه البيان لما يجب أن يكونوا عليه. والرسول ﷺ قد كان خلقه القرآن، وهو القدوة والأسوة في التخلق بخلق القرآن، وقد بيَّن ما نزِّل إليه بقوله وفعله و إقراره خير بيان.

ومن بيان القرآن فيما نحن بصدده ـ وهو ما تمسك به الرسول ﷺ وداوم عليه ـ ما دعت هذه الآيات إليه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

صبر وذكر وتسبيح وحمد وعبادة وسجود لله تعين على تحمل الأعباء الجسام وتحْفظ الدعاة إلى الله من أن يُستَخَفُّوا أو يستدرجوا من آثم أو كفور. تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن يدركها الدعاة إلى الله، وهي أن الحق الذي نزل به القرآن لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون.

وموقف الباطل هو هو، ووسائل الباطل في كل زمان ومكان ومع كل نبي ورسول ومع من اتبع سبيلهم هي هي. إغراء واستدراج وصد وكيد بل وقتل وتشريد وسجن ونفي. وما قيل للأنبياء من قبل كرره الذين جاءوا من بعد.

وكأنما قد اجتمعوا عليه وتواصوا به ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾.

وما انتصر به الحق من قبل هو ما ينتصر به من بعد، والحق منتصر لا محالة، ومن تدبر العواقب أيقن بذلك ولم يَرْتَبْ فإن العاقبة له دون سواه.

والذين يريدون أن ينعموا بنصرة الحق عليهم أن يعرفوا السبيل ولا يحيدوا عنه، وأن يدركوا أنهم ما لم ينتصروا بفضلهم لن يغلبوا بقوتهم. فمن أراد أن ينصر الله في أمر ما عليه أن ينصره أولا في نفسه قبل أن يطلب نصره عند غيره «إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك».

والحق الذي يُطلب نصره في النفس أولا لا بُدَّ فيه من معرفة وصبر وذكر وتسبيح وحمد وطهر وعبادة وسجود تظفر معها النفس برضا ربها، وتنعم بفضله ورحمته؛ فالنصر من عند الله وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته.

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا ۝ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ۝ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴾.

زادٌ لطلب النصر أيُّ زاد وإعدادٌ لتحمل الأعباء الجسام أيُّ إعداد، ومن ابتغى ردع الباطل ودحضه بغير التمسك بالحق والأخذ بأسبابه فسيجد نفسه موزَّعًا في سبل الباطل مأخوذًا بشبهاته وشهواته.

أما التمسك بالحق والثبات عليه حتى الممات فإنه يقتضي من الصفات ما يعين على الثبات. ومن هذه الصفات ما توحي به هذه الآيات من سورة الإنسان ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ۝ . . . . ﴾.

صفـاتٌ وأخـلاق تنتصـر في واقع الحيـاة يكون الإعـداد بهـا قبل أن يكـون بالعَدَد والعُدد.

لقد وصف سعـدُ بن أبي وقاص لعُمَـرَ بن الخطاب حَـالَ من كانـوا معه في الجهـاد، وحقق الله لهم النصر فقـال فيمـا قال: «مـات فلان وفـلان ممن لا تعلمهم والله بهم عـالم كانـوا يُدَوُّون بـالقرآن إذا جن الليل كـدوي النحل، لا يفضل من ذهب منهم من بقي إلا بفضل الشهادة».

ذاك حـالهم مع كتاب ربهـم، وذاك من إعدادهم عنـد مـواجهة عـدوهم، إعدادُ إيمان وأخـلاق وصفات ينتصرون بها على أنفسهم قبـل أن يطلبوا النصر على أعدائهم.

وهـم يسألـون الله العـون على أنفسهم قبل أن يسألوه النصـر على عـدوِّهم، وهم يعلمـون أن ذنوبهم أخـوف عليهم من عدوِّهم، ومـا لم ينتصروا بتقـواهم وفضلهم لم يَغْلبـوا بقـوتهم. وكم مـن نـاس أقبلـوا على دين الله لمـا رأوه من صفات العاملينَ بـه، والداعين إليه. ومعلِّم نفسه ومؤدبهـا أحقُّ بالاحترام من معلِّم النَاس ومؤدبهم.

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

١٨١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة التكوير ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٩٠٧].

(٩٠٧) سورة التكوير: ١٥ ـ ٢٩.

يقسم الله سبحانه بمشاهد كونية على طبيعة الوحي وصفة الرسول الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه. والرسول الذي يتلقاه وموقف الناس حياله. ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ وهي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل.

﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾ أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق. كما قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

والقسم بهذه المشاهد له دلالته وله إيحاؤه في تدبر المقسم به والمقسم عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾.

أي إن هذا القرآن لقولُ رسول كريم ــ وهو جبريل عليه السلام الذي حمل هذا القول وأبلغه، فصار قوله باعتبار تبليغه ـ وهذا الرسول الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه كريمٌ عند ربه.

وفي التعبير عن جبريل عليه السلام بوصف «رسول» إيماءٌ إلى أن القول الذي يبلِّغه هو رسالةٌ من الله مأمور بإبلاغها. وفي الثناء على الملك المرسل تنويهٌ بالقرآن وتعظيم لشأنه.

وقد وُصفَ المَلَك المرسل بخمسة أوصاف:

الأول: كريم: وهو النفيس في نوعه.

والثاني والثالث: ذي قوة عند ذي العرش مكين: أي: هو ذو قوة عند الله، أي: جعل الله مقدرة جبريل تُخوِّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزُلْفَى.

الوصف الرابع: مطاع: أي: يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائده، مطاعٍ ثَمّ: أي: في الملأ الأعلى فيما يأمُرُ به الملائكة.

والوصف الخامس: أمين، والأمين هو الذي يحفظ ما عهد إليه حتى يؤدِّيه دون نقص ولا تغيير. وهذه الصفات التي وُصفَ بها المَلَك والمُرسَل في مجموعها تُوحي بكرامة ما أرسل به، وسموّه وارتفاعه، كما توحي بعناية الله بالموحى به والموحى إليه ﷺ. فهذه صفاتُ الرسول الذي حمل القول وأدَّاه وهو جبريل عليه السلام.

وأما الرسول الذي اختاره الله وأوحى إليه فهو (صاحبكم) الذي عرفتموه حق المعرفة عمرًا طويلا. فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وهو صاحبكم الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين؟ ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾.

ولا يخفى أن العدول عن اسم النبيّ العلم إلى ﴿**صاحبكم**﴾ في قوله ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ لما يؤذنُ به صاحبكم من كونهم على علم بأحواله يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون رجاحة عقله، كما يعلمون صدقه وأمانته، يرضونه حكما فيما بينهم، ويأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم. فكيف يقولون ﴿**إنه لمجنون**﴾ وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول؟

إنه لمؤتمن في الغيب، لا تُظَنُّ به الظنون، فما عرفوا عنه ﷺ إلا الصدق واليقين. وما هو على الغيب بضنين، وهو يبلغكم ما يُوحَى إليه لا يضن به عليكم، بل ينشره ويبلغه، ويبذله لكل من أراده ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** ﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي: لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له كما قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** ﴾ ﴿**فأين تذهبون**﴾ أي: فأين تذهب

عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقًّا من عند الله عز وجل؟ أو ﴿**فأين تذهبون**﴾ في حكمكم وقولكم؟ أو ﴿**فأين تذهبون**﴾منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم؟

وليس الحق الذي تنكرونه بأعزل من القدرة على عقابكم إن أنتم كرهتموه وأعرضتم عنه، وما أنتم بمعجزين فإن أبيتم النور الذي جاءكم فالنار موعدكم ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ**﴾.

﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ أي: ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح عقائدهم، وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه. ﴿**ذكرٌ للعالمين**﴾. و«**العالمين**» يعم كل البشر لأنهم مدعوُّون للاهتداء به ومستفيدون مما جاء فيه ﴿ **لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه منجاة له وهداية. ولا هداية فيما سواه ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾.

فلتلجأوا إليه ولتؤمنوا به ولتطلبوا منه العون والتوفيق؛ فإن لأهل الاستقامةَ شرفهم، ولهم من الله العونُ والتوفيق.

إن حديث القرآن عن القرآن هنا له دلالته في الاعتصام به والعمل بمقتضاه؛ لأنه الحق، ومن كره الحق أو عاداه لقي ما يلقاه أعداء الله.

﴿**فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾. أين يذهب المعرضون عنه والكارهون له؟

أين يذهب هؤلاء وأولئك وهم في قبضة الله حيث كانوا ولن يفلت أحدٌ أو يفر؟ ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**

لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ ﴾(٩٠٨).

١٨٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الانشقاق ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٩٠٩).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لموقف أولئك الذين لا يخضعون للقرآن، ولا يخشعون إذا قرئ عليهم قراءة دعوة وتبليغ. وقد كان النبي ﷺ يعرض عليهم القرآن جماعات وأفرادا.

وقد قال له عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق: «لا تغشنا في مجالسنا». لقد كان الرسول ﷺ يعرض عليهم القرآن كما أمره الله ويقرأه عليهم، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم إليه ولا يصدقون.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾(٩١٠).

هكذا أُمر الرسول ﷺ أن يتلو القرآن وأن يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه. ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾.

---

(٩٠٨) سورة الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢.

(٩٠٩) سورة الانشقاق: ١٦ ـ ٢٥.

(٩١٠) سورة النمل: ٩١ ـ ٩٢.

إذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون لله، ولمعاني القرآن وحجته، ولا يؤمنون بحقيقة ما أخبر به ودعا إليه ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ الله أعلم بما يضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأن ما جاء به القرآن حق.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ فلا سبيل لإنقاذ من عاند وكابر إلا بحسن الاستجابة لما دُعي إليه من الإيمان والعمل الصالح.

أمَّا من كفر بالحق ومات على كفره فذاك عقابه عند ربه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾(٩١١).

فليس القرآن ـ وهو يتلى على الناس بلاغا من الله ـ أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده، إنه الحق من ربك، وللحق نور ونار. فمن آمن به اهتدى بنوره، ومن كذَّب وأعرض اصطلى بناره ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾(٩١٢).

إن الذين يأبَوْن الحق ويعرضون عنه يظلمون أنفسهم ويخسرون؛ لأن القرآن بلاغ من الله للناس وإنذار لهم، ولا حجة بعد بلاغ، ولا عذر بعد إعذار وإنذار ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٩١٣) إن الاستجابة للقرآن فيها حياة أيُّ حياة. إنه الحق لصلاح

(٩١١) سورة البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٩١٢) سورة الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨.

(٩١٣) سورة إبراهيم: ٥٢.

أمرهم في دنياهم وفلاحهم في أخراهم، وهو يهديهم في كل شأن للتي هي أقوم. إنه رحمة بهم وتكريم من الله لهم حتى لا تذل نفوسهم بعبادة ما لا يُعبد من حجر أو شجر أو بشر، أو شمس أو قمر.

إعذارٌ أيُّ إعذار، وتكريم أي تكريم، وهو يدعوهم إلى عبادة الله الرحمن الرحيم، ويأمرهم باستغفاره والاستقامة إليه، ويعدهم بالأمن في دنياهم والنعيم في أخراهم، والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم. فمن أبى الرحمة فقد رضي العذاب، ومن رغب عن التكريم لقي العذاب المهين **﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾**.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ ﴾(٩١٤).

وهم إذا آمنوا واستقاموا فذاك وعد الله لهم والله لا يخلف وعده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾(٩١٥).

أمّا من أصر وأعرض وكفر بآيات الله وألحد فذاك وعيده، ولا يخفى على الله أمره، ولن يفلت من حساب وجزاء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا

---

(٩١٤) سورة فصلت: ١ ـ ٦.

(٩١٥) سورة فصلت: ٣٠ ـ ٣٢.

﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[916] ولا يستوي عند الله محسن ومسيء، لا يستوي مؤمن وكافر، لا يستوي متق وفاجر. وفي بيان القرآن ما يغني، ولا عذر بعد بيان ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[917].

ذاك هو القرآن الذي يأبى الجاحدون الإيمان به والخضوع لما يدعو إليه، ذاك هو الذكر الذي حفظه الله رحمةً بخلقه وهدًى لعباده. به تعرف القيم وتوزن الأعمال ويرفع الله به أقواما ويضع آخرين.

ذاك هو القرآن وهذا حديثه وقسمه فليتدبر من شاء أن يتدبر ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾.

آيات وآيات لله في الأنفس والآفاق يخاطب بها الإنسان لبيان الحق والدعوة إليه، والمقسم به يلفت النظر، ويوقظ الحس ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾. والمقسم عليه حق واقع يبرهن عليه المقسم به.

فَمَنْ هذه آياته هو الذي يبدّل أمر الناس من طور إلى طور كما تبدل أمام أعينهم صفحة الكون من حال إلى حال.

خضوع خاشع لله الواحد القهار، أفلا يخضع الإنسان ويخشع لما نزل من الحق وهو يرى أمام نظره خضوع كلٍّ شيء لخالقه ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؟

فهل يتدبر الإنسان ما يتلى عليه، ويرى في آيات الله في نفسه وفي الآفاق ما تدعو إليه، ويعلم أن ما أقسم القرآن به دليلٌ على ما أقسم عليه ودعا إليه، وما الإنسان في خلقه ونشأته وحياته وموته وجميع أمره إلا كائن بأمر ربه؟

---

(٩١٦) سورة فصلت: ٤٠.

(٩١٧) سورة النساء: ١١٥.

الآيات التي يخاطب الإنسان بها ليست بعيدةً عنه أو منفصلة عن معاشه ومتاعه، من ليل ونهار وشمس وقمر وأرض وسماء وزرع وماء. آيات وآيات يقسم الله بها ليعرف الإنسان دلالتها في الدعوة إلى الإيمان، ويخبره الله بشأنها لتكون زادًا لا ينقطع في تبصرته وتذكرته وهي ملازمة له حيث كان ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٩١٨).

١٨٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة البروج ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾(٩١٩).

هذه الآيات من سورة البروج جاءت بعد قوله سبحانه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾(٩٢٠).

والتناسب بين الآيات بيِّن واضح. فإن لله سننا لا تتبدل ولا تتحول، فمن كـذَّب من بعدُ كمن كـذَّب من قبلُ مأخوذ بذنبه مدمَّر بمعصيته، ولن يفلت ظالم من عقاب ولن يُضيَّع مظلوم أمهل ظالمه ليوم تشخص فيه الأبصار.

---

(٩١٨) سورة غافر: ٦١ ـ ٦٥.

(٩١٩) سورة البروج: ١٩ ـ ٢٢.

(٩٢٠) سورة البروج: ١٢ ـ ١٨.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٩٢١).

ذاك حديث القرآن عمن ظلم فأشرك بربه وأعرض عن ذكره.

فما يخاطب الناس به من وحي الله رآياته قولٌ فصل وما هو بالهزل.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ فمن كذب بالنبي وبالقرآن لقي ما يلقاه من بطش وعذاب. وسنن الله في المكذبين ماضية في الأولين والآخرين **﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾**.

﴿والله من ورائهم محيط﴾ فلن يفلتوا من عقاب والله من ورائهم محيط.

وذاك وصف اقتدار الله عليهم وأنهم في قبضته وحصره، كالمحاط به إذا أحيط من ورائه يَنْسدُّ مسلكه فلا يجد مهربا.

---

(٩٢١) سورة إبراهيم: ٤٢ ـ ٥٢.

يقول الله : فهم في قبضتي ، وأنا قادر على إهلاكهم ومُعَاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم .

وقد يراد بهذه الإحاطة قرب إهلاكهم كقوله ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ فهو عبارة عن مشارفة العذاب .

و إذا كان التكذيب بالحق قد أحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴾ بحيث لم يترك لتذكر ما حلَّ بأمثالهم من الأمم مَسْلكًا لعقولهم فهم منغمسون فيه انغماس الظرف في المظروف .

فقد جاء العقاب جزاءً وفاقا لموقفهم فقوبل جزاءُ إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ .

والقرآن الكريم لا يضره تكذيب هؤلاء ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ (٢١) فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ لا ينقص منه ولا يُزاد عليه ، فهو مصون في لوح محفوظ عزيز لا يقترب من ساحته باطل . ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾ ذو قدر ومنزلة عظيم شريف وحيد في النظم والمعنى .

فتكذيب من كذب به ناشئٌ من علَّة في نفوسهم ومن خضوعهم لأهوائهم لا من اختلاف أو نقص فيه . فالتنويه بالقرآن هنا جاء في موضعه لإبطال تكذيبهم ؛ لأن القرآن قد جاءهم بدلائل بينة فاستمرارهم في التكذيب ناشئٌ لا من علة فيه بل من عِلَلٍ في نفوسهم ؛ إذ وصفوه بصفات النقص في قولهم أساطير الأولين ، إفكَ مفترى ، قول كاهن ، قول شاعر . فجاء قوله ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ (٢١) فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ إثباتا لحقيقته ومكانته و إبطالاً لتقولهم وتكذيبهم ، وتنويها بمنزلته وعلو شأنه .

إن حديث القرآن عن القرآن بهذا الوصف له دلالته في مخاطبة الناس وتنبيههم إلى ما يجب عليهم من الاستمساك به والاعتصام ، والحذر من مخالفته أو الإعراض عنه فلن يكون مخالفه بمعزل عن حساب وعقاب .

بل إن جزاء الناس جميعا سيحدد بناء على موقفهم من الحق الذي أنزل به، ولن يستوي في النتائج متبع له ومعرض عنه. فالذين تشغلهم الزينة عن القيمة، وتصرفهم العاجلة عن العاقبة.

فيعرضون عنه غير مكترثين بما يحذرهم منه سيندمون حيث لا ينفع الندم ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٩٢٢).

١٨٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العلق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾(٩٢٣).

أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأنَّ من كَرَمه سبحانه أن علَّم الإنسان ما لم يعلم. فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة.

ومن عرف كيف بُدئ الوحي أدرك ما في هذه الآيات من دلالة على نبوة محمد ﷺ وأن ما جاء به تنزيل من ربِّ العالمين، وما كان ﷺ يتلو من قبله من كتاب ولا يخطُّه بيمينه.

فلنستمع ولنتدبر ما جاء في السنة الصحيحة من بيان فيما رواه الشيخان: عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي

---

(٩٢٢) سورة الأنعام: ١٥٨.

(٩٢٣) سورة العلق: ١ ـ ٥.

الرؤيـا الصادقة في النـوم ، فكان لا يرى رؤيـا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يَخْلُو بغار حراء فيتَحَنَّثُ فيه الليالي ذواتَ العدد قبل أن ينزع إلى أهلـه ، ويتزود لذلك ، ثم يَـرْجِعُ إلى خديجة فيتـزودُ لمثلها ، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء .

فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني .

فقال : اقرأ . قلت ما أنا بقارئ .

فأخذني فَغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني .

فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ .

فأخذني فَغَطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني .

فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .

فرجع بها رسـول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجـة ، فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسي .

قالت خديجة : كلاَّ ، والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكْسِبُ المعدوم ، وتَقْرِي الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فـانطلقت به خـديجة حتى أتت ورقَـةَ بن نوفل بن أسـد بن عبد العُـزَّى ابن قصي ـ وهـو ابن عــم خـديجــة ــ رضي الله عنها ـ وكان امــرأ قـد تنصرَّ في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتـب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب ، وكـان شيخًا كبيرا قـد عمي ـ فقـالتْ له خديجـة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك ما يقول .

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقةُ: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى.

يا ليتني فيها جزَعًا، يا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك.

فقال ﷺ: أومُخرجيَّ هم؟

قال: نعم. لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِي.

وإن يدركْني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرا.

ثم لم يلبث ورقةُ أن تُوفّي، وفتر الوحي».

ذاك أول ما بدئَ به الوحي. وهي بداية تنبئُ عن الحق وتدعو إليه، وتُري الناس في حدث ضخم صلة الخالق بالمخلوق وهو يختار من بين خلقه منْ يُرسله إليهم بما أَوحى إليه.

وما كان الرسول ﷺ يدري من قبل ما يُعَدُّ له وما يُتْلى عليه.

ما كان يدري أنه الناموس الذي أنزله الله على موسى وأنه الوحي. لقد كان الأمر بالنسبة له غريبا ورهيبا خشي منه على نفسه. لقد فوجئَ بالوحي دون أن يتوقعه، واقتضت حكمة الله أن يكون كذلك، ليكون إعلامًا على مرِّ الزمان أن ليس الإعجاز في ذات القرآن فحسب، بل هو معجز في تلقيه وجعْله مسْطُورًا في قلب النبي، مجموعا في فؤاده يرى الناس فيه دلالة قوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾.

هكذا بنون العظمة: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه، علينا لا على غيرنا. فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب عنه قرأه كما وعده الله عز وجل

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾.

اقرأ يا محمد وتعلم.

فذلك الرب الكريم الذي خلق الإنسان وصوَّره وعدَّله وركبه في أحسن صورة زاد في إكرامه إياه إذ علمه بالقلم، علَّمه ما لم يعلم. فكيف لا يعلمك أنت ما لم تكن تعلم وهو الكريم الأكرم القادر على التعليم بغير القلم كما علَّم بالقلم؟

تلك آياته وذاك فضله ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(٩٢٤).

إن حديث القرآن عن قراءة الرسول ﷺ أو إقرائه ــ وهو النبي الأمي ـ يقدم للناس الحقيقة مقترنة بعبرتها، والعبرة هنا لا تقف عند جيل بعينه، بل تصاحب الأجيال كلَّها، وقد حفظ الله لها الذكر الذي نُزِّل عليه معجزةً للرسول النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ليؤمنوا به ويتبعوه على بصيرة راشدين مهتدين.

وهم يعرفون منة الله عليهم إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فهو النبي الأمي الذي لم يقرأ من قبل كتابا، ولم يجلس إلى مُعَلِّم. وقد اقترن ذلك بدعوة الناس جميعا إلى الإيمان به وحسن اتباعه ليكون الإعجازُ الدالُّ على الحقِّ معيناً للنَّاس على الإيمان بالحق.

---

(٩٢٤) سورة النساء: ١١٣.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

١٨٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته سورة القدر ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[٩٢٥].

في هذه السورة ـ سورة القدر ـ تنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى ﴿إنا أنزلناه﴾ هكذا بنون العظمة التي تستعمل كثيرا عند الحديث عن إنزال القرآن كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ وفيها رفعُ شأن الوقت الذي أنزل فيه، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله إنَّها ليلة القدر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾. كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

وفي ضمير العظمة و إسناد الإنزال إليه سبحانه تشريف للقرآن أيُّ تشريف، وليلة القدر: اسمٌ جعله الله للَّيلة التي أنزل فيها القرآن.

والقدر الذي عُرِّفت الليلة بالإضافة إليه هو بمعنى الشرف والفضل أي: ليلة القدر والشرف عند الله عز وجل.

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداءُ إنزال القرآن فيها تشريفُ القرآن بتشريف زمان نزوله تنبيها على أن الله تعالى قد اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفا مباركا؛ لأن عظم القدر يقتضي أن يُختار له أفضل الأوقات.

---

(٩٢٥) سورة القدر.

فاختيــار أفضل الأوقات لابتــداء إنزالــه ينبئ كذلــك عن علو قــدره عند الله سبحانه.

والليلة التى تتحدث عن السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٩٢٦).

والمعروف أنهـا ليلة من ليالي رمضـان كما ورد ذلك في سـورة البقرة ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾(٩٢٧).

ومن تدبـر حقيقة ما تم وتدبر آثـاره على مر الزمان أدرك شيئـا من دلالته في قوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد جعلها الله مـوصولة الذكر على مـرِّ الزمان وذلك فيمـا حثَّنا عليـه رسـول الله ﷺ من قيـام هذه الليلـة من كل عـام، ومن تحـريهـا والتطلع إليهـا في العشـر الأواخــر من رمضــان، ومن عظيم الأجـر المترتب على قيـامها «من قام ليلة القـدر إيمانا واحتسـابا غفر له مـا تقدم من ذنبه». كل ذلك له مَـا لَهُ من الدلالة على قدر القـرآن وعظم شأنه، فهو عظيم في ذاته، وفي الزمن الذي أنزل فيـه، وفيمن نزل به أو أنزل عليه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أنزل الله فيها كتابا ذا شأنٍ وقدرٍ.

وإنما أضمر القرآن وإن لـم يتقدم له ذكر لإسنـاد إنزاله إليه تعالى دون غيره. وجاء بضميـره دون اسمه الظاهـر شهادة له بـالشرف والاستغنـاء عن التصريح باسمه لشهرته. أنزله في شهر رمضــان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملة واحدة من اللـوح المحفوظ إلى بيت العزة من السمـاء الدنيا، ثم نـزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

---

(٩٢٦) سورة الدخان: ٣ ـ ٦.

(٩٢٧) سورة البقرة: ١٨٥.

وفي حديث القرآن عن القرآن نرى القسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة، ففي سورة الدخان قد أقسم الله بالقرآن أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ﴿ حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾. وهذا النوع من القسم يدل على غاية تعظيم القرآن وعلو قدره ومنزلته.

إن حديث القرآن عن القرآن على هذا النحو يدعو إلى الاستمساك به وحسن مصاحبته واتباعه، ومن أجل ذلك أنزل، ومن أجل ذلك حُفظَ. والأمة التي تعي ذلك تقيم عليه روابطها، وتُنشِّئ على مأدبته أبناءها وتحسن اتباعه في كل شأن من شئونها. فتعتصم به ولا تتفرق، وتحتكم إليه وتحذر كلّ الحذر أن تُفْتن عنه، فإن من فتن عنه حوسب عليه ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾(٩٢٨).

إن كل آية من هذا القرآن العظيم ستأتي يوم القيامة لتسأل عن فريضتها وتحاجّ من خالفها أو أعرض عنها، كما قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول علمتُ، فلا تبقى آية في كتاب الله آمرةٌ أو زاجرةٌ إلا وتسألني فريضتها، تسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ وتسألني الزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع».

إنه حجة لك أو عليك.

فهل يعي المسلمون حديث القرآن عن إنزاله في ليلة القدر. وما يعنيه من حرص عليه وتمسك به، وألا يشغلوا عنه بأي شاغل من حظوظ أنفسهم وزينة

---

(٩٢٨) سورة المائدة: ٤٩.

حياتهم؟ ذاك ما يجب أن يكون، ولا يصح أن يشغلوا عنه بما يجمعون ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٩٢٩) ذاك هو القرآن فضل من الله ورحمة.

فهل يشغل المسلمون بما يجمعون أو يشرفون بفضل الله ورحمته فيستمسكون بالقرآن ويعتصمون؟ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾(٩٣٠).

١٨٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته الآيات من سورة البينة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾(٩٣١).

من المعلوم أن الدين في أصله واحد، فما بعث به الأنبياء من قبل هو ما بُعِثَ به خاتمهم ﷺ.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ دين واحد شرعه الله ووصى به جميع رسله وأنبيائه، وأمرهم أن يقيموه ولا يتفرقوا فيه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾(٩٣٢) وقد جاء القرآن بالقول الفصل في شأن الرسل وما أرسلوا به.

---

(٩٢٩) سورة يونس: ٥٨.

(٩٣٠) سورة الزخرف: ٤٤.

(٩٣١) سورة البينة: ١ ـ ٥.

(٩٣٢) سورة الشورى: ١٣.

وقد حُفظ هذا الذكر لتبقى الحقيقة للأجيال كلِّها محفوظة بحفظ الله .
الحقيقة كما جاءت من عند الله ، جاءتهم بيِّنةً واضحة في كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وخوطِّب بها الناس جميعًا ومنهم أهل الكتاب ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٩٣٣) .

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

الناس جميعا في حاجة إلى هذه الرسالة سواء أهل الكتاب الذين عرفوا من قبل ثم حرَّفوا ما عرَفُوا أو المشركون في جزيرة العرب وغيرهم .

وما كانوا جميعا لينفكوا عن الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة على يد رسول يتلو صحفا مطهرة هي هذا القرآن وما فيه من حقائق وموضوعات قيمة . جاء هذا الرسول بالبينة في وقت كان الإنسان فيه قد نسي خالقه فنسي نفسه ومصيره وفقد رشده وأشرك بربه .

وقد أشار القرآن الكريم إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى . من ذلك قوله عن اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٩٣٤) .

وقوله عن اليهود ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾(٩٣٥) .

---

(٩٣٣) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٩٣٤) سورة التوبة : ٣٠ .

(٩٣٥) سورة المائدة : ٦٤ .

وقوله عن المشركين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾(٩٣٦).

إن الرسل جميعا قد دَعَوا إلى هذا الأصل الخالد، عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، لذا فإن القرآن الكريم قد أنكر على الذين انحرفوا بهذا الأصل ونسبوا انحرافهم إلى الدين ظلما وزورًا.

والقرآن الكريم في إنكاره هذا الانحراف في الدين الذي أرسل به الرسل جميعا إنما يرد الناس جميعا إلى وحدة صادقة في ظل توحيد خالص لا يتخذ الناس فيه بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

وسيظل هذا النداء الذي يُتْلى على الناس بلا انقطاع حُجَّةً بيِّنةً على من أبى أو خالف وأعرض ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝﴾(٩٣٧) نداء بارٌّ منصفٌ عادل يسوِّي بين العباد ولا يفرق، ويدعوهم جميعا إلى الإنصاف والعدل في أمرٍ يتوقف عليه العدل فيما بينهم. فلا يبغي بعضهم على بعض وربُّهم واحد، ومَصيرهم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب.

نداء القرآن المتكرر بذلك ودعوته للناس جميعا أن يستجيبوا لنداء ربهم وأن يتراحموا فيما بينهم وأن يعدلوا في قولهم وفعلهم، كل ذلك وغيره قد جاءت به بينة هذا الكتاب، فقد تبين بذلك الطريق المستقيم واستبان مصير الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون.

---

(٩٣٦) سورة الكافرون.

(٩٣٧) سورة آل عمران: ٦٤.

ولهم أن يختاروا لأنفسهم على علم وبينة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ (٩٣٨).

تلك بينة هذا الكتاب وهذا بيانه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ وبه قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين .

فماذا ينقم هؤلاء وأولئك على المسلمين؟

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (٩٣٩).

ماذا ينقم هؤلاء على المسلمين ؟ وماذا ينكرون؟

أينكرون عليهم أنهم يؤمنـون بالكتاب كلّه ويدعون كمـا أمرهم الله إلى كلمة سواء ؟ ﴿**ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخـذ بعضُنا بعضا أربابًا من دون الله**﴾ وما يـؤمنون به وما يـدعون إليه قـد أرسل به الرسل جميعا ودعَـوْا إليه وهم جميعا يبرءون من كل من خالف ذلك وأشرك بالله .

إن ما يدعون إليه ويؤمنـون به هو سبيل الأمن والسلام للخلق جميعا . الأمن والسلام الـذي تنتفي معه عصبية الـدم واللون والجنس ، وتقوى أخـوة الإيمان والإيثار والحب .

إن هذه العقيـدة البارَّة التـي ينادي بها هـذا الكتاب تحتضـن الوجـود كلَّه . والكون كلُّه يُرحِّب ويشهد بجلالهـا ، ويشاركه في الترحيب بها الفكر المتأمل والقلب المبصر والفطرة الهادية .

---

(٩٣٨) سورة البينة : ٦ ـ ٨ .

(٩٣٩) سورة المائدة : ٥٩ .

فماذا يبغون إذا لم يستجيبوا لنداء الإنصاف والعدل؟ إذا لم يستجيبوا لنداء رب العالمين فماذا يبغون؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٩٤٠).

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه. واهدنا في جميع أمورنا إلى صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ.

---

(٩٤٠) سورة آل عمران: ٨٣.

الفهرس

الصفحة